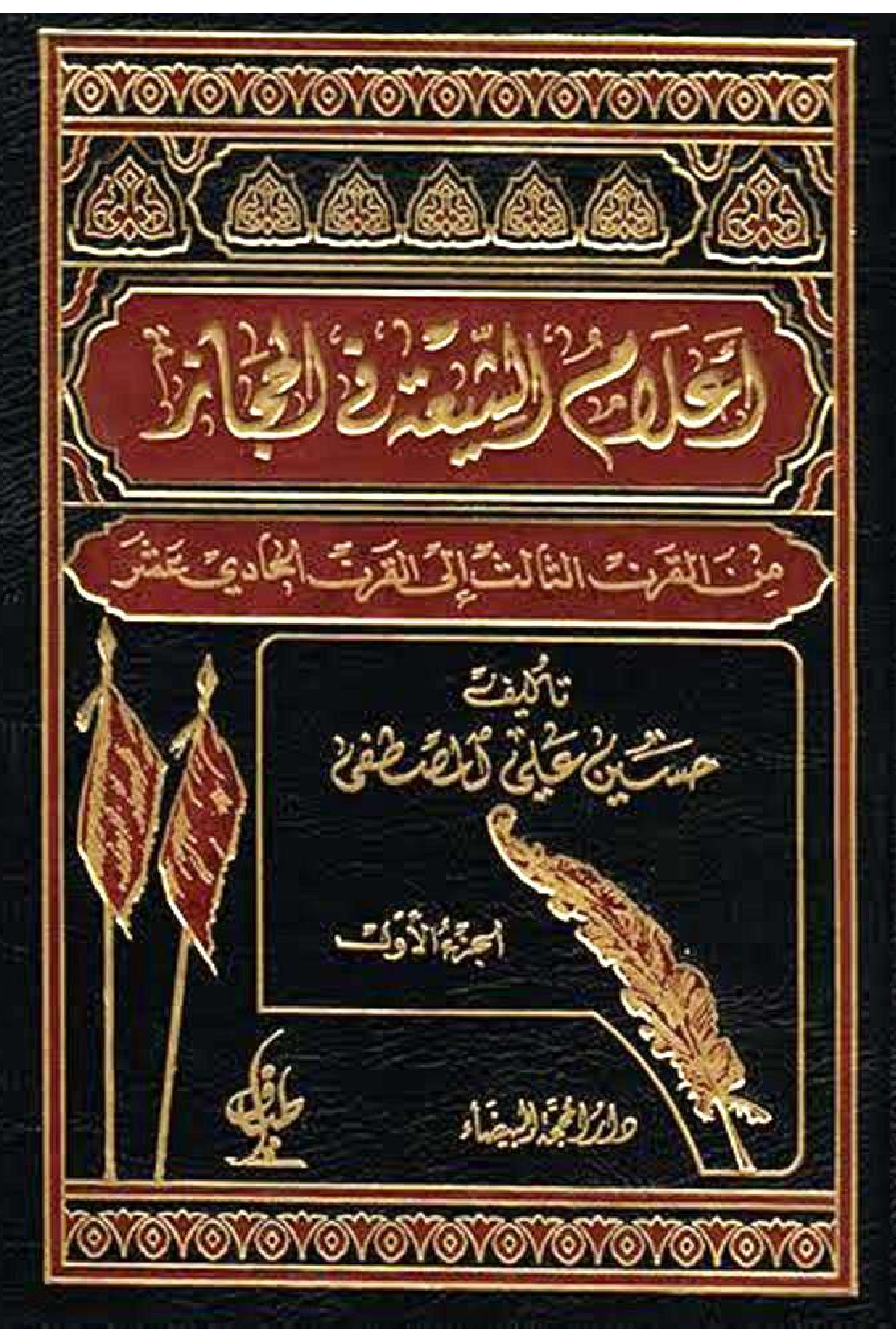

أعلام الشيعة في الحجاز
من القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر
تأليف
حسين علي آل مصطفى
الجزء الأول
دار المحجة البيضاء

أعلام الشيعة في الحجاز

من القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر

١

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

ISBN 978-614-426-694-6



أطياف للنشر والتوزيع
هاتف/ فاكس : ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٠٩٦٦
جـــــوال : ٠٥٠٥٨٦٨٧٧١ ٠٩٦٦
القـطيف - شـارع القـدس
ص. ب : ٦١٢١٥ القطيــف ٣١٩١١
المملكــة العربيـــة السعوديـــة
E mail: atyaf pd@hotmail.com



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

أعلام الشيعة في الحجاز

من القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر

تأليف

حسين علي المصطفى

الجزء الأول



دار المحجة البيضاء







مقدمة

تميزت منطقة الحجاز بمسألتين شديدتي الخصوصية على المستويين الجغرافي والتاريخي:

الأولى: أنّها -على المستوى الجغرافي- أرض صحراوية؛ قاحلة ونادرة المياه فلم تغزِ أي قوة عسكرية في التاريخ الإنساني لاحتلالها؛ ومن ثم ظلت الأرض الحجازية بكراً وسراً مكنوناً لاستشراف دعوة السماء الأخيرة.

والثانية: لم يكن في الحجاز سلطة سياسية -بالمعنى السياسي المعروف- فظل الحجازيون أحراراً لا يدينون لأي سلطة قامعة؛ اللهم إلا الولاء للقبيلة؛ ولكن لم يكن ذلك الولاء بالذي يُغني عن الولاء لدولة.

لقد اعتبر الحجازيون أنفسهم أحراراً حتى داخل إطار الدولة الإسلامية، فقد ترك لهم حرية الاختيار المذهبي؛ وكانت أي سلطة تفرض نفوذها على الحجاز تكتفي بالولاء السياسي لجذب الشرعية؛ أما الولاء المذهبي فلم يكن يعني السلطة الحاكمة.

ومن المعلوم أنّ مَن يملك الحجاز -قديماً وحديثاً- يملك قلوب المسلمين أيضاً؛ يقول المؤرخ اليعقوبي -مثبتاً هذه النظرية على الصعيد السياسي-: «إنّما تحق الخلافة لمن كان الحَرَمان في يده، ولمن أقام الحجّ للناس»[١].

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٦٩.

ومن هذا المنطلق نلاحظ أنّ عبد الملك بن مروان كان يحاول أن يخالف نهج سلفه من الأمويين، ويقوم بتعديل السياسة المروانية على الحجاز؛ ضماناً لثباتها، وإبعادها عن كل ما يؤثر على علاقته بالدولة الأموية، وتطويق الأسباب المشجعة على التمرد والثورة.

ولهذا قام بالتودد لبني هاشم -زعماء المعارضة التقليدية للأمويين- فأرسل كتاباً إلى عامله على المدينة، الحجّاج بن يوسف الثقفي، كتب فيه: «أما بعد فجنبني دماء بني عبد المطلب؛ فإنّي رأيت آل أبي سفيان لما ولغوا فيها لم يلبثوا بعدها إلا قليلاً والسلام»[١].

وقام أيضاً بردِّ صدقات الرسول ﷺ، وصدقات علي عليه السلام، إلى حفيده الإمام علي بن الحسين زين العابدين[٢].

ومن تلك الخصوصية، اعتبر الحجازيون أنّ فرض أي مذهب أو لون هو يخالف الخصوصية الحجازية؛ لأنّ الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) يستقبل المسلمين من جميع البلاد بمذاهبهم ومشاربهم المختلفة؛ ومنهم من لا يعود إلى بلده مرة أخرى بعد أن يعتبر الحجاز وطنه[٣].

---

(١) عوالم العلوم: ص ١٧١؛ الإشراف في مناول الأشراف: ص ٢٤٥ الحديث ٣٢١؛ خاص الخاص للثعالبي: ص ٦٦، الصواعق المحرقة: ج ٢ ص ٥٨٣.

(٢) الإرشاد: ج ٢ ص ١٥٠؛ عوالم العلوم: ص ١٧٢؛ بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ١١٩.

(٣) لقد ظل هذا الوضع سارياً حتى انفرد السعوديون بالحجاز ورفضوا أي مذهب آخر يسود فيه؛ وقاموا بملء الحجاز بالوهابيين من نجد وجيزان للحياة والسكن والدعوة للمذهب الوهابي وقمع أي فكر مخالف بالسجن والترويع والتشويه الفكري والديني.

قال عبدالله بن حسن بن فضل أمير ظفار العلوي الحسيني الحجازي تحت عنوان: هجوم الوهابية على الحجاز سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م: «بينما العالم الإسلامي يطبب كلومه مما أصابه من جراحات الحرب العالمية الأخيرة، ويهتم بجمع شمله، ونظم ما تبعثر من أمره، بينما هو منهمك فيما يصون حياته من الأخطار باتحاد أجزائه وضم جماعاته، إذ فاجأه الوهابيون بالهجوم على أرض الحرمين، فأراعوهما بغاراتهم، فسفكوا فيهما الدماء البريئة، وهدّموا المقامات الشريفة، وارتكبوا من الفظاعة أقصاها، ومن الوحشية أقساها، مما تقشعر

وتميزت بعض الفترات في الحجاز عموماً وفي المدينة المنورة على وجه الخصوص بظهور وبقاء المذهب الشيعي (الجعفري)، وتعتبر الحجاز أول أرض بذرت فيه بذرة التشيع، لا كما يتوهمه الكثير من أنّ التشيع ظهر في أرض فارس.

ولكن في القرن الرابع الهجري انتشر التشيع بصورة ظاهرة في المدينة المنورة؛ حيث استولى الأشراف الأخيضريون[1] (الشيعة) على الحجاز (٣٣٥-٣٥٠هـ/ ٩٤٦-٩٦١م)، وأصبحت حكومة الأشراف الحسينيين هي السائدة على مدينة الرسول ﷺ حتى أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

وبعد أن خضعت مصر للنفوذ الفاطمي (العبيدي) سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م[2]، أُلحقت الحجاز بها إدارياً. حيث بدأ اهتمام الفاطميين ببلاد الحجاز منذ خلافة المعز لدين الله الفاطمي الذي استطاع أن يبسط نفوذه على تلك البلاد، حينما

منه الأبدان وتدمى منه قلوب أهل الإيمان، فإنهم قتلوا في بلدة الطائف وحدها ما يقرب من ألفي مسلم بينهم العلماء والصلحاء والنساء والأطفال، وقتلوا العالم الفاضل النسيب السيد عبد الله الزواوي بصورة ما سبق لها مثال في الشناعة والقسوة، فقد ربطوا رجلي المشار إليه بجواد ثم تركوه يعدو وذلك العالم المسن يتقلب وراءه حتى تقطعت أوصاله. وقتلوا جملة من بني شيبة سدنة الكعبة كانوا مصطافين في الطائف » انظر: صدق الخبر في خوارج القرن الثاني عشر، للشريف عبد الله بن حسن بن فضل أمير ظفار العلوي الحسيني الحجازي: ص ١٤٧.

(١) الأخيضريون؛ نسبة إلى الدولة الأخيضرية التي تأسست في إقليم اليمامة، في شرق نجد عام ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م على يد محمد بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. قدم إلى اليمامة من الحجاز سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م، بعد فشل ثورة أخيه الأصغر إسماعيل ضد العباسيين في مكة وجدّة، فأقام الدولة الأخيضرية في الخضرمة في منطقة الخرج الحالية، جنوب شرق الرياض. ثم بسط نفوذه على غالبية إقليم اليمامة، خصوصاً المنطقة الممتدة من الخرج جنوباً وحتى منطقة وادي قرّان (شعيب حريملاء حالياً) شمالًا. وقد مرّ الرحالة الفارسي ناصر خسرو بأراضيهم في القرن الخامس الهجري فوصف عاصمتهم الخضرمة بالقوة والمناعة، ووصف المنطقة بأنها مزدهرة في فصل الشتاء، وكما وصف أمراء المنطقة بأنهم علويون، يتبعون المذهب الزيدي، ويقولون: « محمد وعلي خير البشر » في أذانهم.. انظر نسبهم في كتاب عمدة الطالب: ص ١١٣-١١٥.

(٢) الدرر المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية: ص ١٢٠.

استولى حسن بن جعفر الحسني على مكة، ودعا للخليفة المعز على منابرها؛ فقلّده المعز الحرم وأعماله، وعمل المعز على تدعيم سلطته على مكة والمدينة، وسعى إلى بسط سيطرته على سائر بلاد الحجاز[١].

ولتأكيد سلطة الفاطميين عليها أنفذ المعز لدين الله الفاطمي عسكراً وأحمال مال -عدتها عشرون حملاً- للحرمين، وعدة أحمال متاع، وذلك في ذي القعدة سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م[٢]، وعيّن طاهر بن مسلم الحسيني على أمرة المدينة النبوية سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م وفي سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م بدأ يخطب للفاطميين (العبيديين)، ومنذ ذلك الوقت بدأ المذهب الشيعي ينتشر، وولي القضاء والإمامة والخطابة أشراف المدينة ممن تبعه على هذا المذهب.

وكان للتوافق المذهبي بين أمراء المدينة الحسينيين والخلفاء الفاطميين، أثره في ولاء أشراف المدينة للفاطميين؛ حيث كان أمراء المدينة على مذهب الشيعة الإمامية فيما كان الفاطميون على المذهب الإسماعيلي.

واستمرت إمرة المدينة شيعية تحت إمرة بني مهنا، التي كانت لهم الإمرة في الحكم والقضاء، وهم ينتسبون إلى أبي عمارة المهنا بن داود الذي كان من عقبه عبدالوهاب جد قضاة الإمامية من بني سنان[٣].

وفي العهد الأيوبي ظلت الأحوال الدينية المذهبية في المدينة على سابقتها في العصر الفاطمي دون تغيير يذكر، غير أنّ تغييراً أساسياً قد حدث في أحوال المدينة

(١) ظلت الخطبة باسم الخليفة المعز في كل من مكة والمدينة حتى توفي سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، وخلفه ابنه العزيز فانقطعت الخطبة له في بلاد الحجاز، فأرسل العزيز إدريس بن زيدي النهاجي أميراً على الحج سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، فاستولى على الحرمين وأقام الخطبة باسم العزيز، إلا أنّ نفوذ الفاطميين لم يستقر في مكة والمدينة طوال عهد العزيز؛ فقد دعا أمير حُجّاج العراق لـ«عضد الدولة بن بويه» وهو ما اضطر العزيز إلى إرسال حملة إلى الحجاز، وانتهى الأمر بإعادة الخطبة للعزيز على منابرها.

(٢) اتعاظ الحنفا، للمقريزي: ص ٢٢٥.

(٣) تاريخ العيني، بهامش ابن الأثير: ج ١ ص ٦١.

الدينية منذ أن تبوأ المماليك[١] مقاليد السلطة في مصر وأصبح لهم الإشراف على الحرمين الشريفين.

إمارة المدينة المنورة:

ظهرت في المدينة المنورة في عام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م إمارة للحسينيين في الوقت الذي ظهرت فيه إمارة للحسنيين في مكة المكرمة. وذلك لما كثر خروج العلويين على الخلافة العباسية ومطابتهم بما يرونه حقاً لهم. فأرضوهم بإمارتي مكة والمدينة ليأمنوا جانبهم.

أول من تولّى إمرة المدينة هو الشريف طاهر بن محمد بن طاهر بن الحسن بن طاهر بن يحيى، الملقب بـ« المليح »؛ حيث قدّمه الحسينيون على أنفسهم، واستقل بالإمارة سنين عديدة، وتوفي سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م.

وبعد ذلك تولّى الإمارة عدد من أبنائه وأحفاده وأبناء عمومته ممن ينتسبون إلى عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين. وانهارت هذه الإمارة في حدود سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م، وتوزع الحسينيون على بقاع الأرض.

المذاهب الفقهية:

كان المذهب السائد المعمول به في الأحكام في المدينة، في العصرين الفاطمي والأيوبي، وأوائل العصر المملوكي؛ هو المذهب الشيعي الإثنا عشري أو (الإمامي الجعفري). حتى أنّ ابن فرحون يروي، عن عبد الله بن عمر الخراز، عن جده لأمّه أبي بكر بن يوسف المحوجب النجار[٢] حين قدم المدينة لأول مرة

---

(١) انظر: الملحق (٣).

(٢) هو أبو بكر بن يوسف المحوجب العسقلاني الأصل المصري، كان نجاراً، ولد سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، وقدم المدينة سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م مرسلاً من السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، ومعه المنبر المجدد للحرم النبوي، توفي سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م. أنظر: الدرر الكامنة: ج ١ ص ٥٠٣.

سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م، لم يكن بها من يتسمى باسم أبي بكر أو عائشة، فقرر أن يغيّر اسمه ثم عدل عن ذلك[١].

لقد كان للتطورات السياسية في مصر أثر في انتشار المذاهب الشيعية في الحجاز؛ وبخاصة في مدنها الرئيسية مثل مكة والمدينة وينبع، فمنذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، استولى الفاطميون كما تقدم على مصر، وحاولوا مد نفوذهم السياسي والمذهبي على الحجاز، حينما قدم طاهر بن مسلم الحسيني من مصر إلى المدينة فولّاه أهلها إمارة المدينة سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م[٢].

وفي فترة زمنية لاحقة -أي في سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م- بدأ يخطب للخليفة الفاطمي المعز لدين الله[٣]، ولا نعرف إن كان بمبادرة من نفسه، أم كان إذعاناً لطلب من الخليفة الفاطمي، وبدأ المذهب الشيعي الإمامي في الانتشار منذ تلك الفترة رغم أنّ الفاطميين كانوا إسماعيلية المذهب.

أدّى قصر إسناد منصب القضاء والخطابة والإمامة على فقهاء من الشيعة إلى انتشار المذهب الإمامي الإثنا عشري خلال العصرين الفاطمي والأيوبي، وخاصة بين أشراف المدينة والعامة من سكانها[٤].

وقد تعززت مكانة هذا المذهب برعاية واهتمام أشراف المدينة وحث الناس على اعتناقه[٥]، ووصلت قوة هذا المذهب ذروتها بقدوم أسرة القيشاني من العراق؛ حيث يذكر المؤرخ ابن فرحون بأنّ المدينة «لم يكن بها من يعرف مذهب الإمامية الاثني عشرية حتى جاء القيشانيون من العراق؛ وذلك أنهم كانوا أهل مال عظيم،

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ١٦٩.
(٢) جمهرة أنساب العرب، لابن حزم: ص ٥٥، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٩٨، وتاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٢.
(٣) اتعاظ الحنفاء، للمقريزي: ص ٢٢٥، والتحفة، للسخاوي: ج ٢ ص ٢٥٧.
(٤) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٠٨.
(٥) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١١.

فصاروا يؤلفون ضعفة الناس بالمال ويعلمونهم قواعد مذهبهم، ولم يزالوا على ذلك حتى ظهر مذهبهم وكثر المشتغلون به، وعضده الأشراف في ذلك الزمان، ولم يكن لهم ضد، ولا في مصر ولا في الشام من يلتفت إليهم... »[١].. غير أنّ ابن فرحون لم يحدد الفترة التي قدمت فيها هذه الأسرة إلى المدينة.

ورغم أنّ ابن فرحون لم يحدد الفترة الزمنية التي قدمت فيها أسرة القيشاني إلى المدينة، إلا أنه من الواضح أنّ فقهاء هذه الأسرة قد عملوا على تعزيز مكانة هذا المذهب بالترغيب والتقرب من قلوب العامة[٢].

وفي العصر الأيوبي أدّى انشغال السلطان نور الدين زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي بأمر الجهاد ضد الصليبين، إلى بقاء الوضع المذهبي على سابقه في العصر الفاطمي؛ من حيث انتشاره وتعزيز مكانته[٣].

وقد وضح مدى تحكم فقهاء الشيعة الإمامية في أمور المدينة الدينية فيما ذكره الرحالة ابن جبير[٤]، الذي وصل إلى المدينة المنورة سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، أي في عصر صلاح الدين الأيوبي، وشاهد في المسجد النبوي أموراً منكرة يمارسها خطيب وإمام الحرم ووصفه بأنه على مذهب غير مرضي؛ ويقصد بذلك مذهب الشيعة الإمامية، ورغم سيطرة فقهاء الشيعة على أمور القضاء، والخطابة، والإمامة في المدينة خلال العصر الأيوبي؛ فقد ذكر أنّ لأهل السنَّة إماماً يصلّي بهم الصلوات فقط، وكان السلطان بعد ذلك يبعث مع الحاج شخصاً يقيم لأهل السنَّة الخطابة والإمامة إلى نصف السنة، ثم يأتي غيره مع الرجبية إلى ينبع[٥].

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١١، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣١٢.
(٢) ويذكر العياشي أنّ أغلب العامة فلاحون يطلق عليهم النخاولة، انظر: رحلة العياشي: ص ١٦ و ص ٢١١-٢١٢.
(٣) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٢.
(٤) رحلة ابن جبير: ص ١٧٩-١٨٠.
(٥) التحفة، للسخاوي: ج ٣ ص ٣١٤.

كما كان في العصر الأيوبي فقهاء من السنَّة، مقيمين بالمدينة، من أسرة تُدعى «المجد»، وكانت علاقة هذه الأسرة مع أشراف المدينة غير مستقرة على حال، فأحياناً تكون العلاقة وثيقة مثل علاقتهم بإمام الحرم من هذه الأسرة واسمه محمد، و« كان معظَّماً عند الشرفاء، محبباً إليهم، وقد مَلَك أملاكاً أصلهم من تمليك الشرفاء له، كأثارب وغيرها »[١].

ويتضح من ذلك أنّ أشراف المدينة أغدقوا على إمام الحرم من أهل السنَّة، ومنحوه أملاكاً، إلا أنّ العلاقة لم تلبث أن تغيرت مع ذريته أو أبنائه من الأئمة، فيشير ابن فرحون إلى « أنهم أقاموا في منصبهم مستضعفين، يجنيهم الشرفاء، ويؤذونهم، فارتحلوا بأولادهم، وتركوا أملاكهم. وكنت أسمع من كبار أهل المدينة، أنّ الشرفاء بعثوا إليهم، وأمّنوهم على أن يرجعوا إلى المدينة، فلم يفعلوا حتى أُخذت أملاكهم وتُملّكت »[٢].

وممن تعرضوا لمضايقة أمراء المدينة -من علماء السنَّة- أيضاً أسرة «النظام»؛ الذين ملكوا أملاكاً بالمدينة غير أنهم اضطروا لتركها والارتحال عن البلاد؛ نتيجة تعرضهم للمضايقات والاضطهاد على يد فقهاء المدينة والأشراف، وبالمدينة موضع يسمى النظامية منسوب إليهم[٣].

غير أنّ هذه العلاقة المتذبذبة التي ربطت أشراف المدينة بفقهاء السنَّة يثير تساؤلاً حول قضية التشيع لديهم، فالسياسة العملية التي تحكم العلاقة بين أمراء المدينة من الأشراف والسكان، وبخاصة أهل السنَّة، هي الإحسان إلى فقهاء السنة لإحداث نوع من التوازن في السياسة الداخلية.

وكانت الخطابة والقضاء بأيدي آل سنان بن عبد الوهاب بن نميلة، وكان عبدالوهاب بن نميلة أول من تولّى القضاء والخطابة من هذه الأسرة الحسينية[٤]،

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص .
(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص .
(٣) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص .
(٤) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ١١٣ .

وخلفه في منصبه في القضاء والخطابة ابنه شمس الدين سنان[١]، وخلفه في مناصبه أبناؤه: نجم الدين مهنا بن سنان[٢]، وعلي بن سنان[٣]، وعيسى بن سنان[٤]، وقاسم بن سنان[٥]. ومن فقهائهم أيضاً حسن بن سنان قاضي الإمامية في إمارة طفيل بن منصور على المدينة ٧٢٨-٧٥٠هـ/ ١٣٢٨-١٣٤٩م[٦].

وكان القضاء منحصراً في أسرة آل سنان من عبد الوهاب بن المهنا[٧].

قال السخاوي: «وآل سنان يحكمون في بلادهم في جماعتهم على عادتهم، بل ومن دعا من أهل السنَّة إليهم. أمرُ الحبس راجعٌ إليهم، والأعوانُ تختص بهم. والإسجالات تثبت عليهم، والسراجُ[٨] يستعين بأعوانهم وحبسهم. ودام نيفاً على أربعين سنة»[٩].

وقال العسقلاني في (الدرر الكامنة): «كانت الخطابة والقضاء بالمدينة المنورة مع آل سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني إلى أن ولّى المنصور قلاوون الخطابة بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر بن أحمد الأنصاري المصري، فقدمها سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م، فانتزعها من أيدي الرافضة، ثم جاء تقليده من الناصر بولاية القضاء، فأخذ الخلعة وتوجه بها إلى الأمير منصور بن جماز، وقال له: جاءني مرسوم سلطاني بكذا وأنا لا أقبل حتى تأذن، فقال: رضيت بشرط أن لا تتعرض لحكَّامنا ولا لأحكامنا، فاستمر على ذلك، وبقي آل سنان على حالهم وغالب

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١١، والتحفة للسخاوي: ج ٢ ص ١٩٥-١٩٦.
(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٠٩.
(٣) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٢، والتحف للسخاوي: ج ٣ ص ٢٢٢.
(٤) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٣٨٢.
(٥) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٤٠٠.
(٦) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٢١، والتحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٢٥٨-٢٦٠.
(٧) خاتمة المستدرك: ج ٢ ص ٣٣٩.
(٨) وهو: سراج الدين عمر بن أحمد الأنصاري المصري، المعيَّن من قبل المنصور قلاوون سنة ٦٨٢هـ/ ١٣٨٣م.
(٩) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: ج ١ ص ٢٨.

الأمور الأحكامية مناطة بهم حتى الحبس والأعوان والاستجلاب»[١].

غير أنّ الأوضاع المذهبية في المدينة بدأت في التحول التدريجي لصالح أهل السنَّة ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع الهجري، ففي سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م، أخذت الخطبة من آل سنان خطباء وأئمة وقضاة الإمامية، وأُسند أمرها لأحد علماء السنّة الذي قدم من مصر لهذا الغرض وهو سراج الدين عمر بن أحمد الأنصاري الدمنهوري الشافعي، وقد واجه في بداية توليه لمنصبه مصاعب من فقهاء الإمامية والعامة حتى تمكن من التغلب على تلك المصاعب بفضل حنكته وبُعد نظره، فقد «تزوج ابنة القيشاني، رئيس الإمامية وفقيهها،.. فلما صاهرهم السراج انكفَّ عنه الأذى قليلاً، وصار يخطب ويصلّي من غير حكم ولا أمر ولا نهي، ثم أُضيف إليه القضاء، وجاءه تقليد الناصر محمد بن قلاوون بذلك مع خلعة وألف درهم، وظل آل سنان قضاة على أتباعهم من الشيعة فقط»[٢].

ثم إنّ معظم المجاورين الذين وفدوا على المدينة، في العصر المملوكي، كانوا من مذاهب أهل السنَّة، وقد أخذ بعض هؤلاء المجاورين بالتتلمذ على علماء المدينة من أهل السنَّة، ونتيجة لذلك نشطت الحركة العلمية نشاطاً كبيراً في المدينة، وأخذ المذهب الشيعي الإمامي بالانحسار التدريجي، ابتداء من أواخر القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي مع بقاء أتباعه ومعتنقيه دون نفوذ يذكر.

ويعود الضعف -كما أسلفت- للإرادة السياسية لدولة المماليك، التي عملت على تعزيز مكانة أهل السنَّة في المدينة؛ بإرسال القضاة والخطباء والأئمة، فإضافة إلى دور القاضي السراج، نجد أنّ القاضي المصري شرف الدين أبي الفتح محمد الشافعي المعروف بابن الأميوطي قد تصدَّى للشيعة، وأضعف شوكتهم، وكان كما يقول ابن فرحون فيه «شدة على الأشراف..؛ سقاهم المر، وأذاقهم الصبر، وأما سطوته على الإمامية وتوبيخه لهم في المحافل، وسبهم على المنبر، فأمرٌ مشهورٌ لا

(١) أعيان الشيعة: ج ٧ ص ٣٢٠.

(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٣، والتحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٣١٥.

يحتاج إلى وصف، ولا تكاد السنين تبيد ذكره. وكان إذا قام في الأمر لا يرجع عنه ولو خُوِّف في عاقبته»[١]، غير أنّ المذكور لم يستطع مع ذلك أن يعزل قضاة الإمامية عن منصب القضاء في المدينة.

كما شارك بعض المجاورين في التصدي لمذهب الإمامية، ومحاولة إضعافه، ومن هؤلاء الصاحب زين الدين أحمد بن محمد بن علي المعروف بابن حنا المصري؛ الذي تصدّى لفقهاء الشيعة وقضاتهم من آل سنان والقيشانيين، فهابوا -كما يقول ابن فرحون- «مكانه من السلطان، وأذعنوا، واستعملوا التقية»[٢].

من دراسة الأحوال السياسية والمذهبية، يتضح أنّ أغلب الحسينيين في المدينة من أمرائها وأعيانها كانوا إمامية المذهب، غير أنّ بعضهم مال إلى مذهب أهل السنة، وعمل على إعادة النشاط إليهم، وتمكينهم في بعض فترات ضعفهم، ومن هؤلاء أمير المدينة سعد بن ثابت بن جماز، الذي تولّى منصب الإمارة سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م فقد وصف بأنه «كان في دولته من أحسن الأمراء سيرة، شجاعاً وافر الحشمة، ناصراً للسنّة قامعاً للبدعة، متخلقاً بذلك مستجلباً به رضي السلطنة»[٣]، ويتضح من ذلك؛ أنه إضافة لميل أمير المدينة لأهل السنّة فإنّ تلك السياسة التي اتبعها كانت رغبة أيضاً في إرضاء السلطة المملوكية التي تدعم أهل السنّة، وربما ينظر لهذا التوجه رغبته في الاحتفاظ بمنصبه، وارتباطه بعلاقة ودية مع السلطة المملوكية في القاهرة، كما نلاحظ اقتصار القضاء على شخص واحد هو القاضي الشافعي، وحتى عقود الأنكحة فوَّض أمرها لأهل السنَّة، خلافاً لما كان عليه الأمر حين مجيء السراج خطيباً وقاضياً أواخر القرن السابع الهجري، حيث كانت أحكام الشيعة وعقود أنكحتهم منوطة بفقهائهم، حيث أمر الشريف سعد بأن «ينادى في المدينة وأسواقها جهاراً نهاراً، أن لا يحكم في المدينة إلا القاضي

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٧.
(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٧.
(٣) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٤، والتحفة للسخاوي: ج ١ ص ٢٤١.

الشافعي، ومن فعل فقد وطن جرفاً منهاراً»[١].

ويلاحظ من دراسة انتشار المذاهب في المدينة، بعد قيام الدولة المملوكية، وعلى وجه الخصوص في النصف الثاني من القرن السابع، نجد أنّ المذهب الشافعي بدأ يقوى على حساب المذهب الشيعي الإمامي، فأصبح أتباع المذهب الشافعي يمثلون نسبة ٤٥٪ تقريباً، يليهم أتباع المذهب الشيعي ٤٠٪ تقريباً، ثم الحنبلي ١٠٪ تقريباً، ثم المذهب المالكي ٥٪ تقريباً، ولم نجد للمذهب الحنفي أتباعاً خلال تلك الفترة.

أما في القرن الثامن الهجري فقد تعزز المذهب الشافعي، وازداد قوة على حساب المذاهب الأخرى، حيث أصبح يمثل نسبة ٤٥٪ تقريباً، يليه المذهب المالكي ٢٥٪ تقريباً، ثم المذهب الشيعي الإمامي ١٥٪ تقريباً، ثم الحنفي ١٠٪ تقريباً، وأخيراً الحنبلي ٥٪ تقريباً.

ويلاحظ بدء انحسار نفوذ المذهب الشيعي الإمامي خلال القرن الثامن الهجري نتيجة جهود السلطنة المملوكية، وفقهاء المذاهب الأخرى، والمجاورين؛ ابتداء من نزع الوظائف الدينية منهم، وانتهاء بنشر تدريس فقه مذاهب أهل السنّة في المساجد والمدارس والأربطة.. وفي العقد الثاني من القرن الثامن الهجري بدأ المذهب الحنفي في الانتشار، ونتيجة لذلك نجد تغييراً كبيراً لصالح مذاهب أهل السنَّة.

وفي القرن التاسع الهجري نجد استحواذ أتباع المذهب الشافعي على نسبة ٥٠٪ تقريباً، يليهم المذهب المالكي ٢٠٪ تقريباً، ثم الحنفي ٢٠٪ تقريباً، ثم الإمامي ٨٪ تقريباً، وأخيراً المذهب الحنبلي ٢٪ تقريباً.

وفي النصف الأول من القرن العاشر الهجري -والذي شهد انتهاء دولة المماليك- شكَّل الشافعية نسبة ٤٤٪ تقريباً، يليهم الأحناف ٢٨٪ تقريباً، ثم المالكية ١١٪ تقريباً، ثم الحنابلة ١١٪ تقريباً، وأخيراً المذهب الشيعي ٦٪ تقريباً.

(١) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ١٢٦.

ومما تقدم نلاحظ أنّ المذهب الشيعي الإمامي بدأ في الانحسار التدريجي منذ النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، ومع انتهاء الدولة المملوكية في النصف الأول من القرن العاشر، نرى أنّ نفوذه قد ضعف وانحسر بصورة حادة، وربما اقتصر انتشاره بين العامة فقط.

الوظائف الدينية:

١ - القضاء في الحجاز:

كان القضاء في المدينة المنورة قبل العصر المملوكي بأيدي الشيعة الإمامية من بني سنان، وتولّى القضاء كما هي الخطابة عدد من أفراد هذه الأسرة؛ من بينهم جد الأسرة عبد الوهاب بن نميلة وخلفه في منصبه ابنه سنان[١].

كما تولّى بعض أبناء سنان منصب القضاء، ومن بينهم علي بن سنان بن عبد الوهاب بن نميلة، الذي لم يكن أحد من أهل السنَّة -في عصره- يجسر على عقد نكاح، ولا يفصل في خصومة إلا بعلمه، وبعد أن يُعطى بعض المال نظير موافقته على ذلك، فيكتب لأحد فقهاء السنَّة بأن يعقد نكاح فلان على فلانة. وكان إذا عقد في البلد عقد نكاح بغير إذنه وأمره، طلب الفاعلين لذلك وعزَّرهم وسلَّط عليهم الشرفاء[٢].

وممن تولّى من أبناء سنان القضاء أيضاً عيسى[٣]، وقاسم[٤]، ونجم الدين مهنا، والذي ذكره ابن فرحون، بأنه «كان هو القاضي في الحقيقة من بين سائر قرابته، وبه يناط الحل والعقد، وإليه ترجع محاكمات الشيعة وأنكحتهم وعقودهم، وغير ذلك»[٥].

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١١.
(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٢، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٧٨ رقم ٣٠٣٣.
(٣) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٣٨٢.
(٤) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٤٠٠.
(٥) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٠٦.

واستمر القضاء في أيدي الشيعة الإمامية من بني سنان حتى أواخر القرن السابع الهجري، أي في الفترة الأولى للعصر المملوكي.

يقول ابن فرحون: «ولقد أدركت من حكّامهم فوق عشرة من آل سنان، ومن الصفيان الذين كانوا عند رباط المعين كلهم يحكم ويفصل الخصومة، إلا أنّ الحكم كان له إذا حكم عليه القاضي من آل سنان أو يقول: ارفعني إلى الفقيه فيرفعه ولا يراجعه، وكان الفقيه علي يصلح ويسدد من غير أن يتطلع لشيء بخلاف القضاة يومئذ، ثم لم يزل أمرهم يتقاصر، وعددهم يقل، حتى مات كبارهم»[١].

وفي سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، تولّى مشيخة الخدّام بالحرم النبوي شبل الدولة كافور المظفري المعروف بالحريري، وكان يوالي المجاورين، ويحسن إليهم، ولأجل هيبته عزّ المجاورون، وقويت حرمتهم، كما كثر عددهم[٢]، فكتبوا إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون بأن يكون لأهل السنة قاض يحكم بينهم على مذاهب أهل السنة والجماعة، فأصدر السلطان المملوكي تقليده لسراج الدين عمر السويداوي الشافعي خطيب المسجد النبوي، مع خلعة وألف درهم[٣]. غير أنّ السراج لم يتولى هذا المنصب إلا بعد موافقة أمير المدينة منصور بن جماز.

غير أنّ صلاحيات القاضي الجديد كانت محدودة ومحصورة في الفصل في الأحكام بين أهل السنَّة، فيما بقيت أمور الحبس وغيرها بيد آل سنان، بل إنّ قضاة الشيعة يحكمون بين أهل السنة ممن يتقدمون إليهم[٤].

وتولّى القضاء بعده شرف الدين محمد بن محمد الأميوطي، الذي رغم شدته على الأشراف والشيعة لم يستطع أن يتعرض لقضاتهم بل كانوا يحكمون بين رعاياهم، كما كان القاضي الأميوطي يحبس في نفس الحبس الذي يحبس فيه

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٢٢.

(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٠٧ .

(٣) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٤) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٨، والتحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٣١٥.

الشيعة في ساحة القلعة[١].

وخلف الأميوطي في منصب القضاء تقي الدين عبد الرحمن ابن عبد المؤمن بن عبد الملك الهوريني القاهري الشافعي، إلا أنه لم يستمر في منصبه سوى ثلاث سنوات، فعزل سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، ثم أعيد إلى منصبه، سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م[٢].

وبين فترة عزله وإعادته إلى منصبه، تولّى القضاء البدر حسن بن أحمد القيسي، ثم تولّى بعده شمس الدين محمد بن عبد المعطي الكناني العسقلاني المصري المعروف بابن السبع، حتى عودة القاضي الهوريني إلى القضاء[٣].

وكان القاضي المذكور يستنيب في غيابه البدر عبد الله بن محمد بن فرحون، ففي سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م سافر في منصبه سيراً حسناً، مما أدّى إلى ابتعاد الناس عن قضاة الإمامية، الذين كانوا يأخذون مالاً من الأخصام ليحكموا بينهم، كما شدد على الإمامية في نكاح المتعة، ونكل بفاعلها، وحمل الناس كما يقول «على مذهب مالك، وأخمدت نار البدعة، وأظهرت نور السنَّة، وعُزّرت من تكلم في الصحابة، فلم يزد الناس إلا طاعة وإقبالاً»[٤].

وبعد وفاة القاضي الهوريني سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م[٥]، تولّى القضاء محمد بن عثمان الصرخدي الكركري الشافعي[٦]. واستمر في منصبه حتى سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م[٧]، حيث عزل وتولّى منصب القضاء شمس الدين محمد بن سليمان

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٧.
(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٨.
(٣) التحفة للسخاوي: ج ١ ص ٢٩ و٢٧١.
(٤) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٨، والتحفة للسخاوي: ج ٢ ص ١٣٧.
(٥) الدرر الكامنة: ج ٢ ص ٤٤٢-٤٤٣.
(٦) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٩، والدرر الكامنة: ج ٤ ص ١٦٥، والتحفة للسخاوي: ج ٢ ص ١٣٨.
(٧) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٩، الدرر الكامنة: ج ٤ ص ١٦٥.

الحكري المصري الشافعي[١].

إنّ أغلب من تولّى القضاء خلال تلك الفترة باشر الإمامة والخطابة أيضاً، كما أنّ جميع من تولّى القضاء جاءوا من مصر، وكانوا على المذهب الشافعي، واستمر القضاء يتولّاه قاضٍ واحد حتى سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، حيث تتحدث المصادر عن تولّي نور الدين علي بن يوسف الزرندي قضاء سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، وهو كما يقال أول قضاة الحنفية بالمدينة[٢].

ثم خلفه في قضاء الحنفية ابنه فتح الدين أبو الفتح محمد الذي استمر في قضاء الحنفية حتى سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، حين توفي القاضي المذكور، فخلفه في منصب قضاء الحنفية أخوه أبو الفرج عبد الرحمن بن علي مع حسبة المدينة[٣]، وفي رواية أخرى أنّ ولايته للقضاء كانت سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م[٤]، ثم عزل عنها سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، وأعيد إليها بعد ذلك حتى وفاته سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م[٥]، فتولى قضاء الحنفية بعده النور أبو الحسن علي بن محمد بن علي الزرندي، ثم تولاه أخوه النجم يوسف[٦].

ثم اعتزل، فخلفه ابن عمه فتح الدين أبو الفتح محمد بن عبد الوهاب بن علي ابن محمد بن علي الزرندي[٧]، ثم خلفه ابنه سعد الدين سعد[٨]، ثم أخوه الجمال سعيد[٩]،

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٢٠، والدرر الكامنة: ج ٤ ص ٧١، والتحفة للسخاوي: ج ١ ص ٣٠ و ج٣ ص ٤٣٣.
(٢) السلوك: ج ٣ ص ١٩٣، والتحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٢٧٧.
(٣) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٥١٩.
(٤) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٥١٩.
(٥) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٥٢٠-٥٢١، والضوء اللامع: ج ٥ ص ٣٢٧.
(٦) التحفة للسخاوي: ج ١ ص ٥٨، والضوء اللامع: ج ١٠ ص ٣٣٢.
(٧) التحفة للسخاوي: ج ٣ ٦٥٨٣، والضوء اللامع: ج ٨ ص ١٣٥.
(٨) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ١٣٧، والضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٥٣.
(٩) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ١٥٦-١٥٧، والضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٥٦.

ثم ابنه النور علي بن سعيد[١]. كما أضيف منصب الحسبة إلى هؤلاء القضاة.

أما قضاء المالكية فأغلب من تولاه أفراد من أسرة ابن فرحون، وأول من تسلمه البدر عبد الله بن فرحون، الذي ناب في قضاء المدينة عن التقي عبد الرحمن بن عبد المؤمن الهوريني، كما أسلفت، ثم استقل بقضاء المالكية سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م حتى وفاته سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م[٢].

خلفه في منصبه في قضاء المالكية ابنه المحب أبو عبدالله محمد بن فرحون، واستمر في منصبه فترة طويلة، عزل في أثنائها عدة مرات، وكانت وفاته وهو في طريقه إلى القاهرة سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م[٣].

واستقر بعده في قضاء المالكية أخوه الشهاب أبو العباس أحمد بن عبدالله بن فرحون، وكان بمصر، فقدم إلى المدينة وتولّى القضاء، غير أنه لم يستمر في منصبه سوى فترة قصيرة، فقد توفي سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م[٤]. وظل المنصب شاغراً لفترة قصيرة ثم تولّاه إبراهيم بن علي بن فرحون سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م حتى وفاته سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م[٥].

ومن فقهاء هذه الأسرة الذين تولّوا قضاء المالكية في المدينة أبو اليمن محمد بن إبراهيم بن علي بن فرحون[٦]، وناصر الدين أبو البركات محمد بن محمد بن عبدالله بن فرحون[٧]، والبدر أبو محمد بن محمد بن عبدالله بن فرحون[٨]. ومن خارج أسرة ابن فرحون تولّى قضاء المالكية محمد بن علي بن معبد القدسي المعروف بالمدني، وكان

(١) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٢٢٢-٢٢٣، والضوء اللامع: ج ٥ ص ٢٢٤-٢٢٥.
(٢) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٤٠٤، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٤٠٦-٤٠٧، .
(٣) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٦١٢.
(٤) التحفة للسخاوي: ج ١ ص ١٩٤-١٩٥.
(٥) التحفة للسخاوي: ج ١ ص ١٣٢، والدرر الكامنة: ج ١ ص ٤٩.
(٦) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٤٥٦، والضوء اللامع: ج ٦ ص ٢٦٤ وج ٩ ص ١٢٧.
(٧) الضوء اللامع: ج ٩ ص ١٢٧.
(٨) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٣٩٥، والضوء اللامع: ج ٥ ص ٥٥.

مؤذّناً بالمسجد النبوي، ولي قضاء المالكية مرتين؛ الأولى سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م، والثانية بعد ذلك، ثم عزل سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م[١]، ويبدو أنّ تعيينه في هذا المنصب نتيجة خلّوه من أفراد يتولونه من أسرة ابن فرحون المالكية المذهب.

كما تولّى قضاء المالكية أيضاً كل من الجمال يوسف البساطي، وأحمد الأموي[٢]، إلا أنه في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري ظهرت في المدينة أسرة مالكية المذهب هي أسرة السخاوي، تقلد بعض أفرادها منصب القضاء وتنسب هذه الأسرة إلى شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن موسى السخاوي[٣] ويعرف بابن القصبي، وقد انتقل المذكور من القاهرة إلى المدينة سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م متقلداً منصب قضاء المالكية بها[٤]. وبعد إصابته بالفالج خلفه في منصبه ابنه خير الدين محمد سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م[٥]، أما قضاء الشافعية فقد تولاّه عدد كبير من الفقهاء، وأغلبهم من الأسر العلمية بالمدينة، فمن أسرة المطري محمد بن عبد الرحمن المطري[٦].

ومن أسرة الزرندي تولّى قضاء الشافعية محمد بن محمد بن علي الزرندي الذي ولي قضاء الشافعية بالمدينة سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م[٧]، وتعد أسرة ابن صالح[٨] أكثر الأسر العلمية في المدينة تقلداً لوظيفة قضاء الشافعية، ومن هؤلاء عبد الرحمن بن محمد بن

(١) توشيح الديباج وحلية الابتهاج، بدر الدين القرافي: ص ٢١٥.
(٢) توشيح الديباج وحلية الابتهاج، بدر الدين القرافي: ص ٢١٥.
(٣) الضوء اللامع: ج ٧ ص ١١٠-١١١.
(٤) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٥٠٨-٥١٢، والضوء اللامع: ج ٧ ص ١١٠-١١١.
(٥) الضوء اللامع: ج ٥ ص ٤٧.
(٦) العقد للفاسي: ج ٢ ص ١٠٥-١٠٦، والتحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٦٢٧-٦٢٩، والضوء اللامع: ج ٧ ص ٢٢٩-٣٠٠.
(٧) الضوء اللامع: ج ٩ ص ١٦٧.
(٨) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٥٣٣ و ج ٣ ص ٦٣٢-٦٣٣، والضوء اللامع: ج ٤ ص ١٣١ و ج ٨ ص ٣٤-٣٦ و ج ٩ ص ٨٦ وص ١٠٣، والعقد للفاسي: ج ٢ ص ٢٩٣-٢٩٤، ومعجم ابن فهد: ص ٢٣٢.

صالح الذي تقلد هذا المنصب نائباً عن قاضي الشافعية ثم استقل به سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م كما ناب عنه أخوه محمد بن محمد بن صالح في قضاء الشافعية. وممن تولّى أيضاً قضاء الشافعية من هذه الأسرة أبو الفتح محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صالح الذي ناب أولاً عن والده في هذا المنصب، ثم استقل به سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٣٧م.

ومن أسرة الكازروني[١] تولّى قضاء الشافعية الجمال محمد بن أحمد الكازروني (ت ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م) الذي تقلد هذا المنصب أكثر من مرة. كما ناب عنه في القضاء ابن عمه محمد بن عبد السلام الكازروني.

ومن أسرة المراغي[٢]؛ تولّى قضاء الشافعية مؤسس الأسرة بالمدينة أبو بكر بن الحسين المراغي، الذي تقلد هذه الوظيفة سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م، ثم عزل عنها سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م، كما ناب عنه ابنه أبو اليمن الشمس محمد في قضاء الشافعية.

أما قضاة الحنابلة بالمدينة فكانوا قلة، وأول من تولّى هذا المنصب القاضي سراج الدين عبد اللطيف بن أبي الفتح الحسني الفاسي المكي، تقلد منصب القضاء بها سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م إضافة إلى قضاء الحنابلة بمكة[٣].

ويظهر أنه بعد وفاة القاضي سراج الدين عبد اللطيف لم يعيّن قاض للحنابلة بالمدينة، إلا في سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠هـ، حيث تم تقليد المحيوي عبد القادر بن عبد اللطيف الفاسي ابن القاضي السابق، واستمر في منصبه حتى وفاته في المدينة سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م[٤].

وخلفه في منصبه أحمد بن علي بن أحمد الشيشني الأصل، القاهري، الحنبلي، الذي تقلّد منصب قضاء الحنابلة في سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م، وكانت إقامته في مكة، ويتردد

(١) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٥٠٠ وص ٦٤٢، والضوء اللامع: ج ٧ ص ٩٦ و ج ٨ ص ٥٧.
(٢) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٥٣٣، والضوء اللامع: ج ٧ ص ١٦٢ و ج ١١ ص ٢٩.
(٣) اتحاف الورى لابن فهد: ج ٤ ص ٢٩١، التحفة للسخاوي: ج ١ ص ٦٠ و ج ٢ ص ٦٨-٦٩، والضوء اللامع: ج ٤ ص ٣٣٣ والتبر: ص ٢٨١، وشذرات الذهب: ج ٧ ص ٢٧٧-٢٧٨.
(٤) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ٥١-٥٢، والضوء اللامع: ج ٤ ص ٢٧٢-٢٧٣.

في أثناء السنة إلى المدينة، واستمر قاضياً للحنابلة بالحرمين حتى سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، حيث عين قاضياً للحنابلة بالقاهرة حتى وفاته بها سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م[١].

إضافة إلى قضاة المذاهب الأربعة فقد كان هناك منصب قاضي القضاة وقد تولاه عدد من القضاة والفقهاء[٢].

ومن هؤلاء الزين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين الكردي، المصري، الشافعي، ويعرف بالعراقي الذي ولي قضاء المدينة سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م واستمر في منصبه حتى سنة ٧١٩هـ/ ١٣٨٨م حيث عزل، وأصدر السلطان المملوكي المنصور قلاوون تقليداً للقاضي شمس الدين السرسني، الشافعي، وولّاه منصب قاضي القضاة بالمدينة. ويعد ناصر الدين عبد الرحمن بن محمد بن صالح أول من تقلد منصب قاضي القضاة من أهل المدينة يقول في ذلك السخاوي « وكان أول من ولي القضاء الأكبر من أهل المدينة »[٣].

٢ - نقابة الأشراف:

نقيب الأشراف وظيفة شرفية هامة في العالم الاسلامي، وقد كان لها تأثير كبير في البيوت الشريفة وإصلاح أحوالها وتدبير شؤونها والأخذ على يد المعتدي منهم مما أدّى إلى إجلال الناس لهم واحترامهم وتوقيرهم ووضعهم في المكان الذي يليق بشرف نسبهم وكرم أصولهم، مما يعود بعظيم الفائدة على هذا المجتمع. وكان ظهور النقابة تجسيداً لحاجة أدبية معنوية ومادية، فرضتها المكانة التي يحتلها آل بيت النبي ﷺ في قلوب وضمائر الناس.

وقد عرفت البلاد الإسلامية نقابة الأشراف منذ العهد العباسي، وكان الخليفة يقيم على السادة الأشراف نقيباً في كل مدينة يكثر فيها عددهم يمثلهم؛ ويختار لها

(١) التحفة للسخاوي: ج ١ ص ٢٠٠-٢٠٢.
(٢) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٥٣٣-٥٣٤ و ص ٥٦٣-٥٦٤، والضوء اللامع: ج ٤ ص ١٣١ و ص ١٧٤، وتاريخ ابن الفرات: ج ٩ ص ١٤٥-١٤٦.
(٣) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٥٣٣.

أجلّهم بيتاً وأكثرهم فضلاً وأجزلهم رأياً؛ لتجتمع فيه شروط الرياسة والسياسة.

وكان لنقيب الأشراف في العهود القديمة شأن كبير، ودائماً ما كان نقيب الأشراف من أهل العلم والحكمة والصلاح، ولقد انشئت هذه النقابة في الأصل للعمل على صيانة ذوي الأنساب الشريفة والقيام بحقها. ولتؤدي دور المنظم والوسيط الذي يمنع وقوع ما لا تحمد عقباه.

فالعلوي لا يُحاكم إلا أمام النقيب في ديوان النقابة عندما يستوجب الأمر ذلك، كما أنّ النقابة لن تتردد في استحصال حقوق العلوي إذا هُضمت أو اُغتصبت أو سُلبت. والعلوي لا يعاقب إلا من قبل النقابة، فالنقيب هو الذي يقيم الحد عليه إذا ما ارتكب مخالفة غير شرعية أو غير قانونية. وهو الذي يحدّد نوع العقوبة «القصاص» ويأمر بتنفيذها، وله سجن خاص.

وتولّى النقابة في المدينة المنورة عدد من الأشراف نذكر منهم:

١. الحسين بن يحيى بن يحيى بن عيسى الرومي بن أبي عبد الله محمد بن علي العريضي ابن الإمام جعفر الصادق.

٢. جعفر بن الحسن بن محمد بن أحمد بن هارون ابن الإمام موسى الكاظم.

٣. أبو الحسن علي بن إدريس بن الحسين بن علي الخواري بن الحسن الثائر بن جعفر ابن الإمام موسى الكاظم.

٤. أبو علي عبيد الله بن طاهر بن يحيى النسّابة بن الحسن بن جعفر الحجة بن عبيد الله بن الحسين الأصغر ابن الإمام علي زين العابدين.

٥. محمد بن حبيب بن مسلم بن أبي الحسن موسى بن أبي العباس عبد الله بن أبي الحسين يحيى بن أبي محمد الحسن بن جعفر الحجة بن عبيد الله بن الحسين الأصغر ابن الإمام علي زين العابدين.

٧. سلطان بن حسن بن عبد الملك بن ذويب بن عبد الله بن عبد الله بن مسلم بن أبي الحسن موسى الحسيني.. قاله ابن مهنا في (التذكرة).

٨. فارس بن سلطان بن حسن الحسيني.

٩. نجم الدين علي بن حسن بن سلطان بن حسن الحسيني.

١٠. محمد بن حبيب الله بن سلطان بن نجم الدين علي بن حسن بن سلطان الحسيني.

١١. علي بن حسن بن علي بن حسين بن علي بن عرمة بن نكيتة بن توبة بن حمزة بن علي بن عبد الواحد بن مالك بن شهاب الدين حسين بن أبي عمارة حمزة ابن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى النسَّابة بن الحسن بن جعفر الحجة ابن عبيد الله بن الحسين الأصغر ابن الإمام علي زين العابدين. قاله السيد علي بن الحسين بن شدقم، وقال: «ولي النقابة في المدينة بعد جدي».

١٢. بديوي بن علي بن حسين بن علي بن شدقم الحسيني. ذكره السيد ضامن بن شدقم في التحفة وقال عنه أنه كان نقيباً في المدينة حولاً ومات سنة ١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م.

١٣. عامر بن بديوي بن علي. ذكره علي بن الحسن بن شدقم.

١٤. حمزة بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن عرمة الحسيني.

١٥. أحمد بن سعد بن علي بن شدقم بن ضامن بن محمد بن عرمة بن نكيتة الحسيني. مكث في النقابة نحو خمس وعشرين سنة، «وقد رذلت بعده النقابة ولبست ثوب الحزن والكآبة، ووهنت بعد بنائها المشيد فأضحت كالخربة»[1].

١٦. محمد بن أحمد بن سعد بن علي بن شدقم الحسيني المدني.

١٧. نور الدين علي بن الحسن بن علي بن شدقم بن ضامن بن محمد بن

(١) زهرة المقول: ص ٢٢.

عرمة بن نكيتة بن توبة بن شبانة بن حمزة الحسيني الشدقمي. وكانت وفاته بالمدينة سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م كان نقيباً مجداً مجتهداً ومن أصحاب الكرامات[١].

١٨. بدر الدين الحسن بن علي شدقم بن ضامن بن محمد بن عرمة. ولد بالمدينة سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م، وتوفي سنة ٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م، وله شعر كثير، ذكر بعضه السيد ضامن في تحفته.

١٩. محمد بن بدر الدين الحسن بن علي بن شدقم الحسيني. ولد سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م، وتوفي سنة ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م، وله تآليف في النسب.

٢٠. علي بن تقي بن علي بن الحسن بدر الدين بن علي النقيب بن الحسن بن علي بن شدقم.

٣ - الأئمة والخطباء:

كانت الإمامة والخطابة خلال العصرين الفاطمي والأيوبي بيد الشيعة الإمامية[٢]، وأول من تولّى الخطابة في العصر الأيوبي أسرة آل سنان بن عبد الوهاب الحسيني[٣]، حيث توارثها الأبناء عن الآباء، وأول من تولاها منهم عبد الوهاب بن نميلة الوحادي الحسيني[٤]، ثم تلاه في منصبه ابنه شمس الدين أبو هشام سنان الذي لم يعقب غيره.

وقد أسهب ابن فرحون في الحديث عنه فقال: إنه كان «يخطب على المنبر ويترضى عن الصحابة، ثم يذهب إلى بيته فيكفِّر عن ذلك بكبش يذبحه ويتصدق به، يفعل ذلك كل جمعة عقب الصلاة»[٥].

كما أنّ كثيراً من المجاورين -وهم من أهل السنَّة- كانوا يحضرون صلاة

(١) زهرة المقول: ص ١٦.
(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٠٩-٢٢١.
(٣) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٠٩-٢٢١، والدرر الكامنة: ج ٣ ص ٢٢٥.
(٤) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ١١٣.
(٥) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١١.

الجمعة فكان الترضي عن الصحابة نوعاً من المداراة لهؤلاء.

وقد أنجب المذكور عدداً من الأبناء وهم هاشم وبه يكنى، وعلي، وعيسى، وقاسم، والنجم مهنا، ويعقوب. كما أنجب هاشم حسناً ويوسفَ[١]، وقد تولى بعض أبنائه مناصب الإمامة والخطابة والقضاء، ومن هؤلاء نجم الدين مهنا بن سنان الذي كان على علاقة حسنة بالمجاورين[٢].

أما أهل السنَّة فكان لهم في العهدين الفاطمي والأيوبي إمام يصلّي بهم الصلوات فقط[٣].

وفي أوائل العصر المملوكي كان هناك إمام شافعي المذهب يؤدّي الصلاة بالناس أمام المحراب العثماني[٤]، واستمر هذا الوضع حتى النصف الثاني من القرن التاسع الهجري حين سعى طوغان شيخ الأحمدي في إحداث محراب للحنفية أثناء سلطة السلطان المملوكي الأشرف اينال غير أنّ خطوته تلك لم تحقق النجاح في البداية؛ بسبب معارضة أهل المدينة لتعدد أئمة المسجد النبوي، وقد ساند هذه المعارضة أحد وزراء الدولة المملوكية وهو جمال الدين يوسف ناظر الخاص، غير أنّ وفاة جمال الدين أضعف تلك المعارضة، فتمكن طوغان من الحصول على موافقة السلطان، فصدرت المراسيم السلطانية سنة ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م بإحداث محراب للحنفية إلى جانب محراب الشافعية[٥].

ويرى السمهودي أنّ حالة تعدد الأئمة في الحرم النبوي قد انتقلت إليه من الحرم المكي[٦].

(١) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ١٩٦.
(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٠٦.
(٣) التحفة للسخاوي: ج ١ ص ٥٣.
(٤) وفاء الوفاء: ج ٢ ص ٦٨٣.
(٥) التحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٢٦٧، والضوء اللامع: ج ٦ ص ٢٤٥.
(٦) وفاء الوفاء: ج ٢ ص ٦٨٣.

وقد تولّى إمامة المقام الحنفي عدد من الفقهاء، وبخاصة من أسرة الخجندي[١].

كانت الخطابة -كما أسلفت- بيد آل سنان، ثم نُزعت منهم سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م في عهد السلطان المملوكي المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، وعين لها الشيخ سراج الدين عمر بن أحمد الخضري الشافعي، فقدم إلى المدينة من مصر وجمع بين الإمامة والخطابة، ثم عُزل لفترة وجيزة، وعُيّن مكانه شمس الدين الحلبي، ثم شرف الدين السنجاري، ثم أعيد السراج لمنصبي الخطابة والإمامة واستمر بها قرابة أربعين سنة، ثم وافاه الأجل، وهو في طريقه إلى مصر للتداوي سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م، ثم تولّى الخطابة والإمامة بعد وفاة السراج البهاء بن سلامة المصري، واستمر في منصبه مدة سنتين، فاستعفى لكونه -كما يقول السخاوي[٢]- لم ير نفسه أهلًا لما شرطه الواقف من معرفة الفرائض والقراءات.

وخلفه في منصِبَي الخطابة والإمامة شرف الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم العثماني اللخمي الأميوطي الشافعي الذي عرف بشدته على الأشراف وبسطوته على الشيعة الإمامية وسبهم على المنبر كما منعهم من الصلاة أربعاً ظهر يوم الجمعة في المسجد؛ لاعتقادهم أنه لا يجوز إقامة الجمعة إلا خلف إمام معصوم، وكانت وفاته سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م[٣].

وقد شهد المسجد النبوي خلال العصر المملوكي تولّي عدد من الفقهاء من داخل المدينة وخارجها لمنصبَي الخطابة والإمامة ومن بينهم أفراد من الأسر العلمية كأسرة المطري، وأسرة ابن صالح، وأسرة الكازروني.

ومن الملاحظ أنّ هناك ارتباطاً وتلازماً واضحاً بين منصبَي الإمامة والخطابة،

---

(١) التحفة للسخاوي: ج ١ ص ١٣٤ و ص ٢٢١ و ص ٢٤٣ و ج ٣ ص ٢١٧ و ص ٤٥٠-٤٥٢ و ص ٤٩٤، والضوء اللامع: ج ١ ص ١١٩ و ج ٢ ص ٦٧ و ج ٥ ص ١٧٩ و ج ٦ ص ٢٤٥ و ج ٧ ص ٤٢.

(٢) التحفة للسخاوي: ج ١ ص ٥٤.

(٣) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢١٧، والدرر الكامنة: ج ٤ ص ٢٧٦.

ويُحتمل أن تكون الإمامة خاصة بصلاة الجمعة، فيما يتناوب عدد من الأئمة في المسجد كانوا شافعية المذهب؛ يتضح لك أنّ عدداً كبيراً منهم ينتمون إلى الأسر العلمية المعروفة بالمدينة ومنها المطري، وابن صالح، والكازروني، وكلها أسر ينتمي علماؤها وأفرادها إلى المذهب الشافعي، إضافة إلى الأئمة الأحناف الذين تولوا إمامة المقام الحنفي كما أسلفت، غير أني لم أجد فيما اطلعت عليه من مصادر، ما يشير إلى وجود إمام للمالكية أو الحنابلة في المدينة، خلال العصر المملوكي.

٣- خدّام المسجد النبوي والحجرة الشريفة:

يذكر أنه في سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، في إمارة القاسم بن مهنا الحسيني، «وجد من الحجرة الشريفة رائحة منكرة، وكثر ذلك، حتى ذكروه للأمير فأمرهم بالنزول إلى هناك، فنزل بيان الأسود الخصي أحد خدّام الحجرة الشريفة»[١]. وفي النص السابق وصف بيان الأسود الخصي بأنه أحد خدّام الحجرة الشريفة.

ويعطي ابن فرحون معلومات مخالفة لما ذكر سابقاً؛ حيث يقول: «إنّ السلطان صلاح الدين الأيوبي هو أول من ثبت قاعدة الخدَّام في الحرم النبوي، وأوقف عليهم الأوقاف، وكتاب الوقف موجود عندهم إلى اليوم وكان الموقوف عليهم نحو العشرين خادماً معيّنين ثم من بعدهم على خدام الحرم النبوي، ثم أوقف عليهم الملك الصالح بن الملك الصالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون وقفاً آخر، ولهم اليوم منذ تقرروا في الحرم بالجامكية نحو مائتي سنة»[٢].

ويؤيده المؤرخ ابن فهد المكي بقوله: «ولم يعهد مشيخة المسجد النبوي يليها منذ عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلا الخدم الطوَّاشية»[٣].

(١) الدرة لابن النجار: ج ٢ ص ٣٩٦، والتحفة للسخاوي: ج ١ ص ٣٨٥.
(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ، تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب: ص٥٥، التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٥.
(٣) اتحاف الورى: ج ٤ ص ٩٤.

ويعطي الأنصاري تفاصيل أكثر عنهم بقوله: «وهؤلاء الطوَّاشية (الطوَّاش: المملوك الخصي) حادثون في آخر دولة الأكراد بني أيوب، في أيام نور الدين الشهيد بواسطة بعض الخدَّام الطوَّاشية الذين في خدمته. سعى في ذلك واستعان ببعض الوزراء فأجابه السلطان إلى ذلك وجعل اثنى عشر طوَّاشياً لا غير. وشرط أن يكونوا حفّاظاً للقرآن العظيم وربع العبادات، وأن يكونوا حبوشاً، وإن لم يكن فأرواماً، فإن لم يكن وعدموا فتكاررة، وإن لم يوجد فهنود. واستمروا مدة ثم صار الشرط باطلاً حتى صار غالبهم من أخس الأجناس الهنود!»[(١)].

ويؤكد ابن إياس الرأيين السابقين بقوله: «إنّ أول من قرر الخدَّام الخصيان بالمدينة الشريفة، الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان سبب ذلك، أنّ بني حسن لما تغلبوا على الخلفاء الفاطميين، واستولوا على المدينة الشريفة، فلما آل الأمر إلى الناصر صلاح الدين، استمال بني حسن وأغدق عليهم بالمال الجزيل والهدايا، حتى مكّنوه من المدينة الشريفة، فلما ملك أمرها، جعل فيها أربعة وعشرين خادماً خصياً، وجعل عليهم شيخاً من الخدَّام، يقال له بدر الدين الأسدي، وأوقف على مجاوري المدينة بلدين من أعمال الصعيد، وهما نقادة، وقبالة، وهما إلى الآن جارية في أوقاف الحرمين، واستمر من يومئذ شيخ الحرم النبوي من الخدّام الخصي»[(٢)].

وأقدم نص وصف الخدمة في المسجد النبوي في العصر الأيوبي ما ذكره الرحالة ابن جبير الذي زار المدينة سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، حيث تحدث عن الخدام في سياق وصفه للروضة بقوله: «وفي جهة الشرقية بيت مصنوع من عود هو موضع بيت بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك، وسدنته فتيان أحابيش، وصقالبة ظراف الهيئات، نظاف الملابس والشارات»[(٣)].

وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري، أصبح للخدّام شيخ يأتمرون

---

(١) تحفة الأنصاري: ص ٥٤.

(٢) بدائع الدهور لابن اياس: ج ١ ص ٢٤٣، والانتصار لابن دقماق: ج ٥ ص ٤٩.

(٣) رحلة ابن جبير: ص ١٧١-١٧٢.

بأمره، ومشيخة تنظم شؤونهم.

وقد وردت أول إشارة لشيخ الخدّام في العصر المملوكي سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م، حين تحدث الميورقي عن شيخ الخدّام بدر الدين الشهابي[١].

وفي السنة التالية ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م ورد أنّ السلطان المملوكي الظاهر بيبرس «قد أنعم على شيخ الخدّام بالحجرة الشريفة الطوَّاشي جمال الدين محسن الصالحي بمائتي ألف درهم»[٢].

وفي القرن الثامن الهجري نجد أنّ الصورة التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته عن خدام الحرم لم تتعدَّ ما ذكره ابن جبير[٣].

وكان شيخ الخدّام من الخصيان حتى أواخر القرن التاسع الهجري؛ حيث أصبح شيخهم من الفحول المرسل من قبل السلطان المملوكي في مصر فيما ظل الخدّام من الخصيان. وقد ذكر السخاوي هذا التغير بقوله «إنهم الآن أربعون فأزيد ما بين حبشي، ورومي، وتكروري، وهندي، وهو الأكثر، وشيخهم لم يزل منهم إلا في هذه الأزمان المتأخرة فكان يلي المشيخة الفحول»[٤].

ولم تكن العلاقة بين مشيخة الخدام وأشراف المدينة مستقرة، وثابتة، فتارة تكون حسنة، وطوراً تكون سيئة، تبعاً للظروف السياسية والاقتصادية السائدة، غير أنه من الواضح أنّ بعضاً من شيوخ الخدّام قد ارتبط بعلاقات ودّية مع الأشراف، من الأمراء وغيرهم، ومن هؤلاء شيخ الخدّام عزيز الدولة الملقب بالعزيزي[٥]، كان كما وصف «يوالي الأشراف، يحسن إليهم إحساناً كثيراً، حتى اتهم بمذهبهم،

---

(١) البهجة للميورقي: ص ٣٤.

(٢) السلوك: ج ١ ص ٥٨٠.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ص ٤١.

(٤) التحفة للسخاوي: ج ١ ص ٦١.

(٥) التحفة للسخاوي: ج ٣ ص ١٧٨، وتحفة الأنصاري: ص ٥٧.

لاختلاطه بهم وقضاء حوايجهم»[١]، والمقصود اتهامه بمذهبهم أي اعتناقه لمذهب الأشراف الإمامي الاثني عشري.

كما تمتع بعض شيوخ الخدّام بالقوة والشجاعة، في مواجهة أمراء المدينة من الأشراف، ومن هؤلاء شيخ الخدام ظهير الدين مختار الأشرفي[٢]، الذي كانت له مواقف مع أشراف المدينة، فقد «أدخل الرعب في قلوب الشرفاء والأمراء، واستخلص من أيديهم أوقافاً وأملاكاً كانوا هم وآباؤهم فيها كالمارستان اليوم، والفرن، والحوش الذي بإزائه، ودار المدرسة الشهابية، ونخيل، وغير ذلك، ولأجل هيبته عز المجاورون والخدام وقويت حرمتهم».

ومن شيوخ الخدام أيضاً، الذين وقفوا في وجه الأشراف، وحاول منعهم التعدي على أوقاف الحرم ومضايقة الناس، عز الدين دينار وقد وصف «بشدته في الدين على الأشراف مع شدة على الرافضة وقيام في الأمور الشرعية»[٣].

طبقات أشراف المدينة[٤]:

لم يعد للشيعة بعد ذلك ذكر في إمارة المدينة المنورة، ودخلوا في الناس، واشتغلوا في تحصيل أقواتهم. وأصبحوا يمارسون عبادتهم وشعائرهم سراً في المزارع، إلا أنه يخرج منهم بين الفينة والأخرى من يمجِّد المذهب الشيعي وينافح عنه، من ذلك ابن معصوم المدني الذي سخَّر شعره في نصرة المذهب، وبدا ذلك جلياً في كتابه: «سلافة العصر» فهو يطيل في ترجمة من وافقه في المذهب، ويختصر التراجم الأخرى.

ومن شعره الذي يمدح فيه علياً عليه السلام:

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص .

(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ، والتحفة للسخاوي: ج ٢ ص٢٦١.

(٣) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ، والتحفة للسخاوي: ج ٢ ص ٢٦١.

(٤) انظر: الملحق (١).

أمـيـر المؤمنين فـدتـك نفسي ... لنا من شأنك العجب العجاب
تــولّاك الأُلـــى سـعـدوا وفـازوا ... ونـــاواك الـذيـن شـقـوا فخابوا
فـلـولا أنـــت لـم يُـخـلـق سماء ... ولـــولا أنـــت لـم يُـخـلـق تـراب
وفـيـك وفـي ولائـك يـوم حشر ... يعاقب مـن يعاقب أو يثاب
وهـــل لـســواك بـعـد غـديـر خم ... نصيب فـي الخلافة أو نِصاب
فـمَـنْ تـيـم بـن مـرة أو عـديٌّ ... وهـم سيّان إن حضروا وغابوا
لئن جـحـدوك حقك عـن شقاء ... فبالأشقين مـا حـلَّ العقاب
فكم سفهت عليك عقول قوم ... فكنت الـبـدر تنبحه الكلاب

وعندما سافر ابن معصوم إلى النجف الأشرف أنشأ قصيدته السينية التي يفضّل فيها النجف على المسجد الأقصى؛ يقول فيها:

والـنـجـف الأشـــرف بـانـت لنا ... أعـلامـه والـمـعـهـد الأقـدس
والـقـبـة الـبـيـضـاء قـد أشـرقـت ... ينجاب عـن لآلئها الحندس
حـضـرة قـدس لـم ينل فضلها ... لا المسجد الأقصى ولا المقدس

حكام الشيعة في الحجاز:

اكتسب عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م أهمية كبرى؛ ففيه كان بداية حكم إمارة الحسينيين للمدينة المنورة من فرع الحسين الأصغر بن علي بن زين العابدين بن الحسين الأكبر بن علي بن أبي طالب عليه السلام، واستمروا لعدة قرون حتى سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م.

ولذا فإنّ تاريخ المدينة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأبناء الحسين الأصغر، وقد خضعت قرون حكمهم -تبعاً للخلل السياسي الذي كان يسود الحجاز-، وفي نهاية المطاف سادت القوة بدل الحكمة، مما جعل الخلافات تصل إلى حد الاقتتال فيما بينهم، بل وصل الاقتتال في داخل الحرم النبوي الشريف، وانعكس ذلك على سكان المدينة، مما أدّى إلى انهيار إمارة البيت الحسيني في أواخر القرن التاسع هجري، وتفرق كيانهم، ووقعوا تحت ظلم التاريخ، مما أفقد كثير من أشراف أهل

هذا البيت نسبهم وانتمائهم، وساعد في ذلك على تفشي وانتشار إطلاق الكنى والألقاب في ذلك الوقت.

ويمكننا أن نقسّم مدة حكمهم إلى طبقات وأزمان؛ ليتضح للقارئ الكريم الجانب الخافي من التاريخ، والذي تسبب في فقد البيوت والبطون الحسينية لأنسابهم:

الطبقة الأولى: (إمارة آل عبيدالله الثاني بن طاهر من عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م وحتى عام ٤٠١ هـ/ ١٠١١م):

الأمير عبيد الله الثاني بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن عبيد الله الأول بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين الأكبر بن علي بن أبي طالب. وهو أول أمير لهذه الطبقة ومؤسس إمارة البيت الحسيني في المدينة المنورة، تميزوا بحمل لقب (العلوي) أو (الحسيني).

استلم الإمارة عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م ولهذا التاريخ أهمية كبرى ومؤشر لبداية حكم وإمارة البيت الحسيني (الحسينين) والذي استمر لعدة قرون حتى أواخر القرن التاسع الهجري، وبداية القرن العاشر الهجري، وامتدت إمارتهم حتى عام ٤٠١هـ/ ١٠١١م.

تداولها الأبناء توارثاً، واتسمت بالهدوء والاستقرار، وحسن الإدارة، حتى استلمها الأمير أبو عمارة حمزة (المهنا) بن داود ابن القاسم إيذاناً ببداية أمارة وحكم الطبقة الثانية التي تسمّت باسم مؤسسها (المهنا) وأطلق على عقبه من بعده آل مهنا أو (المهاينة).

الطبقة الثانية: (إمارة آل مهنا والتي امتدت من عام ٤٠١هـ/ ١٠١١م وحتى عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م):

يعتبر أبو عمارة حمزة (المهنا) بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين أول أمير للمدينة المنورة في هذه الطبقة، ومؤسِّساً لبيت آل

المهنا، والذين يطلق عليهم أحياناً (المهاينة).

تداول أبناؤه الإمارة عنوةً إلى أن عكّر صفوها الفتن والقلاقل، حتى وصلت لحدِّ الاقتتال فيما بينهم، والتربص والانقضاض على بعضهم البعض؛ للفوز بالإمارة، مما أدَّت إلى زعزعة إمارتهم التي امتدت حتى عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، مما جعل الأمير جمّاز بن قاسم ينقضّ عليها إيذاناً ببدء إمارة الطبقة الثالثة، والتي تسمّت باسم مؤسِّسها جمّاز، وأطلق على عقبه من بعده آل جمّاز (الجمامزة).

الطبقة الثالثة: إمارة آل جمّاز (الجمامزة) والتي امتدت من عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م وحتى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م:

وهو جمّاز بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود ابن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين؛ أمير المدينة للطبقة الثالثة ومؤسس بيت آل جماز أو (الجمامزة)، وواحدهم جمازي.

تداول البيت الجمّازي الإمارة توارثاً، ووقعت في مدة حكمهم عدة معارك كان آخرها في عهد الأمير قاسم بن جماز بن قاسم في «موقعة الحميمة»، قرب مكة، بينه وبين قتادة أمير مكة انكسر فيها سالم، وبعد مقتله انقض على الإمارة الأمير شيحة بن هاشم إيذاناً ببدء حكم الطبقة الرابعة، والتي تسمّت باسم مؤسِّسها شيحة، وأطلق على عقبه من بعده آل شيحة أو (الشيحي).

وذكر صاحب مخطوطة «نخبة الزهرة الثمينة في نسب أشراف المدينة» السيد زين الدين بن علي بن الحسن الشدقمي الحسيني (ت ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م)؛ أنّ لآل جماز ذكراً مقتضباً فقال: «وليس منهم اليوم في المدينة أحد»، ونقل عن والده أنهم بالشام وصعيد مصر.

وفي التحفة اللطيفة والمصادر الأخرى؛ ذكرت أنّ الأمير شيحة قاتلهم، وانتزع منهم الإمارة، وضيّق عليهم الخناق حتى أجبرهم إلى الرحيل متوجهين إلى الشام وصعيد مصر.

وفي عمدة الطالب ذكر أنّ جمّازاً وهاشماً ابنا مهنا بن جمّاز... إلخ، وهذا يقودنا إلى أنّ البيت الجمّازي أعقب وتناسل أبناؤه وهم بعيدون عن أرض الوطن (المدينة المنورة) وعن مسرح الأحداث، وغاب ذكرهم إلا من بعض الراصدين للأنساب.

وورد ذكرهم في مخطوطة «رياض زهرة النقب في أنساب قبائل العرب» لمؤلفه محمد بهجت الدين الزعبي الحسيني، مما يدل على أنّ هؤلاء الأبناء المبعَدين أنجبوا أبناءهم في المنفى حتى كان آخرهم «حويط بن جمّاز بن هاشم بن سالم بن مهنا بن جمّاز بن قاسم...»، وبدأ تكاثر نسلهم في مدينة العقبة، إحدى مدن الشام. ونمى حويط هذا وسط الغياب، وتسارع الأحداث والفتن التي عصفت بحياة المدينة، وفي فترة انهيار إمارة البيت الحسيني، أعقب عمران وعلوان وسويعد رؤوس قبيلة الحويطات الحسينية ومؤسسي عشائرها وكيانها، حتى تنامت وانقسمت إلى أفخاذ وعشائر يطول سردها.

الطبقة الرابعة: (إمارة آل شيحة والتي امتدت من عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م وحتى عام ٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م):

وهو شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله.. أول أمير لهذه الطبقة ومؤسس بيت (آل شيحة)، وواحدهم شيحي، استولى على الإمارة بعد مقتل الأمير قاسم بن جمّاز أمير الجمامزة، وانتزع أمارة المدينة منهم سنة ٦٢٤هـ، ولم يتمكن الجمامزة انتزاعها منه ولا من أولاده، الذين تداولوا الإمارة عنوة وسط أحداث عنيفة داخل وخارج البيت الحسيني، أثّرت على حياة أهل المدينة، وغيّرت كثيراً من مجرى التاريخ.

وانبثق من رحم هذا البطن عدة بطون لها تأثير ملموس، وأخص منها البطون التي عاصرت عهد انهيار الإمارة، ولسبب طول فترة حكمهم يمكننا تقييم أخبارهم إلى فترات.

الفترة الأولى: (إمارة آل جماز (الجمامزة) والتي امتدت من عام ٦٥٧هـ/

١٢٥٩م حتى عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م):

وهو جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله.. عز الدين، أبو سند الحسيني، مؤسس بيت (الجمامزة)[1] الفرع الشيحي، وواحدهم جمّازي، انتزع الإمارة من أحد إخوانه، وتداول أبناؤه من بعده الأمارة، وبعد أن أضرّ وشاخ وضعف، سلّم الإمارة لابنه منصور بن جمّاز بن شيحة، وبدأت بتسلمه الحكم الفترة الثانية للإمارة، وتعاقب أبناؤه الإمارة من بعده، وأطلق عليهم لقب (المناصير)، وواحدهم منصوري.

الفترة الثانية: (إمارة آل منصور بن جمّاز بن شيحة (المناصير) والتي امتدت من عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م وحتى عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م):

الأمير منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله.. تسلّم الإمارة من أبية سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م، وهو مؤسِّس إمارة (المناصير) وواحدهم منصوري، وكان لهُ من الأولاد: طفيل، وجمّاز، وعطيفة، ونعير، وزيان، وكوير، وكبيش. وكل واحد منهم تكوّن من رحمه بطن من بطون البيت الحسيني، واستلم كلّ منهم الحكم والإمارة مما أطال حكم هذا البطن، واستفحل فيما بينهم العداء والمؤامرات وصنوف الفتن.

وعند الإبحار في سرد سيرة أمراء هذا البيت يقابلك جمل وتعابير مثل «انتزع الإمارة من أخيه»، و«تآمر ضد أخيه»، و«طلب مساعدة حاكم مصر»... وهكذا، مما قوّض وسارع في انهيار إمارة البيت الحسيني حتى كان آخرهم الأميران حسن وماتع ابنا زبيري بن قيس.

وكان عهدهم عهد تلك الشعرة التي قصمت ظهر البعير، والناقوس الذي دق عرش إمارة امتدت لعدة قرون، مما أدّى إلى انهيار وسقوط الإمارة في مهاوي التاريخ.

---

(١) وهؤلاء هم من الفرع الشيحي، ويختلفون عن الجمامزة السابق ذكرهم من فرع آل مهنا، وعلى القارئ الانتباه لهذا الاختلاف.

وبسقوطهم تشرد أهله، وطوردوا أيّما مطاردة حتى طمست هويتهم، وضاعوا في برايا وبوادي المدينة، وسقطوا من دواوين أهل النسب.

الفترة الثالثة والأخيرة: إمارة الأخوين آل نعير بن منصور، والتي امتدت من عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م وحتى عام ٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م.

الحسن ومانع ابنا زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير بن منصور بن جماز بن شيحة... وهما آخر أميرين للبيت الحسيني الذين يتبعون لمؤسس إمارة آل نعير، واحدهم نعيري.

ورد في تاريخ الحسن -هذا- أنه تجرأ، وهجم على المسجد النبوي الشريف قبل الظهر، ونهب ما به من نقود وقناديل الذهب والفضة مدعياً أنّ هناك تقصيراً في معلومه (راتبه)، فجاء العسكر من صاحب الحجاز لحفظ المدينة، وهرب حسن يتخبط في البرية.

واستمر الحسن مفصولاً عن إمرة المدينة حتى فوّض أمر المدينة لأخيه مانع، الذي وصفه صاحب «سمط العوالي» بأنه من أجلّ الأمراء قدراً، وأرفعهم ذكراً؛ حيث كان من عوائد أمراء المدينة السابقين له يقدّمون لبني عمهم السادات بني الحسين، ولعربان عنزة ومطير ونحوهم، مواجب ومرتبات جزيلة، فمنعهم من ذلك الأمير مانع استخفافاً بهم فجمع هؤلاء الناس ضده... فقام هؤلاء العربان وبإيعاز من أبناء عمه سادات بني حسين بنهب محمل الحاج المدني وقع فيه قتل وسلب وطعن وضرب، وعندما وصل الأمر إلى الشريف حسن والي الحجاز ومكة هاجمهم واعتقلهم، ودخل بهم المدينة بالجنازير، وتعجب الناس من دخول الأشراف بالجنازير وهم أولاد الأمراء.

وبهذه الحادثة أُطيح نهائياً بالأشراف الحسينيين من حكم المدينة المنورة وعلى رأسهم مانع الحسيني هذا.

وذكر صاحب (سمط العوالي) ما نصه: «ولم نعد نسمع لهم ذكراً»، وهذا

يشير إلى أنّ هذا البيت تشرد بعد الحادثة، وطوردوا من قوات وجنود أمير مكة، وتواروا في متاهات صحارى وبراري وبوادي المدينة المنورة متخفّين؛ خوفاً من القتل، وساعد في إخفاءهم قبائل تلك النواحي حتى انصهروا معهم، ومع تقادم الزمن خسر كثير من هؤلاء هويتهم وأنسابهم ومن أهمها البطون التي عايشت وعاصرت عصر الانهيار وهم: (آل نعير، آل جمّاز، آل شيحة، آل عيسى، آل راجح، آل زيان، آل هبه، آل ثابت، آل طفيل، آل مانع، آل سند...) والقائمة تطول.

وكل هؤلاء انبثقوا من رحم الأمراء المؤسِّسين لعشائرهم، وتناسلوا، وتكاثروا في عصر الضياع والانهيار والتخفي مما زاد من هوة الضياع واتساع الخرق، ولم يعد أحد يسمع لهم ذكراً، وسقطوا من دواوين النسّابة المحدثين.

الفوائد المستخلصة:

ورد خلال طرح وقائع هذا البحث مسمى (الجمامزة) مرتين وهذا يدخل القارئ الكريم في حالة ارتباك وخلط بين المسميين، وسوف أوضح الفرق بينهما مع التنبيه على تشابه الأسماء والألقاب، وحذراً من الوقوع في ما وقع فيه البعض، استوجب رفع هذا الخلط من الأذهان.

الفرع الأول: آل جمّاز بن هاشم (يقال لهم «جمامزة» واحدهم جمّازي) ورد ذكرهم في سيرة إمارة آل مهنا في عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م وحتى ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، وهم الذين رحلوا إلى الشام وصعيد مصر ذكره صاحب النخبة الثمينة وصاحب رياض زهرة النقب.

إذاً هم جمامزة من فرع آل مهنا المعاصرين لعام ٦١٢هـ.

الفرع الثاني: آل جمّاز بن شيحة (يقال لهم «جمامزة» واحدهم جمّازي) ورد ذكرهم في سيرة إمارة آل شيحة في عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م وحتى عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م سكنوا المدينة حتى سقوط الإمارة. ذكرهم صاحب النخبة الثمينة في مخطوطته عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م.

إذاً هم جمامزة من فرع آل شيحة، وعاشوا في المدينة حتى انهيار الإمارة.

ولا يوجد في المدينة المنورة في العصر الحاضر من طوائف الشيعة من يمثل جماعة الاثني عشرية الإمامية، إلا أربع جماعات: (النخاولة، الجهمية الحروب، بعض الأشراف، المشاهدة).

وظن المؤرخ فؤاد حمزة -ممن أرخ للمدينة المنورة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود- أنّ الشيعة الموجودين في المدينة، وخاصة في وادي الفرع القريب من جبل رضوى أنهم شيعة كيسانية، فكتب يقول: «ويوجد من الشيعة في الوقت الحاضر أتباع لمحمد بن الحنفية، يقيمون في جبل رضوى، بقرب ينبع، وهم على شيء عظيم من البداوة والتوحش، والبعد عن مخالطة أهل المدن. وأما عددهم فإنه لا يكاد يزيد عن عشرة آلاف، ويبالغ بعضهم في عددهم فيوصله إلى ١٢٥ ألفاً، غير أنّ العدد الأول هو الأقرب إلى الصحة فيما نعتقد. وهؤلاء القوم ما زالوا ينتظرون عودة محمد بن الحنفية من استتاره ليملأ الأرض عدلاً كما ملأت جوراً وظلماً. وأتباع هذا المذهب أكثرهم من حرب وجهينة وبعض الموالي والأتباع المنظوين تحت سيطرتهم»[(١)].

والظاهر أنّ الدكتور محمد حسين هيكل تأثر بما كتبه فؤاد حمزة عن خرافة المنتظرين لخروج محمد بن الحنفية من رضوى، فكتب شيئاً أغرب وأعجب وأغرق في الخرافة فقال: «ويثير الدهشة أنّ بعضهم تسلّق قمة رضوى فرأى عجباً، رأى قوماً لم ينزلوا السهل في حياتهم، ويرون في نزوله المعرّة الكبرى، فإذا احتاجوا إلى شيء فأتباعهم وضعّافهم هم الذين ينزلون، ورأوا هؤلاء القوم يعيشون في الكهوف والمغارات عيش الحيوان المفترس، ورأوا أحدهم إذا ظفر بغنيمة مما كانوا يذبحون فرَّ بها إلى كهفه، وآوى إليه، وانبعث ينهشها كما ينهش الحيوان المفترس فريسته، وجعل يذبّ عنها من يحاول اقتحام الكهف عليه؛ بأن يدفعه برجله كما يفعل الذئب والنمر»[(٢)].

(١) قلب جزيرة العرب، فؤاد حمزة: ص ٩٥.
(٢) منزل الوحي، محمد حسين هيكل: ص ٤٠٧.

وهي خرافة منشؤها صعوبة الوصول إلى أعلى جبل رضوى، ووجود الشيعة (الرافضة) بالقرب منه مما جعل أذهان العوام تنسج القصص والخرافات عن هذا الجبل العجيب وهذه الطائفة الأعجب.

وفي الختام يتوجب عليَّ أن أنوه بأنَّ هذا العمل الثقيل ما كان له أن يرى النور لولا اعتمادي الرئيس على جملة من المصادر المهمة، ومن أهمها:

١ . الشيعة في السعودية، تأليف: الدكتور حمزة الحسن.

٢. المدينة في العصر المملوكي، تأليف: الدكتور عبد الرحمن مديرس المديرس.

٣. أمراء المدينة المنورة، تأليف: عارف أحمد عبد الغني.

٤. التاريخ الشامل للمدينة المنورة، تأليف: الدكتور عبد الباسط بدر.

٥. تأريخ المدينة المنورة، تأليف: القاضي عبد الله بن محمد بن فرحون المالكي (ت ٧٦٩هـ).

٦. العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تأليف: موفق الدين علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢هـ).

التعريف بجماعات الشيعة في المدينة المنورة

١- النخاولة:

يقول المؤرخ عاتق البلادي -في حديثه عن حرة واقم-:

« هي حرّة المدينة المنورة الشرقية، وهو ما تعرف به اليوم، وعندما تولى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الخلافة خرج عليه ابن الزبير فتبعه أهل الحجاز لما يعرفون من فسق يزيد ومجونه وشربه للخمر.

فجهّز جيشاً بقيادة مسرف (مسلم) بن عقبة المرّي الغطفاني، وكان شيخاً مجرماً لعيناً، فقاد هذا الجيش العرمرم فهاجم المدينة سنة ٦٣هـ. فاختار حرة واقم، واختار الضحى لتكون الشمس في عيون أهل المدينة، وخرجت المدينة بشيبها وشبّانها لقتال الطغاة؛ فانهزموا، فأباح مسرف المدينة ثلاثة أيام متوالية، فعل جيشه فيها جميع أعمال الكبائر والفجور، فكان طغام الشام يهاجمون بنات الصحابة ويفضون بكارتهن في بيوتهن غصباً، وقد بلغ عدد القتلى من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيه يومئذ سبعة الآف قتيل، وألف من باقي أهل المدينة.

ويقال أنه نتيجة لهذه الحملة الفاجرة فقد حملت عشرات من النساء العذارى.

وعندما ولي الخلافة عبد الملك عزل هؤلاء في العوالي وأقطعهم نخلاً فسمو السادة النخلية (النخاولة اليوم) ونظراً لما للأمويين من يد في سوء نشأة هؤلاء الأبرياء، فقد نشأ النخليون شيعة مخالفة للأمويين، وقد ظلوا يكرهون أهل

السنة ويتعاطفون مع الشيعة، وقد لقي مسرف جزاءه، فمات بعد هذه الغزوة الظالمة في طريقه إلى مكة»[1].

ويقول الصحفي حسن مرزوق النخلي: «(النخليون) أو كما يحلو للبعض تسميتهم بـ(النخاولة) مسمى لتجمع عشائري هو من أكبر وأقدم التجمعات الحضرية القاطنة في المدينة المنورة حديثاً، استقى مسمّاه المعروف والمشتهر به من حرفة زراعة النخيل، التي ارتبطوا بها وارتبطت بهم، والتي حفظت لأرض طيبة ثروتها، التي باهت بها الجزيرة العربية قروناً طويلة، كان لهؤلاء الناس فضل العناية بها بما تفردوا به من غيرهم من معرفة واجادة لفنون الزراعة وارتباط وثيق بحب الأرض التي امتزجت دماؤهم بترابها طيلة العهود السابقة، ظلمتهم تلك السياسات السابقة المنحازة التي سبقت توحيد المملكة على أن ينعموا باستقرار اجتماعي واقتصادي يضمنه لهم الحق الأدنى للحياة، فكان جهاز النظام الإداري في المدينة التابع لسلطان المسلمين العام المملوكي في أحداث القرن الثامن الهجري كما ينقله تاريخ تلك الفترة، وبالخصوص حينما تولى ابن فرحون منصب القضاء، أقول كانت تعمل على شلّ حركتهم عن الحياة الدينية والاقتصادية من خلال فصلهم وكل من اتخذ التشيع مذهباً من وظائفهم التي كانوا يقتاتون منها بالخصوص ما كان منها مرتبطاً بخدمة الحرم النبوي الشريف في محاولة منهم لاقصائهم وتقليص دورهم بعد أن كان القاضي والخطيب منهم حسب تعبير العلامة السمهودي في كتابه الشهير (وفاء الوفاء)، بل إنه أكثر من ذلك تقرّر حرمانهم من الصلاة على جنائزهم بالحرم النبوي إمعاناً في إذلالهم.

ثم جاء دور الأتراك العثمانيين ليزدادوا تعنتاً في إيذائهم كما الكثير غيرهم فأخذوا يشتتونهم تسفيراً في بقاع الأرض الإسلامية التي يحكمونها منتزعين المعيل عن عائلته رغبة في تغيير ديموغرافية هذه البلدة الطاهرة، وهي ظواهر وأحداث مأساوية يتحمل حكّام بني عثمان في ذلك الوقت جرم هذا التشتيت والتفريق والتي

(١) معجم معالم الحجاز: ج ٢ ص ٢٨٣.

شابهها مثلها لأقوام وجماعات وفئات عانت من مثل هذه الأمور في مناطق عدة بالجزيرة العربية كانت تحت سيطرتهم ونفوذهم.

وقد تجنّى كثير من الكتّاب على هذه الجماعة، ومن نماذج هذه الجنايات:

يقول جون لويس في كتابه (رحلات شبه الجزيرة العربية): «والنخاولة يظهرون روح العصبية في كل المناسبات، ويجاهر كثيرون منهم باعتقادهم في علي إذا ما كانوا بعيداً في بساتين النخيل، ولكنهم يعودون للتظاهر بعقائد أهل السنة إذا ما رجعوا للمدينة، وقد استقر بعضهم في الضواحي، وهم يحتكرون مهنة الجزارة»[١].

وفي كتاب رسائل في تاريخ المدينة للجاسر، يقول أحد المؤرخين: «وإنّ للبقيع الشريف سور مجصص حائط به، وله أربعة أبواب: ثلاثة غربية وبابان شاميان! فواحد من الثلاثة الغربية تجاه باب قبة آل البيت الغربي، وهو مخصوص لتدخيل جنائز النخاولة التي لا يصلّى عليها في الحرم الشريف»[٢].

يقول عبد الرحمن بن عبد الكريم الأنصاري (ت ١١٩٥هـ/ ١٦٨١م): «بيت النخلي، وكلّهم شيعة شنيعة، وغالبهم جهلة لا يكادون يفهمون شيئاً من مذهب الرافضة، وإنّما وجدوا آباءهم على أمّة وهم على آثارهم مقتدون، وهم معهم بلا شك في النار يحشرون»[٣]..

وأضاف مفترياً: «وقد ذاع وشاع وملأ الأسماع أنّ أصلهم من بقايا أولاد النساء اللواتي حملن بالزنا في قضية الحرّة المشهورة في أيام الخبيث يزيد بن معاوية -قبّحه الله- حين استباح المدينة قتلًا ونهباً وفسقاً وسلباً. وقيل: إنّ النخاولة بعضهم أصلهم من العبيد، وبعضهم من الهنود، وبعضهم من اليمن، وبعضهم من

---

(١) رحلات إلى شبه الجزيرة العربية: ص ٣٠٩.
(٢) رسائل في تاريخ المدينة، تحقيق: حمد الجاسر: ص١٢.
(٣) تحفة المحبين والأصحاب: ص ٤٧٩.

المغرب، وبعضهم من مصر، وبعضهم من الحجاز وغير ذلك »[١].

وقال إبراهيم رفعت باشا: « والبساتين والحقول يقوم بحراستها والخدمة فيها ورعي مواشيها، بل بالخدمة في البيوت أيضاً، مجموعة من ذرّيّة الأعجام يسمّون النخولة، وهؤلاء بالمدينة أشبه بالفلاحين في مصرنا، ولولاهم ما قامت الزراعة، وهم رافضة.. واحتقاراً لهم وعقاباً على نزعتهم الباطلة، كلّفهم رئيس البلدية بأن يقوموا بطرد الكلاب من حول المسجد النبوي، ويجتمع بهم الأعجام في مواسم الحج، ويؤجّرون منهم الدور بما فيها ».

ويقول أيضاً: « وأفراد هذه القبيلة -أي النخاولة- يختلطون ببعضهم البعض، ويزاورهم الذين ينتمون إلى نفس المذهب، ويتبادلون بناتهم ونساءهم عن طريق زواج المتعة(؟!)، وهو الزواج لمدة معينة محدودة. إنّ أعداد النخاولة الذين بقوا على قيد الحياة، ويسكنون الحدائق والغرف التي يعبّر عنه بالحوض لا يتجاوز الاثني عشر ألفاً. ومن الجدير بالذكر أنّ الرافضة والملاحدة الذين يتوافدون على المدينة المنورة ينزلون على منازل النخاولة، ويسكن أبناء النخاولة في الأحياء التي تسمى حوش النخاولة، والتي تقع في الحدائق خارج المدينة »[٢].

ويبدو أنّ الاحتقار والتشكيك والإهانة إنما يرجع إلى أمرين: أحدهما: سمرة بشرة النخاولة. وثانيهما: تمذهبهم بالمذهب الشيعي.. أي أنّ القضية ترجع إلى تمييز عنصري وطائفي في آن واحد، وهذا أقبح أنواع التمييز وأشنعها.

ولكن المؤرخ الشيخ عبد الله فرج الزامل الخزرجي الأنصاري[٣] يكذّب كل

---

(١) تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب، عبد الرحمن بن عبد الكريم الأنصاري: ص ٤٨٠.

(٢) مرآة الحرمين: ج ١ ص ٤٤٠.

(٣) المولود ببداية القرن العشرين في المدينة المنورة، شخصية موسوعية. فإلى ما تضلع فيه من علوم الدين واللغة العربية والتاريخ والقضايا الشرعية، فهو أديب وشاعر ومنشد. يتميز بخفة دمه، ودرامية أدائه وتعبيره، وسرعة بديهته، وذاكرته الحادة ووصفه التصويري. ولذا فقد كان

هذه الافتراءات، ففي مقابلة نادرة مع الدكتور خالد محمد باطرفي، حيث تحدث عن حبه الكبير للمدينة المنورة، وكان من ضمن ما قاله عن (النخاولة) هذا القول المهم:

«نخاولة المدينة، كما يسكنها بعض المهاجرين من داخل وخارج الجزيرة، وأقدمهم آل حسين والنخاولة، محبِّي رسول الله وآل بيته، وسمّي النخاولة بهذا الاسم لأنهم أول من احترف زراعة النخل في المدينة، فغلب مسمّى النخل على عشائرهم وبطونهم. وهم عشائر وبطون وخصل عديدة أشهرها الجرفي والهاجوج واللؤلؤ والفار والمديني والشامي والحريبي والفلسة والمعريفي والداوودي وغيرهم الكثير. يكرِّمون من التجأ إليهم، وهؤلاء العشائر من النخاولة لهم أصول وفروع متقيدين بعرفهم متمشين مع السنّة في عوائدهم وصلاتهم في كل فرض. كما أنهم متسمون بالإخلاص والرجولة والشهامة والأدب ومحبة آل البيت بصرف النظر عن تعدد المذهبية إلا أنهم يكرِّمون من التجأ إليهم ومن زارهم، وينصرون المظلوم، وأصحاب يد كريمة، أو كما قال الشاعر:

قد يعلم الناس ممن ضم طيبتنا   إنّـا كـرام وفـي أكنافنا الجود

رموز النخاولة: وفيهم الأديب والشاعر وأصحاب البلاغة الخارقة.

وممن لهم المكانة العالية في المدينة الشيخ عبد المنعم الهاجوج رحمه الله، وأولاده طاهر وصالح وعبد المطلوب. ومن أشهرهم أحمد الفار ووالده، والشيخ عبد الرحيم الجرفي، والشيخ المعريفي، وفوق الجميع الشيخ العمري.. وهؤلاء كلهم أهل ثقة وعزة ومكانة، يحبوننا، ويذكروننا بالخير ويصلّون وراء أئمتنا،

وما زال أنيس المجالس ونجم المنتديات، وصديق جميع الطبقات. يجيد التحدث بالتركية والفارسية والأردو والتكرونية، ويحسن تقليد اللهجات السعودية المختلفة الحضرية منها والبدوية، إضافة إلى لهجات أهل الخليج والبلاد العربية المختلفة. وله مؤلفات عديدة، بعضها نشر وبعضها في طريقه إلى النشر. ومن أبرز ما نشره الكتاب المرجعي (المدينة المنورة عاداتها وتقاليدها منذ عام ٩٢٥ حتى عام ١٤٠٩).

ويترضون على أصحاب رسول الله. كما أنّ في العلاوات من صار على نهجهم. والعلاوات قبيلة لها مكانتها في المدينة المنورة بعد الأشراف. من يقذفهم يظلمهم، أما الذين يقذفون النخاولة فأولئك حساد ومغرضون، هدفهم تشويه سمعتهم، والإساءة إليهم، وبهتهم ظلماً وعدواناً.

وقد ذكر بعض المؤرخين مثل صاحب (قرمية الأنصار) أشياء خارجة عن المألوف وعن أمانة التأليف والصحافة، وفيها من المبالغات الشيء الكثير. وواقع الأمر أنّ من يحب آل البيت، ويترضى عن الصحابة، له المكانة العليا على وجه الأرض وخاصة في طيبة الطيبة التي لا يُغبن فيها كريم؛ صورة حب وولاء وإخلاص، وعلى العكس تماماً مما ذكره المؤلف، فإنّ الصورة المتصف بها النخاولة عند كل من عرفهم وتعامل معهم هي صورة حب وولاء وإخلاص لولاة أمورهم، ولمن جاورهم وعاشرهم واستعان بهم وتعامل معهم. تلك الصفات قلَّ ما تجدها في الغير. ويعلم الله أنا ما شهدنا إلا بما علمنا، وما كنا للغيب حافظين »[1].

٢- الأشراف:

وهم بعد النخاولة في العدد، وهم سادة من بني هاشم. وليس كل الأشراف -الآن- من المسلمين الشيعة.

يقول صاحب كتاب رحلات إلى شبه الجزيرة العربية عن الأشراف: « وتشغل هذه الأسر حياً خالصاً بها، وتحقق مكاسب هائلة خاصة من الحجاج الفرس الذين يفدون إلى المدينة. وتوصف هذه الأسر بشكل عام بأنها من أهل البدع بمعنى اعتقادها نفس عقائد الفرس -الشيعة- في علي بن أبي طالب رضي الله عنه. كما يتهم أهل هذه الأسر بأنهم يمارسون شعائر عقيدتهم على نحو سري، وإن كانوا يتظاهرون بأنهم من أنصار عقائد السنّة، غير أنّ في هذا القول تعميماً شديداً، إذ يشكك فيه عدد كبير من خيار الناس، ولكن بني حسين ذوي النفوذ الفائق في المدينة يتبعون ظاهراً

(١) نقلناه -بتمامه- عن موقع ملتقى قبيلة حرب الرسمي الإلكتروني.

عقائد أهل السنة بشكل صارم، ولذا فإنّ أحداً لا يتعرض لهم بأذى »[١].

وقال حمد بن إبراهيم الحقيل: «إنّ من بين من ينتمي إلى هذه القبيلة (الأشراف) في المنطقتين الغربية والجنوبية من المملكة: الحيادرة، والنسبة إليهم حيدرية، وهم بطن من بني جعفر الصادق يُعرفون ببني أيمن. وآل ابراهيم ويسكنون ينبغ النخل، وآل حسين مع قبيلة الضفير -سادة حسينيون »[٢].

ويقول المؤرخ الشيخ عبد الله فرج الزامل الخزرجي الأنصاري:

« بيوت أشراف المدينة المنورة من بعد رسول الله في القرن الخامس، يسكنها الأشراف آل حيادر والشداقمة الحسينيين[٣] وأحفاد زين العابدين بن الحسين بن علي ابن فاطمة. فهولاء أقدم أسر بيوتهم شرقي وجنوب المدينة، وأملاكهم منتشرة جنوب المدينة وشماليها ووسطها، وبعض دورهم في مقعد بني حسين مطلّة على سوق البرسيم قديماً، ولهم حوش الأشراف وبساتين كثيرة ترامت على خط قربان وسوالة وغيرها، وهم أناس تعددت أفرادهم وخصلهم، ولهم أوقاف كثيرة تولوها عدة نظار، سيرهم حميدة وسلوكهم طيب، وشمائلهم واسعة، متصفين بالخلق الحسن الكريم »[٤].

فالأشراف -كما قلنا- يأتون بعد النخاولة في العدد، وهم سادة من بني هاشم. كما أنهم ينتشرون في مناطق اخرى غير المدينة المنورة مثل مكة المكرمة وجدّة والطائف ومدن المملكة الجنوبية.

ومن المعروف تاريخياً أنّ الأشراف في مكّة لم يكونوا شيعة إمامية، بل كانوا على مذهب الشيعة الزيدية، وأنّ المماليك كانوا على مذهب السنّة، وقد حكم الأشراف المناطق المقدسة سنوات طويلة في القرون الماضية وحتى وقت قريب أيضاً.

---

(١) رحلات إلى شبه الجزيرة العربية وجوارها: ص ٣٠٨-٣٠٩.
(٢) كنز الأنساب ومجمع الآداب، حمد الحقيل: ص ١٣٨.
(٣) وهم الذين يعرفون في القديم (آل جمّاز).
(٤) نقلناه -بتمامه- عن موقع ملتقى قبيلة حرب الرسمي الإلكتروني.

٣- بنو جهم:

وهم بنو جهم ولد محمود، من بني عمرو، من قبائل حرب وجهينة (الحروب)؛ حيث اعتنق بعض أفرعها المذهب الشيعي (فرع بني علي/ الفريد، وغيرهما). وقد أشار أحد الكتاب إلى انتشار المذهب الشيعي بين قبائل حرب وجهينة.

ويسكنون قرية «أبو ضباع» وهي آخر قرى وادي الفُرْع الذي يتكون من عدة قرى، وهي: الريان، الفقير، السدر، المضيق، أم العيال، أبو ضباع.

ووادي الفُرْع يبعد عن المدينة النبوية قرابة (١٧٥كم) على طريق مكة.

وجميع قرى وادي الفُرْع أهلها من بني عمرو الحروب السنّة، إلا قرية أبو ضباع، التي تعتبر مركز التشيع في الوادي، التي يسكنها بنو جهم وبعض الأشراف الشيعة.

وهي عدة خيوف[1]، ويسكن هذه الخيوف قبائل الجهمية الشيعة، وهم:

١- قبيلة العبيدي الجهمي، وفيهم رئاسة الجهمية.

٢- قبيلة العلاسي الجهمي، ويتبعه القفه والنواصرة.

٣- قبيلة الثميري الجهمي، وحليفه المالكي الجهمي.

٤- قبيلة الجعفري الجهمي.

٥- قبيلة الجراري الجهمي، ويتبعه البغولي.

ويوجد جزء من هؤلاء الشيعة خارج أبو ضباع ووادي الفُرْع، وخاصة في قرية السويرقية، في منطقة «مهد الذهب»، التي يسكنها قبيلة البغولي وبعض الأشراف. وبعض الجهمية يسكن «القاحة»، وتُسمى «أم البرك».

ويوجد في جدّة حي يسكنه الكثير من الجهوم الشيعة.

---

(١) الخيف هو المنطقة التي يكثر فيها أشجار النخيل.

والمرجع الديني في قرية أبو ضباع الشيخ علي حميد العلاسي، وقد درس في العراق، وهم على علاقة وثيقة بالنخاولة. وبعض الجهوم يسكن في أحياء النخاولة في المدينة.

٤- المشاهدة:

وهي أسرة أصولها عربية، ولهم تمركز في المدينة، ويوجد بعضهم في مكة.

ومن آل المشهدي الكاتب والروائي محمد بن عيسى المشهدي[1].

والأحياء التي يسكنها الشيعة في المدينة النبوية وما حولها:

١- وسط المدينة جنوب الحرم المدني، حيث يوجد حي كان يسمى فيما مضى بزقاق النخاولة، أو محلة النخاولة، ويسمى في الوقت الحالي بحي الروضة، كما يوجد النخاولة شمال غربي المسجد النبوي في باب الكومة.

٢- قُباء: كانت قرية تبعد ميلين عن المدينة النبوية، والآن أصبحت حياً من أحيائها الجنوبية، ويسكن الحي أكثرية من النخاولة.

٣- قُربان: حي جنوبي المدينة النبوية، ويسكنه إضافة إلى النخاولة شيعة الحروب الجهوم.

٤- حي العوالي: جنوب شرقي المدينة النبوية، ويسكنه النخاولة وشيعة الحروب بكثرة، وبعض الأشراف. وفي بعض الأحياء يوجد طوائف منهم، كما في الحارة الشرقية التي يوجد فيها طائفة من الأشراف وبعض النخاولة، وكذا الحارة الغربية، وحي العيون.

٥ - أبو ضباع: آخر قرى وادي الفُرْع. ووادي الفُرْع من أطول أودية الحجاز،

---

(١) وبالطبع هناك أعداد غير قليلة من الشيعة الزيدية أقامت في السنوات الأخيرة في المدينة المنورة.

وأغناها عيوناً، إذ لا تزال فيه عشرون عيناً جارية، وقيل إنها أول قرية مارت إسماعيل التمر بمكة، وبه مسجد صلّى به النبي ﷺ، وهو يبعد عن المدينة مسافة (١٧٥كم) على طريق مكة. ويسمى وادي النخل أيضاً لكثرة النخيل فيه، وقد يسميه بعضهم وادي بني عمرو؛ ذلك أنه لا يكاد يخالط بنو عمرو من حرب فيه أحد، وكان إذا ادّعى أحد أنه عمري قيل له: أين نخلك من وادي النخل؟! والوادي فيه عدة قرى (كما سبق ذكرها) آخرها قرية أبو ضباع التي يتمركز فيها الشيعة من الجهمية الحروب، وبعض الأشراف.

٦ - ينبع النخل: ويطلق هذا الاسم على جهة واسعة على شكل عقد من القرى ينتظم من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي. والمنطقة عامرة بالسكان والبساتين وتبعد عن المدينة المنورة حوالي ١٥٠ كيلومتراً. ولآل علي عليه السلام أوقاف وصدقات كثيرة فيها[١].

٦ - قرية السويرقية: وتقع جنوب شرقي المدينة، وغالبية سكان القرية من الشيعة الأشراف، ويسكنها طائفة من الجهوم الشيعة. وكذا قرية القاحة التي تسمى (أم البرك).

٧ - مهد الذهب: وهي القرية المعروفة بمناجم الذهب، ويتواجد فيها عدد غير قليل من الشيعة من قبائل عربية متفرقة.

(١) انظر: الملحق (٢).

مزارات الشيعة

المدينة النبوية مليئة بالمزارات التي يقصدها الشيعة. وفيما يلي عرض لأشهر هذه المزارات، والتعريف بها:

١ - البقيع: ويقع في الجهة الجنوبية الشرقية للمسجد النبوي. وكان مقبرة قبل الإسلام، حيث إنّ أهل يثرب كانوا يدفنون موتاهم فيه. وفي البقيع: قبر إبراهيم بن رسول الله ﷺ - قبور بنات الرسول - قبر فاطمة بنت أسد - قبر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه - قبر الإمام الحسن بن علي - قبر علي بن الحسين - قبر محمد بن علي الباقر - قبر جعفر بن محمد الصادق - بقيع العمّات (صفية، وعاتكة) - قبر أم البنين زوجة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - قبر محمد بن زيد بن علي - قبر إسماعيل بن جعفر الصادق - قبر زوجات الرسول ﷺ - قبر السيدة حليمة السعدية مرضعة رسول الله ﷺ - قبر عقيل بن أبي طالب - قبر عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - قبور جملة من صحابة الرسول ﷺ.

٢ - بيت الأحزان، وهو المكان الذي تبكي فيه فاطمة عليها السلام بعد وفاة أبيها رسول الله ﷺ، وهو بجوار بيت عقيل. وفي زمن الدولة العثمانية بنوا مقاماً صغيراً من الحديد في ذلك المكان، إلا أنّ التهديم شمله سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م.

٣ - شهداء أحد: وهذا الموقع كان فيه عدة آثار: قبر حمزة سيد الشهداء، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، وقبور الشهداء، وبجواره مسجد سمي بمسجد حمزة، وفي سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م أمر السلطان أشرف قاتيباي ببناء قبة فوق

قبور الشهداء، وجعلوا ضريحاً من الحديد فوق القبور داخل القبة.

٤ - مسجد أحد، ومسجد علي بن أبي طالب.

٥ - المكان الذي جُرح فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٦ - مسجد المصرع، وهو الوادي والمكان الذي صُرع فيه حمزة.

٧ - مسجد الرماة، وهو المكان الذي وقف فيه الرماة.

٨ - مسجد الثنايا (قبة الثنايا)، وهو المكان الذي كُسرت فيه ثنايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٩ - مسجد الفسح.

١٠ - مسجد المستراح، وهو المكان الذي استراح فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أحد، ويقع مكانه في جوار مدرسة عمرو بن الجموح الآن.

١١ - مسجد الدرع، أو مسجد البدائع. وفي هذا المكان صلّى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاة العصر وصلاة المغرب والعشاء والصبح، ولبس فيه لباس الحرب، فلذا سمي بمسجد الدرع. وهو الآن خربة.

١٢ - مقبرة محمد بن عبدالله، ذي النفس الزكية، قتل سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م. ومشهده شرقي جبل (سَلْع) وعليه بناء كبير بالحجارة السوداء، وهو داخل مسجد كبير مهجور.

وكل هذه الآثار أزيلت من قبل الوهابية، الذي تعتبره الحكومة السعودية مذهباً رسمياً لها، متذرعة بأنّ هذه الأماكن مرتعاً للبدعة، ووسيلة للشرك.

١٣ - قبر الفقيه العالم علي العريضي بن الإمام جعفر بن محمد الصادق، وكان قبره في جهة المطار على بعد (٦ كم) شرقي جبل أحد. وعليه مبنى، وقد أقدمت الحكومة السعودية -من دون مبرر- بهدم مسجد العريضي وملحقاته والذي منه قبر علي بن جعفر العريضي.

١٤- الربذة: من قرى المدينة، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه. وتقع الربذة شرق المدينة من جهة ينبع. ويوجد في الربذة أيضاً قبر أبو جعفر عبدالله بن الحسن بن الحسن بن الإمام الحسن.

١٥- غدير خم: اسم منطقة شرق الجحفة، واديهما واحد، تبعد عن مكة حوالي ١٥٦كم بالقرب من قرية رابغ. ويعرف غدير خم اليوم باسم «الغُرَبَة» وهو غدير عليه نخل قليل لأناس من البلادية من حرب، وهو في ديارهم. يقع شرق الجحفة على بعد ٨كم. والشيعة يعظّمون هذا المكان؛ لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نصّب علياً إماماً وولياً من بعده في هذا المكان.

وقد بني مسجد في هذا المكان، وعلى يسار المسجد من جهة القبلة المكان الذي وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما نصّب علياً بالإمامة. وقد هدم السيل بعضه وذلك في عهد الدولة العثمانية، وأصلح المسجد عدة مرات على أيدي بعض ملوك الهند الشيعة.

١٦ - الأَبْوَاء: وهي قرية من أعمال الفُرْع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة حوالي ٤٥كم. وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كان البقيع وبقية المشاهد قبل الحكم السعودي مليئة بالقبب والأضرحة.

يقول الرحالة ابن جبير -واصفاً البقيع أثناء زياراته-: «إنّ البقيع الغرقد، واقع شرقي المدينة، تخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع... وأول ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهد صفية عمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الإمام المدني رضي الله عنه، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء... وتليها روضة العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، والحسن بن علي رضي الله عنه، وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور وعن يمين الخارج منه. ورأس الحسن رضي الله عنه إلى رجلي العباس رضي الله عنه. وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع إلصاق، مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمسامير على أبدع

صفة وأجمل منظر. وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم ابن النبي ﷺ. ويلي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت رسول الله ﷺ يعرف ببيت الحزن »[١].

لقد استمرت هذه القبب والأضرحة باقية حتى جاءت الدعوة الوهابية، فأزال أئمة هذه الدعوة هذه القباب والأضرحة؛ متذرعة بنهي النبي ﷺ عن ذلك، ولأنه وسيلة للشرك.

ويصف الدكتور حمزة الحسن ما حلّ بهذه القباب والأضرحة والمساجد المبنية على القبور عند دخول الوهابية فيقول:

« في عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م احتل الوهابيون مدينة الرسول، فلم يبقوا في البقيع ولا خارجه حجراً على حجر، حتى المساجد هدموها، وحاولوا مراراً هدم قبة الرسول ﷺ إلا أنّهم غيّروا رأيهم... لقد خرّب الوهابيون ودمروا قبور شهداء أحد، والمسجد المقام على قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ودمروا المساجد التي خارج البقيع، مثل مسجد الزهراء، ومسجد المنارتين، ومسجد المائدة (وهو الموقع الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ سورة المائدة)، وكذلك مسجد الثنايا الذي دُفنت فيه ثنايا رسول الله ﷺ التي تكسرت في معركة أحد.

أما البقيع فأصبح قاعاً صفصفاً، لم يبقَ به أية قبة، وأصبح ذلك المزار المهيب على مر القرون للملايين من المسلمين مجرد مزبلة لا يكاد يعرف الزائر بوجود قبر فيه، فضلاً عن أن يعرف صاحبه ».

وبعد عودة المدينة إلى الحكم العثماني أعادوا بناء القبب. يقول:

« وبعد هزيمة الوهابيين، بدئ في عام ١٨١٨م في عهد السلطان العثماني عبدالمجيد ثم في عهد السلطان عبدالحميد ومحمود إعادة إعمار الحرم المدني والبقيع وتراث المسلمين الخالد في أحد... ثم جددت الأبنية كما يبدوا عام

---

(١) انظر: أضواء على معالم المدينة المنورة، حسين علي المصطفى.

١٨٤٨-١٨٦٠م وصرفت مبالغ هائلة قدرت بسبعمائة ألف جنيه إسترليني بعضها من أموال الحجرة النبوية »[١].

إلا أنّ جيش الملك عبد العزيز من الإخوان أعادوا السيطرة على الحجاز بدأ من عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م وكان سقوط المدينة قد تم في أواخر ديسمبر عام ١٩٥٢م فأزالوا ما فيها من قبب وأضرحة ومساجد مقامة على القبور.

بالإضافة إلى المدينة المنورة وقراها هناك وجود للشيعة في مكة المكرمة والقرى المحيطة بها، والطائف وجدة (التي يوجد بها حيّ كبير من الشيعة الحروب).. ويقدّر عدد الشيعة الإثنا عشرية في هذه الأمكنة بنحو عشرين ألف نسمة، ولقسم آخر من الشيعة (الزيود) وجود قوي في المدن الحجازية، ويقدّر عددهم في مناطق جنوب وغرب المملكة -حيث وجودهم الأساس- بمائة وستين الف نسمة.

(١) تاريخ الشيعة في السعودية: ج ٢ ص ٢٠٥-٢٣٢.

العلاقات السياسية

لقد اتسمت العلاقة بين شيعة الحجاز وبين الدول المتعاقبة عليها بفترات احتقان تخبو فترة وتنفجر فترة أخرى، وخاصة في العصر العثماني الذي كان ينظر إلى الدولة الصفوية في إيران كمنافس وعدو خطير.

لقد اتسمت العلاقات بين الدولة الصفوية الناشئة والعثمانيين بالهدوء، وساعد على ذلك أنّ السلطان بايزيد الثاني -الذي تولّى بعد محمد الفاتح- كان رجلاً يُحب السلام ويُحب الأدب والفلسفة، ويميل إلى دعم العلاقات العثمانية الصفوية، لكنه حين علم أنّ إسماعيل الصفوي يتمادى في إلحاق الأذى بالسنّة، مما جعلهم يهربون إلى الأراضي العثمانية كتب إليه أن يلتزم بالعقل والحكمة في معاملتهم.

ومع تولّي السلطان سليم الأول مقاليد الحكم في الدولية العثمانية ازداد التوتر بين الدولتين[1]، وكان سليم الأول ينظر بعين الارتياب إلى تحركات الصفويين، ويخشى من تنامي قوتهم وتهديدهم لدولته؛ فعزم على مهاجمة خصمه وتسديد ضربة قوية قبل أن يستعد للنزال.

جمع السلطان سليم الأول رجال الحرب والعلماء والوزراء في مدينة أدرنة

(١) انظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ج ٧ ص ٣٦؛ الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي: ص ٢٤٦ - ٢٤٨؛ جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس: ص ٤٣٥ - ٤٣٧؛ فتح العثمانيين عدن: ص ١١٣؛ قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين: ص ٦٣-٦٤.

في ١٩ محرم سنة ٩٢٠هـ/ ١٦ من شهر مارس سنة ١٥١٤م، وذكر لهم خطورة إسماعيل الصفوي وحكومته الشيعية في إيران، وأنه اعتدى على حدود الدولة العثمانية، وأنه فصل بدولته الشيعية المسلمين السنيين في وسط آسيا والهند وأفغانستان عن إخوانهم في تركيا والعراق ومصر.

ولم يجد السلطان العثماني صعوبة في إقناع الحاضرين بضرورة محاربة الصفويين؛ لأنهم صاروا خطراً داهماً يهدد وجود العثمانيين، وخرج بعد ثلاثة أيام من هذا الاجتماع على رأس جيش كبير متجهاً إلى إيران، ولم ينسَ وهو في طريقه أن يكتب إلى عبيد الله خان قائد الأوزبك يذكّره بقتل عمه شيباني، ويحثه على الانتقام من إسماعيل الصفوي، ومهاجمة خراسان بمجرد وصول الجيش العثماني إلى إيران، وكان هدف سليم من ذلك أن يجعل إيران بين شقّي الرحى من الغرب بهجومه، ومن الشرق بهجوم عبيد الله خان على خراسان.

حين علم إسماعيل الصفوي بقدوم القوات العثمانية -وكان مشغولاً بإخراج الأوزبك من خراسان- عمل على تعطيل وصولها، فأمر بتخريب الطرق والقرى الواقعة في طريق الجيش العثماني؛ الأمر الذي أخّر وصول العثمانيين وأنهك قواهم، لكن ذلك لم يمنعهم من مواصلة السير إلى إيران، والإقامة في «سيواس» انتظاراً للمعركة الحاسمة.

لم يبد إسماعيل الصفوي حماساً للمعركة، وحاول أن يتجنب ملاقاة العثمانيين باستدراج الجيش العثماني إلى داخل إيران، ليقطع خطوط الإمدادات عليه، لكن سليم الأول كان منتبهاً لما يدور في ذهن خصمه، فعزم على الإسراع في لقاء الصفويين، وخاصة بعد أن بدأ التذمر يشق طريقه إلى جنود العثمانيين من طول الانتظار وكثرة الانتقال من مكان إلى آخر.

التقى الفريقان في صحراء جالديران في شرق الأناضول في الثاني من رجب سنة ٩٢٠هـ/ الرابع والعشرين من أغسطس سنة ١٥١٤م، وانتهت المعركة بهزيمة

إسماعيل الصفوي هزيمة نكراء، وفراره من أرض المعركة إلى أذربيجان، ووقوع كثير من قواده في الأسر.

وفي الرابع عشر من شهر رجب من هذا العام الخامس من سبتمبر دخل سليم الأول مدينة تبريز عاصمة الصفويين واستولى على أموال إسماعيل الصفوي وبعث بها إلى إستانبول، ثم قفل راجعاً إلى بلاده، مكتفياً بهذا النصر الكبير، غير راغب في اقتفاء أثر إسماعيل الصفوي والتوغل في بلاده.

وعلى الرغم من الهزيمة المدوّية التي لحقت بإسماعيل الصفوي، فإنها لم تحسم الصراع لصالح العثمانيين، وظل كل طرف يتربص بالآخر وينتهز الفرصة للانقضاض عليه، ونظراً لفداحة خسائر الصفويين؛ فقد حاول إسماعيل الصفوي أن يبرم صلحاً مع السلطان سليم الأول، لكن محاولته لم تلق قبولاً لدى السلطان العثماني، بل زجّ السفيرين اللذين أرسلهما إسماعيل في السجن؛ تعبيراً عن رفضه للصلح.

ولا شك أنّ هذا التوتر كان يلقي بظلاله على الحجاج الشيعة الوافدين من إيران والعراق مما انعكس أمره على واقع الحج في بعض سنينه، وجرت مجازر ومذابح جرّاء انقسام المسلمين إلى معسكرين وإلى طائفتين متناحرتين. ولو رصدنا بعض ما جاء في التاريخ لوقفت على جزء من الحوادث المؤلمة التي تعرض لها أفراد أو جماعات من حجاج بيت الله الحرام في مكة المكرمة:

١ - قتل العالم الفقيه المحدِّث السيد الشهيد زين العابدين بن نور الدين مراد بن علي بن مرتضى الحسيني الكاشاني نزيل مكة المكرمة، والذي وفّق لتأسيس بيت الله الحرام بعد انهدامه سنة ١٠٣٩هـ/ ١٦٣٠م بسبب سيل عظيم، قتل هذا السيد الجليل لأجل تشيعه، ودفن بالمعلّى[1].

(١) رياض العلماء: ج ٢ ص ٣٩٩، وبحار الأنوار: ج ١٠٧ ص ١٤ الإجازة ٨٣، وخاتمة المستدرك: ج ٢ ص ١٨٥، وأعيان الشيعة: ج ٧ ص ١٦٨، وشهداء الفضيلة: ص ١٨٠، وطبقات أعلام الشيعة ق ١٢: ص ٢٣٨.

٢- من الحوادث المريرة منع العجم من الحج، حيث ذكر الأستاذ المؤرخ أحمد السباعي: «أنه صدر الأمر العثماني بمنع حاج العجم من الحج والزيارة، فوصل الخبر في موسم عام ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٣م فأمر من ينادي في أسواق مكة لتبليغ حاج العجم ذلك، وهم يبلغون إخوانهم إذا رجعوا».

ويضيف الأستاذ السباعي: «بأنّ تواريخ مكة وإن لم تذكر سبباً ظاهراً لهذا المنع إلا أنّ حوادث التاريخ الإسلامي تفسِّره تماماً؛ لأنّ المتتبع يعلم أنّ العجم قد هاجموا بغداد سنة ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م وأجلوا العثمانيين عنها وقد ظلت في حيازتهم إلى عام ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٣م حيث أجلتهم عنها جيوش السلطان مراد»[١].

وكتب -في هذا الصدد- الدكتور علي الوردي في كتابه الرائع (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث): أنّ النزاع الصفوي العثماني كان له أثره في الحجاز؛ ففي موسم الحج من عام ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٣م ورد أمر من السلطان العثماني بمنع العجم، (أي الإيرانيين)، من الحج و الزيارة، وقد نودي بهذا الأمر في أسواق مكة لتبليغ العجم بذلك ليبلغوا إخوانهم بذلك عندما يعودون إلى بلادهم[٢].

٣- هجوم الأعراب على الحجاج العائدين من مكة المكرمة بعد أداء مناسك الحج والعمرة في سنة ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م، يقول الشيخ أحمد الحر واصفاً تلك الحادثة:

«وفي سنة ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م أخذت الأعراب حجاج العجم في طريق لحسا (الإحساء) بعدما حجوا، وفُقد منهم خلق كثير، وكان فيمن فقد أخي الأصغر الشيخ علي، وسلم أخي الأكبر الشيخ محمد، وكان قد مضى على طريق البحرين، ومعه ملا خليل القزويني الأخباري وجماعة...»[٣].

---

(١) تاريخ مكة: ج ٢ ص ٢٩.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ج ١ ص ٧٦.

(٣) تاريخ مكة: ج ٢ ص ٧١.

أقول: ليست هي الحادثة الوحيدة التي استهدفت العالم الفقيه الشيخ محمد (الحر العاملي) بالقتل، بل استهدفته حادثة أخرى في العام التالي أيضاً، حيث كان الشيخ الحر رحمه الله «من متعيني الشيعة في مكة المكرمة»[1]، ومسؤولي الحجاج القادمين من إيران الصفوية، مما يوضح لنا مدى تحرك العصبيات السياسية والطائفية في هذا الموضوع.

٤- لقد نشر الطائفيون بين سكان مكة إشاعة مفادها أنّ الشيعة لا يتم حجهم إلا إذا لوثوا الكعبة بالنجاسة. وقد صدق الكثير من الناس بهذه الإشاعة كما هي عادة الناس، (الجهلة والأغبياء)، ويزداد عندما يستفحل التعصب الطائفي لديهم.

وفي ٨ شوال ١٠٨٨هـ/ ٤ ديسمبر ١٦٧٧م وقعت فتنة طائفية جراء تلك الإشاعة، نقل الوردي وصفاً لتلك الحاثة مقتبساً عن كتاب (سمط النجوم العوالي) لعبد الملك العصامي فكتب: «وفي سنة ١٠٨٨هـ يوم الخميس ثامن شوال منها وقع حادث غريب، وكارث عجيب، هو أنه وقع في ليلته أن لُـوّث الحجر الأسود وباب الكعبة ومصلّى الجمعة وأستار البيت الشريف بشيء من العذرة والخبث، فصار كل من يريد تقبيل الحجر يتلوّث وجهه ويداه، ففزعت الناس من ذلك، وضجّت الأتراك واجتمعت، وغُسل الحجر والباب والأستار بالماء، وبقي الأتراك والحجّاج والمجاورون في أمر عظيم. وكان إذ ذاك رجل من فضلاء الأروام (أي الأتراك) يلقّب درس عام، يرى جماعة من الأرفاض (أي الشيعة) بالمسجد الحرام، وينظر إلى صلاتهم وسجودهم وحركاتهم عند البيت والمقام، فيتحرق لذلك ويتأوه. فلما وقع هذا الواقع قال: ليس هذا إلا من فعل الأرفاض اللئام، الذين يلازمون المسجد الحرام»[2].

ثم استمر الوردي في نقله عن العصامي فكتب: «وكان السيد محمد مؤمن الرضوي قاعداً خلف المقام، يتلو كتاب الله ذي الجلال والإكرام، فأتوا إليه،

(١) خلاصة الأثر: ج ٣ ص ٤٣٣.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ج ٧ ص ٣٧.

وأُخذت الختمة من يديه، وضُرب على رأسه، وسُحب حتى أُخرج من باب المسجد المعروف بباب الزيادة، فطُرح خارج الباب، وضرب بالحجارة والكسارات حتى زهق ومات. وفي حال مسكهم إياه من المسجد كلّمهم فيه شخص شريف من السادة الرفاعية يُسمى السيد شمس الدين، فعدّوا عليه وألحقوه به، فضُرب حتى مات وجُرَّ. ثُم أصابوا آخر فضربوه وأخرجوه وقتلوه، وعلى من قبله طرحوه. ثم فعلوا ذلك برابع، ثم بخامس. ولقد رأيتهم مطروحين، وبقي بعضهم على بعض، الآتي والذاهب يوسعهم السب والركل. ولقد رأيت ذلك الشيء، وتأملته فإذا هو ليس من القاذروات، وإنما هو من أنواع الخضراوات.. »[1].

يظهر مما تقدم مدى احترام مثل هؤلاء المسلمين لحرمة ما يُسمى بالبيت الحرام، ومدى تقديسهم لكتاب الله فيسحلوا قارئه ويضربوه ويقتلوه، مثلما فُعل بالخليفة الثالث عثمان بن عفان، إذ وكما يقولون أنه قُتل وهو يقرأ القرآن.. كما يظهر من الحادثة مدى تطبيقهم للآية التي تقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾[2]. لقد ظنوا ودنسوا الكعبة وقتلوا.

ثم يذكر العصامي أنه قد رأى الشيء الذي قيل عنه أنه من النجاسات و تأمله فإذا به ليس من القاذورات، وإنما هو نوع من أنواع الخضروات، عجين بعدس ممخخ وأدهان معفنات. ثم أعطى رأيه في الحادثة فكتب: « وغلب عليّ بعض الظنون أنّ ذلك جُعل عمداً وسيلة إلى قتل أولئك ».. ولم يخطأ العصامي في ظنه.

يقول الأديب المؤرخ المحبي الحنفي -في ترجمة الشيخ الحر -: « قدم مكة في سنة سبع وثمان وثمانين وألف، وفي الثانية منهما قتلت الأتراك بمكة جماعة من

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ج ٧ ص ٣٧ - ٣٨. نقلًا عن: سمط النجوام العوالي لعبدالملك العصامي: ج ٤ ص ٥٢٩. وما أشبه البارحة باليوم حيث شاهدنا قبل عام واحد مقتل الشيخ الشيعي المصري حسن شحاتة مع مجموعة من أصدقائه حيث سُحلوا في الشوارع والأزقة وضُربوا حتى الموت أمام وسائل الإعلام.

(٢) الحجرات: ١٢.

العجم لما اتهموهم بتلويث البيت الشريف حين وجد ملوثاً بالعذرة، وكان صاحب الترجمة قد أنذرهم قبل الواقعة بيومين وأمرهم بلزوم بيوتهم،.. فلما حصلت المقتلة فيهم خاف على نفسه فالتجأ إلى السيد موسى بن سليمان أحد أشراف مكة الحسينيين، وسأله أن يخرجه من مكة إلى نواحي اليمن، فأخرجه مع أحد رجاله إليها »[1].

ويضيف الشيخ المحبي قائلاً:

« وهذه القصة التي قد ذكرها أفضح فضيحة، وما أظن أنّ أحداً ممن فيه شمة من الإسلام، بل فيه شمة من العقل يجترئ على مثلها، وحاصلها: أنّ بعض سدنة البيت شرفه الله تعالى اطلع على التلويث، فأشاع الخبر وكثر اللغط بسبب ذلك، واجتمع خاصة أهل مكة وشريفها الشريف بركات وقاضيها محمد ميرزا وتفاوضوا في هذا الأمر، فانقدح في خواطرهم أن يكون هذا التجري من الرفضة، وجزموا به وأشاروا فيما بينهم أن يُقتل كلّ من وُجد، فمن اُشتهر عنه الرفض ووُسم به، فجاء الأتراك وبعض أهل مكة إلى الحرم فصادفوا خمسة أنفار من القوم، وفيهم السيد محمد مؤمن، وكان كما أخبرت به رجلاً مسناً متعبداً متزهداً إلا أنه معروف بالتشيع فقتلوه، وقتلوا الأربع الأخر، وفشا الخبر فاختفى القوم المعروفون بأجمعهم، ووقع التفتيش على بعض المتعينين منهم، ومنهم صاحب الترجمة فالتجأوا إلى الأشراف ونجوا، ورأيت بخط بعض الفضلاء أنّ صاحب الترجمة رجع بعد القصة إلى العجم »[2].

وذيل كلام المحبي يكاد يفصح أنَّ ثمة مكيدة مدبَّرة لتصفية بعض علماء الشيعة المتعينين والمعروفين. وهذا ما أكدَّه العصامي في كلامه السابق، وأنها قصة مختلقة لأجل ارتكاب هذه المجزرة الفظيعة.

---

(١) خلاصة الأثر: ج ٣ ص ٤٣٢.

(٢) خلاصة الأثر: ج ٣ ص ٤٣٢.

وما إنذار الشيخ الحر لهم قبل المقتلة بيومين، إلا شهادة واضحة على أنّ الشيخ الحر كان قد أحس بالمؤامرة، وأنّ هناك مكيدة ترمي إلى الإيقاع بالحجّاج الإيرانيين، ولذا أمرهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلزوم بيوتهم؛ حقناً لدمائهم، وإخماداً للفتنة في البلد الحرام.

ويفصح السيد محسن الأمين أنّ من عادة أهل مكة أن يضعوا « طبيخ العدس الجريش في الشمس، في حر الحجاز، حتى ينتن، ثم يضعوا شيئاً منه في الحرم المكي الشريف، فإذا رأوا أحداً من حجاج الإيرانيين الشيعة، قالوا هذا وضع العذرة في الحرم الشريف، وأروا ذلك الناس وأشموهم رائحته، وانهالوا على ذلك الحاج بالضرب حتى يفقدوه الحياة أو يكاد »[١].

وممن فند هذه التهمة المؤرخ الأستاذ أحمد السباعي قائلاً:

« وفي شوال ١٠٨٨هـ أصبح الناس فإذا الكعبة ملطخة بما يشبه العذرة فاتهم الناس الشيعة بهذا جرياً على اعتقاد قديم لا أدري كيف تجيزه عقولهم، وهكذا اشتدت حميّة الأتراك المجاورين والحجّاج، فأوقعوا ببعض الشيعة، وقتلوا منهم أشخاصاً رمياً بالحجارة وضرباً بالسيوف، وينقل السيد دحلان عن العصامي في تاريخه أنّه رأى بعينه ما تلوثت به الكعبة فإذا هو من القاذروات، وإنّما هو من أنواع الخضروات عجن بعدس وأدهان معفّنات فصارت رائحته كريهة، وسواء صحّ هذا أو لم يصحّ فالواقع أنّ الإسلام في حاجة إلى التوادّ الذي يجمع كلّ المخالفين في جادة واحدة، وأنّ أبناءه في غنى عن أن يُوسعوا شقة الخلاف بينهم بما يتوهمونه في المخالفين منهم.

وشدّ ما يؤسفني أن يتوهم العامة إلى اليوم أنّ شيعة العجم لا يتم حجّهم في مذهبهم إلا إذا لوث الكعبة الحاج، لو كنا نحتكم إلى منطق العقل لعلمنا أنّ صحة الفكرة تقتضي أن تلوث الكعبة في كل عام بالألوف المؤلفة من القاذروات تبعاً

---

(١) أعيان الشيعة: ج ٥ ص ٤١٣.

لعدد الشيعة من الحجّاج وهو ما لا يسلم به الواقع الملموس، ولكننا نلغي عقولنا بالنسبة لمخالفينا »[١].

٥- قتل العالم الشيخ حسين بن إبراهيم الجيلاني التنكابني، فقد ضرب ضرباً مبرحاً حتى أدّى إلى استشهاده سنة ١١٠٥هـ/ ١٦٩٤م؛ حيث سافر « إلى مكة المعظمة، وأقام بها مدة، واتفق أن رأوه عند الطواف يلصق بطنه بالمستجار وبالأركان، حسبما وردت الرواية باستحباب ذلك عن أئمة أهل البيت، فاتهموه بأنه يمس البيت الشريف بعورته، فضربوه ضرباً مبرحاً حتى أشرف على الهلاك، ثم خرج من مكة مريضاً على تلك الحال -خوفاً منهم- قاصداً المدينة المنورة، فمات بسبب ذلك الضرب شهيداً بين الحرمين، ودفن بالربذة عند قبر أبي ذر الغفاري »[٢].

٦- النكبة التي تعرض لها الحجاج الشيعة سنة ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م عندما افترى عليهم بعض الحاقدين بتلويث الكعبة المعظّمة بالنجاسة، ثم هجموا على بيوتهم وطردوهم منها.

ويقول الأستاذ السباعي: « حدثت نكبة على الشيعة أعتقد أنها إحدى النكبات التي يتلظى المسلمون بسعيرها كنتيجة للتعصب وسوء الفهم بينهم وبين إخوانهم من أهل السنة، فقد وصلت قافلتهم متأخرة من ميعاد الحج في عام ١١٤٣هـ، فأقاموا في مكة لحضور الحج في عام ١١٤٤هـ، فزعم بعض العامة أنهم وضعوا نجاسة في الكعبة المعظمة، وثاروا لذلك، وثار بثورتهم العسكر، وقصد الثائرون القاضي، فهرب خوفاً من فتنتهم، ثم قصدوا إلى بيت المفتي فأخرجوه من بيته كما أخرجوا غيره من العلماء ذوي الهيئات، واجتمعوا عند وزير الإمارة وطلبوا إليه إقامة الدعوى دون أن يعيّنوا خصماً معلوماً، ثم استطاعوا بتألبهم أن ينتزعوا أمراً من الوزير بإبعاد الشيعة من مكة، وخرجوا إلى السوق ينادون بطردهم ونهب بيوتهم، وذهبوا في اليوم الثاني إلى بيت القاضي وطلبوا منه أن يتوسط لدى أمير مكة في

(١) تاريخ مكة، للسباعي: ص ٣٨٤.
(٢) الفوائد الرضوية: ص ٢٧٦.

التصديق على أوامر الوزير التي بأيديهم بإبعاد الشيعة، فامتنع الأمير، ثم ما لبث أن اضطر إلى مجاراتهم خوف الفتنة العامة. وهكذا خفّ بعض الشيعة إلى الطائف، وبعضهم إلى جدة ومكثوا مدة على ذلك حتى هدأت الفتنة... »[١].

٧- مقتل أحد السادة المؤمنين في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٦٢هـ/ ١٥ ديسمبر ١٩٤٣م؛ حيث «كان رجل أصفهاني من الذرية الطاهرة النبوية حاجاً مع والدته وأخته، وبه أثر المرض، فجاء يوماً إلى الحرم الشريف، ومن الازدحام والمرض جاشت نفسه وتقيأ فتلقى القيء بردائه، فشهد عليه بعض أهل صعيد مصر بأنه وضع العذرة على فيه وجاء لينجس الكعبة المشرفة، فقُبض عليه وحُكم عليه القاضي بالإعدام، ونُفذّ فيه الحكم في اليوم الثاني، فذُبح بين الصفا والمروة كما تُذبح الشاة.. ».

ويضيف السيد الأمين: «يا للفظاعة ويا للعار أن يُذبح السيد الشريف الذي هو من الذرية الطاهرة المؤمن الموحِّد المهاجر من بلاده لحجِّ بيت الله الحرام، والمنفق مئات الدنانير في هذا السبيل، والمتحمل أصعب المشاق في حرم يأمن فيه الوحش والطير بهذه التهمة السخيفة التي لا يصدّقها مَن عنده ذرة من عقل، وأن يكون من يظهر الإسلام من الفرنجة لأسباب سياسية يحج آمنا مطمئناً.

ولما بلغ ذلك مسامع الدولة الإيرانية احتجت على هذا العمل الفظيع، ومنعت رعاياها من الحج حتى يكونوا آمني السرب، فلم يحج في عام ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م أحد من الإيرانيين، وتبعهم في ذلك شيعة العراق، فلم يحج أحد منهم في ذلك العام، واستمر ترك الإيرانيين الحج إلى عامنا هذا، وهو عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، والله اعلم متى ينتهي ذلك.

ثم إنّ الحاكمين بذلك لما رأوا شناعة ما فعلوه، وفظاعته، ورأوا تنديد الناس عموماً بهم، أرادوا أن يستروا قبحه بما تضحك منه الثكلى، فأعلنوا أنه جاء في ذلك العام سبعة عشر مجوسياً إلى مكة، لينجسوا البيت والمقتول هو أحدهم. مع

---

(١) تاريخ مكة: ج ٢ ص ٧١.

أنّ المقتول كما قدمنا سيد شريف من أهل البيت الطاهر، مسلم موحد وماذا يجنيه المجوس من تنجيس البيت، وما الفائدة التي تعود عليهم من ذلك ليصرفوا مئات الألوف من الدنانير لأجله، وأي عاقل يقدم على ذلك من المجوس... »[١].

٨- الحادثة الأليمة التي حصلت مع الحجاج الإيرانيين سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م وراح ضحيتها المئات من القتلى والجرحى.

ولنا أن نتساءل: كيف سوغت لهؤلاء نفسها أن تقتل النفس البريئة في حرم الله الآمن عند بيته المعظم، والتي جعلها سبحانه وتعالى مكانَ أمنٍ وأمان؛ حيث دعا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل الحرم آمناً فقال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾[٢] واجعله واحة سلام لا يقتل الناس فيه بعضهم بعضاً، ولا يعتدي بعضهم فيه على بعض حتى أنّ الناس هناك لا يعتدون على الحيوان إذا لم يكن مؤذياً. ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ لأنه قال في آية أخرى: ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[٣] وقد أراد إبراهيم لهذا البلد أن يقصده الناس ليطوّفوا به ويعتكفوا ويدعوا أن يرزقه الله من الثمرات التي تجذب الناس إليه حتى تتأمن تمثل شروط الحياة الطبيعية.

وقد استجاب الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلناسِ وَأَمْناً﴾[٤]. والمثابة هو المحل الذي يرجع إليه الناس، وقد جعل الله عز وجل البيت مثابة للناس يجمع الناس ويرجعون إليه، ويقصدونه من كل فج عميق، ثم جعله آمناً يأمن الناس فيه بعضهم من بعض، ولا يحذر فيه أحد الآخرين على

---

(١) أعيان الشيعة: ج ٥ ص ٤١٣. وما زال الإعلام العربي رخيصاً تابعاً للمؤامرات السياسية والطائفية والعصبية.

(٢) البقرة: ١٢٦.

(٣) إبراهيم: ٣٧.

(٤) البقرة: ١٢٥.

نفسه؛ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾[١].

ولا شك أنّ لهذا الأمن فوائده وخصائصه، ومنها:

١ - إنّ الناس إذا شعروا بالأمن بعضهم من بعض، التقى بعضهم بعضاً من دون حذر، وتعامل بعضهم مع بعض وتلاقوا وتآلفوا وتعاونوا.

٢ - يعطي الأمن للناس الفرصة التي تتطلبها عملية الانتقال من الحياة الفردية، التي يعيشها الناس عامة إلى أن يكونوا أمة واحدة، وهو الذي يريده الله لعباده.

والأمن في الحرم أمن شامل، يشمل حتى الحيوان والنبات، فلا يجوز الصيد في الحرم، ولا يجوز قطع النباتات والأشجار في منطقة الحرم إلا في حالات خاصة.. وحرمة الصيد وقطع النباتات لا تخص حالة الإحرام، فإنهما تحرمان على المحرم والمحل معاً في منطقة الحرم. وكذلك حرّم قتل من التجأ إليه ولو كان مجرماً، وإنما يضيّق عليه للخروج منه.

ملامح الاتجاه الوهابي في مكة والمدينة:

في منهج الدولة السعودية الأولى تجاه الحرمين الشريفين تجلّى فكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب بصورة واضحة، ذلك أنّ الشيخ ابن عبد الوهاب كان يرى أنّ زيارة أضرحة الأولياء الصالحين يعدّ نوعاً من أنواع الشرك، وكان يرى أنه من الضروري هدم هذه الأضرحة بالقوة، واعتقدت الدولة كذلك أنّ هذه الدعوى هي الفرقة الناجية الوحيدة.

تمكّن الوهابيون من فرض نفوذهم على نجد، فكان أول ما فعلوه هو هدم ضريح الصحابي زيد بن الخطاب في بلدة الجبيلة[٢]، وكان ذلك قبل التحالف آل سعود، ولكن التحالف السعودي - الوهابي قام بالزحف عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م

---

(١) العنكبوت: ٦٧.

(٢) نتلابح نجد، حسين بن غنام: ص ١١-١٢.

على رأس جيش من أهل نجد وبواديها إلى كربلاء بالعراق فقاتل أهلها واقتحمها، وقتل من أهلها قرابة الألفين، وهدّم فيه ضريح الإمام الحسين عليه السلام، وانتزعوا واستولوا على كل ما وصلت إليه أيديهم من كنوز كربلاء ومشهد الحسين عليه السلام الذي كان مزداناً بمقصورة مرصعة بالزمرد والياقوت والجواهر(١).

وعندما استولى السعوديون على الحجاز قاموا بفظائع، حيث قاموا بهدم مقبرة المعلّى في مكة المكرمة، كما هدّموا قبر السيدة خديجة، أما في المدينة المنورة فقد هدموا الأضرحة المقامة في البقيع، وهدّموا كل قبور أهل البيت المدفونين فيه، وامتد إلى هدم وتدمير مسجد فاطمة الزهراء ومسجد المنارتين، ومسجد المائدة وهو المسجد الذي بُني على المكان الذي نزلت فيه سورة المائدة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قاموا بهدم مساجد شهداء أحد، وتدمير قبور حمزة ومصعب بن عمير وغيرهما من شهداء موقعة أحد، كما دمّروا مسجد الثنايا، وهو المسجد الذي ضم ثنايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي كُسرت أثناء موقعة أحد.

لقد أراد الوهابيون من كل ذلك إجبار المسلمين في اعتناق ما قالوا عنه بأنه الإسلام الحقيقي، فهم -كما يعتقدون- أهل السنّة الحقيقيون وهم الفرقة الناجية الوحيدة من النار، وأنها جاءت بمنهج السلف من أجل تنقية عقائد المسلمين من الشرك والخرافة والبدع.

ولم يكتف الجيش السعودي -في عهد الأمير سعود الكبير- بما فعل بل أراد هدم قبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وخشي سعود من ردّ فعل مسلمي العالم ورد فعل السلطان العثماني(٢)، فلم يهدمها، ولكن امتدت الأيادي الوهابية إلى الحرم النبوي، فقد أمر

---

(١) متفاح الكرامة: ج ٥ ص ٥١٢.

(٢) مازالت هناك بعض الدعوات لهدم القبة النبوية الشريفة؛ انظر: حكم القبة المشيدة على قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، تأليف: مقبل بن هادي الوادعي، بإشراف حماد الأنصاري: ص ٤١. بينما سكت آخرون عن هذا الأمر لعدم الأمن من الفتنة؛ انظر: تحرير القواعد المتعلقة بأحكام زيارة القبور والمشاهد، لأحمد محمد النجار: ص ١٢٤ - ١٢٦.

سعود خدم الحرم النبوي بأن يخبروه عن خزائن حجرة النبي، فرفضوا، فجلدهم بالسياط وحبسهم وعذّبهم حتى أخبروه ودلّوه عليها، وفيها تاج كسرى أنوشروان الذي غنمه المسلمون منذ أيام معركة القادسية، وكذلك سيف هارون الرشيد، وعقد من الذهب للسيدة زبيدة، ويذكر الجبرتي في تاريخه أنّ سعود الكبير أخذ السجاد الذي في المسجد النبوي وقناديل الذهب، ثم ادّعى أنه باعها وصرفها على الفقراء، ولكن ما حدث هو أنّ أتباع ابن سعود تناهبوا هذه الكنوز، ووزّعوها على أنفسهم كغنائم حرب[١].

وقامت الدعوة الوهابية بإجبار المسلمين لاعتناق أفكارهم، بل رفضوا دخول الحجّاج العراقيين والإيرانيين عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م، فقد حسبوهم كفاراً لا يقربون الأماكن المقدسة، وفي عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م مُنع الحجّاج الشاميون، وفي عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م مُنع الحجّاج المصريون والمغاربة[٢].

واقتصر الحجّ على الوهابيين في الجزيرة العربية، فقد خشى أصحاب باقي المذاهب من الحج أن يتعرضوا للإيذاء على أيدي هؤلاء الذين يدعون أنهم يتقربون إلى الله بقتل الأبرياء من المسلمين لا لشيء إلا لمخالفتهم في المذهب رغم أنّ الجميع مسلمون، لذلك لم يحج أهل نجران (شيعة إسماعيلية) وأهل الإحساء والقطيف (شيعة إمامية)، وأهل اليمن (شيعة زيدية) وأهل عسير (من المتصوفة)، أما أهل الحجاز ومعظمهم شافعية المذهب فقد أخفوا عقيدتهم وامتنعوا عن الحج خشية القتل من الوهابيين الذين كانوا يسألون الناس عن اعتقادهم في التوحيد، ومن لا يقل بما جاء في كتاب التوحيد تعرض للإيذاء وربما للقتل[٣].

---

(١) تدويل الأراضي المقدسة في الحجاز بين التأويل السياسي والتنزيل الديني، علي أبو الخير، مركز يافا للدراسات والنشر، القاهرة، عام ٢٠٠٦م.

(٢) أمراء البلد الحرام، السيد دحلان: ص ٣٢٦؛ تاريخ الجبرتي: ج ٣ ص ٢٧٤ و ج ٣ ص ١٨٨.

(٣) انظر في رد هذه الدعاوى –بحسب دعوى البعض–: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عرض ونقد – الشيخ عبدالعزيز بن محمد العبد اللطيف: ص ٢٤٠.

وكانت نهاية الدولة الأولى نهاية مأساوية حيث تم تدمير الدرعية تدميراً تاماً وقتل الأمير في الآستانة.

ثم قامت الدولة العثمانية بتعمير وتشييد ما هدمه الوهابيون في مكة والمدينة، فقاموا ببناء الأضرحة من جديد، وترميم المساجد التي دمّرها الوهابيون.

دور الدولة السعودية الثانية:

وهي الفترة التي بدأت -حقيقة- على يد الأمير تركي بن عبدالله عام ١٨٢٠م (١٢٣٥هـ)، أي بعد سقوط الدولة الأولى بعامين، وانتهت في عهد الأمير عبد الله بن فيصل عام ١٨٨٤م (١٣٠١هـ).

وقد خلت هذه الدولة من أي نشاط ديني أو إصلاحي إذا ما استثنينا تنظيم (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الدينية الرسمية، لأنّ أفراد الأسرة السعودية كانوا مشغولين باستعادة ملك آبائهم في البداية، ثم شغلوا بالنزاعات البينية على الحكم في منتصف الفترة ليصل الحكم إلى يد آل الرشيد معلناً نهاية الفترة السياسية السعودية الثانية[١].

وفى تلك الفترة لم يكن للمؤسسة الدينية ذلك الدور القيادي الذي مارسته إبان الدولة السعودية الأولى، ورغم وجود أبناء وأحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة (ومن ضمنهم حفيده عبد الرحمن الذي عاد من مصر عام ١٨٢٥م/ ١٢٤٠هـ) ضمن مؤسسات الحكم وهم يمارسون نشاطهم في مجالات الدعوة والقضاء، إلا أنّ المؤسسة الدينية لم تكن في وضع يسمح لها بتجاوز حدود النشاط الديني والمراقبة، وهذا ما عناه جون فيلبى في وصفه للدولة السعودية الثانية، فلم تتجاوز الدولة خلال هذه الدولة حدود نجد، وانحسر نشاطها السياسي

(١) انظر: الأحوال السياسية في الفترة الأولى من حكم الإمام فيصل بن تركي آل سعود، هناء أيوب العوهلي: ص ١٠؛ عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن البشر: ج ١ ص ٤٤١ وما بَعدها، بعثة إلى نجد، جون فلبيي: ص ٢٠-٢٧.

في الصراع على الأرض النجدية سواء بين أفراد الأسرة أو بينهم جميعاً وبين أسرة آل الرشيد[١].

وظل الحجاز بعيداً عن سيطرة السعوديين، وربما كان ذلك من ضمن أسباب الانهيار السريع للدولة الثانية.

دور الدولة السعودية الثالثة:

ويمكن اعتبار المرحلة الثالثة للصعود السعودي صعود للمؤسسة الدينية باعتبارها ضمن المؤسسات العامة التي تمكنت تسييس السلطة الدينية في إطار الأهداف الملكية المحافظة.

واجهت الكيان الجديد في قلب الجزيرة العربية عدة أحداث سياسية وعسكرية منذ قيامها أو صعودها عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، إلا أنّ أخطر ما واجهه الملك عبد العزيز آل سعود هو النقد والعصيان الصادر من جهات دينية، وكانت أبرزها بل أخطرها مع قيادات «الإخوان السعوديين»، وهم الذين حاربوا مع عبد العزيز تحت رايات دينية، ومعهم بعض الشخصيات الدينية المحلية، إلا أنّ الملك عبدالعزيز تمكن عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م في معركة «السبله» الشهيرة من حسم الصراع معهم، وقتل أو أسر زعماء الأخوان وأهمهم فيصل بن سلطان الدويش شيخ مطير؛ فقد طلب اللجوء السياسي إلى الكويت لكن البريطانيين سلّموه إلى الملك عبدالعزيز وقتل[٢].

وقد استثمر الملك عبد العزيز نصره على الإخوان، وفرض قراراته على المنهزمين، التي أعلنها في وجود عدد من العلماء المقربين منه ومنهم الشيخان عبدالله بن العزيز العنقري، وعبدالله بن زاحم البقمي، ومن أبرز تلك القرارات

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) انظر: الأخوان السعوديون، جون س حبيب: ص ٢٠٩ - ٢٢٦؛ الكويت وجاراتها، دكسون: ج ١ ص ٣٠٧-٣١٦.

«أنه لا يسمح بعقد اجتماعات لمناقشة الدين أو المسائل الدنيوية بدون موافقة من الملك »[(١)]، وقد استمر ذلك القرار منهجاً متوارثاً ومقراً به من القيادات والمؤسسات الدينية السعودية المتعاقبة، كما أنه شكل أساساً عاماً للعلاقة المقبولة لدى السلطة بالمؤسسة الدينية.

كان الخلاف بين الإخوان والملك عبد العزيز خلافاً بين متطرف والأشد تطرفاً؛ كان الإخوان يرون في تنامي علاقات الملك عبد العزيز السياسية مع الدول الأجنبية خاصة بريطانيا خروجاً على الدين، كما كانوا يرون في استيراده للمنجزات العلمية الحديثة نوع من الردّة، فقد اعتقد الإخوان الهاتف والراديو من البدع الحديثة، وأنَّ عبد العزيز يسلك سلوك الكفار.

ولكن على مستوى النظرة إلى الحجاز وغيرها من المناطق، فقد توحدت نظرة ابن سعود والإخوان واعتبروا أنّ غيرهم من المسلمين مشركون ولو كان شركاً خفياً، ولما استطاع عبد العزيز حكم الحجاز بشرعية دينية سلفية وهابية، قام بتنفيذ الأيديولوجية الغارقة في السلفية، فتم هدم أضرحة البقيع، وقبر السيدة خديجة، وهدم البيت الذي وُلد فيه رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، ولم يفرقوا بين الأثر التاريخي والأثر الديني، فقاموا بمحو كل ما يشير إلى وجود أماكن مقدسة في مكة والمدينة، فمثلًا سدّوا غار حراء الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ قبل البعثة، ولو تمكنوا من هدمه لهدموه، ولأنه لا يمكن هدم الجبل، اكتفوا بسد الغار بصخرة كبيرة، وهو ما حدث في غار ثور، وفي الأبواء هدموا قبر السيدة آمنة أم رسول الله ﷺ.

وظل السعوديون على قناعتهم أنهم يمثلون الإسلام الحقيقي، أو أنهم يمثلون الإسلام نفسه بحكم إشرافهم على الأماكن المقدسة، وقد قاموا بخطوات لترسيخ إقناع المسلمين بهذا المفهوم نلخصها في النقاط التالية:

أ- ما أن قام السعوديون بالسيطرة على الحجاز عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م بعد

(١) تاريخ ملوك آل سعود، هذلول آل سعود: ص ١٥٤.

معركتهم مع الأشراف، اعتبروا المسلمين في الطائف كفار يُستحل قتالهم وقتلهم وسبيهم، يقول أمين الريحاني: «إنّ الوهابيين كانوا يقتلون في سبيل السلب، استنكر الملك عبد العزيز ما فعلوه، ولكنه لم يحاسبهم بل ظلوا يقومون بما يفعلوه».

أما في مكة المكرمة قتلوا إمام الشافعية الشيخ الزواوي، وأبناء الشيبي، أما سادن الكعبة الشيخ عبد القادر الشيبي فقد أنقذ نفسه بحيلة طريفة حيث بكى أمام الإخوان، وقال لهم: إنني أحمد الله لأنني أموت مسلماً بعد أن ظللت كافراً حتى اليوم، فتركوه وعانقوه وهنئوه بالإسلام من جديد!!

ب- في عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م قام الشيخ سلطان بن بجاد بإيذاء المسلمين في المدينة المنورة وقام أتباعه بقطع الأشجار الموجودة بصحن المسجد النبوي، وردموا البئر الذي كان قريباً منه، وعاد عبد العزيز وأتباعه إلى سنّة سلفه سعود الكبير فقاموا بهدم كل شيء من المساجد والأضرحة، التي شيّدها العثمانيون بعد القضاء على الدولة الأولى.

ومن ثَمَّ هدّموا البيوت؛ مثل بيت الرسول ﷺ، وبيت حمزة، وبيوت أهل البيت والصحابة في مكة والمدينة، وإذا كانوا تعللوا في هدم القبور بحجة مخالفتها لأصول التوحيد، فما هو العذر في هدم البيوت التي لا يوجد فيها أضرحة، يقول الريحاني: «إنّ الهدف من ذلك هو أن ينسى المسلمون ذكريات هذه البيوت وأصحابها بمرور الزمن».

لقد أدّى هذا التدمير المتواصل إلى استنكار المسلمين كافة، فاحتجت مصر وامتنعت عن إرسال الحجاج، وفي إيران أُقيمت مراسم الحداد أما مسلمو الهند (وكانوا يحتلون العدد الأكبر من المسلمين عندما كانت الهند موحدة قبل أن توجد باكستان والبنغال)، فقد هالهم ما حدث، فقام العلماء هناك بإرسال برقية احتجاج صارخة في ٢٧ صفر ١٣٤٤هـ/ ٢٧ اغسطس ١٩٢٥م، ويقولون للملك عبد العزيز كيف هان عليك الإسلام لتفعل فيه ما فعلت، وعندما وجدوا أنّ البرقية لم تؤثر

في المسلك الوهابي/ السعودي، قام وفد تابع لجمعية خدام الحرمين في الهند بزيارة مكة والمدينة وجاءوا بنقود وأموال كثيرة لتوزيعها على المسلمين الذين قُتل ذووهم أو شُرّدوا من ديارهم، وانتقدوا مسلك الملك عبد العزيز مع الإنجليز، واعتبروا تحالفه معهم أن يجعل الحرمين تحت سيطرة الإنجليز، فقام الملك عبد العزيز بطرد الوفد في ١٦ شعبان ١٣٤٤هـ/ ١ مارس ١٩٢٦م.

ولم يجد مسلمو الهند بداً من الشكوى للحكومة البريطانية، ولكنّ الحكومة البريطانية اعتذرت بأنّ هذا من الشئون الداخلية الإسلامية التي لا يجب التدخل فيها، ولكنّ الملك عبد العزيز، وقد رأى امتعاض المسلمين، أعلن أنّ تطبيق الشريعة الإسلامية ستكون طبقاً للمذاهب السنية الأربعة، ولكنّ مؤتمر مكة عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م ومن ثم مؤتمر الرياض عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م فرضا على أهالي المملكة العربية السعودية المذهب الوهابي وحده، ومحاربة أصحاب باقي المذاهب، ومنع تدريس هذه المذاهب باعتبارها مخالفة للدعوة الوهابية، وفرض على المناهج الدراسية عقيدة التوحيد كما يراها شيوخ الوهابية وكما وردت في كتب ابن تيمية، وما زال هذا الأسلوب هو المطبق في المنهج التعليمي السعودي حتى الوقت الراهن.

ج- استغلت السلطة السعودية موسم الحج، فقامت بالترويج للدعوة الوهابية، وذلك بطبع الكتب التي تبشر به وتندد بالمخالفين لهم في توجيهاتهم ومن هذه الكتب: الرد على المالكي الصوفي، فتنة التكفير والحاكمية، كنت قبورياً، الرد على فتنة التيجانية، الخطوط العريضة، العواصم من القواصم، شرح العقيدة الواسطية؛ إعادة طبع الكتاب عشرات المرات وتوزيعه مجاناً على المسلمين، فتاوى ابن باز التي تجعل كل المسلمين دونهم مشكوك في صحة إسلامهم، إلى إعادة كتب ابن تيمية المرجع الأول للفكر الوهابي بصفة عامة، وغيرها من الكتب، والتي صرفت عليها مليارات الريالات.

د- رفض السعوديون رفضاً مطلقاً أي تدخل إسلامي في مناسك الحج

من غير شيوخ المملكة، فشيوخ المملكة هم المرشدون لحجاج بيت الله الحرام والتوجه إلى المسلمين بالفتاوى التي تتفق مع الأيديولوجية السلفية كما يرونها، كما لم تشهد خطبة نمرة يوم عرفه أي شيخ من خارج المملكة، ولا يكف الخطيب عن الترويج للإسلام الصحيح من وجهة نظره، أو وجهة النظر الوهابية بصفة عامة. أما المرشدون من الشيوخ لحجاج بيت الله الحرام لا يكفون عن ربط هذه الفتاوى بحرمة الاقتراب من قبر الرسول ﷺ بناء على فتوى ابن تيمية الشهيرة، والتي تنص على أنّ زائر المسجد النبوي إن كان قاصداً لقبر النبي وليس للمسجد ففيه نوع من الشرك، ورغم أنّ هذه الفتوى حوكم بها ابن تيمية، ويرفضها أغلب المسلمين، إلا أنّ شيوخ المملكة يحرصون على تطبيقها فيمنعون الاقتراب من القبر الشريف رغم تهافت المسلمين عليه.

هـ- أدّى الاقتصار على شيوخ المملكة كمرشدين للحجاج أنهم لا يغطون احتياج عدد الحجّاج الذين يصل عددهم إلى ثلاثة ملايين حاج، وعند رمي الجمرات في مِنى -مثلاً- يتدافع آلاف الحجّاج لكي يرموا الجمرات في وقت الزوال دون أن يكون بينهم مَن يرشدهم للصحيح من العمل والانتظار حتى لو كان ليلاً، فأدّى التكدس البشرى إلى حوادث متكررة عند الجمرات في مِنى، ومنها حادث عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م الذي أدّى تزاحم الحجاج إلى مصرع المئات منهم، علماً بأنّ فتاوى أخرى من خارج المذهب الرسمي، مثل المذهب الشافعي أو الحنفي أو المالكي أو الشيعي الزيدي أو الإمامي تستطيع أن تلبّي رغبة المسلمين، ويمكنها التخفيف من هذه الحوادث، ولكن حرص شيوخ المملكة على فرض مذهبهم يزيد من هذه المشاكل الفقهية التي تؤدّي إلى كوارث يروح ضحيتها حجاج كثيرون.

أشراف الحجاز والمد الوهابي:

الحجازيون هم أهل مكة والمدينة والطائف وما بينهم مثل الأبواء ورابغ وينبع وجدة؛ وهذه هي المناطق التاريخية للحجاز؛ وإذا أخذنا بالجغرافيا الضيقة اختصرنا الأمر على أهل مكة والمدينة؛ ثم يمكن اختصارها في القرشيين والأنصار

دون غيرهم؛ ولكنّ الأمر ليس بهذه البساطة؛ لأنّ من استقر في الأماكن المقدسة من غير الحجازيين صار واحداً منهم بعد أن تطبّع بطباعهم المتسامحة؛ هذا على المستوى الشعبي أو العامي؛ ولكن على المستوى السياسي فإنّ أشراف الحجاز ظلّت لهم مكانة الحكم والتفسير لأحكام الدين أي أنهم نزلوا بمنزلة الرأس من الجسد؛ أو العين من الرأس؛ وظل للأشراف مكان الريادة في حكم الحجاز نيابة عن الخليفة الحاكم عباسياً أو فاطمياً أو مملوكياً أو عثمانياً؛ وقد شهد لهم التاريخ بالتسامح مع كلّ المسلمين، وظلّ هذا الوضع قائماً إلى أن جاء الهجوم الوهابي على تلك المناطق المقدسة.

وتشير الوثائق المصرية (الفترة المصرية العثمانية) ١٢٢٨هـ-١٢٥٦هـ/ ١٨١٣م-١٨٤٠م والتي تعتبر من أهم المصادر التي تشرح تاريخ أشراف الحجاز في تلك الفترة بالذات إلى أنّ النظام الجديد (نظام محمد علي) قد احتفظ لشريف مكة بمركزه السامي بين الأشراف، ليكون وسيلة لفضِّ أي خلافات أو نزاع يقوم بينهم،- ويعفي أحمد باشا يكن حاكم الحجاز- من إقحام الحكومة في خلافات داخلية بين الأشراف قد تشغله عن مهمته وتجرّ المتاعب بغير جدوى، ويتمثل ذلك في رسالة بعث بها محمد علي باشا إلى الشريف يحيى، يمتدح فيها وساطته بين أشراف العبادلة عندما نشبت فتنة فيما بينهم وقُتل فيها عدد من الأشراف، فتدخل الشريف يحيى «وأصلح ذات بينهم بحسب قانونهم»، فيقول له: «علمت هذا، فسررت مما ظهر على هذه الصورة بين الأشراف من غيرتكم الذاتية، وحميتكم الفطرية فيما أنَّ ذاتكم الهاشمية الحميدة الصفات هي الملجأ الذي يرجع إليه أفراد الأشراف، فالأصوب هو أن تتفضلوا فيما بعد لصرف الهمّة في تهيئة ما يوجب التأليف بينهم من الوسائل المرضية وفي استكمال أمر رفاهة حالهم وهدوء بالهم..».

وفي وثيقة بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٣٨هـ/ ١١ نوفمبر ١٨٢٢م يرسل محمد علي باشا إلى محافظ مكة رسالة جاء فيها:

«جاء في الاثني عشر كتاباً المرسلة إلينا من حضرة صاحب السيادة الشريف يحيى أمير مكة مع تابعه الحاج حسين آغا أنه بينما الأحوال والنظام المتبع بين أشراف الحجاز يقضي عليهم أن يطيعوه ويراعوا الواجب نحوه، فأنَّ بعضهم قد عمد إلى مخالفة ذلك؛ مما أوجب كدره، وقد كتب له الردّ بما استلزمه الأمر، وعنينا باطمئنان قلبه ألا أنه يجب أن تستقدموا إليكم الشريف عبد الله والشريف راجح عواجي، وجميع من حذا حذوهم، وأن تلفتوا نظرهم إلى مقام إمارة الشريف المشار إليه، وأن تعرّفوهم أنَّ عليهم أن يعتبروه كبير الأشراف وأن يرجعوا إليه في الأمور التي تقع بين الأشراف، حسب أمورهم المقررة، وأن يراعوا بذلك أواصر المودة... واجتهدوا في ألا يسمحوا لأنفسهم أن يأتوا بحركة منافية لمصالحنا... هذا، ولما كان بعض الشرفاء الذين يعملون مع الحكومة في بعض الجهات معذورين في اتخاذ الإجراءات التي تستوجبها مهامهم، فقد كتب إلى الشريف يحيى بشأن عدم التعرض لهم، فراعوا هذه الناحية أيضاً وتقيدوا بها في حديثكم مع الشريف».

كما نورد هنا قصة تظهر غيرة الأشراف من أي إهانة توجه للإسلام ورموزه؛ يقول العالم المكي وفقيهها السيد زيني دحلان -متحدثاً عن وصول الشريف عبدالله باشا من طرف الدولة العثمانية لتولّي حكم الحجاز-: «وينبغي أن نذكر هنا الفتنة التي كانت بجدة قبل وصوله من دار السلطنة، وكانت بعد وفاة والده؛ لأنّ الفتنة المذكورة كانت في السادس من ذي القعدة، سنة أربع وسبعين (١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م) وملخصها إجمالًا: أنّ صالح جوهر أحد التجار بجدة، كان له مركب منشور فيه بنديرة الإنكليز، والبنديرة هي البيرق (العلم). فأراد أن يغيّرها ويجعل فيه بنديرة من بنديرات الدولة العليّة، فسمع بذلك قنصل الإنكليز، فمنعه من ذلك فلم يمتنع، وأخذ رخصة من نامق باشا، فأذن له بوضع بنديرة الدولة العليّة، وكتب له منشوراً بذلك، فوضعها ونشرها، وأزال بنديرة الإنكليز. فطلع قنصل الإنكليز البحر ودخل المركب المذكور، وأنزل بنديرة الدولة التي نُشرت ونشر بنديرة الإنكليز. وشاع أنه لما أنزل بنديرة الدولة وطأها برجله، وتكلم بكلام غير لائق، فغضب لذلك المسلمون الذين في جدة، فهاجوا هيجة عظيمة، وقصدوا دار القنصل وقتلوه،

وثار من ذلك فتنة عظيمة قتلوا فيها غيره من القناصل الموجودين، ومن كان بجدة من النصارى، ونهبوا أموالهم، وأرادوا أن يقتلوا فرج يسر أحد التجار المشهورين بجدة، لكونه كان محامياً عن قنصل الإنكليز، ومعدوداً من رعيتهم فاختفى، فأراد عوام الناس أن ينهبوا داره، فمنعهم من ذلك عبدالله نصيف، وكيل مولانا الشريف محمد بن عون بجدة، وكان نامق باشا بمكة، والشريف علي باشا القائم مقام الإمارة كان قد توجه إلى المدينة المنورة، لمقابلة الحج. فلما جاء خبر هذه الفتنة لنامق باشا اهتم لذلك، ثم توجه إلى جدة وسكّن الفتنة، وقبض على بعض الناس الذين نسب إليهم القتل والنهب ووضعهم في السجن، وأرسل إلى الدولة العليّة يخبرهم بما وقع في هذه الفتنة، وطلع إلى مكة لأداء الحج.

فلما كان الثالث من أيام التشريق، والناس بمنى، جاء الخبر من جدة بأنه جاءهم مركب حربي للإنكليز، وصار يرمي بالمدافع المحشوة بالقنبل على جدة، فخرج كثير من الناس من جدة هاربين بنسائهم، وأولادهم وأموالهم ركباناً ومشاة، فانزعج الناس من ذلك انزعاجاً شديداً. فلما فرغ الناس من أداء مناسك الحج، ونزلوا من منى، عقد نامق باشا في مكة مجلساً في ديوان الحكومة، أحضر فيه كثيراً من العلماء والتجار وأعيان الناس، وأحضر كثيراً من تجار جدة الذين قدموا مكة لأداء الحج، وكانوا حضروا وقوع الفتنة حين وقعت بجدة، وأخبرهم بمجيء المركب الحربي الذي جاء من الإنكليز وبضربه القنبل على جدة، وبخروج كثير من الناس منها، وقال لهم: «القصد المشاورة معكم فيما يحصل به تسكين هذا الأمر». فقال له كثير من الحاضرين: «إنّ الإسلام، لله الحمد، قوي ،وأهله كثيرون. وذكروا له عدد قبائل الحجاز مثل هذيل وثقيف وحرب وغامد وزهران وعسير، وأنكم لو تعطون الناس رخصة ينفرون نفيراً عاماً فيجتمع من ذلك الألوف بل اللكوك، فيدفعون تعدّي الإنكليز، ولا يرضون أن يقع عليهم هذا الذل. فقال لهم نامق باشا: «هذا العدد الذي ذكرتموه من قبائل العرب صحيح، بل يوجد مثله أضعافاً مضاعفة، لكن إذا اجتمعت هذه القبائل غاية ما يقدرون عليه أنهم يصلون إلى مكة وجدة، وبعد ذلك يدفعون هذا المركب عن جدة، فيحصل من الإنكليز وغيرهم من

النصارى تسلط على بقية مدائن الإسلام، ويجتمعون على محاربة الدولة العليّة، وليس عند هؤلاء القبائل التي اجتمعت قدرة على الدفع عن بقية مدائن الإسلام، لأنه ليس عندهم مراكب يعبرون فيها، ولا ذخائر ولا جبخانات ولا مدافع، ولا شيء مما يحتاجون إليه، وأيضاً مرادنا دفع هذا الضرر الآن ولا يجتمع هؤلاء القبائل إلا بعد مدة طويلة، فلا بد من التدبير الآن في دفع هذا الضرر بالسرعة». فقال بعض التجار الحاضرين: «يأذن لنا أفندينا في تغريق هذا المركب الحربي، الذي جاء يرمي بالمدافع المشحونة بالقنبل على جدة، فإنَّ كثيراً من أهل البحر الموجودين تحت أيدينا لهم معرفة وصناعة بتغريق المراكب يأتونها من تحت الماء ويغرقونها ببرامات يجعلونها في المراكب». فقال لهم: «ليس هذا صواباً، فإنكم إذا أغرقتم مركباً يأتيكم بعده عشرة مراكب، وإذا أغرقتم العشرة يأتيكم مائة، وهكذا، فيتسلسل الأمر ولا يزول الضرر، وأيضاً ربما يتركون جدة، ويتوجهون إلى إضرار بقية مدائن الإسلام، وإنما الأحسن في تدبير هذا الأمر أنّا نتداركه باللطف وحسن السياسة، بأن نتوجه إلى جدة أنا وكثير من أعيانكم، ونجتمع بقبطان هذا المركب، ونعقد معه أمراً يندفع به الضرر». فاستحسنوا رأيه. فتوجهوا إلى جدة، وأخذ معه رئيس العلماء الشيخ جمال شيخ عمرو، ومعه من العلماء الشيخ صديق كمال، والشيخ إبراهيم النشار، والشيخ محمد جاد الله، وشيخ السادة السيد محمد بن إسحاق بن عقيل، وتجار جدة الذين كانوا جاءوا للحجّ. فلما وصلوا إلى جدة، صار اجتماعهم بالقبطان المذكور، وعقدوا مجلساً صار القرار فيه على أنه يصير تحقيق هذه القضية، ويحصل الانتقام ممن وقع منه التعدّي في هذه الفتنة، ويكون ذلك بعد رفع الأمر إلى الدولة العليّة، وانتظار الجواب منها بما يأمرون به. ورضي الجميع بذلك، وكتبوا به مضبطة، وختموها بأختامهم.

فلما كان أواخر شهر محرم من سنة خمس وسبعين، وصل إلى جدة مأمورون من طرف الدولة ومعهم أناس من كبار الإنكليز والفرنسيس، وكان نامق باشا بجدة، فعقدوا مجلساً معه، واتفقوا على أنهم يُحضرون الناس المتهمين في أحداث هذه الفتنة، ويقررونهم ويستنطقونهم كل واحد وحده، حتى يقفوا على حقيقة الأمر،

ويعرفوا الذين قتلوا والذين نهبوا والذين هيّجوا. فلما تمَّ قرارهم على ذلك، صاروا يعقدون مجالس لا يحضر فيها نامق باشا وإنما يحضر هؤلاء المرخصون الذين جاءوا مرسلين من الدولة ومن الإنكليز والفرنسيس، وصاروا يقبضون على كل من صارت عليه تهمة ويحبسونه في موضع وحده، ثم يحضرون كل واحد منهم وحده، ويسألونه ويستنطقونه بغاية التلطف والتعظيم والتبجيل، ويحتالون عليهم بكل حيلة، ويكتبون كل ما يقول. فكان ملخص تلك الاستنطاقات أنَّ أهل جدة الذين هاجوا في الفتنة، وحصل منهم القتل والنهب، قالوا: إنما كان ذلك منا بأمر من التجار، وقاضي جدة الشيخ عبدالقادر شيخ والأعيان، وسمّوا أناساً منهم. وقال الحضارم: أمَرنا بذلك شيخ السادة السيد عبدالله باهارون، وكبير الحضارم الشيخ سعيد العامودي، وقال شيخ السادة وسعيد العامودي وقاضي جدة وبقية التجار والأعيان: إنما كان ذلك منا بأمر من عبدالله المحتسب، وقال عبد الله المحتسب: إنما كان ذلك مني بأمر من إبراهيم آغا، القائم مقام نامق باشا...

هذا ملخص استنطاقاتهم، فإنها تتضمن الاعتراف بما وقع، والاعتراف بأنهم تسببوا في ذلك، إلا أنهم أسندوا ذلك لسعيد العامودي وعبدالله المحتسب، والقائم مقام نامق باشا. وكان نامق باشا وهو بجدة يرسل إليهم سراً ويقول لهم: «الحذر أن تقروا بشيء من ذلك، فإنه يصير عليكم ضرر كثير»، فلم يمتثلوا ذلك، بل أقروا بذلك، وسببه أنّ المرخصين الذين حضروا من الدولة والإنكليز والفرنسيس كانوا يتلطفون بهم ويعظّمونهم، ويحتالون عليهم بكل حيلة، ويقولون لهم: أخبروا بالواقع، ولا يحصل لكم ضرر، ويسألون كل واحد وحده، فإذا نطق بشيء مخالف للواقع، يقولون له: إنَّ فلاناً وفلاناً أخبرا بما هو كذا وكذا، وذلك يخالف ما تقول. ولا يزالون به حتى يطابق كلامُه كلامَ غيره. فلما انتهت الأسانيد كلها إلى إبراهيم آغا، القائم مقام نامق باشا، أحضروه وسألوه، فأنكر جميع ما نسبوه له، وكذّبهم ولم يقرّ بشيء. فاحتالوا عليه بكل حيلة، فلم يقرّ بشيء، فحبسوه في موضع وحده، ثم حكموا عليه بالنفي مؤبداً. ثم بحثوا أيضاً عن الأشخاص الذين حصل منهم القتل والنهب، فعرفوهم وحبسوهم، ثم تشاور هؤلاء المرخصون المرسلون من الدولة

العليّة ومن الإنكليز والفرنسيس فيما بينهم، واتفقوا على أنه يُقتل عبدالله المحتسب وسعيد العامودي ونحو اثني عشر نفساً من عوام الناس الذين وقع منهم القتل، وأنه يُنفي من جدة شيخ السادة وقاضي جدة وبعض التجار، بعضهم مؤبداً، وبعضهم إلى مدة مؤقتة، ويُحبس كثير من الذين وقع منهم النهب، بعد أن أحضروا كثيراً مما أخذوه، وأنَّ ما بقي من الأموال المنهوبة، يأخذون قيمته من الدولة العليّة. فلما تمَّ قرار مجلسهم على ذلك، كتبوا به مضبطة وختموها بأختامهم، وأعطوها لنامق باشا، وطلبوا منه تنفيذ ذلك على ما جاؤوه به من الأمر من الدولة، فإنهم جاؤوه بأوامر فيها الأمر له بتنفيذ ما يتفقون عليه. فنفذه؛ فأخرجوا عبدالله المحتسب وسعيد العامودي من الحبس، وقتلوهما في سوق جدة على رؤوس الأشهاد، وقتلوا الاثني عشرة الذين من عوام الناس خارج جدة. وكان ذلك اليوم يوماً مهولًا في جدة اشتد فيه الكرب على جميع المسلمين، ثم نفوا مَن حكموا عليه بالنفي. فمنهم من قضى السنين التي أقتوها له ورجع إلى جدة، ومنهم مَن مات ولم يرجع إليها. فمن الذين رجعوا الشيخ عبدالقادر شيخ قاضي جدة، والشيخ عمر بادرب، والشيخ سعيد بغلف. ومن الذين لم يرجعوا وتوفوا وهم منفيون السيد عبدالله باهارون، والشيخ عبدالغفار، والشيخ يوسف باناجه، رحمهم الله تعالى. وقبضوا من الدولة قيمة بقية الأموال المنهوبة، وكان شيئاً كثيراً... هذا ملخص تلك الفتنة باختصار، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنَّ هذه القضية كانت من أعظم المصائب على أهل الإسلام[١].

وقد ذكر هذه الحادثة المهمة -أيضاً- أحمد الحضراوي، ووصفها بأنها فتنة عظيمة، وقال: «وكانت أحوال مزعجة لا يُطيق القلب سماعها، تحتاج إلى مجلدات، وإنما ذكرت هذه زبدتها، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ».. ثم أشار إلى أنّ صاحب كتاب (مختصر تاريخ جدة) ذكرها بتفصيل دقيق[٢].

وقال الأستاذ عبد القدوس الأنصاري: «فقتلوه -أي القنصل البريطاني-

---

(١) خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام: ص ٤٧-٥١.

(٢) الجواهر المعدّة في فضائل جدة: ص ٤٣-٤٥.

وقتلوا معه القنصل الفرنسي وبعض الإفرنج ونهبوا دورهم، فما كان من دولة بريطانيا إلا أن أرسلت إلى جدة بعض قطع أسطولها تهديداً ووعيداً، وقد ضربت جدة بالقنابل، ولم تقم القلعة البحرية إزاءها بشيء من الدفاع يُذكر؛ نظراً لقدم مدافعها وتطور أساليب القتال»[١].

يتضح مما سبق ذكره من الوثائق أنّ دور أشراف الحجاز لم يكن دوراً هامشياً أو بلا رأي فشريف مكة هو الذي يرعى الحجيج ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ وله رأي في الأمور المتعلقة بالحج أو بشئون المسلمين وتأمين طرق المعتمرين والحجاج؛ هذا بالإضافة لحماية كل المذاهب والأفكار؛ ولذلك نرى أنّ كل شيوخ المذاهب كانت تأتي مكة المكرمة والمدينة المنورة للأخذ عن شيوخ مذهبهم أو للالتقاء بشيوخ المذاهب الأخرى؛ مع التأكيد على أنّ غالبية أشراف الحجاز إن لم يكن كل الأشراف في كل الأقطار كانوا متصوفة، ولذا نجدهم يعنون بمراقد أهل البيت عليهم السلام والأولياء المدفونين في البقاع الطاهرة؛ كما أنّ أهل الحجاز كانوا يثورون لكرامتهم وكرامة الإسلام حتى لو استشهدوا في سبيل ذلك.

وقد ظل هذا الوضع قائماً حتى وصول الدعوة الوهابية المتحالفة مع آل سعود إلى فرض التشدد والتطرف على كل أهل الحجاز؛ وصبّوا كلَّ إرهابهم على الأشراف؛ لأنهم يعلمون أنّ ميراث الهاشميين يمنع استقرار حكمهم في الحجاز؛ لأنّ الأشراف (المتصوفة) سيكونون مانعاً من نشر الفكر الوهابي.

وقد اتخذ الملك عبدالعزيز آل سعود إجراء، يدل على براعة (براغماتية)، ضد الأشراف عن دخوله الحجاز عند تأسيس الدولة الثالثة وهو ما أطلق عليه الشورى لأهل الحجاز.

أصدر الملك عبد العزيز منشوراً بتاريخ ٢٢ صفر ١٣٤٣هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤م يعد فيه المسلمين بأن تكون الحجاز ومكة للمسلمين عامة وأن يكون أمر

---

(١) تاريخ مدينة جدة: ص ٧٥-٧٦.

الحرمين الشريفين شورى بين المسلمين. ويقول: «إنما أنا وكيل عن المسلمين في طرد الهاشميين ليقرروا مصير الحجاز بحرية».

ثم أصدر منشوراً آخر في ٢٤ ديسمبر ١٩٢٥/ ٨ جمادى الثاني ١٣٤٤، أكد فيه: أنّ مستقبل البلاد لا بد لتقريره من مؤتمر إسلامي يشترك المسلمون فيه جميعاً لينظروا مستقبل الحجاز ومصالحه. وقال: «لقد أبرقنا لكافة المسلمين في سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامي عام يقرر شكل الحكومة الذي يرونه صالحاً لأحكام الله في هذه البلاد المطهرة».

ولكن ابن سعود تراجع عن فكرة المؤتمر الإسلامي، بعد فتح مكة، وعيّن نفسه ملكاً على الحجاز. ومع ذلك ظل يدعو إلى عقد مجلس شورى من أهل الحجاز لإدارة بلادهم، وقال في خطابه أمام قيادات مكة: «لا أريد أن استأثر بالأمر في بلادكم دونكم، وإنما أريد مشاورتكم في جميع الأمور»، وطلب من الحاضرين أن يجتمعوا لانتخاب من يمثلهم في مجلس الشورى الأهلي. ثم قال في افتتاح مجلس الشورى الذي تم تشكيله بالفعل قبل أن تسقط مدينة جدة: «لقد أمرت أن لا يُسَنَّ نظام في البلاد ويجري العمل به قبل أن يُعرض على مجلسكم من قبل النيابة العامة، وتنقحونه بمنتهى الحرية».

ولكن تلك الوعود سرعان ما ذهبت أدراج الرياح، وتبين أنها لم تكن سوى دعوات تكتيكية من أجل تطييب خاطر الحجازيين وتسهيل فتح بلادهم، حيث لم يفِ الملك عبد العزيز بأيٍّ من وعوده بأن يقرر الحجازيون مصيرهم بحرية، وبأن يكون أمر الحرمين الشريفين شورى بين المسلمين. وألغى المؤتمر الإسلامي مباشرة بعد الاستيلاء على مكة، ولم يسمح لمن حضر من الوفود المدعوة بالنظر في مستقبل الحجاز، ولا تقرير شكل الحكومة؛ وعيّن نفسه ملكاً على الحجاز؛ ومع أنه كان قد طلب بعد سقوط مكة من أعيان الحجاز تنظيم قائمة بأسماء أعضاء مجلس الشورى، وأنهم اجتمعوا بناء على ذلك وانتخبوا ثلاثة عشر شخصاً برئاسة الشيخ عبد القادر الشيبي، إلا أنّ ابن سعود لم يسمح لذلك المجلس بالانعقاد ولا

مرة واحدة؛ وبدلاً من ذلك قام الملك عبد العزيز عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، بتشكيل (مجلس أهلي) استشاري جديد بأعضاء معينين من قبله، وحدّد لهم مهماتهم في إطار الأمور البلدية والثقافية والتجارية والتنفيذية لمنطقة الحجاز فقط، مع عدم التدخل بالسياسة الخارجية للبلاد؛ وعيَّن ابنه الأمير فيصل رئيساً للحكومة ومرجعاً للدوائر الرسمية تحت لقب (النائب العام لجلالة الملك في الحجاز) اعتباراً من ٢٨ جمادى الثاني ١٣٤٤هـ/ ١٣ يناير ١٩٢٦م؛ وبعد ذلك بعام قام عبد العزيز بتشكيل مجلس آخر باسم (مجلس الشورى) برئاسة نائب الملك؛ الأمير فيصل وعضوية ١٢ شخصاً معيناً. وأصدر في ٢١ جمادى الأولى ١٣٤٥هـ/ ٢٧ ديسمبر ١٩٢٦م التعليمات الأساسية للحجاز؛ لتكون دستوراً للدولة الحجازية، التي أصبحت ضمن الدولة السعودية، نصت المادة الثانية منها على أنّ الدولة العربية الحجازية دولة ملكية والشورى لأهل الحجاز فيها.

الخصوصية الحجازية:

تقول الكاتبة مي يماني -ابنة وزير النفط السعودي الأسبق أحمد زكي يماني- في كتابها المثير للجدل (البحث عن الهوية الحجازية): «من خلال التعمق في (الخصوصية الحجازية) نرى أنها ما زالت تحتفظ بطعمها ومذاقها وعوامل اختلافهمها، حتى لا نقول افتراقها، عن بقية أجزاء الوطن السعودي، وخاصة نجد حيث السلطة المركزية والحكم-؛ الحجاز ما زال متميزاً عن بقية مناطق السعودية سواء ثقافياً أم اجتماعياً أو دينياً، وذلك رغم مرور ما يزيد عن سبعين عاماً على مشروع الوحدة الذي لملم أجزاء الجزيرة العربية، نجد وعسير والإحساء إضافة إلى الحجاز بالطبع، في نطاق دولة واحدة.

فـ«الموظفون الحجازيون هم الذين استلموا في البداية إدارة جهاز الدولة الجديدة. عند سقوط مكة في يد قوات عبدالعزيز آل سعود في العام ١٩٢٤ واندثار الحكم الهاشمي الذي دام حوالي ألف عام في الحجاز، وجد الحكّام النجديون أنفسهم على رأس أكثر الأجهزة الإدارية تطوراً في الجزيرة العربية.. لقد شكلت

الإدارة المتفوقة التي تميز حكم الهاشميين نموذجاً يحتذى به لعبد العزيز آل سعود»[١].

وللتدليل على (الخصوصية الحجازية) في الإطار العام؛ الحجاز كان وما زال في كثير من جوانبه متصفاً بالتنوع والتعددية والانفتاح على العالم بسبب وجود مكة والمدينة في قلبه إذ أنه بحكم قدسية المكانين استقبل الحجاز وما زال يستقبل ملايين الحجاج من مختلف بقاع الأرض، بجنسياتهم وألوانهم وثقافاتهم المختلفة.

وعلى مدار القرون كان لأولئك الحجاج دور في تشكيل المزاج والهوية الحجازية التي اتسمت بالانفتاح والعولمة المحلية المبكرة. لم يقتصر ذلك الانفتاح والإطلاع على طوائف المسلمين بتقاليدهم ومذاهبهم المتنوعة، بل امتد أيضاً إلى غير المسلمين الذين كان يأتي بهم البحر زواراً أو عابري سبيل أو غزاة.أثّر ذلك على هدوء في الطباع، وسعة في المعاملة وتسامح في الاختلاف؛ وخاصة التسامح في الاختلاف المذهبي والممارسات الدينية، بما فيها استيعاب التيار الصوفية والروحانيات المختلفة، اصطدمت الخصوصية بالوهابية التي ساندت المشروع السياسي لابن سعود في توحيد الجزيرة العربية؛ فالمشروع السعودي التوحيدي القادم من نجد لم ينازع الحجاز على الزعامة السياسية فحسب، بل وأيضاً وأكثر أهمية انتزع منه حصرية تمثيل الدين ونوعية التعامل مع الدين نفسه.

ومن ثم تهمش التنوع الحجازي المذهبي المتسامح وبرز التطرف الوهابي في الدين والتفسير، كان ذلك بداية اضمحلال سلطة الحجاز وصعود سلط نجد»[٢].

ولكن كيف صمدت الهوية الحجازية إلى هذا الوقت وظلت تحافظ على خصوصياتها رغم المحاولات لفرض نجدية شاملة تطال كل مناطق المملكة؟

تقول المؤلفة: «إنّ تلك الهوية لم تختر لا الصدام المباشر مع السلطة المركزية

---

(١) البحث عن الهوية الحجازية: ص ١٨.

(٢) البحث عن الهوية الحجازية: ص ٢٩-٣٠.

وحكم آل سعود، ولا التعبير عن نفسها بشكل مباشر أو فج إذ لم يكن لها أية أجندة سياسية ولم تدع إلى فصم الحجاز والعودة بالتاريخ إلى الوراء».

هنا، وعند نفي مي يماني الواضح لأي تفسير لكتابها قد يُفهم منه أنها تدعو إلى ذلك. صحيح أنّ دعوتها لإعادة الاعتبار للهوية الحجازية فيها تحقيق القوة الحقيقية لمشروع التوحد الذي تعيشه السعودية.

كما تقول، أي أنّ الاعتراف بالتنوع وتقديره وعدم محاولة لجمه بقوة السياسة أو قوة المذهب يعطي منعه لأي مشروع توحيدي على عكس ما قد يُظن ظاهراً.

فالمجتمعات برمتها، وليس العربية والإسلامية فحسب، ليست مقدودة على مقاس واحد، بل فيها تنويعات واختلافات وطوائف وتجمعات متباينة، وهذا مما لا يضيرها بالتعريف.

بخلاف ذلك فإنّ محاولة قمع الهويات المحلية ومطاردة تعبيراتها الثقافية والاجتماعية والدينية هو المهدد الأكبر للوحدة الوطنية المأمولة؛ فالذي يحدث في هذه الحالات هو أن تلك التعبيرات لا تختفي، ولكنها تغيب عن الواجهة المرئية فيما تظل تعمل في الخلفية الاجتماعية لهذه الشريحة أو تلك.

وهكذا فإنّ الأشكال المميزة لأية هوية تخلق لنفسها فضاء خاصاً بها وطرائق لتموه على أنماط القسر والرغبة الفوقية الحاكمة بصهر الهويات الفرعية في هوية وطنية أو قومية جامعة.

وهذا في الواقع الممارس تاريخياً لا يقود إلا إلى نتيجة معاكسة لما تريده السلطة الفارضة، أي أنها تعزز خصوصية تلك الهويات بدل أن تخفف من حدتها؛ وتاريخ القرن العشرين يعج بالأمثلة الساخنة، أبرزها المشروع السوفيتي في تخليق هوية قومية جامعة للمجتمعات المنضوية تحت اتحاده، والمشروع اليوغسلافي الذي قام على فكره مشابهة، وكليهما فشل فشلا ذريعاً، حيث عادت الهويات الوطنية والفرعية إلى الظهور والتعبير عن نفسها بتطرف وحدة جارفة في أكثر الأحيان.

في المقابل كان النجاح حليف الاتحادات الديموقراطية التي لم تكن مهجوسة بجرف الهويات الفرعية والإقليمية بل تركتها على حالها وراهنت على الزمن وتبادل المصالح وحركة المجتمع الذي مع مرور السنين هذب من تلك الهويات وحجمها وبالتالي لم تعد مصدر خطر على الوحدة الوطنية لكن من دون قسر أو قمع، كما في ألمانيا وإيطاليا وبريطانيا.

وللإنصاف الموضوعي ليست حالة السعودية مشابهة من قريب أو بعيد لحالة الإتحاد السوفيتي أو اليوغسلافي في التوحيد القسري، إذ أن عوامل التوحد السعودي أوسع وأشمل وأعمق بما لا يقارن. لكن ما يُراد الإشارة إليه هنا هو مسألة كيفية التعامل مع الهويات الفرعية وهو تعامل يجب أن لا يحكمه التوتر والقهر ومحاولة التهميش.

ما تشير إليه مي يماني من ظواهر وسياسيات لمحو (الحجازية) من الفضاء السعودي، وبفرض أن ما تشير إليه يحدث فعلاً على أرض الواقع، لا يمكن بحال أن يخدم الهوية الوطنية العامة. فما الفائدة من محاولة تغيير اسم الحجاز إلى «المنطقة الغربية؛ سوى إثارة «النعرة الحجازية»؟ وماذا يخدم تفادي استخدام اللفظ بحد ذاته في وصف بعض العادات أو أنواع الأكل أو اللباس، فلا يُقال مثلاً هذا الطعام حجازي أو هذه العادة حجازية؟ لكن، لم يؤد ذلك، كما تشير يماني، إلا إلى عودة الهوية الحجازية بشكل أكثر ترسخاً.

وتحاول الكاتبة إثبات ذلك في الفصول التي خصصتها لتقاليد الزواج، وتقاليد الموت والدفن، وتقاليد اللباس، وتقاليد الطعام، وسائر تفاصيل الحياة الاجتماعية.

إضافة لذلك فهي تنظر باهتمام وانتباه إلى دور العوائل الحجازية في الحفاظ على الهوية الحجازية وتعبيراتها المختلفة، بدءا بالأسماء التي تطلق على المواليد الجدد وحتى أساليب دفن الموتى.

والعوائل تلك تتوزع على أكثر من فئة، فمنهم فئة الأشراف أي السادة الهاشميين، وفئة المطوفين، وفئة العلماء، وفئة التجار.

هل ظلم الحجازيون سياسياً واقتصادياً؟

تقول مي يماني أنّ الحكم السعودي تعامل معهم بإنصاف بادئ الأمر، ذاك أن الحجاز في منشأ الدولة السعودية الحديثة كان مستودع الخبرات الإدارية والاقتصادية مقابل خلو نجد والصحراء من أية معرفة حقيقية بالعصر الحديث.

لكن مع مرور الزمن واتساع التعليم وبروز أجيال نجدية مدربة في العقود الأخيرة تمت عملية إزاحة تدريجية للحجازيين بما كرس من شعورهم بالخصوصية والتميز والتمييز ضدهم أيضاً.

مع ذلك لا تنكر المؤلفة أنّ كثيراً من الحجازيين قد أثروا بشكل كبير واستفادوا، كما غيرهم، من عوائد النفط، وأنَّ ما لحق ببعضهم من تردٍّ في الأحوال الاقتصادية منذ النصف الثاني من عقد الثمانينات من القرن الماضي يعود في غالبه إلى تراجع عوائدالنفط التي أثّرت على البلد بشكل عام، ولم يكونوا وحدهم ممن تأثر سلباً بذلك. لكن شبه المساواة الاقتصادية تغيب في ميدان النفوذ السياسي.

هنا ترى يماني أنّ الحجازيين كما غيرهم من غير النجديين، أو حتى من غير الدائرة الضيقة من آل سعود، يعانون من حرمان من المناصب السياسية وتمييز مجحف بحقهم حتى وإن امتازوا بقدرات عالية وكان من بينهم كفاءات رفيعة المستوى.

ولا يختلف حال الحجازيين -كما يذهب الدكتور حمزة الحسن- عن حال عموم الشيعة في جميع مناطق المملكة؛ فقد اتسمت علاقة الطائفة الشيعية بالحكومة في المملكة العربية السعودية بتقاطع واحتقان حاد على مدى سنوات طويلة منذ قيام الدولة السعودية الثالثة، فيما اتضحت صورة التوتر والاضطراب أواخر عقد السبعينات مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران وحتى بداية التسعينات، إذ برزت

وجوه الأزمة في أشكال متعددة ومختلفة، ولسنا بصدد بيان ودراسة تلك الظروف التي أدّت إلى تأزم واقع الحياة الشيعية، غير أنها تتمحض في تحالفات بين الأسرة الحاكمة وخطوط دينية تتقاطع مع العقيدة الشيعية اضطرت الدولة لانتهاج سياسة التمييز الطائفي ضماناً لتحصيل رضا وولاء تلك الأطراف الدينية المتحالفة معها، هذا فضلاً عن مخاوف النظام المبنية على سوء تقديره وفهمه لخصوصيات الشأن الشيعي، وعدم مقدرته على تفهم ظروف وأوضاع الشيعة واحتياجاتهم، وبالتالي افتراض النظام -انطلاقاً من هواجس وأوهام خلقتها الخلافات والعلاقة المتشنجة منذ نشوء الدولة السعودية الثالثة- لعدم ولاء الفرد الشيعي لوطنه وحكومته.. غير أنّ الواقع والأحداث التي جرت قبيل وأثناء وبعد أزمة الخليج الثانية، وكذلك موقف الشيعة الحالي في كل مناطق المملكة ضد مخاطر الإرهاب الداخلي وضد التهديدات التي تحدق بالمملكة خارجياً، كل هذا كشف بما لا يدع مجالاً للشك عن عمق الولاء الوطني لدى كافة أفراد الطائفة الشيعية وعلى مختلف مستوياتهم.

ماذا يريد الشيعة في السعودية؟

تتحدد إرادة الشيعة في ضمن:

١- الاعتراف الرسمي بالمذهب الشيعي.

٢- استقلال القضاء الشيعي واعتماده واحترامه.

٣- إعطاء الشيعة الحق في صياغة مناهج الدراسة لأبنائهم في مجالات العقيدة والفقه والتاريخ.

٤- توفير الحماية القانونية للشيعة ضد التعدي على معتقداتهم، وتكفيرهم بما يوجب سحب تلك الفتاوى الصادرة بحقهم من علماء المؤسسة الدينية الرسمية وغير الرسمية، وتجريم أي فعل مماثل قد يقع مستقبلاً.

٥- ضمان مبدأ تكافؤ الفرص لأبناء الشيعة أسوة بباقي المواطنين في قطاعات

التعليم والعمل بما في ذلك القطاع الأمني والعسكري.

٦- شمول المناطق الشيعية بالخطط التنموية، وبالمستوى الذي يضمن التعويض عن الحرمان والتهميش في الماضي والحاضر.

٧- السماح بتأسيس الأجهزة الإعلامية التي تُعنى بالشأن الثقافي والديني الشيعي، ومساواتها في الدعم الحكومي بمثل ما تحظى به الأجهزة والمؤسسات الإعلامية الأخرى في البلاد.

ويمكن للقارئ ملاحظة أنَّ جميع هذه المطالب، يجمعها إطار واحد يتمثل في إنهاء سياسة التمييز الطائفي، وإرساء مبدأ المساواة في التعاطي مع شؤون الشيعة الوطنية العامة، وهو حق طبيعي لكل مواطن، فمتى ما تمَّ هذا فإنّ الفرد الشيعي سينصهر في التكوين الوطني، ولن يعود يشعر بالغربة والاستلاب وفقدان الهوية، بخلاف ما هو قائم الآن حيث التهميش المطلق الذي يشعر به كل فرد شيعي.

وبنظرة مستقبلية واعية يتضح بأنّ هذا الخيار أصلح للبلاد -حكومة وشعباً- من التعنت والعصبية التي قادت وحتى الآن إلى الحيف والذي بدوره خلق التشنجات والاحتقانات الشعبية، وأوجد القطيعة بين المواطنين والحكومة. ولنا أن نشير إلى أنّ أروقة الحكم ما زالت بحاجة إلى حملات تطهير وفرز لأولئك الأشخاص الذين دأبهم صبّ الزيت على الشرر، وهم مَنْ يقف اليوم حجر عثرة في سبيل إتمام عملية الوفاق التام بين الشيعة والدولة، إذ أنهم يعمدون إلى افتعال الأزمات، ويرصدون ردّات فعل الناس ثم يضخمونها بصورة درامية لإيغال قلوب كبار الأسرة الحاكمة ضد الطائفة والمذهب.

وبدون هذه الخطوات العملية، فإنّ استشراف مستقبل العلاقة الشيعية/ السعودية أمرٌ لا يدعو أبداً إلى أدنى مستويات التفاؤل، بل لعلنا نلمح حالياً مؤشرات تدعو للقلق على ما ستؤول إليه الأوضاع في غضون الحقبة الزمنية القادمة.. وكم يؤلمنا أن تظل بلادنا حتى الآن غير قادرة على صنع آليات التلاحم الوطني وتكوين

سبل الحياة المستقرة لكافة أبناء الوطن الموحد.

والمطالع لهذا الكتاب يقف على حجم امتداد الإسلام الشيعي في الجزيرة العربية، الضارب في القدم، ليعرف القارئ بأنّ مذهب التشيع هو امتداد طبيعي لمدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام إمام الفقهاء، وهو امتداد طبيعي لمدرسة جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إمام الأئمة.

الحياة السياسية في الحجاز

شهدت بلاد الحجاز في القرنين الأول والثاني للهجرة أوضاعاً سياسية مستقرة نسبياً -مقارنة بالقرنين الثالث والرابع- إذا ما استثنينا بعض الوقائع والأحداث في القرن الأول الهجري، واستمر الاستقرار السياسي فيها حتى نهاية العصر الأموي (١٣٢هـ/ ٧٥٠هـ).

استمر النظام الإداري في الحجاز منذ بداية الخلافة العباسية لزمن لا يزيد عن عقد على ما كان عليه في عصر الخلافة الأموية، حيث كانت بلاد الحجاز ولاية واحدة[1] يُدير شئونها أمير واحد يعيّنه الخليفة، مركزه المدينة وتتبعه مكة، وكان لكل من البلدين والٍ أو أمير[2]، ونتيجةً لظهور بوادر للنشاط السياسي العلوي (الفرع الحسني) في الحجاز، الذي ازداد قوة بسبب سياسة اللين التي اتبعها أبو العباس معهم في خلافته لأنه كان يرى أنّ المواجهة معهم يعني وأد التأييد الواسع لهم خاصة في المشرق، الأمر الذي جعله يسالمهم[3]، ونتيجةً لهذه السياسة استطاع العلويون أثناء ذلك توطيد نشاطهم وتوحيد صفوفهم، إضافةً إلى أنّ محمد بن عبد الله العلوي، المعروف بـ(محمد النفس الزكية) كان يحظى بنفوذ وتأييد من قبل أهل الحرمين الشريفين، وعلى وجه الخصوص في المدينة المنورة، التي كانت مركزاً مهماً للبيت العلوي، انطلقت منه الثورات في وجه الخلافة العباسية، مما

(١) المعارف، لابن قتيبة: ص ٢١٠.

(٢) تاريخ قريش، حسين مؤنس: ص ٧٦١.

(٣) بلاد الحجاز خلال العصر العباسي الأول، نجلة قاسم الصباغ: ص١٧-١٨.

جعل سياسة العباسيين تتغير نحو الحجاز[١].

ففي سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م، أحدث الخليفة العباسي المنصور (ت١٥٨هـ/ ٧٧٥م) تغييراً في النظام الإداري في الحجاز، فقام بتقسيم الحجاز إلى ولايتين: الأولى مركزها مكة، والأخرى مركزها المدينة، وعيّن لكل ولاية والياً مستقلاً[٢] حتى يتفرغ للعمل على استقرار الأمور فيها، والقضاء على أي نشاط للعلويين[٣].

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين، شهدت بلاد الحجاز أحداثاً سياسية كثيرة، مما جعلها تفتقر إلى الاستقرار والاطمئنان في تلك المدة، باستثناء بعض السنوات القليلة في القرنين سالفي الذكر، ناهيك عن تردي الأوضاع الاقتصادية في بلاد الحجاز آنذاك، كل ذلك أدّى إلى التأثير السلبي على الحياة العلمية في الحجاز خلال زمن هذه الدراسة.

ويرجع عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي في بلاد الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين إلى وجود العوامل الآتيه:

أولاً: العوامل الداخلية:

وتنقسم إلى قسمين هما:

أ - ثورات العلويين في بلاد الحجاز ضد العباسيين.

لم يكن إعلان العباسيين لخلافتهم أمراً مُحبباً ومرغوباً فيه لدى العلويين؛ لاعتبارهم أنّ أبناء عمهم من بني العباس قد اغتصبوا وسلبوا حقّهم المشروع في حكم البلاد الإسلامية مما جعلهم يقاومون[٤] بني العباس، ويصرّون على المطالبة

---

(١) سياسة الفاطميين الخارجية، محمد جمال الدين سرور: ص ٢١.

(٢) حذف من نسب قريش، للسدوسي: ص ١٤، ٧١، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي: ج ٤ ص ٢٩٧.

(٣) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز من القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس الهجري، عطية طه عبد العزيز إبراهيم: ص ١٢.

(٤) مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني: ص١٧١ - ١٧٣.

بالخلافة، ونظراً لولاء أهل الحرمين الشريفين وحبّهم لهم، جعلوا بلاد الحجاز أساس انطلاق ثوراتهم ضد الخلافة العباسية، والتي بدورها أثّرت تأثيراً سلبياً بالغاً على جوانب الحياة العامة في بلاد الحجاز.

ففي سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م، وقف الناس بعرفة بلا إمام، وصلّوا بلا خطبتي عرفة، وذلك بسبب فرار الأمير العباسي متخوفاً من حسين الأفطس (٢٠٣هـ/ ٨١٨م) مبعوث ابن طباطبا -أحد زعماء الشيعة ودعاتهم- إلى مكة للاستيلاء عليها[١]، فتُمكّن له ذلك وأقام بها الموسم، ولكن لقبح سيرته وسيرة أصحابه ثار الناس ضده، مما جعله يلجأ أخيراً مع مناصريه إلى الذهاب إلى محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب (ت ٢٠٣هـ/ ٨١٨م) المعروف بالورع والزهد، فكان محبباً في الناس مفارقاً لما عليه كثير من أهل بيته من قبح السيرة لإقناعه بالخلافة[٢]، فأبى ذلك عليهم، فاستعانوا بابنه علي بن جعفر لإقناعه بذلك، حتى غلبوه على رأيه فأجابهم إلى ذلك، فبايعوه بالخلافة وحشروا إليه الناس من أهل مكة و المجاورين -في الحرمين الشريفين- فبايعوه طوعاً وكرهاً، وسمّوه بأمير المؤمنين وذلك سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٧م، ومع ذلك لم يستطع القيام بمهامه وواجباته، فأقام شهراً ليس له أي أمر أو قول أو فعل يذكر[٣]، واستمر ابنه علي وحسين الأفطس وتابعوهم يرتكبون أفعالاً قبيحة حسب وصف المصادر[٤]، ويسيرون في الناس سيرة سيئة مبغوضة، الأمر الذي جعل الناس يتذمرون بل ويلجأون إلى المواجهات العنيفة ضدهم[٥]، وأخيراً لم ينقذ الناس منهم إلا أبو إسحاق ابن المأمون (ت ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) الذي ألقى القبض عليهما في مكة وبعث بهما إلى الخليفة العباسي

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، للفاسي: ج ٢ ص ٢١٦، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: ج ١ ص ١٦٧.
(٢) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ج ٧ ص ١٢٥.
(٣) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٨٢، و إتحاف الورى بأخبار أم القرى: ج ٢ ص ٢٦٦.
(٤) تاريخ الأمم والملوك: ج ٧ ص ١٢٥.
(٥) لمزيد من التفاصيل حول ذلك، انظر: تاريخ الأمم والملوك: ج ٧ ص ١٢٥-١٢٨.

المأمون، بعد أن أقام الحجّ في تلك السنة[١].

وفي سنة ٢٥١هـ/ ٨٦٥م أيضاً، ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (ت ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م) بمكة، فهرب عاملها جعفر ابن الفضل بن عيسى (ت ٣٩١هـ/ ١٠٠١م) فانتهب إسماعيل بن يوسف منزل جعفر ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة وأخذ ما كان في الكعبة من الذهب وما في خزائنها، إضافةً إلى أخذه من الناس نحواً من مائتي ألف دينار[٢]، ونهب مكة، بل وصل به الأمر أخيراً إلى قيامه بإحراق بعضها، وخرج منها بعد أن قضى فيها حوالي شهر ونصف الشهر عاث فيها فساداً، ثم توجه إلى المدينة المنورة، فتوارى عنها عاملها علي بن الحسين بن إسماعيل[٣] (ت في ق ٣هـ/ ق ٩م)، ثم قرر الرجوع من المدينة إلى مكة، فحاصرها حتى ذكر بأنّ أغلب أهلها ماتوا جوعاً وعطشاً من شدة الحصار عليهم، حتى بلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم، واللحم رطل بأربعة دراهم، وشربة ماء بثلاثة دراهم، ولقي أهل مكة والمجاورون منه كل بلاء، ثم رحل إلى جدة بعد أن حاصر مكة لمدة زمنية تصل إلى شهرين، فحبس عن أهلها الطعام، وأخذ أموال التجار[٤]، ولم يكتف بذلك إسماعيل، بل رجع من جدة إلى مكة، ووافى الموقف يوم عرفة، وبه محمد بن المنصور الملقب (كعب البقر) (ت في ق ٣هـ/ ق ٩م) وعيسى بن محمد المخزومي (ت ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م) صاحب جيش مكة، وكان الخليفة العباسي المعتز (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) قد وجههم إليها فقاتلهم إسماعيل فقتل نحواً من ألف ومائة من الحاج، وسلب الناس فهربوا منه إلى مكة حتى ذكر أن الحُجّاج لم يقفوا بعرفة ليلاً ولا نهاراً باستثناء إسماعيل

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ص ٤٧٠.

(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٣١٢، و سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١٢ ص ٤٨، و المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، لابن الجوزي: ج ١٢ ص ٥٠.

(٣) تاريخ الأمم والملوك: ج ٩ ص ٣٤٦، والعقد الثمين: ج ٣ ص ٣١٢، و التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي: ج ١ ص ١٨٦.

(٤) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٨٦، والمنتظم: ج ١٢ ص ٥٠.

بن يوسف وأتباعه[١]، وأخيراً رجع إسماعيل إلى جدة فنهبها وأفنى أموالها، وكان يتردد إلى الحجاز من سنة ٢٢٢هـ/ ٨٣٧م، وتسمّى بالسفاك، وكانت وفاته في آخر سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م، بعد أن ابتلاه الله بمرض الجدري[٢].

ونتيجةً لتلك الأوضاع السياسية المأساوية في الحجاز، فقد أفرزت نتائجها إلى التأثير السلبي على الحياة العلمية والاقتصادية أيضاً[٣]، وألحقت بهما ضرراً كبيراً.

ففي سنة ٢٦١هـ-٢٦٢هـ/ ٨٧٤-٨٧٥م، اشتد فيهما الغلاء بمكة على وجه الخصوص حتى أُجلي عن مكة من كان مجاوراً بها، بل رحل عنها العامل الذي كان بها بسبب ذلك[٤].

وفي سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م، ثار أحد العلويين في المدينة المنورة، ويُدعى محمد بن الحسين بن جعفر بن موسى الحسيني، مع أخيه علي بن الحسين، فقتلا الكثير من أهل المدينة، وسلبا أموالهم، ولم يكتفيا بذلك، بل وصل الأمر بهما مع أتباعهما إلى أن يقوموا بتخريبها وإعاثة الفساد فيها، حتى ذكر أنَّ من نجا من القتل من أهل المدينة، لم يخرج من ملجئه تخوفاً على أنفسهم لئلا يلاقوا المصير نفسه لأولئك الذين قتلوا في ذلك الحدث، حتى قيل: أنّ الصلاة لم تقم في المسجد النبوي الشريف لا جمعة ولا جماعة لمدة شهر كامل[٥].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ج ٩ ص ٣٤٧، والمنتظم: ج ١٢ ص ٥٠.

(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٣١٣، وتاريخ الأمم والملوك: ج ٩ ص ٣٤٧، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ١٨٦، أما الذهبي: فيذكر أنّ سبب وفاته مع كثير من جنده هو مرض الطاعون (السير: ج ١٢ ص ٤٨)، وقد يطلق على الجدري الطاعون حينما يعم.

(٣) تاريخ مكة، أحمد السباعي: ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٤) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٨٨، وتاريخ الخلفاء، للسيوطي: ص ٣١٣، والمنتظم: ج ١٢ ص ١٥٦، ولعل الغلاء في تلك السنة قد عمّ البعض من بلدان الإسلام المجاورة للحجاز مثل العراق لكنه لم يكن بالقوة نفسها الموجودة في الحجاز، وهذا يدل على أنّ للأوضاع السياسية في الحجاز خاصة كان لها تأثير سلبي على الأوضاع في الدول المجاورة لها.

(٥) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٤٧١.

كل هذا يوضح الأوضاع المأساوية التي عاشتها بلاد الحجاز حينذاك حيث كان لها تأثير سلبي على الحياة العامة بمختلف جوانبها، ونخص من ذلك الحياة العلمية كونها محور حديثنا في هذا البحث، ولمعرفة العوامل والأسباب التي أدّت إلى تأخر الحجاز علمياً[1]، مقارنةً بتفوقها الكبير في القرنين الأول والثاني للهجرة.

وكما ذكرنا سابقاً عن أطماع العلويين في الاستقلال بحكم الحجاز عن الخلافة العباسية والذي اتضح ذلك من خلال ثوراتهم العديدة -والتي تم ذكرها سلفاً- التي تم القضاء عليها من قبل الخلافة العباسية فباءت جميعها بالفشل، واستمر الخلفاء العباسيون في إرسال الولاة على بلاد الحجاز من قبلهم، ونتيجةً للثورات والفتن التي أشعلها الأتراك في نهاية القرن الثالث الهجري[2] في وجه الخلافة العباسية، شُغِلَ الخلفاء العباسيون بها عن المتابعة للأوضاع السياسية في الحجاز كسالف عهدهم، فما إن شعر المتربصون الطامعون في حكم بلاد الحجاز من العلويين بذلك الضعف الذي تعاني منه الخلافة العباسية، فعملوا جاهدين لاستغلال هذه الفرصة السانحة لتحقيق حلمهم الذي لم يستطيعوا تحقيقه منذ فترة طويلة، فكان زعيم العلويين في هذه المرة محمد بن سليمان من ولد سليمان بن داود بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ت في ق ٤هـ/ ق ١٠م) الذي أعلن في الموسم من عام (٣٠١هـ/ ٩١٣م) خلعه لطاعة العباسيين، وخطب[3] لنفسه

---

(١) غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، لابن فهد: ج ١ ص ٤٣٣-٤٥٨.

(٢) سياسة الفاطميين الخارجية، محمد جمال الدين سرور: ص ٢٢، الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، رشاد بن عباس معتوق: ص ٢٧-٣٥.

(٣) قائلًا في خطبته تلك: الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإسلام من كمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه، لا ببني أعمامه ﷺ، وعلى آله الطاهرين، وكفَّ عنهم ببركته أيدي المعتدين، وجعلها كلمة باقية إلى يوم الدين، ثم أنشد قائلاً:

لأطلبنَّ بسيفي ... من كان للجور فينا
وأسطونَّ بقوم ... بغوا وجاروا علينا
يهدون كل بلاء ... من العراق إلينا

وكان يلقب بالزيدي لاتباعه بعض مذاهب الإمامية. (العقد الثمين: ج ٢ ص ٢٤).

بالإمامة، وبذلك الحدث تم تأسيس دولة للعلويين في مكة مستقلة عن الخلافة العباسية في بغداد[١].

ويبقى معنا سؤال من الضرورة طرحه قبل الحديث عن هذه الدولة المستقلة للإجابة عنه من خلال ذكر مجريات الأحداث والأوضاع السياسية في الحجاز ومكة خصوصاً، أثناء مدة توليها للحكم في هذا البلد، وهو: هل استطاعت هذه الدولة المستقلة أن تدير شئون البلاد المختلفة بنجاح خلال مدة استقلالها بحكمه، وإنقاذه من الأوضاع السيئة التي عاشها خلال القرن الثالث الهجري؟ خصوصاً وأنَّ حكّامه أصبحوا من أبنائه، الذين ينتسبون إلى أسرة العلويين المتمتعة منذُ زمن بعيد باحترام وود أهل الحرمين الشريفين على وجه الخصوص، إضافةً إلى أنهم أصبحوا مستقلين بدولتهم، لا يوجد مَن ينازعهم الحكم فيها.

وللإجابة عن ذلك نستطيع القول: إنّ تلك الدولة المستقلة لم تكن قوية، بحيث تستطيع حماية نفسها، والدفاع عن القاطنين فيها، سواء من أهلها أو من الوافدين عليها -من أقطار الإسلام الأخرى- أثناء الحج أو غيره، كون المسلمين يرتادونها كل عام لأهميتها الدينية، فلم يمر على تأسيسها أكثر من عام حتى توالت هجمات المغيرين على بلاد الحجاز، بل كانت أقوى من سابقتها في القرن الثالث الهجري، وهذا يتضح من خلال النتائج الوخيمة لتلك الهجمات -وسيتم الحديث لاحقاً عن تلك الهجمات والإغارات- مما يدل على ضعف دولة العلويين المستقلة وعدم امتلاكها لقوة عسكرية رادعة تستطيع من خلالها حماية نفسها وتأمين قاطنيها المؤقتين والدائمين، إضافةً إلى ذلك عدم قدرتها على السيطرة الكاملة على مجريات الأمور في الحجاز والاستفادة من التجارب السابقة والأحداث الماضية ووضع خطة مستقبلية يستطيعون من خلالها منع حدوث وتكرار ما سبق ذكره.

ونظراً للضعف الذي حلَّ بالخلافة العباسية في عقد الخمسينيات على وجه

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون: ج ٤ ص ١٢، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء: ج ٤ ص ٢٦٧.

الخصوص من القرن الرابع الهجري، فطن الثائر العلوي جعفر بن محمد الحسني (ت ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م) لانتهاز الفرصة وأن يعلن استقلاله بحكم مكة[1] في (سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م)، وبذلك قطعت الخطبة عن بني العباس، وأُقيمت للخليفة الفاطمي المعز لدين الله[2] (ت ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، حتى يستطيع هذا الثائر العلوي كسب ودّ الفاطميين، وتأييدهم لحكمه، وحمايتهم له من أي خطر.

كما لا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر الحال في المدينة المنورة والوضع السياسي فيها، فكما ذكرنا سلفاً عن استغلال الأشراف من بني الحسن للأوضاع السيئة للخلافة العباسية ونجاحهم في الاستقلال بحكم مكة، فكذلك الحال كان في المدينة، حيث نفذ أشراف أهل المدينة من بني الحسين خطة بني عمومتهم من بني الحسن بمكة، فأعلنوا استقلالهم بحكم المدينة، وبذلك خرجوا من سيطرة ونفوذ العباسيين، ثم قاموا بالاعتراف للفاطميين بالسيادة الفعلية على المدينة المنورة، وبذلك استطاع الأشراف في مكة والمدينة[3]، كسب ودّ الفاطميين وتثبيت أنفسهم حكاماً وولاةً شرعيين على مكة والمدينة.

ونخلص إلى القول: إنَّ أمراء الأشراف من بني الحسن في مكة، وبني الحسين في المدينة، استغلوا موارد الحجاز الداخلية والخارجية لخدمة مصالحهم الخاصة، من أجل البقاء والاستمرار في الحكم غير مبالين بمصلحة بلدهم، علاوةً على ذلك لم نعثر في أي مصدر أو مرجع تاريخي ما يشير من قريب أو بعيد على وجود اهتمام لديهم بالعلم وأهله، الأمر الذي أدّى إلى تأخير بلدهم الحجاز مادياً وعلمياً، ويؤيد ذلك وصف المقدسي[4] لبلاد الحجاز حينما زارها في أواخر القرن الرابع الهجري، الذي وصفها بالفقر وقلة العلم.

(١) العبر، لابن خلدون: ج ٤ ص ١٢، والعقد الثمين: ج ١ ص ١٨٦.

(٢) شفاء الغرام: ج ٢ ص ٢٢١.

(٣) العبر في خبر من غبر، للذهبي: ج ٢ ص ٣٢٩، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ٢٢١، والعقد الثمين: ج ١ ص ١٨٦.

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي: ص ٧٣ - ٨١.

ب- الفتن والأحداث الداخلية في بلاد الحجاز:

لقد ظلت بلاد الحجاز طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين مسرحاً للفتن والأحداث التي كانت تنشب بين الحين والآخر بين فئات المجتمع الحجازي لسببٍ أو لآخر، ناهيك عن تلك الإغارات لبعض الأعراب على قوافل الحجاج وغيرهم والتي كان يتم فيها السلب والنهب والقتل أيضاً، نتيجةً لعدم وجود دولةً قوية في الحجاز تستطيع المسك بزمام الأمور لمنع حدوث مثل ذلك، وكذلك توفير الأمن والاطمئنان لسكان هذا البلد خاصة والوافدين عليه من أقطار الإسلام الأخرى عامة، ولذلك لم يجد الوضع العام في الحجاز استقراراً إلاَّ في مدة زمنية محدودة، ونتج عن ذلك أن تأخر التطور العلمي والرفاه الاقتصادي بها، ومن تلك الأحداث والفتن ما يأتي:

ففي عام (٢٠٠هـ/ ٨١٥م) قام بعض الحجاج بنهب بستان ابن عامر الذي يقرب من مزدلفة، والبقاء فيه كونه على طريق الحاج بغية السلب والنهب[1]، بقيادة رجل من ولد عقيل بن أبي طالب، فقام بالهجوم على قافلة من الحاجّ ومعهم كسوة الكعبة وطيبها فأخذوا أموال التجارة مع كسوة الكعبة وطيبها وجعلوا الحُجّاج يذهبون إلى مكة في أسوأ حال وأقبح منظر عراة منهوبين، فعلم أبو إسحاق بن المأمون الذي سيُعرف بعد ذلك بالمعتصم (ت٢٢٧هـ/ ٨٤١م) بذلك فأرسل عيسى بن يزيد الجلودي (ت٢١٤هـ/ ٨٤٩م) لمقاتلتهم، فقاتلهم وهزمهم شر هزيمة، واسترد بعض الأموال المنهوبة[2]، واستخلف يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي (ت في ق ٣هـ/ ق ٩م) على مكة، لكن إبراهيم بن موسى بن جعفر

---

(١) وسبب ذلك أنّ إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق، بعد استيلائه على اليمن في هذه السنة، وجه من اليمن رجلًا من ولد عقيل بن أبي طالب في جند ليحج بالناس، فصار العقيلي حتى أتى بستان ابن عامر فبلغه أنّ أبا إسحاق المعتصم قد حجّ في جماعة من القوّاد منهم حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان (ت ق ٣هـ/ ق ٩م) وقد استعمله الحسن بن سهل على اليمن، فعلم العقيلي أنه لا يقوى بهم فأقام ببستان ابن عامر. (شفاء الغرام: ج ٢٠ ص ٢١٧).

(٢) العقد الثمين: ج ١ ص ١٨٥.

بن محمد بن علي بن الحسين (ت في ق٣هـ/ ق ٩م) استطاع بمن معه من أتباعه التغلب على يزيد بن حنظلة المخزومي، وقتله في سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م، ودخل مكة عنوة[١].

وفي سنة ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م، ولىّ المأمون على مكة والمدينة عُبيدالله بن الحسن بن عبيدالله بن العباس بن علي بن أبي طالب، وقد دامت ولايته تلك إلى سنة ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م[٢].

وفي سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م، قام الخليفة العباسي الواثق (ت ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) بتوجيه أحد قُوّاده -بغا الكبير التركي (ت ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م)- إلى الأعراب الذين كانوا قد عاثوا فساداً بالمدينة المنورة وما حولها خصوصاً بني سليم، الذين كانوا دائماً يُحدِثون الشرَّ حول المدينة[٣] فيقتلون وينهبون، فواقعهم بغا في قريتهم -السوارقية- فقتل منهم نحو خمسين، وانهزم الباقون، وحبس عنده من أهل الشرِّ منهم نحو ألف رجل، وفعل مثل ما فعله مع بني سليم مع أصحاب الشر من الأعراب الآخرين[٤].

وفي سنة ٢٥١هـ/ ٨٦٥م، قطعت بنو عقيل طريق جدة، فحاربهم جعفر بشاشات (ت في ق٣هـ/ ق ٩م) فقُتِلَ من أهل مكة نحو ثلاثمائة رجل، فلما فعل بنو عقيل ما فعلوا غلت الأسعار بمكة، وأغارت الأعراب على القرى[٥].

وفي سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م وقع قتال شديد بين فئتين من فئات المجتمع المكي داخل مكة نفسها، وهي فئة الجزّارين، وفئة الخيّاطين، ووقع ذلك القتال قبل يوم

(١) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٨٣، وأخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، للأزرقي: ج ١ ص ٢٢٦.
(٢) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٨٤، والطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٥ ص ٣٠٨، وتاريخ خليفة: ص ٤٧١ - ٤٧٢.
(٣) وكان الواثق قد وجّه إليهم قبل ذلك حماد بن جرير الطبري (ق ٣هـ/ ق ٩م) في مائتي فارس، فقاتلهم فغلبوه، وقوى أمر بني سليم، فاستباحت القرى فيما بينها وبين مكة والمدينة، وبعد ذلك وجّه إليهم الواثق بغا التركي. (المنتظم: ج ١١ ص ١٥٠).
(٤) المنتظم: ج ١١ ص ١٥٠ - ١٥١.
(٥) تاريخ الأمم والملوك: ج ٩ ص ٣٤٦، والعقد الثمين: ج ٣ ص ٤٢٧.

التروية بيوم واحد فقط، حتى خاف الناس من أن يبطل الحجّ في تلك السنة، ثم تحاجزوا إلى أن ينتهي الناس من حجّهم، بعد أن حصر عدد القتلى في تلك الواقعة بأكثر من خمسة عشر رجلاً(١).

وفي سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م، كانت موافاة أبي المغيرة بن عيسى بن محمد المخزومي (ت في ق٣هـ/ ق ٩م) مكة متغلباً -بأتباع له من الزنوج- عليها، لكنّه لم ينعم بهذا التغلب والاستيلاء على مكة سوى بضعة شهور، حتى وافاه في السنة التي تليها محمد ابن أبي الساج (ت ٢٨٩هـ/ ٩٠٢م) بمكة نفسها، فجرت بينهما حرب شديدة، انتهت بانتصار الأخير وهزيمة ابن المخزومي، فاستباح ابن أبي الساج ماله(٢)، وتغلب على مكة.

لم تمر سوى مدة بسيطة تصل إلى نصف عقد، إلّا ويفاجأ سكان الحجاز بنشوب فتنة عظيمة راح ضحيتها الكثير من المسلمين، حدثت بمكة على أبواب المسجد الحرام.

ففي سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م، وثب يوسف بن أبي الساج (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) -وكان والياً على مكة حينذاك- على غلام للطائي(٣)، يقال له بدر، وكان أميراً على الحاج في تلك السنة، فحاربه جماعة من الجند، وساعدهم في ذلك الحاج، حتى استطاعوا إنقاذ غلام الطائي من ابن أبي الساج، وأسروا الأخير وقيّدوه أيضاً، وتم حمله إلى بغداد(٤).

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ج ٩ ص ٥٢٦ و ٥٢٧، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ٢١٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك: ج ٩ ص ٥٤٨ و ٥٥٣ و ٥٥٤، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٠ و ٢١٨، و الأرج المسكي في التاريخ المكي، للطبري: ص ١١٢، وغاية المرام: ج ١ ص ٤٥٦ - ٤٥٧.

(٣) هو: أحمد بن محمد الطائي، عُقِدَ له على المدينة وطريق مكة في العاشر من رمضان لسنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م (تاريخ الأمم والملوك: ج ١٠ ص ٧، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٨٩، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ١٥٥).

(٤) تاريخ الأمم والملوك: ج ١٠ ص ٨، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٨٩، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ١٥٥.

ولعل بلاد الحجاز سادها الهدوء والاستقرار النسبي بعد ذلك، ولمدة زمنية تصل إلى ما يقرب من ربع قرن فقط، فلم تأت سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م، إلاَّ وحدثت واقعة قُتل فيها الكثير، حيث كانت بين والي مكة آنذاك[١]، وبين الأجناد الذين كانوا يطالبون بجائزة بيعة المقتدر العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٧-٩٣٢م) وكان ذلك بمِنى في ثاني عشر من ذي الحجة[٢]، فهرب الناس من شدة القتال إلى بستان ابن عامر، إضافةً إلى ذلك فقد لاقى الحجيج خصوصاً بعد انتهائهم من أداء فريضة الحج في تلك السنة، وأثناء عودتهم من مكة إلى بلدانهم، أن أُصيبوا بعطش شديد؛ لقلة الماء، وعدم حصولهم على ما يكفيهم منه، مما جعل الكثير منهم يموتون عطشاً[٣].

وفي اليوم الثاني والعشرين من ذي الحجة من عام (٣٠٢هـ/ ٩١٤م) خرج أعراب على المنصرفين من مكة فقطعوا عليهم الطريق، وأخذوا ما معهم من العين، كما روي أنهم أخذوا مائتين وثمانين امرأة حرائر، ناهيك عما أخذوه من الإماء والمماليك[٤].

ونتيجةً للأوضاع السياسية غير المستقرة في بلاد الحجاز، كثرت إغارات المغيرين من الأعراب[٥] على الحجاج وغيرهم، للتربص بهم، ومهاجمتهم وإحداث القتل فيهم بين الآونة والأخرى، مما جعل بعض الأقطار الإسلامية تنقطع عن الحجّ لبعض المواسم؛ خوفاً منهم على أنفسهم مما قد يلاقونه أثناء ذلك.

---

(١) هو: عج بن حاج مولى الخليفة العباسي المعتضد، ولي إمرة مكة من ٢٨١هـ إلى ٢٩٥هـ، ويحتمل أن يكون ولي قبل هذا التاريخ وبعده (العقد الثمين: ج ٦ ص ٥٨).

(٢) شفاء الغرام: ج ٢ ص ٢١٨.

(٣) حكي أنّ أحدهم كان يبول في كفه ثم يشربه (شفاء الغرام: ج ٢ ص ٢١٨).

(٤) تاريخ الأمم والملوك: ج ١٠ ص ١٥٠ - ١٥١.

(٥) مثال على ذلك ما فعلته بنو هلال وغيرهم من الأعراب في سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م، حينما هاجموا الحجاج وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وضاق الوقت، وبطل الحج (شفاء الغرام: ج ٢ ص ٢٢١).

ثانياً: العوامل الخارجية:

وتنقسم إلى قسمين هما:

أ - أطماع الدول المستقلة في بلاد الحجاز:

لم تنته الأحداث بمكة عند ذلك الحدث، فلم يكد الوضع السياسي يستقر فيها سوى ثلاث سنوات أو أقل، إلاَّ ويُفاجأ سكان مكة بواقعة جديدة زادت الجروح التي لم تندمل بعد عمقاً، فنتيجةً لأهمية الحجاز والمشاعر المقدسة فيه لدى جميع المسلمين الخاصة والعامة منهم، الأمر الذي جعل الساسة والطامعين في الحكم يفكرون دوماً في كيفية السيطرة على الحجاز لما يتمتع به من احترام كبير من المسلمين عامة، مما جعل نفوس أصحاب القوة والنفوذ في مختلف أقطار الإسلام تواقة في الاستيلاء عليه ومد نفوذهم إليه، مما جعل الوضع السياسي في هذا البلد غير مستقر، وإن كانت هناك أوقات قصيرة كان يسودها الهدوء تتخلل تلك الأحداث والثورات، لكنها غير مأمونة لدى القاطنين فيه، مما جعل الكثير من سكانه يهاجرون من بلدهم إلى البلدان الإسلامية الأخرى، حتى يكونوا بمعزل عن تلك الأحداث والعيش بأمان مع أسرهم، ونخصّ من هؤلاء المهاجرين المكيين، فئة العلماء، مما ترتب على ذلك ضعف النشاط العلمي في الحجاز، حتى وصفته بعض المصادر(١) بالشحة والندرة باستثناء دور العلماء المجاورين في الحرمين الشريفين ممن كانوا يأتون من بلدانهم مزودين بالمؤن -بغية التفرغ لعبادة الله عز وجل في الحرمين ونشرهم للعلم فيهما- إضافةً إلى ما يتحصلون عليه من الأموال من أصحاب البر والإحسان أثناء موسم الحج، أو من ريع الأوقاف التي كانت تأتي مخصصة للحرمين الشريفين من الأقطار الإسلامية الأخرى، والذي كان للمجاورين منها أوفر الحظ والنصيب(٢)، وسيتم الحديث عن

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للسخاوي: ص ٢٩٢، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي: ص ٧٣ - ٨١، و تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين: ج ١ ص ١٧.

(٢) المنتظم: ج ١٤ ص ٢٤٨، والعقد الثمين: ج ١ ص ١٨٦، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي: قسم ١ ص ٢٢١.

ذلك في الفصل الرابع من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

ففي شهر ذي القعدة من العام ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م، أرسل ابن طولون المؤسس لدولته المستقلة بمصر (٢٥٤-٢٩٢هـ/ ٨٦٨-٩٠٥م) جيشين إلى مكة يتكون من ألفي راجل وأكثر من أربعمائة وستين فارساً، بغية الاستيلاء على مكة[١]، مزودين بالعدّة والعتاد، إضافةً إلى تمويلهم بالأموال النقدية الكثيرة لتوزيعها على بعض فئات المجتمع المكي مثل: زعماء القبائل، وفئة الجزارين، والخياطين[٢] وغيرهم، كي يكسبوا ودّهم، ويساعدوهم في تحقيق هدفهم المنشود، وهو الاستيلاء والسيطرة على بلاد الحجاز، لما فيها من أماكن مقدسة تجعل من يحكمها متصفاً بالشرعية في حكمه من قبل المسلمين عامة، وأثناء ذلك كان عامل مكة آنذاك هارون بن محمد (ت ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) موجوداً ببستان ابن عامر، فوافى مكة جعفر بن الباغمردي (ت في ق٣هـ/ ق٩م) لثلاث خلون من ذي الحجة من السنة نفسها، في نحو ما يقرب من مائتي فارس، وتلقاه هارون بن محمد -عامل مكة- على رأس مائة وخمسين فارساً، وأكثر من أربعمائة راجل، فوحَّدا صفوفهما، فقوي بهم جعفر[٣]، وتواجها مع أصحاب ابن طولون، وأعان جعفر حاج أهل خراسان، حتى استطاعوا إلحاق الهزيمة النكراء بأصحاب ابن طولون ببطن مكة، فقُتِلَ من أصحاب الأخير نحو من مائتي راجل، وفرَّ الباقون إلى الجبال، ورفع جعفر السيف، وأمَّنَ المصريين والفئات التي تآمرت مع ابن طولون من سكان مكة، وبعد ذلك قُرِئَ كتاب في المسجد الحرام، بلعن ابن طولون[٤]، وسَلِمَ الناس وأموال التجار.

وفي سنة ٣١٧هـ/ ٩٣٠م، شهدت مكة في موسم الحج حدثاً وجرحاً نازفاً، لم تشهده من قبل، وكان له أبلغ الأثر السلبي على الجانب العلمي خاصة، وعلى الجوانب الأخرى عامة، فنتيجةً لضعف دولة العلويين المستقلة التي لم تستطع

(١) تاريخ الأمم والملوك: ج ٩ ص ٦٥٢.
(٢) وعن الحِرَف: انظر: الحياة الاجتماعية للعلماء: ص ٢٧٠.
(٣) تاريخ الأمم والملوك: ج ٩ ص ٦٥٢ – ٦٥٣، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٨٩.
(٤) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٨٩ و ٢١٨، وتاريخ الأمم والملوك: ج ٩ ص ٦٥٣.

حماية نفسها، والدفاع عن أمرائها وسكّانها الدائمين والمؤقتين -من حُجّاج ومجاورين- من هجمات المغيرين عليها، فقد هدّدها هذه المرة قرامطة البحرين، الذين استطاعوا بكل سهولة دخول مكة يوم التروية والاستيلاء عليها بقيادة قائدهم، أبي طاهر القرمطي[١]، فاستباحها ونكل بأهلها وقتل الكثير منهم، حتى ذكر أن الذين قُتلوا بفجاج مكة وظاهرها ما يقرب من ثلاثين ألف رجل، إضافةً إلى من سباهم من النساء والصبيان، والذين قد يبلغ تعدادهم العدد نفسه[٢]، ناهيك عن من قتلهم داخل الحرم نفسه من الحُجّاج والمجاورين[٣] الذين وصل تعدادهم إلى ألف وسبعمائة نسمة.

لم يكتف القرمطي بذلك، بل قام بردم بئر زمزم بالقتلى، واقتلع أبواب الكعبة وجرّدها من كسوتها، وأخذ جميع ما كان فيها[٤]، فمكث بمكة أحد عشر يوماً عاث فيها فساداً، وفي الأخير وقبل عودته من مكة إلى بلاده البحرين، قام باقتلاع الحجر

(١) هو: أبو طاهر سليمان بن حسن القرمطي الجنابي الأعرابي، ملك البحرين، سار إلى مكة في سبعمائة وقيل: تسعمائة فارس، فاستباح الحجيج وأهل مكة، وصعد على عتبة الكعبة يصيح: أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا ... وبعد أن عاث في مكة الفساد من تقتيل وسلب ونهب، رجع إلى البحرين بالأموال الكثيرة، ثم جرت له مع المسلمين بعد ذلك حروب كثيرة أوهنته، وقُتِل جنده، وطلب الأمان، وفي آخر عمره سلط الله عليه مرض الجدري، وتوفي بسببه سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٢م (سير أعلام النبلاء: ج ١٥ ص ٣٢٠-٣٢٥، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي: ج ٢ ص ٢٧٤، ومنائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، للسنجاري: ج ٢ ص ١٨٦ - ١٩٦.

(٢) العبر في خبر من غبر: ج ٢ ص ١٦٨، والسير: ج ١٥ ص ٣٢١، وصلة تاريخ الطبري، القرطبي: ج ١١ ص ١١٩، وشذرات الذهب: ج ٢ ص ٢٧٤، والأرج المسكي: ص ١١٢ - ١١٥.

(٣) ومنهم: حرمى بن العلاء الشروطي، والحافظ محمد بن الحسن بن أحمد الجارودي، ومحمد بن خالد بن يزيد البردعي وغيرهم. (العقد الثمين: ج ١ ص ٣٨١ و ج ٢ ص ١٤ و ج ٦ ص ١٤٣، وشذرات الذهب: ج ٢ ص ٢٧٥، وتاريخ بغداد: ج ٢ ص ٢٣٣.

(٤) مثل: آثار الخلفاء التي زينوا بها الكعبة ودرّة اليتيم وكانت تزن -فيما ذكر أهل مكة- أربعة عشر مثقالاً، وطبق من ذهب وسبعة عشر قنديلاً كانت بها من فضة، وثلاث محاريب فضة كانت دون القامة منصوبة في صدر البيت وغير ذلك، ثم رد الحجر بعد أعوام، ولم يرد من ذلك شيء (صلة تاريخ الطبري: ج ١١ ص ١١٩).

الأسود، وذهب[١] به وبكل ما أخذه من الأموال من مكة إلى هجر بالبحرين.

وقبل الشروع في ذكر النتائج والآثار السلبية لذلك الحدث المشئوم في تاريخ الإسلام خصوصاً على الحياة العلمية في الحجاز، ينبغي علينا التريث قليلاً والتأكد من مدى صحة ثبوت ذلك العدد المذكور سلفاً؛ لكون أعداد جيش القرمطي قليلة إذا ما قورنت بأعداد القتلى الذين سقطوا في مكة، إضافة إلى الأسرى الذين أُخذوا من مكة إلى البحرين الذين قد يصل تعدادهم إلى العدد نفسه.

ونتيجةً لإجماع أغلب المصادر التي تسنى لنا الاطلاع عليها على ثبوت ذلك العدد، مما يجعلنا نرجح ذلك للأسباب الآتية:

١- كون النيّة مبيّتة لدى القرمطي من قبل هذا العام، الأمر الذي جعله أكثر استعداداً وأكثر جاهزية للقيام بهذا العمل، حيث كثُر فساده وقتله للمسلمين، وكثر أتباعه، وتمكنت هيبته في القلوب، بل تزلزل له الخليفة العباسي المقتدر، وهزم جيوشه غير مرّة، بل وصل الأمر إلى انقطاع الحجّ عن بعض الأقطار في بعض السنين التي سبقت سنة ٣١٧هـ، خوفاً من القرامطة، بل ذكر أنه في سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م نزح أهل مكة عنها، مخافةً من هجوم القرامطة عليهم[٢]، مما جعل الأمر سهلاً أمامه وأمام جيشه لتنفيذ خطته وفعله القبيح دون مقاومته واعتراضه.

٢- عدم امتلاك حكّام مكة -العلويين- لقوة رادعة، ويبرز ذلك جلياً من خلال قتل القرامطة لأمير مكة مع أتباعه حينذاك، فلم تواجه القرامطة أية صعوبة في ذلك -سوى مقاومة لا تكاد تذكر- وهذا دليل كافٍ على ضعف دولة السليمانيين المستقلة، والذي وصل بها الحال إلى عدم قدرتها على حماية أمرائها وولاتها في بلادهم[٣]، الأمر الذي يجعلنا نرجح ثبوت تلك الأعداد.

(١) قيل: إنهم لما أخذوه هلك تحته أربعون جملًا من مكة إلى هجر، فلما أُعيد إلى مكانه في مكة حُمل على قعود هزيل فسمن (تاريخ الخلفاء: ص ٣٣٠).
(٢) تاريخ الخلفاء: ص ٣٢٩.
(٣) شذرات الذهب: ج ٢ ص ٢٧٤، والسير: ج ١٥ ص ٣٢١، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٢.

٣- نظراً لعدم حمل الحُجّاج وغيرهم للسلاح خصوصاً أن الجميع يعرفون قدسية المكان والزمان، ناهيك عن أن الجميع أتوا لهذا المكان وفي موسم الحج يبتغون الأجر والغفران من الله سبحانه وتعالى، ولم يأتوا للحرب والقتال، إضافةً إلى ذلك معرفة الجميع أن السيئات والحسنات تعظم بعظم الزمان والمكان، مما جعل الكثير ممن قتلوا لم يبدوا أي مقاومة عنيفة في وجه القرامطة الأمر الذي مكن أبا طاهر القرمطي وأتباعه من الفرسان المدربين على القتال من حصد تلك الأعداد وأسر الباقين من النساء والصبيان[١]، بيسر وسهولة، مما يجعلنا نرجح ثبوت ذلك العدد.

٤- نظراً لطول المدة التي مكثوا فيها بمكة، أثناء ذلك، والتي تُقدّر بحوالي أحد عشر يوماً يقتلون وينهبون، ويعيثون فيها الفساد[٢]، مما يجعلنا نرجّح وصول القتلى إلى ذلك العدد المذكور، ونكتفي بذكر الأسباب السالفة للتدليل والترجيح على مصداقية ثبوت أعداد القتلى والأسرى في تلك الحادثة.

مما سبق يتضح أنَّ الوضع السياسي غير المستقر، والمليء بالأحداث في الحجاز خاصة، أو في أي قطر آخر عامة، له تأثيرات سلبية على مختلف جوانب الحياة العامة[٣].

ويجدر بنا هنا أن نذكر بعض الآثار السلبية التي نتجت عن الوضع السياسي غير المستقر في مكة، المليء بالأحداث -التي تم ذكرها سلفاً- خلال عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م على الحياة العلمية فقط في الحجاز، والتي تتلخص في ما يلي:

١. نتيجة لقتل الكثير من العلماء في ذلك الحدث، فَقَدت الحياة العلمية في الحجاز خاصة، عناصر هامة وفعاله، كان لها الدور الإيجابي في تنشيط وتطوير

(١) تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف: ص ١٧٧، والعبر: ج ٢ ص ١٦٨، والسير: ج ١٥ ص ٣٢١.

(٢) صلة تاريخ الطبري: ج ١١ ص ١١٩، وتاريخ الخلفاء: ص ٣٣.

(٣) تاريخ مكة، للسباعي: ج ١ ص ١٦٤ - ٢٠٧.

المجال العلمي فيها.

٢. ضعف النشاط العلمي، حيث ظهرت قلة الحلق والمجالس العلمية في الحجاز بعد ذلك الحدث.

٣. نتيجةً للسلب والنهب الذي تعرض له الكثير من أهل مكة والحُجّاج والمجاورين أيضاً، من قبل القرامطة، أصبح الكثير منهم بدون متاع ومؤنة تُعينهم على مواصلة البقاء في الحرمين، وإقامة الحلق والمجالس العلمية التي كانوا يقيمونها أثناء ذلك، مما جعل الغالبية العظمى ممن نجوا من القتل يسارعون في العودة إلى بلدانهم.

٤. انعدام النشاط العلمي أثناء الموسم في سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، الذي كان يُقام من قبل العلماء في مختلف الأماكن التي يرتادونها في مكة والمدينة على وجه الخصوص أثناء أدائهم لمناسك الحج والعمرة، وكذلك الزيارة لمسجد رسول الله ﷺ وقبره في كل عام، نتيجةً لانشغال الناس بما هو أعظم وأهم.

٥. نتيجة لعدم وجود وضع مستقر، ودولة قادرة على حماية سكّان ذلك البلد من أي هجوم آخر للقرامطة أو غيرهم على بلاد الحجاز، مما حدى بالكثير منهم، خصوصاً علماءهم، إلى تفضيل الهجرة من الحجاز إلى أقطار أخرى، يتوفر فيها الأمن والاستقرار ريثما تأتي الفرصة السانحة لهم للعودة إلى بلادهم، ومن ثمَّ فَقَدَ الحجاز خيرة أبنائه ممن كان لهم إسهام فاعل في تطور النشاط العلمي فيها.

٦. نتيجة للخوف الشديد الذي أصاب المسلمين في مختلف الأقطار الإسلامية، خصوصاً لدى من يريد الذهاب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج أو غيرها من القرامطة أو أي مغير آخر، مما أدّى إلى ظهور النقص في أعداد الحجاج وكذا المجاورين في الأعوام التي لحقت ذلك الحدث المشئوم، وهذا بدوره كان له تأثير سلبي على الحياة العلمية خاصة، ناهيك عن التأثيرات السلبية على جوانب الحياة العامة الأخرى في الحجاز.

إنَّ كل تلك الآثار السلبية التي أفرزتها أحداث عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، في مكة مجتمعة، كان لها أضرار بالغة على الحياة العلمية في الحجاز، استمرت تأثيراتها عقوداً طويلة، إلى أن استعادت -الحياة العلمية- عافيتها للوصول إلى الحالة التي كانت عليها قبل ذلك الحدث.

ب- التنافس بين الخلافة العباسية والفاطمية في السيطرة على بلاد الحجاز:

استمرت قضية أخذ الحجر الأسود[١] وبقائه لدى القرامطة تؤنب المسلمين عامة والخلافتين العباسية والفاطمية على وجه الخصوص، ونظراً لأهميتها قام العباسيون والفاطميون على حد سواء بعرض الأموال المغرية للقرامطة مقابل إرجاعهم للحجر الأسود، ولكن دون جدوى من ذلك، حتى إذا ما كان من عام ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م، قَبِلَ القرامطة العرض المقدم من المطيع لله (ت ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م)، وقدره ثلاثون ألف دينار، وأُعيد الحجر إلى مكانه في سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م، بعد أن ظل محتجزاً لديهم لمدة زمنية تقدر باثنتين وعشرين سنة[٢].

ونتيجة لأطماع القرامطة الكبيرة في توسيع رقعة دولتهم على حساب الدول المجاورة لهم، مما جعلهم ينهمكون في سبيل تحقيق أهدافهم تلك، مما أدّى إلى انشغالهم عن التفكير عن مهاجمة الحجاز كما حصل منهم في السابق، الأمر الذي حدى بالعباسيين إلى أن يعملوا جاهدين على عودة نفوذهم وسيطرتهم على بلاد الحجاز، واستغلال ضعف دولة العلويين في مكة، مما سهل لهم الطريق في سبيل تحقيق ذلك.

---

(١) شذرات الذهب: ج ٢ ص ٢٧٤، والعبر، للذهبي: ج ٢ ص ١٦٨، وتاريخ الخلفاء: ص ٣٣٠، وتفرد ابن الضياء بخبر مفاده أنّ أبا طاهر القرمطي بعد أخذه للحجر الأسود من مكة، بأنه وضعه على الإسطوانة السابعة من جامع الكوفة اعتقاداً منه أنّ الحج سينتقل إليها. (تاريخ مكة المشرفة: ص ١٧٧)، وهذا ما لم أعثر عليه في أي مصدر آخر، إلا إذا كان يقصد بذلك الجامع أنه في هجر بالبحرين يحمل التسمية السابقة.

(٢) تاريخ مكة المشرفة، ابن الضياء: ص ١٧٧.

وفي سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٨م، أسند الخليفة العباسي الراضي (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)، ولاية بلاد الحجاز -مكة والمدينة، إلى واليه على مصر محمد بن طغج الأخشيد (ت ٢٦٨هـ/ ٨٨٢م) وأُقيمت الخطبة على منابر مكة والمدينة لهما[١].

ومع تغير الأوضاع السياسية في بغداد، واستيلاء بني بويه عليها[٢] في سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م مما أدّى إلى تغير الوضع السياسي في الحجاز، حيث إنَّ البويهيين استطاعوا القضاء على نفوذ الإخشيديين في الحجاز بعد معركة فاصلة جرت بين الاخشيديين والبويهيين في مكة سنة ٣٤١هـ/ ٩٥٢م، انهزم الاخشيديون فيها، وأُقيمت الخطبة بمكة لمعز الدولة ابن بويه مع الخليفة العباسي[٣] المطيع (٣٣٤-٣٦٤هـ/ ٩٤٥-٩٧٤م)، لكنّ البويهيين لم يستمتعوا بهذا النفوذ كثيراً على مكة، فسرعان ما استعاد الإخشيديون نفوذهم على بلاد الحجاز بقيادة قائدهم كافور الإخشيدي (ت ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م)، والذي ولّاه الخليفة المطيع على بلاد الحجاز، وصار يُدعى له على منابرها مع الخليفة العباسي المطيع[٤] وذلك في سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م، واستمر ذلك حتى وفاة كافور المذكور سابقاً.

ونتيجة لوفاة كافور الإخشيدي، الوالي على مصر والشام والحجاز من قِبَل العباسيين، الذي بوفاته أصبحت مصر قاب قوسين أو أدنى من سيطرة الفاطميين عليها، الأمر الذي شجع الأشراف الحسنيين -وكما ذكرنا ذلك سلفاً- لأن يعلنوا استقلالهم بحكم مكة في (سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م)[٥]، وبذلك تم القضاء على حكم الإخشيديين في مكة، ولكون الفاطميين أصبحوا ذوي قوة هائلة سيّما بعد دخولهم

(١) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٢، تاريخ مكة، السباعي: ج ١ ص ١٧٣ - ١٧٥.
(٢) سياسة الفاطميين الخارجية: ص ٢١.
(٣) العقد الثمين: ج ١ ص ١٨٥، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ٢٢٠.
(٤) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٣٩٠، والسير، الذهبي: ج ١٦ ص ١٩١، والعقد الثمين: ج ١ ص ١٨٦.
(٥) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، المقريزي: ص ١٤٥، والعبر، ابن خلدون: ج ٤ ص ١٢، والعقد الثمين: ج ١ ص ١٨٦.

مصر واستيلائهم عليها، رأى العلويون أنَّ من صالحهم إقامة الدعوة على منبر مكة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله[1] (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) وإلغائها عن الخليفة العباسي.

ولم يكن الأشراف الحسينيون في المدينة بمنأى عن ذلك، بل استغلوا الأوضاع السيئة للخلافة العباسية أيضاً، فأعلنوا استقلالهم بحكم المدينة، وبذلك خرجوا من سيطرة العباسيين، وقاموا بالاعتراف للفاطميين بالسيادة الفعلية على المدينة والدعوة لهم على المنابر، واستمرت الخطبة تقام للخليفة الفاطمي المعز لدين الله على منابر بلاد الحجاز، خصوصاً على منابر الحرمين الشريفين في مواسم الحج[2].

وفي سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، توفي المعز الفاطمي، وبذلك الحدث خرج الحجاز عن طاعة ولده العزيز الفاطمي (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م) ودخوله في فلك العباسيين، مما جعل الخليفة الفاطمي العزيز يرسل جيوشه إلى مكة والمدينة في سنتي (٣٦٦، ٣٨٠هـ/ ٩٧٧، ٩٩٠م) فضيّق عليهم الخناق، وقطع الميرة عنهم، فقاسوا شدة شديدة، مما جعلهم يستسلمون للأمر الواقع، وبذلك أُقيمت الخطبة له[3] على منابر مكة والمدينة.

ونتيجةً للأوضاع السياسية غير المستقرة في بلاد الحجاز، واستيلاء العباسيين عليها تارةً، والفاطميين تارةً أخرى، مما جعل بعض المؤرخين يُشبِّه بلاد الحجاز بالكرة تتلاقفها أيادي الخلافتين العباسية والفاطمية[4].

وكيفما كان الأمر، فقد أدّى ضعف الخلافتين العباسية والفاطمية مع نهاية

---

(١) شفاء الغرام: ج ٢ ص ٢٢١.

(٢) أخبار الدول المنقطعة، الأزدي: ج ١ ص ١٨٣، والعبر، الذهبي: ج ٢ ص ٣٢٩، والعقد الثمين: ج ١ ص ١٨٦.

(٣) المنتظم: ج ١٤ ص ١٤٣، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٤ و ٢٢٢، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٦٧.

(٤) مصر في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور: ص ٢١٨.

القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري إلى استغلال أمراء الحجاز لذلك الضعف، فعملوا على الاستقلال بحكم بلدهم عن الخلافتين.

من خلال ما سبق يتضح أنَّ العوامل الداخلية والخارجية أثرت تأثيراً مباشراً، وبشكل سلبي، على سير الحياة العامة في بلاد الحجاز، خصوصاً على الجانب العلمي فيها، وقد وصفها بعض المؤرخين بقلة العلم[1] في نهاية القرن الرابع الهجري.

(١) أحسن التقاسيم، المقدسي: ص ٧٣ - ٨١، وإتحاف الورى بأخبار أم القرى: ج ٢ ص ٢٦٤ - ٤٣٤.

أشراف المدينة المنورة

السادة والأشراف لقبان أطلقا على أفراد من آل بيت النبي ﷺ، وخُصِّص لقب السيد على أبناء الحسن والحسين عليهما السلام.

ولقد اختلف الفقهاء والعلماء في أهل البيت، وأرجح الأقوال أنّ أهل البيت هم العلويون آل الحسن وآل الحسين ولدي علي بن أبي طالب عليهم السلام من زوجته فاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ، وجاء في التفسير أنه لما نزلت الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]، دعا الرسول الكريم ﷺ علياً وفاطمة وولديهما الحسن والحسين عليهم السلام وأدخلهم تحت عباءته وقال ﷺ: «اللهم هؤلاء أهل بيتي».

والشريف يعني السمو والعظمة والعلو[2]. وحتى يكون الشخص شريفاً يجب أن يكون أجداده ذا شرف.

وكان لقب الشريف ما قبل العهد الإسلامي، يطلق على عشرة أشخاص من أصحاب الوظائف العشرة المعتبرة في خدمة الكعبة. أما في العهد الإسلامي فإنّ أشرف الناس حسباً ونسباً وأولاهم بالشرافة النبي ﷺ. وكان في الصدر الأول يطلق على الطالبيين[3]. وعمم فيما بعد فحوى اللقب العباسيين أيضاً. ويقال -أيضاً- «علوي»

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي: ص ١٦٨.

(٣) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي: ص ١٦٨.

لذرية الإمام علي عليه السلام، و« طالبي » لذرية أبي طالب، و« عبّاسي » لذرية العباس، و« حسني » لذرية الإمام الحسن عليه السلام، و« حسيني » لذرية الإمام الحسين عليه السلام.

ولم يقصد باستخدام لقب « الشريف » معنى خاصاً، يترادف مع لقب « السيد ». فإذا استخدم بقصد التفرقة، خُصِّص إطلاقه لمن هو من ذرية الحسن والحسين عليهما السلام، فأصبح علماً عليهم.

وإذا أطلق لفظ « السيد » أو « الشريف » فيما بعد العهد العباسي بما فيه العصر الحالي، قصد به الحسني والحسيني نسباً. ويطلق أيضاً على ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الذين تناسلوا من حفيديه السبطين عليهما السلام، أي السلالة الطاهرة.

وفي القرن السادس يذكر ابن شهرآشوب (ت ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) أنّ الناس يسمّون أبناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أهل البيت، وآل محمد، وعترة النبي، وأولاد الرسول، وآل طه، وآل ياسين، وأنّهم يلقّبون كلاً منهم بـ« السيد » و« الشريف ».

ومن هذا يتبين أنّ إطلاق لفظة « السيد » على ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان رائجاً رواجاً واسعاً في القرن السادس الهجري. ونجد في تضاعيف كتاب « الفهرست » للشيخ منتجب الدين (ت ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) أنّ هذا اللقب يُقرَن بالعلماء من أبناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أما في القرنين الرابع والخامس فقد أورد الشيخ الطوسي والنجاشي لقب « الشريف » في مؤلفاتهما لهؤلاء العلماء من هذه الذرية الطاهرة، مقترناً بلقب « السيد »، إذ يُعبَّر عن هؤلاء بـ« السيّد الشريف »، مما يُفهم منه أنّ لقب « السيد » لم يكن ظاهراً ظهوراً جليّاً لهؤلاء السادات إبّان هذين القرنين.

واختلف إطلاق الشرافة من منطقة إلى أخرى حسب الوضع السياسي. ففي الحجاز، وبعد أن تقلّد ذرية الإمام الحسن عليه السلام الإمارة في مكة، أصبح تطلق كلمة « شريف » بدلاً من كلمة « أمير » على الحاكم، ومن ثم صارت تطلق كلمة « شريف » على كل ذرية الإمام الحسن عليه السلام. وأما ذرية الحسين فيطلق عليهم لقب « سيد »، وباقي الفروع يطلق عليهم « بني هاشم ».

وفي العراق تُطلق كلمة «شريف» على كل بني هاشم.

وفي مصر، فكل قرشي أو هاشمي شريف.

وفي اليمن فيطلق «السيد» على ذرية الإمام الحسين عليه السلام، وفي بعض مناطق اليمن يطلق «شريف» على ذرية الإمام الحسن عليه السلام.

وفي الوقت الحاضر يطلق لقب «السيد» في العراق والخليج وإيران ولبنان وغيرها من البقاع على العلويين من بني هاشم، وفي الحجاز يتميّز السادات من أبناء الإمام الحسن عليه السلام بلقب «الشريف»، في حين تختص لفظة «السيد» بذرية الإمام الحسين عليه السلام.

واستقرت أسرة آل الحسن وآل الحسين في مكة والمدينة، واستطاعت -بمناصرة الفاطميين- الاستقلال بإمارة مكة والمدينة، وحينما تولتا أمر مكة والمدينة أطلق عليهما الأشراف لتشريفهم إمارة مكة أو المدينة، وأما الأسر التي لم تتوَلَّ منها حكم مكة أو المدينة فيسمونهم السادة آل البيت.

يقول ابن غريَّان: «وأول من أطلق على نفسه هذا اللقب هو الشريف الرضي؛ ليتميز بحصانة سياسية وأما الأسر التي لم تتول منها حكم مكة أو المدينة فيسمونهم السادة آل البيت. علماً أنّ هذا اللقب وهو كلمة شريف هو حسباً وليس نسباً كما يطلقه العامة منهم أومن غيرهم هذه الأيام».

وذكر البرادعي في كتابه الدرة السنية: «وتولّى السادة من آل البيت إمارة المدينتين المقدستين بالحجاز، وأصبح يُطلق لقب الأشراف على العائلة التي تحكم مكة أو المدينة نسبةً إلى تشرّفهم بإمارة مكة أو المدينة تمييزاً لبقية الأسرات العلوية التي لم تتولَّ الإمارة».

وذكر ابن فهد في إتحاف الورى: «فما أن تمَّ الفتح الفاطمي لمصر عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م حتى أعلن كبير الأشراف الحسنيين، جعفر بن محمد بن الحسن،

من بني سليمان، من آل الحسن بن علي بن أبي طالب، استقلاله بإمارة مكة، والدعوة للخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة».

وقال الفاسي في شفاء الغرام الجزء الثاني: «وما لبث أن حذا آل الحسين، القاطنين المدينة المنورة، حذو بني الحسن؛ بأن أعلن طاهر بن مسلم الحسيني استقلاله بإمارة المدينة عام ٣٦٠هـ، وخطب أيضاً للخليفة المعز الفاطمي».

وذكر الجزيري في كتابه درر الفوائد: «وظهرت بوادر الخير بالنسبة لأهل الحجاز، عندما بدأت الخلافة الفاطمية بإرسال الأموال والخلع إلى أشراف الحجاز وأسرهم، وكذلك شحنات من الحبوب والبقول لسكان مكة والمدينة والقرى المجاورة لهما».

ونخلص مما ذكر أنّ لقب (الشريف) يُطلق على كل من تولى إمارة مكة المكرمة أو المدينة المنورة وهو من أهل البيت السيد.

ومن ذلك يتبين أنّ إمارة هاتين المدينتين عندما تكون في أهل البيت السادة وعندما يتولّى السيد هذه الإمارة، يُضاف إليه لقب الشريف نسبةً إلى تشرفه بإمارة مكة أو المدينة، وأيضاً أشار إلى ذلك الدكتور محمد عبده يماني في كتابه (علموا أبناءكم محبة آل بيت رسول الله).

ولمعرفة أنساب أشراف وسادة المدينة المنورة الشيعة، قمنا باستلال رسالة «نخبة الزهرة الثمينة في نسب أشراف المدينة»، تأليف: زين الدين علي بن الحسن الشدقمي الحسيني (ت ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م) تحقيق: مهدي الرجائي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم إيران، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م:

بعد حمد الله الواحد الأحد، وصلواته على مَن أرسله بالهدى والرشد، وعلى آله الذين هم للدين عمد.

فهذه نبذة اختصرتها من رسالتي: «زهرة المقول، في نسب ثاني فرعَي

الرسول». وسمّيتها: «نخبة الزهرة الثمينة في نسب أشراف المدينة».

مقتصراً على ذكْر الآباء دون الأمهات، والبنين دون البنات، والمُعقِبين دون المنقرضين، والماكثين دون الجالِين، والأنساب دون الأوصاف، والثابت دون المشكوك.

فأقول: أشراف المدينة كلهم حُسينيون منحصرون في عليٍّ زين العابدين بن الحسين السبط عليه السلام. وينقسمون إلى ثلاثة رجال:

بعضهم إلى محمّد الباقر بن زين العابدين عليه السلام، وآخرون إلى أخيه زيد الشهيد، والأكثرون إلى أخيهما الحسين الأصغر. فهنا ثلاثة أصول:

الأصل الأول:

مولانا الإمام محمّد الباقر، وعقبه هاهنا من موسى الكاظم ابن ولده جعفر الصادق عليهما السلام، وهم فرعان:

الفرع الأول: البُدور

وهم آل بدر بن فايد بن علي بن الحسين بن عليّ بن القاسم بن إدريس بن جعفر (الكذّاب) بن عليّ الهادي بن محمّد الجواد بن عليّ الرضا بن موسى الكاظم عليهم السلام، ولم [يبقَ] منهم إلّا أولاد فهدي وصبحان ابنَي مسلم بن مسافر، ولا أعلم سلسلة إلى بدر.

الفرع الثاني: الخواريون

وهم آل جعفر الخواري بن موسى الكاظم عليه السلام، وهؤلاء سِبطان:

السبط الأول: الشَّجَرية

وهم آل حسن بن عليّ بن حسن بن جعفر الخواري المذكور؛ بادية حول المدينة.

قد خالطوا أعوام السبر نكاحاً وإنكاحاً، ولا معرفة لهم بأنسابهم، وبسبب هذه المخالطة لم يَعتبر شرفَهم أهلُ الحجاز.

ولا أرى بها طعناً إلا أن تكون بحيث يشتبه نسل الشَّجري بنسل العامّي، فيتبقّى الشرف عن المجموع من حيث هو مجموع لا عن كل فرد، ويثبت للبعض، ويكون مجهول العين.

ويجري هذا البحث في [الزيود] والنقباء والطماة والعرفات والحسنان، ولها [لا] أشكال في نسب مَن عَداهم ممن سنذكره.

السبط الثاني: آل موسى بن عليّ المذكور

بعضهم يسكن المدينة الشريفة، وبعضهم الفرع، فمنهم: بديوي وبادي ابنا جُوَيبر بن سهل بن عليّ بن عامر بن خلف بن عوض بن محمد بن ذرف بن هشيمة ابن هاشم بن فاتك بن عليّ بن سالم بن عليّ بن صبرة بن موسى المذكور.

ومنهم أحمد بن حمزة بن جويبر المذكور. ومنهم هاشم بن ناجي بن حسن ابن شهوان بن طاهر بن فهد بن عطية بن نبلة بن هاشم بن هشيمة المذكور.

ومنهم سليمان وإبراهيم ابنا محمّد بن مزيد بن جعفر بن فهد بن دهيم بن فهيد بن عطية المذكور. ومنهم عليّ ومحمّد وباهش ابنا حسين بن حازم بن [هيثم] ابن محطم بن منيع بن سالم فاتك بن هاشم المذكور بن هشيمة المذكور. ومنهم راشد بن تامر بن موسى بن محطم المذكور.

الأصل الثاني: زيد الشهيد

وعقبه هاهنا من ابنه عيسى مُوتِم الأشبال، ويقال لهم: [الزيود]؛ بادية حول المدينة الشريفة. وهم آل مفضل بن معمر بن حسن بن الحسين بن يحيى بن الحسين بن عبدالله [بن] محمّد بن أحمد بن الحسين بن عيسى المذكور.

الأصل الثالث: الحسين الأصغر

وعقبه هاهنا من يحيى النسّابة بن الحسن بن جعفر الحجّة بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر المذكور، وهم خمسة فروع:

الفرع الأول: الطماة

وهم آل يحيى الطامي بن عليّ بن [مسلم] بن عبدالله بن يحيى النسّابة المذكور.

الفرع الثاني: النقباء

وهم آل سلطان بن عليّ النقيب بن حسن بن سلطان بن حسن بن عبد الملك بن ذؤيب بن عبد الله بن مسلم المذكور.

الفرع الثالث: العرفات

وهم آل عبد الله الملقّب بعرفة بن الحسين بن طاهر بن يحيى النسّابة المذكور.

الفرع الرابع: [الكثرا]

وهم آل عبد العزيز بن كثير بن حسين بن حسن بن يحيى بن الحسين بن داود بن الحسن الزهد بن داود بن الأمير أبي أحمد القاسم بن عبيد الله بن طاهر المذكور، ولم يبقَ منهم إلّا سليمان وثنيان ابنا [مفلح]، ولا أعلم سلسلتهم إلى عبدالعزيز، والباقون [بتشتر] العجم، وهذه الفروع الأربعة بادية حول المدينة.

الفرع الخامس: المهنيّون

وهم آل أبي عمارة المُهنّا الأكبر ابن داود المذكور بن الأمير أبي أحمد القاسم المذكور.

وينقسم هذا الفرع ثلاثة أسباط:

السبط الأول: الوحاحدة

وهم آل عبد الواحد بن مالك بن الحسين بن المهنّا الأكبر المذكور، مسكنهم سويقة بالمدينة، وهؤلاء فخذان:

الفخذ الأول: الحمزات

وهم آل حمزة بن عليّ بن عبدالواحد المذكور، وينقسمون أربعة بطون.

البطن الأول: [الثللا]

وهم آل أحمد الثليل بن شبانة بن حمزة المذكور. وليس منهم اليوم بالمدينة أحد، بل هم بنواحي العراق.

البطن الثاني: [العرمات]

وهم آل عليّ بن [عرمة] بن [مكيثة] بن [توبة] بن حمزة المذكور، والموجود منهم الآن أربعة أنفس، أحدهم: عليّ بن جديع بن عليّ بن حسن بن عليّ بن حسين ابن عليّ المذكور.

والثاني: عبد الله بن محمّد بن حسن المذكور.

والآخران: ابنا أخوَيه عليّ بن حسين محمّد المذكور، وحسين بن حمزة بن محمّد المذكور.

البطن الثالث: آل معرعر

وهم آل أحمد بن معرعر بن قاسم بن محمّد بن [عرمة] المذكور، والموجود منهم الآن بالمدينة ناصر الدين وقاسم ابنا فرج الله بن ناصر الدين بن أحمد المذكور، والباقون بنتشر العجم.

البطن الرابع: الشَّداقِمة

وهم آل شَدْقَم بن ضامن بن محمّد المذكور بن عرفة المذكور، وهؤلاء بيتان:

البيت الأول:

آل حسن بن عليّ بن شدقم المذكور، وعليهم غَلَب اسمُ الشَّدقميّة، وهم: محمّد وأخواه عليّ جامع هذه الرسالة، وحسين بنو حسن بن عليّ بن حسن المذكور، ولهم أولاد كثّرهم الله في طاعته.

[البيت] الثاني:

آل سعد بن عليّ المذكور بن شَدقَم المذكور، وهم: محمّد وعليّ وحسن وعجل بنو أحمد بن سعد المذكور.

الفخذ الثاني: المَناصير

وهم آل منصور بن محمّد بن عبدالله بن عبدالواحد المذكور، وينقسمون ثلاثة بطون:

البطن الأول:

آل [منيف] بن منصور المذكور، وهؤلاء بيتان:

البيت الأول: السراَّحين

وهم آل سرحان بن شبيب بن منبّه بن راجح بن شدّاد بن منيف المذكور، وليس منهم اليوم بالمدينة أحد بل هم بمصر.

البيت الثاني: السَّماعِلة

وهم آل سَمْعَل، والموجود منهم الآن سليمان وحمزة وحيدر بنو محمّد بن عتيق بن رميح.

منهم: أحمد وجار الله ابنا جماعة محمّد المذكور، ولا أعلم سلسلتهم إلى سمعل وفوقه.

البطن الثاني: الحميضات

وهم آل مقبل بن محمّد بن أحمد بن هاشم بن تركي بن مذكور بن عامر بن خراسان بن منصور المذكور، وهؤلاء بيتان:

البيت الأول:

آل [سرداح] بن مقبل المذكور، فمنهم: حسن بن عميرة بن أحمد بن [سرداح] المذكور، ومنهم: عليّ بن عامر بن شاهين بن [سرداح] المذكور.

ومنهم: شاهين وجعفر ابنا [قويحل] بن محمّد بن راضي بن شاهين المذكور.

البيت الثاني:

آل محمّد بن مقبل المذكور، فمنهم إبراهيم بن منصور بن عليّ بن زايد بن محمّد المذكور.

ومنهم: مقداد بن حسن بن مقبل بن محمّد المذكور، ومنهم حسين وإبراهيم ابنا عليّ بن زايد بن مقبل المذكور، ومنهم جرينيع بن مقبل بن زايد المذكور بن مقبل المذكور.

البطن الثالث:

آل أبي القاسم بن [خراسان] المذكور، فمنهم: آل رملي بن [مداح] بن سجيل [ابن] وهبان بن هميان بن أبي القاسم المذكور.

ولم يبقَ منهم إلّا محمّد وعيران ابنا أحمد بن قناع بن [محمد] بن رملي المذكور، ومنهم: آل بلول بن بيات، والموجود منهم الآن:

درويش بن محمّد بن بلول المذكور، ودرويش بن عليّ بن بلول المذكور،

ومنهم آل تامر مسكنهم [الفرع]، ولم يبقَ منهم إلّا طاهر بن أحمد بن مبارك بن عليّ ابن تامر المذكور.

ولا أعلم سلسلة هذين البيتَين إلى أبي القاسم.

السبط الثاني: المهانية

وهم آل الأمير [مهنا] الأعرج بن الحسين بن الأمير مهنّا [المذكور]. وهؤلاء أربعة أفخاذ:

الفخذ الأول: الحسنان:

وهم آل شهاب الدين بن هاشم بن داود بن محمّد بن الحسن بن المهنّا الأعرج المذكور، بادية حول المدينة النبوية.

وقد دخل في زمن والدي رحمه الله معهم ومع الشَّجرية طمعاً في الصدقات قومٌ لاحظَّ لهم في النسب، وقد مرّ الكلام في تحقيق نسبهم.

الفخذ الثاني: الملاعبة

ويقال لهم أيضاً [المارة]، مسكنهم البلاط بالمدينة الشريفة، وهؤلاء بيتان:

البيت الأول:

آل جبل بن ملاعب بن سمار بن ملاعب بن عبدالله بن المهنّا الأعرج المذكور، فمنهم: جابر بن محمّد بن [جوئيبر] بن محمّد بن جبل المذكور.

ومنهم: كسيان بن مسيب بن كثرة بن أحمد بن جبل المذكور، ومنهم: إبراهيم بن عنصمة بن مسبب المذكور.

البيت الثاني: [الشطا]:

فمنهم: رحمة بن تركي بن أحمد بن فوّاز بن سحيم، ومنهم مريمرة ومحمّد

توفيق ابنا حيان بن تركي المذكور، ولا أعلم من سلسلتهم فوق ما ذكرت.

الفخذ الثالث: الجَمامزة:

وهم آل جمّاز بن القاسم بن المهنّا الأعرج المذكور، وليس منهم بالمدينة اليوم أحد، ونقل والدي رحمه الله عن غير واحد أنهم بالشام وصعيد مصر.

الفخذ الرابع: [الشيحيون]:

ويقال لهم الهواشم، وهم آل [شيحة] بن هاشم بن القاسم المذكور بن المهنّا الأعرج المذكور، وينقسمون خمسة بطون:

البطن الأول:

[للشيحية] الذين غلب عليهم هذا الاسم، وهم بادية حول المدينة الشريفة، فمنهم: أولاد صالح بن عليّ، ومنهم: سليمان وعسّاف وغيرهم، ولا أعلم سلسلتهم إلى [شيحة].

البطن الثاني: العياسا

وهم أولاد عيسى بن شيحة المذكور.

مسكنهم المدينة في محلة تُعرف بالحارة، ثمّ انتقلوا إلى السوارقية.

فمنهم مبارك وهشال وسلطان بنو راضي بن مبارك بن عليّ بن محمّد -بن ثعيلبة وهي أم له- [بن] جميل بن [دبيان] بن عصفور بن شدّاد بن عيسى المذكور، [ومنهم] سالم بن قناع بن محمّد بن عليّ المذكور.

ومنهم أولاد حسين بن محمّد المذكور بن عليّ المذكور. [ومنهم] صقر وصقير ابنا عليّ بن محمّد المذكور بن عليّ المذكور. ومنهم بصيص بن عامر بن [دبيان] بن [نميلة] بن ماهر بن [دبيان] المذكور بن عصفور المذكور.

ومنهم: عجل وعجيل ابنا خُويطر بن ناير بن [مفلح] بن برجس بن عصفور المذكور.

ومنهم: يحيى وغنّام ابنا مبارك بن [رزقي] بن [خرينق] بن مبارك بن عسّاف بن عميرة.ولا أعلم ما رواه [ورآه]. ومنهم: عتيق بن عميرة بن [رزقي] المذكور.

البطن الثالث:

آل ودي بن جمّاز بن [شيحة] المذكور، وليس لهم اليوم بالمدينة بقيّة إلاّ آحاد يسيرة بادية. فمنهم آل غريب، ولا أعلم سلسلتهم إلى ودي.

البطن الرابع:

آل راجح بن جمّاز المذكور بن شيحة المذكور. ولم يبقَ منهم إلاّ هاشم بن جمّاز بن محمّد بن فوّاز بن جماعة بن محمّد بن صهيب بن راجح المذكور وهو بالهند. وإسماعيل بن عليّ بن فوّاز المذكور، وهو بالعجم.

البطن الخامس:

آل أبي عامر الأمير منصور بن جمّاز المذكور ابن شيحة المذكور، وينقسمون ستة بيوت، ونحلهم [وكلهم] بادية حول المدينة الشريفة إلاّ البيت الأول فإنهم بادية بكتب، ومن يعجز منهم عن التبدوي يسكن الحفر قرية بكتب.

البيت الأول:

آل [زيان] بن منصور المذكور، فمنهم: آل إبراهيم، وهم مبارك بن مؤنس بن محمّد بن إبراهيم بن سليمان بن زيان المذكور.

ومنهم: آل سرداح، وهم مانع ومنيع ابنا محمّد بن صقر بن [سرداح] بن سليمان المذكور. ومنهم: آل زاهر [وهم] بنو نشل بن عميرة بن محمّد [بن زاهر بن سليمان] المذكور. ومنهم: آل زهير بن سليمان المذكور، وهؤلاء حزبان:

الحزب الأول:

آل أحمد بن زهير المذكور، ويقال لبعضهم آل شهوان، وبعضهم آل عرار. أما آل شهوان فمنهم: حمود ومحمّد ودرباس وراضي بنو فتحة بن عميرة [بن شهوان بن أحمد] المذكور، [ومنهم ولد زاهر بن يحيى بن عميره المذكور].

ومنهم أولاد منصور بن مانع بن شهوان المذكور. ومنهم دبا ودبيان وغيرهما بنو محمّد بن عساف بن شهوان المذكور.

ومنهم مهدي بن حسن بن سيف بن شاهين بن شهوان المذكور.

ومنهم زاير وأحمد [ابنا] سليمان بن شاهين المذكور هنا.

[أما آل] عرار، فمنهم زاهر وراجح [ورميثة] بنو عرار بن أحمد المذكور.

ومنهم عامر بن [ختنم] بن عرار المذكور، ومنهم سليمان بن سحيم بن عرار المذكور، ومنهم [محمد وعسّاف] ابنا [صعب] بن عرار المذكور.

ومنهم خليفة [وبنيان] ابنا عُوَيد بن شايع بن مبارك الأعرج بن عرار المذكور، ومنهم [مؤيزر] بن هزّاع بن مبارك المذكور، ومنهم عبيد بن غانم الأعور بن مبارك المذكور، ومنهم مسعد وزامل وفارس بنو مبارك المذكور.

الحزب الثاني:

آل شامان بن زهير المذكور

فمنهم حسن [وورومي] ابنا بنية بن صالح بن باز بن فارس بن شامان المذكور.

ومنهم ولد جدوع بن باز المذكور. ومنهم أولاد غصن بن شامان بن شقير بن حميدان بن شامان المذكور.

ومنهم مايق [و]لاغي ومحمّد وراشد بنو عسّاف بن فوّاز بن حميدان المذكور.

ومنهم ولد كليب بن فوّاز المذكور. ومنهم ضومة وشقير [ووقيان] ومانع بنو [كليبان] بن منصور بن حميدان المذكور.

البيت الثاني:

آل جمّاز بن الأمير أبي عامر منصور المذكور، وهم ثلاثة أحزاب:

الحزب الأول:

آل أبي الظهور، وهم حمود ومحمّد ابنا حسن بن ربيعة بن ذبح بن ذئب بن عليّ بن جمّاز المذكور.

الحزب الثاني:

آل [شفيع] بن جمّاز المذكور، فمنهم أولاد غنّام بن دغيثر بن غنّام بن ريان بن جندب بن شفيع المذكور. ومنهم ولد راشد بن شماس. ومنهم ولد عليّ بن سيف ابن قاسم، وهم [بالتلنك].

ومنهم [ذيب] وعبدالله ابنا حربي بن أحمد بن راشد. ومنهم صقر بن محمّد ابن عليّ بن [مانع] المعروف بابن ناشرة، ولا أعلم سلسلة هذه البيوت الأربعة إلى شفيع.

الحزب الثالث:

حمل هبة بن سليمان بن جمّاز المذكور، فمنهم منّاع بن مروان بن وحيش بن أحمد بن [وحيش] بن كبيش بن هبة المذكور.

ومنهم سيف وغنيمان ابنا [ذياب] بن عليّ بن نعير بن عليّ بن وحيش المذكور ابن أحمد المذكور.

ومنهم مقبل بن سعد بن وحيش المذكور بن أحمد المذكور، كذا في «المستطابة» ولا يخلو من أشكال.

ومنهم وادي بن خريم بن جمّاز بن قسيطل بن زهير بن هبة المذكور.

ومنهم عجلان بن عليّ الملقب فرجلا بن [جمّاز] المذكور.

ومنهم ابن محمّد بن جمّاز المذكور، ومنهم حمّاد وحجي وحمدان بنو [ناموس] بن ركن بن يقظان بن إبراهيم بن زهير المذكور. ومنهم رحمة وشقير وجازي بنو عامر بن زاهر بن إبراهيم المذكور.

ومنهم خزام وبشر وعثمان [وررومي] بنو يحيى بن سليمان بن مانع بن حمل بن خزام بن هبة المذكور. ومنهم سعود وسليمان [وهران] بنو زامل بن سليمان المذكور.

البيت الثالث:

آل نعير بن الأمير أبي عامر منصور المذكور، وهم حزبان:

الحزب الأول:

آل أبي ذرّ بن عجلان بن نعير المذكور، فمنهم سعد وفضل وفوزان بنو يحيى ابن عميرة بن عجلان بن محمّد بن أبي ذرّ المذكور.

ومنهم خليفة وعبيد ودرعان بنو سيف بن مسعد بن خليفة بن [حسين] بن أبي ذرّ المذكور.

ومنهم راشد بن مسعد المذكور.

الحزب الثاني:

آل ثابت بن نعير المذكور، فمنهم [بنيان] بن وادي بن بديوي بن منصور بن محمّد بن [ضغيم] بن خشرم بن نجاد بن قيس بن ثابت المذكور.

ومنهم محمّد وحمود ابنا بديوي المذكور، ومنهم [حزيم] بن منصور

المذكور، ومنهم درويش وداغر ابنا نصّار بن محمّد المذكور بن [ضغيم] المذكور.

ومنهم الأمير ميزان بن عليّ بن محمّد بن حسن بن زبيري بن قيس المذكور، ومنهم حسن بن حبشي بن جبريل بن مانع بن زبيري المذكور، ومنهم مانع وعجل ابنا حسن بن مانع المذكور.

البيت الرابع:

آل طُفَيل بن الأمير أبي عامر المنصور المذكور، فمنهم آل شبعان، وهم أولاد مسعود بن [جحيش] بن شبعان المذكور.

وأولاد مشعل بن جبر بن شبعان المذكور، ولا أعلم سلسلتهم إلى طُفَيل.

ومنهم آل مانع بن طفيل المذكور، والموجود منهم الآن داغر بن ملحم بن طراد بن ملجم بن سيف بن مانع بن طفيل المذكور.

ومنهم آل سند بن طفيل المذكور، وهؤلاء حزبان:

الحزب الأول:

آل موسى بن سند المذكور، فمنهم حُوَيط بن طراد بن قطن بن مشاري بن ذربان بن موسى المذكور.

ومنهم جندي بن رحمة بن عرمان بن [مشاري] المذكور. ومنهم مبارك بن مفرج بن عرمان المذكور.

الحزب الثاني:

آل محمّد بن سند المذكور، فمنهم إبراهيم وعقيل وجودان بنو حسين بن عريج بن حسين بن محمّد المذكور. ومنهم سليمان بن محمّد بن صفوي بن سليمان بن شنير بن محمّد المذكور.

البيت الخامس:

آل كوير بن الأمير أبي عامر منصور المذكور، ولم يبقَ منهم إلاّ أولاد عميرة ابن حسن بن منّاع بن ناهش بن هريس بن عذ بن كوير المذكور.

البيت السادس:

آل هدف بن كبيش بن الأمير أبي عامر منصور المذكور، فمنهم: أولاد عليّ ابن غوينم بن شوكان بن مبارك بن مجدور بن هدف المذكور.

ومنهم أولاد حسن بن سهر بن حسن بن [مرشد] بن سلوقي بن هدف المذكور، ومنهم أولاد حسين بن عمير بن منّاع بن سلوقي المذكور، ومنهم زغبي ابن عميرة بن سبع بن حوارش بن سلوقي المذكور.

[السبط] الثالث: السبعة

وهم: آل سبيع بن المهنّا الأكبر المذكور، وهؤلاء فخذان:

الفخذ الأول: الظوالم

وهم: آل أبي ظالم أحمد بن شليل بن سلطان بن بعيش بن مفرج بن عمارة بن سبيع المذكور، مسكنهم سويقة بالمدينة الشريفة، وهؤلاء بطنان:

البطن الأول:

آل حيار بن [حنتوش] بن محمّد بن أحمد المذكور، فمنهم فهيد بن جويعد ابن سليمان بن ناجي بن عليّ بن سليمان بن حيار المذكور.

ومنهم جردي بن سليمان المذكور بن ناجي المذكور، ومنهم خصيفان بن إبراهيم بن عامر بن عليّ المذكور. ومنهم بديوي ومحمّد ومدبق وعطية بنو صالح ابن عامر المذكور. ومنهم أحمد بن صقر بن أحمد بن عامر المذكور، ومنهم عامر ابن حسين بن عامر المذكور.

البطن الثاني:

آل طراد بن ناصر بن حنتوش المذكور، ولم يبقَ منهم إلاّ سليمان بن حسن بن عليّ بن محمّد بن طراد المذكور.

الفخذ الثاني:

[الرمحة]: وهم آل قاسم بن أحمد بن حسين بن رميح بن راجح بن مهنّا بن سبيع بن مهنا بن سبيع المذكور.

بعضهم يسكن المدينة الشريفة، وبعضهم بادية حولها، فمنهم كميت وبادي ويحيى بنو راشد بن شليخة بن دليان بن بريك بن مقرن بن محمّد بن أحمد بن قاسم المذكور.

ومنهم بنيان بن عليّ بن شليخة المذكور، ومنهم ربيعة وعمار وحسين وقناع بنو خويلد بن راضي بن ربيعة بن محمّد بن مقرن المذكور، ومنهم صولة بن راضي المذكور.

[تذنيب]

وقد وصلتُ هنا، وفي «الزهرة» بعض السلاسل بأصلها ولم يصلها والدي رحمه الله. وذلك الوصل عوّلتُ في بعضه على خبر شرعي يثبت به النسب، وفي الباقي على خبر أفادني بالظنّ، وإن لم يكفِ في ثبوت النسب شرعاً.

وذكرت سنده في الزهرة.

قال مؤلفها فسح الله في مدّته: انتهت الرسالة بالمدينة المشرفة، على يد جامعها فقير عفو الله تعالى «عليّ بن الحسن بن شَدْقَم»، ثامن شهر رجب الفرد سنة ألف وأربع عشرة.

إمارة بني مهنا

تتفق مصادر عديدة على أنّ أسرة بني مهنا تُنسب للإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، غير أنها تختلف فيمن تولّى السلطة من عقبه، فيتحدث أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي عن بدايات حكم بني الحسين للمدينة بقوله: «لجأ طاهر والد الحسن المذكور إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم متأمراً على أهلها، ومعه ابن عم له يعرف بأبي علي بن طاهر، وختنه على أخته، فلما مضى طاهر لسبيله، ورث أبو علي المذكور مكانه من الإمارة إلى أن لحق به، وورثه ولداه هانئ ومهنا دون الحسن»[1]. أما ابن عنبة[2] فيرى أنّ أول من تولّى الإمارة في المدينة، من بني طاهر، هو الحسن بن طاهر بن مسلم.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الظروف التي جاءت ببني مهنا للإمارة على المدينة ترتبط إلى حد كبير بالأوضاع السياسية للدولة الفاطمية في مصر، وهذا يدعونا للتساؤل عن طبيعة العلاقة التي ربطت بين هذه الأسرة والفاطميين، فمع تولّي الفاطميين للسلطة في مصر، تطلعت نفوس الهواشم، ومنهم الحسينيون للاستئثار بالحكم في المدينة، مستغلين الدعم المعنوي والمادي الذي قد يكون الفاطميون أسبغوه عليهم، فأعلن طاهر بن مسلم الحسيني السيطرة على المدينة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م[3]، وخطب للمعز

(١) تاريخ العتبي: ص ٦١.

(٢) عمدة الطالب: ص ٣٣٥.

(٣) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٩٨-٢٩٩، والتحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: ج ٢ ص ٢٥٧.

الفاطمي، وكانت الخطبة قد أقيمت قبل ذلك للفاطميين بالمدينة عامي ٣٥٩هـ و ٣٦٠هـ/ ٩٦٩م و ٩٧٠م[١].

ويتحدث القلقشندي[٢] عن هذه الأسرة فيذكر أنها كانت في المدينة خلال القرن الثالث الهجري، وكان منهم أبو جعفر عبيد الله بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين، ومن جملة ولده جعفر حجة، ومن ولده الحسن، ومن ولد الحسن يحيى الفقيه النسابة؛ كانت له وجاهة وفخر ظاهر توفي سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٦م.

ومن ولده أبو القاسم طاهر بن يحيى، ساد أهل عصره، وبنى داراً بالعقيق ونزلها، توفي سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م. ومن ولده الحسن بن طاهر؛ رحل إلى الإخشيد بمصر وهو يومئذ ملكها، فأقام عنده، وأقطعه الإخشيد ما يغل في كل سنة مائة ألف دينار واستقر بمصر، وكان له من الولد طاهر بن الحسن الذي توفي سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م.

ويتفق كل من ابن خلدون[٣] والقلقشندي[٤] أنّ المذكور خلّف ابناً اسمه محمد الملقب بمسلم؛ كان صديقاً لكافور الإخشيدي والي مصر، وحينما استولى الفاطميون على مصر ووصل المعز لدين الله القاهرة خطب من مسلم كريمته لأحد بنيه، فردّه، فسخط عليه، واستصفى أمواله، واعتقله حتى مات. وقيل إنه فرَّ من سجنه، ولحق ابنه طاهراً بالمدينة سنة ٣٦٦هـ/ ٩٨٦م فقدّمه بنو الحسين على أنفسهم، واستقل بإمارتها سنين[٥]، وكانت وفاته سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م، وخلفه كما يؤكد ابن خلدون[٦] -نقلاً عن المسبحي مؤرخ الفاطميين العبيديين- ابنه الحسن الذي كان أميراً عليها سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م. أما العتبي[٧] فيرى أنّ المذكور كان

(١) تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام: .
(٢) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٩٨.
(٣) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٩.
(٤) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٩٨-٢٩٩.
(٥) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٧.
(٦) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٩.
(٧) تاريخ العتبي: ج ١٢ ص ٦١.

موجوداً في الإمارة سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م، فغلبه على إمارتها بنو عم أبيه عقب أبي أحمد القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر الحجة واستقلوا بها، ويؤيده ابن عنبة[١] الذي يرى أنّ الإمارة انتقلت من طاهر بن مسلم لابن عمه أبي هاشم داود بن بن القاسم، وهو الراجح عندي.

وقد أعقب داود أربعة رجال هم: أبو عمارة المهنا واسمه حمزة وفي عقبة الإمارة، والحسن الزاهد، وأبو محمد هاني واسمه سليمان، والحسين. وأعقب أبو عمارة المهنا بن داود ثلاثة رجال هم: عبد الوهاب جد قضاة المدينة الإمامية من بني سنان، وسبيع، وشهاب الدين الحسين أمير المدينة الذي انحصرت الإمارة في عقبه.

أما القلقشندي[٢] فينقل عن الشريف الحراني أنّ مهنا خلّف عبيد الله والحسين وعمارة، فولي بعده ابنه عبيد الله، وكان أميراً على المدينة سنة ٤٠٨هـ/ ١٩١٧م، وقتله موالي الهاشميين بالبصرة، ثم ولي الحسين بن مهنا (كان موجوداً سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)[٣]، وبعده ابنه مهنا بن الحسين. وذكر من أمرائهم: هاشم بن الحسن بن داود الذي تولّى إمارة المدينة سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م من قبل الخليفة الفاطمي المستنصر.

وقد خلف شهاب الدين الحسين ولدين هما: مالك ومهنا. فخلف مهنا والده على الإمارة، ومن هنا أُطلق على أمراء المدينة منذ ذلك التاريخ بنو مهنا[٤]. وبنو مهنا ينسبون إلى أبي عمارة مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر.

وذكرت بعض المصادر[٥] من أمرائها: منصور بن عمارة الحسيني المتوفى سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م؛ الذي تولّى ابنه مكانه، غير أنّ المصادر لم تذكر اسمه، وكان لمهنا بن الحسين من الولد الحسين وعبد الله والقاسم، فتولّى الحسين إمارة

---

(١) عمدة الطالب: ص ٣٣٦-٣٣٧.
(٢) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٩٩.
(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ج ١٦ ص ١٨٠.
(٤) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٨، وعمدة الطالب: ص ٣٣٧.
(٥) الكامل في التاريخ: ج ١٠ ص ٣٥٢، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا: ج ٢ ص ٢١٦، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٠.

المدينة، أما عبدالله فقد قُتل في وقعة نخلة[١].

أما أبو فليتة القاسم بن مهنا بن داود فتفرد المصادر[٢] قدراً لا بأس به للحديث عنه وعن فترة حكمه، وقد أشار ابن حجر[٣] إلى أنّ القاسم هو «أول من عُرف من أمراء هذا البيت»؛ عليه يرجع إلى صلته بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، ودوره السياسي في مكة سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م حين صحب أمير الركب العراقي إلى مكة المكرمة وتمكّن خلالها من مد نفوذه إليها[٤].

وبعد وفاة القاسم ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م خلفه ابنه جماز، جد الجمامزة أمراء المدينة[٥]، الذي لم تشر المصادر لفترة ولايته أو مدتها، غير أنه يُعتقد أنه لم يكن موجوداً أوائل القرن السابع الهجري حين احتدم الصراع بين أمراء المدينة وأمير مكة الشريف قتادة بن إدريس بن مطاعن[٦]، حيث تؤكد المصادر أنّ الإمارة آلت لأخيه سالم بن قاسم الحسيني[٧]، الذي دخل في صراع مع أمير مكة السالف الذكر[٨].

---

(١) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٠.

(٢) لباب الأنساب والألقاب والأعقاب، لابن فندق: ج ٢ ص ٥٣٣ و ٦١٧، وتاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٩، وعمدة الطالب: ص ٣٣٨، والعقد الثمين: ج ٧ ص ٣١-٣٢، وغاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام: ج ١ ص ٥٤٤-٥٤٧، وتاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً للخياري: ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ج ٥ ص ١٣٢.

(٤) المغانم المطابة في معالم طابة للفيروزآبادي: ج ٣ ص ١٢٦٥-١٢٦٧، والعقد الثمين: ج ٤ ص ٣٥٥-٣٥٦، وإتحاف الورى بأخبار أم القرى: ج ٢ ص ٥٣٧-٥٣٨، والجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف لابن ظهيرة: ص ٢٠٨-٢٠٩، والحجاز واليمن في العصر الأيوبي، جميل حرب: ص ٦٨.

(٥) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٦ وج ٣ ص ٤٠٤.

(٦) العقد الثمين: ج ٧ ص ٤٠، وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٩، وإتحاف الورى: ج ٢ ص ٥٦٦-٥٦٧، وسمط النجوم العوالي: ج ٤ ص ٢٠٨.

(٧) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١١٠.

(٨) الكامل في التاريخ: ج ١٢ ص ٢٠٥، والعقد الثمين: ج ٧ ص ٤٢، وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٣-٤.

وبعد وفاة الشريف سالم بن قاسم ٦١٢هـ/ ١٢١٥م تولّى الإمارة ابن أخيه قاسم بن جماز بن قاسم الحسيني[١]، وحفلت فترته بحوادث كثيرة خاصة فيما يتصل بعلاقته مع أمراء مكة، واستمرت إمارته حتى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م حيث اغتيل على يد أحد أفراد قبيلة بني لام[٢].

استغل أحد أفراد أسرة أشراف المدينة وهو شيحة بن هاشم بن قاسم[٣] الفراغ السياسي الذي أعقب اغتيال القاسم؛ فاستولى على المدينة ونصَّب نفسه أميراً عليها، فانتقلت الإمارة من فرع جمّاز بن قاسم لفرع هاشم بن قاسم، ودام حكمه ثلاثاً وعشرين سنة، وكان ينوب عنه في غيابه ابنه عيسى. وتسجل بعض المصادر تحدياً واحداً لسلطته؛ ففي صفر سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م جمع الشريف عمير بن قاسم بن جمّاز -وهو من فرع الجمامزة- قوة من أتباعه، وخلع شيحة بن هاشم الذي اضطر للفرار إلى بعض التلال أو الجبال المجاورة للمدينة، غير أنّ عميراً لم يتمكن من الاحتفاظ بسلطته على المدينة؛ بسبب معارضة الهواشم؛ وهو أحفاد هاشم بن قاسم بن مهنا له، فتمكن الشريف شيحة بن هاشم من استعادة سلطته على الإمارة[٤]، وقد اغتيل شيحة أيضاً على يد قبيلة بني لام حينما كان متوجهاً للعراق سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م[٥].

ومع قيام السلطنة المملوكية في مصر سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م كان أمير المدينة عيسى بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا، وقد استغل الجمامزة فرصة مقتل والده فهاجموا المدينة للاستيلاء عليها فتصدّى الأمير عيسى للمهجمين «وقبض عليهم

---

(١) العقد الثمين: ج ٧ ص ٤٣، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٩، والذيل على الروضتين لأبي شامة: ص ٩٠.

(٢) نصيحة المشاور وتسلية المجاور لابن فرحون: ص ٢٤٧؛ والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٩.

(٣) العقد الثمين: ج ٥ ص ٢٢-٢٤، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٢٥-٢٢٧.

(٤) العقد الثمين: ج ٥ ص ٢٣-٢٤، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٢٦.

(٥) عيون التواريخ: ج ٢ ص ٢٧-٢٨، ونصيحة المشاور: ص ٢٤٧، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢١٢؛ وفصول من تاريخ المدينة: ص ٢٧-٢٨.

وقيل إنه قتلهم »[١].

قام الشريف عيسى لأجل توطيد سلطته بإخراج أخويه منيف وجماز من المدينة، مما حملهما على التآمر ضده فاتفقا مع وزيره على إدخالهما للمدينة، فتمَّ لهما ذلك، فدخلا الحصن العتيق قصر إمارة المدينة، وقبضا على أخيهما عيسى وسجناه سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م[٢]، وتولّى الإمارة أبو الحسين منيف بن شيحة[٣] يساعده في ذلك أخوه جمّاز حتى سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، عندما توفي منيف، وخلفه أخوه عز الدين جمّاز[٤]، غير أنّ الصراع ما لبث أن نشب بينه وبين ابن أخيه مالك بن منيف، وتمكن مالك من انتزاع الإمارة من عمه، ثم تنازل مالك طواعية عن الإمارة لعمه ولم تحدد المصادر تاريخ التنازل[٥].

استمر جمّاز في الإمارة حتى سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م ثم تنازل عنها لابنه منصور؛ الذي كان -كما يقال- أبرّ أولاده به[٦] وذلك بعد أن كبر، ثم ما لبث أن توفي سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م[٧].

تولّى منصور بن جماز الإمارة في ظل صراع على السلطة بينه وبين إخوته؛ الذين حسدوه على تفضيل أبيه له، وتفاقم النزاع بدخول أهل المدينة طرفاً فيه مما أدّى للقبض على منصور وابنه كبيش من قبل السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون. وأحضر إلى مصر، ثم أعيدا للمدينة بعد أن اشترط على منصور عدم

---

(١) نصيحة المشاور: ص ٢٤٧، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢١٣.
(٢) نصيحة المشاور: ص ٢٤٨، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٢٨٣.
(٣) ذيل مرآة الزمان: ج ١ ص ٤.
(٤) ذيل مرآة الزمان: ج ٢ ص ٨٧، والمختار من تاريخ ابن الجزري للذهبي: ص ٢٥٤.
(٥) نصيحة المشاور: ص ٢٤٨، والمغانم المطابة: ج ٣ ض ١٢١٣-١٢١٤.
(٦) نصيحة المشاور: ص ٢٤٨، وذيول العبر في خبر من غبر: ج ٤ ص ١٠، والعقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٧، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٧٥.
(٧) ذيول العبر: ج ٤ ص ١٠، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٧٥، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي: ج ٨ ص ٢١٤.

التعرض للمجاورين والخدّام[١].

دخل منصور بعد عودته في صراع مع أخيه ودي بن جمّاز وأولاد مقبل بن جمّاز، ثم استقرت الأمور سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م[٢]، غير أنه قتل على يد ابن أخيه حريقة بن قاسم بن جمّاز سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٢٤م[٣].

تولّى الإمارة من بعده كبيش بن منصور[٤] وشهد عهده صراعاً على الإمارة مع عمه ودي في سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م خرج عل،ى أثرها كبيش من المدينة[٥]، غير أنه لم يلبث أن عاد إلى الإمارة بأمر من السلطان المملوكي الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد القبض على ودي[٦].

وظل كبيش في الإمارة حتى مقتله في رجب سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م على يد أولاد عمه مقبل بن جمّاز[٧]، وفي رواية أنّ قاسم بن منصور بن جمّاز هو الذي تولّى إمارة المدينة بعد مقتل والده وليس كبيشاً[٨]. ثم أعقبه في الإمارة طفيل بن منصور بمرسوم من السلطان المملوكي الملك محمد بن قلاوون في ١١ شوال ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م[٩]، فدخل المذكور في صراع مع عمه ودي وابناء عمه مقبل بن جمّاز انتهى

(١) نصيحة المشاور: ص ٢٤٩، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١١٨٥.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ١٧٥، وذكر أنّ مقبل بن جماز تنافس مع أخيه منصور فتركه وقدم القاهرة فولاه الملك الناصر محمد نصف الإمرة بنجد، وج ٢ ص ٨٤ و ص ٩٤.
(٣) نصيحة المشاور: ص ٢٥٢، والدرر الكامنة: ج ٥ ص ١٣٢، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٦٤.
(٤) الدرر الكامنة: ج ٣ ص ٣٤٨.
(٥) تاريخ ابن الوردي: ج ٢ ص ٤٠١.
(٦) المغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٢٢-١٢٢٣، والسلوك: ج ٢ ص ٢٨٨، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤٢٦-٤٢٧.
(٧) نصيحة المشاور: ص ٢٥٣، والسلوك: ج ٢ ص ٣٠٤.
(٨) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤٠٤، وانفرد السخاوي بهذه الرواية وربما يكون القاسم قد تولاها لفترة قصيرة بعد مقتل كبيش.
(٩) المغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٢٣، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠١ غير أنه ذكر أنّ ودّياً هو الذي خلف كبيش.

بتنازل طفيل عن الإمارة لعمه أبي مزروع ودي بن جمّاز ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، وحبس طفيلاً نحو أربعين يوماً ثم أفرج عنه[١] من قبل السلطان المملوكي، ومنحه إقطاعاً في حوران بسورية، وما قام به السلطان يعني سياسة واضحة لتأمين السيطرة وحفظ الأمن في المدينة، وإبعاد أحد المتنافسين على حكم المدينة ليتم الاستقرار في الحجاز[٢].

استمر ودي حاكماً على المدينة حتى سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م حين تمكن طفيل من استعادة الإمارة بعد القبض على نائبه جحيدب، وعلى قلاوون بن حسن بن مقبل وقتلهما[٣]، أما ودي فقد توفي سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م[٤].

إنّ الصراع على السلطة كان سمة بارزة في تلك الفترة، ففي أعقاب وفاة ودي عيّن آل جمّاز فضل بن قاسم بن قاسم بن جمّاز بن شيحة الحسيني زعيماً لهم ومطالباً بالإمارة من طفيل، فتجدد النزاع وهاجم فضل ومعه عدد من أشراف المدينة غير أنهم لم يتمكنوا من إزاحته من منصبه فانسحبوا، وظل طفيل أميراً للمدينة حتى سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م حين صدرت عنه كما يقول ابن فرحون: «أشياء عن تدبير بعض الوزراء لا تليق بمثله فكتب القاضي شرف الدين الأميوطي»[٥].

يبدو من النص السابق استشراء الفساد في نظام حكم طفيل نتيجة لسوء

---

(١) نصيحة المشاور: ص ٢٥٥.

(٢) نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، موسى بن محمد اليوسفي: ص ٢٨٩-٢٩٠، نصيحة المشاور: ص ٢٥٤، العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٧، السلوك: ج ٢ ص ٣٩٢.

(٣) نصيحة المشاور: ص ٢٥٤-٢٥٥، المغانم المطابة: ج ٣ ص ١٣١٠، الدرر الكامنة: ج ٢ ص ٣٢٥.

(٤) نصيحة المشاور: ص ٢٥٥.

(٥) نصيحة المشاور: ص ٢٥٦، والأميوطي هو شرف الدين أبو الفتح محمد بن القاضي عز الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد المصري المعروف بابن الأميوطي الشافعي، قاضي المدينة، تولى القضاء والإمامة والخطابة بالمدينة، مولده بالقاهرة في سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، ووفاته بالمدينة سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م، الوفيات: ج ١ ص ٤٨٢، والدرر الكامنة: ج ٤ ص ١٧٦.

تدبير بعض وزرائه، كما يتضح أنّ قاضي المدينة المعيّن أصلاً من قبل السلطان المملوكي كانت له كلمة مسموعة لدرجة أنه كان يكتب له عن سياسة أمراء المدينة وطريقة حكمهم.

مهما يكن من أمر فقد عُزل طفيل بأمر السلطنة المملوكية، وعُيِّن مكانه الشريف سعد بن ثابت بن جمّاز[١]، غير أنّ طفيلًا رفض قرار عزله مما أدّى إلى تجدد الصراع بين الطرفين، فاستعان سعد بأمراء الركب الشامي غير أنهم لم ينجدوه، غير أنّ قرار تعيينه قد وزع على أمراء الحج مما قوى من مركزه، وأضعف موقف طفيل وأنصاره من آل منصور بن جمّاز الذين انتقموا بنهب المدينة[٢].

في ظل هذه الفوضى والفراغ السياسي حدث أمر غريب هو قيام إحدى النساء وتدعى هميان بنت مبارك بن فضل[٣] بتسلم مفاتيح الدور، وحكمت المدينة يوم السبت وحتى ظهر الأحد حيث وصل محمد بن مقبل بن جمّاز أحد أنصار سعد بن ثابت وابن عمه وتسلَّم الأمور في المدينة، ثم دخل سعد يوم الثلاثاء ٢٢ ذي الحجة سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م[٤].

رغم الفترة القصيرة التي حكم فيها سعد بن ثابت إلا أنه قام بأعمال جليلة من أبرزها: عمل خندق حول سور المدينة للدفاع عنها، غير أنه لم يكمله لوفاته سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، كما أدخل تغييراً على النظام القضائي؛ منع بموجبه آل سنان

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٢٥-١٢٦ و ٢٥٩، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢٢٨.

(٢) نصيحة المشاور: ص ٢٥٦، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٢٥، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٩.

(٣) نصيحة المشاور: ص ٢٥٧، وذكر الفيروزآبادي أنّ اسمها هميان بنت مبارك بن مقبل، وقال: إنها جلست في شباك الإمارة وحكمت في المدينة يومي السبت والأحد، المغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٢٥، وقد تكون المذكور حفيدة فضل بن قاسم بن قاسم بن جماز، أو حفيدة مقبل بن جماز، وهي الحالة الوحيدة التي تتولى فيها امرأة حكم المدينة.

(٤) نصيحة المشاور: ص ٢٥٧، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٠٨، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢٢٨، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٩.

قُضاة المدينة الإمامية من التعرض للأحكام الشرعية وعقود أنكحة الرعيّة وغيرها « وردّ الأمر جميعه لأهل السنة تقرباً لقلوب السلطنة بإظهار السنة وإخماد البدع »[١].

ويتضح من النص السابق أنّ القضاء بالمدينة أصبح في فترة حكم سعد بن ثابت مقصوراً على أهل السنة[٢]، فيما كان لفقهاء الإمامية قبل ذلك اليد الطولى في القضاء، كما يتضح أنّ السلطان المملوكي لم يكن راضياً عن تولّي الشيعة الإمامية منصب القاضي الأول في المدينة. لقد أحدث سعد هذا التغيير رغم ما عُرف عن أمرائها من ميل للمذهب الإمامي الاثني عشري[٣]. ولقد أكّد ابن فرحون أهمية هذا التحول في نظام القضاء، في سياق حديثه عن شخصية الأمير سعد بقوله: « كان في دولته من أحسن الأمراء سيرة، شجاعاً، وافرَ الحشمة، ناصراً للسنة، قامعاً للبدعة، متخلقاً بذلك، مستجلباً رضا السلطنة »[٤].

لم تدم إمارة سعد سوى سنة وأربعة أشهر ثم توفي من جرح أصابه في معركة في ١٨ ربيع الأول سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م[٥]، وانتخب آل جمّاز بعد وفاته فضل بن قاسم بن قاسم بن جمّاز[٦]، وصدر له مرسوم بذلك من القاهرة وظلَّ في منصبه حتى وفاته سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م[٧].

(١) المغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٠٨-١٢٠٩، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢٢٨، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٢٦.

(٢) ذكر الفيروزآبادي والسخاوي أنه « نادى في المدينة وأسواقها جهاراً ونهاراً أنه لا يحكم في المدينة إلا القاضي الشافعي »، المغانم المطابة: ج ٣ ص١٢٠٨، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٢٦.

(٣) ذيول العبر: ج ٤ ص ١٠، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٧٥، وشذرات الذهب: ج ٦ ص ١٠.

(٤) نصيحة المشاور: ص ٢٥٨؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٠٨-١٠٩؛ والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٢٦.

(٥) الدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢٢٨، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٢٦.

(٦) نصيحة المشاور: ص ٢٥٨، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٦٣، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢٢٨ وج ٣ ص ٣١٤، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٢٦.

(٧) نصيحة المشاور: ص ٢٥٨، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٦٤، والدرر الكامنة: ج ٣ ص ٣١٤.

لقد شهدت الفترة القصيرة التي تولّى فيها فضل بن قاسم منصب الإمارة في المدينة إكمال حفر الخندق الذي بدأه سعد بن ثابت حول سور المدينة، كما تمتع بأخلاق فاضلة ونشر عدله بين الناس[١]. وتولّى الإمارة بعده ابن عمه ومستشاره[٢] مانع بن علي بن مسعود بن جمّاز[٣].

ويتضح من سير الأحداث في عهده عدم تمتعه بالحزم في إدارة شؤون المدينة فلم يستمتع بدهاء سياسي وبعد نظر، مما أدَّى إلى اضطراب الأوضاع السياسية، وطمع بعض الأشراف وعلى رأسهم آل منصور بن جمّاز في السلطة، مما حدا به للاستعانة ببعض القوى والفئات السكانية، ومنها المجاورون وأهل المدينة وخدّام الحجرة النبوية لدعمه عسكرياً ومادياً، فاستجابوا لذلك مراراً، غير أنّ معاملته القاسية لأهل المدينة أدَّت إلى نقص في الأموال الكافية لإغداقها على القبائل لدعمه عسكرياً، مما أدَّى إلى انحسار نفوذه، فصدر أمر بعزله سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م. وعُيِّن مكانه جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة[٤].

رغم أنّ فترة إمارة جمّاز بن منصور كانت قصيرة، ولم تتجاوز ثمانية أشهر، إلا أنها اتسمت باستقرار أمني وسياسي؛ وربما يعود ذلك إلى قوة شخصيته، وحسن إدارته فكان كما وصف: «خليقاً للملك شهماً شجاعاً، وافر الحرمة، عظيم الهيبة، ظاهر الجبروت»[٥]. غير أنه -نظراً لميوله العلوية وتشيعه- حاول إعادة قضاة الإمامية الذين عزلهم سعد بن ثابت لتولّي منصب القضاء بالمدينة، فأصدر

---

(١) نصيحة المشاور: ص ٢٥٧؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٦٤؛ والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٦.

(٢) كان مانع قد ذهب إلى مصر لطلب مرسوم بتعيين فضل على إمارة المدينة، المغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٦٤.

(٣) نصيحة المشاور: ص ٢٥٨؛ والدرر الكامنة: ج ٣ ص ٣١٤؛ والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٦.

(٤) نصيحة المشاور: ص ٢٥٩؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١١٨٧؛ وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٠١؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٥) نصيحة المشاور: ص ٢٥٩؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١١٨٧.

أمراً لفقيه الإمامية، ويدعى يوسف الشريشير، بأن يحكم بين الغرباء «فظهرت كلمتهم، وبهرت شوكتهم»[١]، بل إنه تمادى في محاربة أهل السنة لدرجة أنّ فقهاء الحنفية تعرضوا للتعذيب[٢]. كما عامل المجاورين معاملة قاسية مما حدا بالسلطان المملوكي أن يوعز لنائبه في الشام بالتخلص منه، فتم تنفيذ الأمر باغتياله على يد فداويين قَدِمَا للحج مع الركب الشامي في ٢١ ذي العقدة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م[٣]، فاضطربت الأحوال في المدينة ونُهب الحاج الشامي على يد آل منصور غير أنّ الأمور استقرت بعد تدخل ابنه بدر الدين هبة بن جمّاز[٤].

لقد كان البحث عن أمير للمدينة من قبل الأشراف مهمة صعبة نظراً لتدهور الأحول السياسية والأمنية، حيث رفض المنصب كل من بدر الدين هبة بن جمّاز، وزيان بن منصور بن جمّاز، لكن الأخير أشار بتعيين أخيه زين الدين عطية بن منصور، فتمَّ اختياره أميراً للمدينة سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م[٥] لما يتمتع به من ورع وتقوى، وقد شهدت المدينة في عهده استقراراً وأمناً كما عمل على تخفيف الضرائب عن الناس[٦]. غير أنه ما لبث أن عزل سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م ولم يتضح سبب عزله وعين بدلًا منه ابن أخيه هبة بن جماز بن منصور[٧].

وكان سبب تعيينه، كما يظهر، انتقاله من مذهب الشيعة الإمامية إلى المذهب الشافعي، مذهب دولة المماليك في مصر، فكان عهده -كما ذكر- خيراً وبركة على المدينة فرفع قواعد السنة وأخمد البدعة[٨]، غير أنه ما لبث أن قُبض عليه بمكة سنة

---

(١) المغانم المطابة: ج ٣ ص ١١٨٩؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٧.
(٢) المغانم المطابة: ج ٣ ص ١١٨٩.
(٣) نصيحة المشاور: ص ٢٥٩؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١١٨٩.
(٤) نصيحة المشاور: ص ٢٥٩-٢٦٠؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١١٨٩-١١٩٠؛ وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠١؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٧.
(٥) نصيحة المشاور: ص ٢٦٠؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٥٥-١٢٥٦.
(٦) نصيحة المشاور: ص ٢٦٠-٢٦١؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٥٦-١٢٥٧.
(٧) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٩٨.
(٨) المغانم المطابة: ج ٣ ص ١٣١٢.

٧٨٣هـ/ ١٣٨٠م[١]، فعاد زين الدين عطية إلى الإمارة إلا أنّ فترته الثانية لم تدم طويلاً وتوفي سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م[٢].

ويلاحظ أنّ فترة إمارة كل من عطية وهبة كانت طويلة نسبياً قياساً ببعض الأمراء السابقين، ويبدو أنّ ذلك راجع إلى حسن سياستهما، وميلهما لأهل السنة والجماعة، مما أكسبهما رضا السلطنة المملوكية.

تولّى الإمارة بعد عطية جمّاز بن هبة بن جمّاز بن منصور الحسيني في ذي القعدة سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م[٣] بمرسوم سلطاني[٤]. غير أنّ نعير بن منصور الذي خلف أخاه عطية، دون مرسوم بتعيينه، امتنع عن تسليم المدينة له مما أدَّى إلى وقوع قتال بين الطرفين انتهى باستيلاء جمّاز على المدينة بعد طعن نعير وانهزام أصحابه، ثم وفاته بعد ذلك بيومين[٥].

من خلال تتبع الأوضاع السياسية في المدينة أواخر القرن الثامن الهجري يتضح أنّ الصراع على السلطة بين أشرافها على أشده؛ وكان سمةً بارزةً للحياة السياسية، فقد خرجت الإمارة من يد جمّاز بن هبة عدة مرَّات، كما شاركه أبناء عمومته في بعض الفترات، ففي سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م شاركه ابن عم أبيه محمد بن عطية بن منصور[٦]، ثم خرجت الإمارة من يده فيما بعد، وأُعيد إليها سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م[٧]،

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٩٨.

(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر: ج ٢ ص ٧٣ و ٨٣؛ والنجوم الزاهرة: ج ١١ ص ٢١٨.

(٣) النجوم الزاهرة: ج ١١ ص ٢١٨؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٧.

(٤) صدر من السلطان الملك الصالح أمير حاج، تولى السلطنة فترتين الأولى بين (٧٨٣-٧٨٤هـ/ ١٣٨١-١٣٨٢م) والثانية بين (٧٩١-٧٩٢هـ/ ١٣٨٩-١٣٩٠م)، النجوم الزاهرة: ج ١١ ص ٢١٦ وما بعدها؛ والدول الإسلامية ستانلي لين بول: ج ١ ص ١٧٣.

(٥) إنباء الغمر: ج ٢ ص ٧٣ و ٨٣.

(٦) توفي الشريف محمد بن عطية سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م، أنظر: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان لعلي بن داود الصيرفي: ج ١ ص ١٤٧.

(٧) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٨.

وقُبض عليه سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٩٥م[١]، وسُجن بالإسكندرية سبع سنوات، ثم أُطلق سراحه وأعيد للإمارة سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م، بعد عزل أميرها ثابت بن نعير بن منصور بن جمّاز بن شيحة، وعاد ثابت للإمارة في ذلك العام.

ثم اقتتل جمّاز وثابت، وحسم نزاعهما بالسيف، وتولَّى جمّاز الإمارة سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م حتى عُزل عنها سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م[٢]. فانتقم لعزله بكسر قبة الحجرة النبوية، ونهب ما فيها من قناديل الذهب والفضة، ثم فرَّ من المدينة، وقُتل بعدها على يد بعض الأعراب سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م[٣]. وقد وصفه السخاوي[٤]، بأنه «كان يظهر إعزاز السنة ومحبتهم بخلاف ثابت بن نعير».

ويرى المقريزي[٥] أنّ حسن بن عجلان[٦] أمير مكة، الذي أصبح بتفويض من السلطان المملوكي نائب السلطنة بالحجاز؛ قد استناب عجلان بن نعير بن منصور بن جماز والد زوجته بدلًا من ثابت المتوفى سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م على المدينة، وأمده أمير مكة بعسكر على رأسهم ابنه أحمد لدعمه ضد مناوئيه وبخاصة جماز بن هبة.

كانت ولاية عجلان بن نعير على المدينة مضطربة فلم يستقر الحكم له، بل نافسه آخرون وعلى رأسهم آل جمّاز بن هبة الذين هاجموا المدينة وقبضوا على عجلان وسلَّموه لأمير الحاج الشامي ثم أُرسل إلى مكة، وأُطلق سراحه بأمر من أميرها غير أنه لم يعد للإمارة، بل حلَّ مكانه سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م غرير بن هيازع بن ثقبة بن جمّاز الحسيني[٧]، الذي استمر في الإمارة ثماني سنين، وعُزل عنها سنة

---

(١) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠١ حيث ذكر أنّ أميرها سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م كان ثابت بن نعير، ونزهة للصيرفي: ج ١ ص ٤٥٠ فذكر أنّ القبض على جماز تم سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م.
(٢) الدرر الكامنة: ج ٦ ص ١٠٣، حيث ذكر وفاة ثابت بن نعير منافسه على الإمارة.
(٣) الدرر الكامنة: ج ٦ ص ١٠٤-١٠٥، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع: ج ٣ ص ٧٨، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٨.
(٤) الضوء اللامع: ج ٣ ص ٧٨.
(٥) السلوك: ج ٤ ص ٧٦، وأنظر: إنباء الغمر: ج ٦ ص ١٠٥، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٦.
(٦) العقد الثمين: ج ٤ ص ٨٦-١٣٨.
(٧) نزهة النفوس: ج ٢ ص ٤٣٥.

٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، واعتقل وسُجن وتُوفي سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م[١]، وأُعيد عجلان بن نعير[٢]، ثم عُزل وعُيّن بدلًا منه ثابت بن نعير بن هبة بن جماز سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م، ثم عُزل ثابت في نفس العام، أما عجلان فقد قتل سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٥م[٣].

لم تتضح أسباب عزل كل من عجلان وثابت، غير أنه يبدو أنّ لميولهما العلوية دوراً في ذلك العزل؛ فقد أقام ثابت كما يذكر السخاوي[٤]: «من الرافضة قاضياً اسمه الطفيل وطالما جاء حكم من الأحكام يرسل غالباً إليه»، ويتضح أمر عزل ثابت من الدعم الذي تلقاه خلفه خشرم بن دوغان بن هبة من السلطان المملوكي الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م)[٥]، حين أرسل السلطان المملوكي جيشاً بقيادة بكتمر السعدي[٦] لصدّ هجوم عجلان، حيث يرى السخاوي[٧] أنّ تعيين المذكور كان «لتقوية أهل السنة»، على أنّ فترته في الإمارة لم تطل فما لبث السلطان المملوكي أن غضب عليه لأسباب غير معروفة فقُبض عليه وأُرسل إلى مكة ومنها إلى القاهرة حيث سجن سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م[٨]، وفي رواية أنه قتل سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م[٩].

---

(١) الدرر الكامنة: ج ٧ ص ٤٧٩، والضوء اللامع: ج ٦ ص ١٦١، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧.

(٢) نزهة النفوس: ج ٣ ص ١٧.

(٣) الدرر الكامنة: ج ٨ ص ١٨٣، والضوء اللامع: ج ٥ ص ١٤٥، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧.

(٤) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٩٧.

(٥) السلوك: ج ٤ ص ٦٠٧، النجوم الزاهرة: ج ١٤ ص ٢٤٢ وج ١٥ ص ٢١٠.

(٦) بكتمر بن عبد الله السعدي، مملوك سعد الدين بن غراب، ترقى إلى أن سفّره السلطان إلى صالحب اليمن، ثم عاد فتأمر وتقدم. مات في ربيع الأول سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م، إنباء الغمر: ج ٨ ص ١٥٢، والضوء اللامع: ج ٣ ص ١٧.

(٧) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٨.

(٨) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٨.

(٩) إنباء الغمر: ج ٨ ص ١٨٢-١٨٣ وفيها مات أيضاً عجلان بن نعير بن منصور وقيل إنّ خشرم قتل على يد مانع بن علي، الضوء اللامع: ج ٦ ص ٢٣٦. وأنظر: الضوء اللامع: ج ٣ ص ١٧٤، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٨.

تولَّى مكانه مانع بن علي بن عطية بن منصور بن جمّاز بن شيحة الحسيني، واستمر في منصبه حتى مقتله سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م على يد حيدر بن دوغان انتقاماً لمقتل أخيه خشرم بن دوغان الذي يعتقد أنه قتل من قبل مانع المذكور[١].

وقع صراع على الإمارة بين أبناء مانع وهم العجل وعلي وأميان حُسم بتولّي أميان للإمارة وتوطدت سلطته بمرسوم سلطاني بتعيينه[٢]. غير أنّ أميان عزل من منصبه غير مرة ففي سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م عُزل وعُيِّن سليمان بن غرير بن هيازع بن هبة بن جمّاز بن منصور الحسيني[٣]، وقد دخل الأخير في صراع مع أميان على الإمارة سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م، تمكن سليمان من الانتصار فيه ثم عاد أميان للإمارة مرة أخرى سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م بعد ضيغم بن خشرم بن نجاد الحسيني[٤]، واستمر أميان في الإمارة حتى وفاته سنة ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م[٥]، وقيل سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م[٦]، وخلال فترة الصراع تلك تَعَاقَب على إمارة المدينة عدد من أشرافها بينهم سليمان بن غرير السالف الذكر؛ الذي استمر في الإمارة من ٨٤٢هـ-٨٤٦هـ/ ١٤٣٨-١٤٤٢م[٧]، وخلفه لعدة أشهر موسى بن كبيش بن جماز، ثم أعقبه سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م ضيغم بن خشرم بن نجاد بن ثابت بن نعير بن منصور واستمر في الإمارة حتى عزل سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م أعيد أميان إلى الإمارة[٨].

مما سبق يتضح أنّ الصراع بين أشراف المدينة للاستحواذ على السلطة أدى إلى إضعاف مركز المدينة السياسي والعسكري في مواجهة القوى المحلية خاصة

(١) إنباء الغمر: ج ٨ ص ٤٠٤-٤٠٥، والتحفة اللطيفة: ج ٦ ص ٢٣٦.
(٢) السلوك: ج ٤ ص ٩٧٥، والدرر الكامنة: ج ٨ ص ٤٠٤-٤٠٥، والضوء اللامع: ج ٢ ص ٣٢١.
(٣) الضوء اللامع: ج ٥ ص ١٦١.
(٤) الضوء اللامع: ج ٤ ص ٢.
(٥) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٣٩.
(٦) الضوء اللامع: ج ٢ ص ٣٢١.
(٧) الضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٦٨، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٨٤.
(٨) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٣٩ و ج ٢ ص ٢٥٤.

القبائل، وفي مواجهة أشراف مكة، وأدَّى ذلك إلى تعزيز دور وسلطة السلطنة المملوكية، فتدخلت في شؤون أشراف المدينة بالعزل والتعيين.

استمر أميان في الإمارة حتى توفي سنة ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م[١]. وقيل سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م[٢]، وتم تعيين زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير بن منصور الحسيني[٣]. استمر زبيري في الإمارة مدة عشر سنوات ثم عُزل سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م[٤]، وعُيِّن بدلاً منه زهير بن سليمان بن هبة بن جمّاز بن منصور الحسيني[٥]، غير أنّ زَبيراً رفض قرار عزله، وسافر إلى مصر؛ ملتمساً إعادته فلم ينجح في مسعاه، وظل زهير بن سليمان في منصبه حتى وفاته سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م[٦]. وقد ذكر أنّ زهيراً كان مناهضاً للشيعة مناصراً للسنة يقول في ذلك السخاوي: «إنّ الشيعة كانت تكرهه»[٧].

تولّى الإمارة بعده ضيغم بن خشرم بن نجاد بن ثابت الحسيني حتى عزل سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م[٨]، وعُيِّن بدلًا منه قسيطل بن زهير بن سليمان بدعم من أمير مكة حتى سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م[٩] حيث أُعيد زبير بن قيس للإمارة، غير أنه لم يدم في

---

(١) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور: ج ٢ ص ٣٥٠، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٢٣٩.

(٢) الضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٣٢، حيث ذكر توليه الإمارة سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م، وفي التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨١ سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م.

(٣) الضوء اللامع: ج ٢ ص ٣٢١، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨١.

(٤) حوادث الدهور: ج ٢ ص ٥٦٦، والضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٣٢.

(٥) الضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٣٩، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨٥.

(٦) ذكر السخاوي أنّ ضيغم بن خشرم بن ثابت بن نعير تولى إمارة المدينة سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م فأقام بها نحو أربعة أشهر ثم عزل وعين بدلاً منه إبراهيم بن سليمان، ثم أعيد بعد موت إبراهيم سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م فاستمر إلى رمضان سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م، الضوء اللامع: ج ٤ ص ٢، التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٣، إنباء الهصر بأنباء العصر للصيرفي: ص ٧.

(٧) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨٥.

(٨) الضوء اللامع: ج ٤ ص ٢.

(٩) الضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٣٢-٢٣٣، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨٠-٨١ وج ٣ ص ٤١٦-٤١٧.

منصبه سوى أشهر قليلة توفي بعدها سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م[١]. وتولّى الإمارة ابنه البدر حسن الذي وصفه السخاوي بقوله إنه «محمود السيرة»[٢]، ودامت إمارته قرابة ثلاث عشرة سنة غير أنّ حكمه ساء أواخر القرن التاسع لدرجة أنه سطا على المسجد النبوي، وسرق حاصل الحرم من نقود وقناديل الذهب والفضة مثل كثير من أمراء المدينة، وسبك تلك القناديل، وارتحل عنها سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، فأرسل شريف مكة جيشاً لحفظ الأمن بصحبة فارس بن شامان بن زهير بن سليمان الذي عينه أمير مكة نائباً عنه في المدينة، بعد أن صدر الأمر بعزل أميرها البدر حسن، ثم عيَّن شريف مكة بعد ذلك، وفي نفس العام، مانع بن زبيري -أخا الأمير السابق- أميراً على المدينة[٣].

وفي رجب سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م قام الشريف بركات بن محمد بن بركات[٤] أمير مكة بأمر من السلطان المملوكي[٥] بتعيين الشريف ثابت بن ضيغم بن خشرم بن نجاد بن ثابت أميراً على المدينة[٦]. ويبدو أنّ المذكور استمر في منصبه حتى نهاية العصر المملوكي سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.

---

(١) الضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٣٣، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨١.

(٢) الضوء اللامع: ج ٣ ص ١٠٠، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٧٩.

(٣) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٧٩ حيث ذكر أنه عاد بعد ذلك إلى المدينة وتوفي بها، وفي الضوء اللامع: ج ٣ ص ١٠٠، أنّ السخاوي رآه بالمدينة سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م.

(٤) تولّى الشريف بركات بن محمد بن بركات الإمارة شريكاً لوالده سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م، ولاها إياه السلطان الأشرف قايتباي ثم انفرد بالإمارة بعد وفاة والده سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام لابن فهد المكي: ج ٣ ص ٣٠٥-٣٢٥.

(٥) هو الملك الأشرف قانصوه الغوري تولى السلطنة من سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠١م حتى مقتله في رجب سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، بدائع الزهور في وقائع الدهور: ج ٤ ص ٣-٥ و ٦٨-٧٠.

(٦) غاية المرام: ج ٣ ص ٢٨٠-٢٨١.

العلاقة بين أشراف المدينة وأشراف مكة

وتبدأ العلاقة منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، حيث دخلت الحجاز تحت النفوذ الفاطمي، كما شهدت تلك الفترة قيام إمارتين هاشميتين إحداهما حسنية في مكة والأخرى حسينية في المدينة. فقد استولى فريق من الحسنيين، يعرفون بالجعافرة نسبة لزعيمهم جعفر بن محمد[١]، على مقاليد الأمور في مكة في أواخر عهد الدولة الإخشيدية، كما أقام الخطبة بمكة للمعز لدين الله الفاطمي بعد فتح الفاطميين مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م[٢]. أما المدينة فقد سيطرت عليها أسرة حسينية تنتسب لطاهر بن مسلم الحسيني سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م[٣].

تأرجحت العلاقات بين أشراف المدينة وأشراف مكة خلال العهدين الفاطمي والأيوبي أحياناً بالجفاء وأخرى بالعداء. وحينما نتتبع طبيعة وتطور تلك العلاقات نجد أنه في سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م قام الحسن بن جعفر المكنّى بأبي الفتوح بالاستيلاء على المدينة وعزل أمرائها من بني مهنا؛ تنفيذاً لرغبة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بسبب «القدح في نسب الفاطميين»[٤]، أو لأنّ أمراء المدينة قطعوا

(١) هو جعفر بن محمد بن الحسن، وينتهي نسبه للحسن بن علي بن أبي طالب. أمير مكة في أيام الدولة الإخشيدية، ويعتقد أنه تولّى الإمارة في مكة بعد موت كافور الإخشيدي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٥٧م، جمهرة أنساب العرب: ص ٤٧؛ والعقد الثمين: ج ٣ ص ٤٢٩-٤٣٠.

(٢) إتحاف الورى: ج ٢ ص ٤٠٦.

(٣) تاريخ العتبي: ج ١٢ ص ٥٩-٦٠؛ تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٢.

(٤) الدرر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة: ج ١ ص ٥٣٢.

الخطبه في هذه السنة.

وما لبث أبو الفتوح أن خرج عن طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وتمّ هذا بإغراء من الوزير أبي القاسم حسين بن علي المغربي؛ الذي خرج عن طاعة خلفاء البيت الفاطمي، وجعل ينتحل لقب الخلافة، وأخذ له البيعة من قبائل بني سليم وبني هلال وبني عوف وبني عامر[١].

تنازل أبو الفتوح عن دعوته بالخلافة سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، وفي تلك السنة بدأت قبائل بني سليم وطيء وبني هلال تخرج لاعتراض ركب الحاج العراقي حتى سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م؛ إذ استطاع أبو الفتوح محاربة هذه القبائل التي تهدد طريق أمن الحاج العراقي[٢].

ظل أبو الفتوح موالياً للخلفاء الفاطميين معلناً الخطبة للحاكم والظاهر والمستنصر حتى توفي سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م[٣].

ونلاحظ من هذه الأحداث الآتي:

١ - أنّ شريف مكة أبو الفتوح قرّب بني هلال وهوازن والقبائل القيسية؛ لأنها كانت ضد آل مهنا أشراف المدينة، ثم أخذ منها البيعة فيما بعد.

٢ - أنّ شريف مكة لم يستطع الانفراد بالسلطة والاستقلال عن الدوله الفاطمية؛ التي كانت هي المرجع المذهبي، وكان لها نفوذ في قبائل قيس الحجاز.

٣ - أنّ شريف مكة رضخ للأمر الواقع، وانصاع بالقوه القاهرة للحكم الفاطمي المؤيَّد من القبائل القيسية الحجازية، واضطر إلى مسالمة ومداهنة القبائل القيسية وتقريبها.

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٨.
(٢) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١١٥؛ ودرر الفوائد: ج ١ ص ٢٤٤-٢٥٣.
(٣) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٦٩؛ وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٦؛ والجامع اللطيف: ص ٨٣.

ثم خلفه ابنه الشريف شكر الذي لُقِّب بتاج المعالي؛ لما تمتع به من شجاعة وقوة لتأديبه القبائل المتمردة عليه حتى لُقِّب بملك الحجاز، وكثرت في بداية عهده اعتداءات القبائل -ومنها بنو هلال وبنو سليم- على طرق الحاج، ولكن شكر استطاع ردّ عصيان هذه القبائل، تارة باللين، وأخرى بالشدة، حتى أنه ألقى القبض على مشايخ من هذه القبائل، ووصفه مؤرخو مكة بأنه كان يتمتع ببأس شديد[١].

وفي هذه الفترة انعدمت الطمأنينة حتى كتب ناصر خسرو الرحالة الفارسي في سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م أنّ المسافة بين مكة واليمامة كانت تحوي أربع عشرة قلعة للصوص والمفسدين والجهلة، وقد بلغ البأس بالناس أنهم كانو إذا خرجو للصلاة حملو السيوف والرماح والأتراس[٢].

وفي سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م وقع خلاف بين بني هلال وبني عامر وبين بني مهنا -أشراف المدينة-. وحرّض بنو هلال الشريف شكر بإعداد حملة عسكرية ضد بني مهنا وبمناصرة بني هلال وبني عامر للشريف شكر.

استطاع الشريف شكر الاستيلاء على المدينة؛ ولذلك لقبه ابن خلدون والفاسي كما مر بملك الحجاز، واستمرت ولايته لهما حتى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م. ثم أعاد بني مهنا إلى إمرة المدينة بعد أن عقد بينهم صلحاً[٣].

ونلاحظ أنّ الشريف شكر قد استعان بشكل رئيسي على قبائل قيس، التي كانت تتزعمها بنو هلال، وقد غضّ الطرف عن كثير من الأحداث التي عملوها؛ وكان شرق مكة، وحتى وسط نجد، تحت السيطرة الكاملة للقبائل القيسية خاصة هوازن.

ثم توفي الشريف شكر سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م[٤] ولم يخلفه أحد. واستولى

---

(١) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٦-١٩٧؛ والجامع اللطيف: ص ٨٤؛ ودرر الفوائد: ج ١ ص ٢٥٤.
(٢) سفر نامه: ص ١٦٢-١٦٨.
(٣) درر الفوائد: ج ١ ص ٢٥٠؛ وتاريخ مكة: ج ١ ص ١٢٠.
(٤) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٢؛ والعقد الثمين: ج ٥ ص ١٤-١٥؛ وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٥.

على الحكم الأشراف الهواشم الذين تربطهم بآل مهنا اشراف المدينة علاقات جيدة.

ومن الملاحظ خلال تحليل الأحداث السابقة:

١- أنّ الشريف شكر قرّب -كوالده- القبائل القيسية، خاصة بني هلال، وغضّ الطرف عنهم في العالية وشرق مكة ووسط نجد.

٢- أنّ الشريف شكر كان على عداء قديم مع آل مهنا أشراف المدينة.

٣- أنّ القحط والشدة الكبرى أجلى الكثير من بني هلال والقيسية من الحجاز إلى مصر؛ بأمر من الدولة الفاطمية التي تخضع لها قبائل قيس الحجاز منذ أمد طويل.

٤- أنه بعد رحيل الكثير من قبائل قيس وهوازن وبني هلال وقعت البقية المتبقية بين كماشتي الهواشم وآل مهنا الذين كانو على عداء قديم مع الشريف شكر ووالده.

وعلى كل حال، يبدو أنّ المدينة خرجت عن سلطة الشريف شكر أثناء حكمه أو بعد وفاته، فعندما تولى إمارة مكة محمد بن جعفر أول أمراء الهواشم سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م[١] سعى للاستيلاء على المدينة وضمها لسلطته وهذا يدل على خروجها عن سلطة أمراء مكة قبل ذلك التاريخ.

حدثت تطورات سياسية في مجال العلاقات بين العباسيين والسلاجقة من جهة والفاطميين من جهة أخرى كان لها أثر في دعم كزقف أمير مكة، فقد عرض السلطان السلجوقي ألب أرسلان على أمير المدينة مهنا بن الحسين بن مهنا بن

(١) محمد بن جعفر بن محمد المكنَّى بأبي هاشم ويصل نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. ولي إمرة مكة من قبل علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م، وأعاد الخطبة لبني العباس في بغداد بعد أن قطعها من الحجاز من نحو مائة سنة. انظر: العقد الثمين: ج ١ ص ٤٣٩-٤٤٠؛ وعمدة الطالب: ص ١٣٧.

داود الحسيني عشرين ألف دينار وخمسة آلاف دينار كل سنة مقابل إقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله وللسلطان بالمدينة، وإسقاط الخطبة للفاطميين بمصر غير أنه رفض مما دفع السلطان السلجوقي -الذي كان قد أغدق على أمير مكة محمد بن جعفر بإعطائه ثلاثين ألف دينار وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار[١]- لتحريضه على مهاجمة المدينة وضمها إليه، فهاجمها بمساعدة العباسيين والسلاجقة واحتلها حوالي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م، وضمها إلى مكة، وجمع بين الحرمين، وخطب فيها للخليفة القائم العباسي، فأُطلق عليه منذ ذلك التاريخ أمير الحرمين[٢].

ويتضح من طبيعة العلاقة بين المدينة ومكة خلال العصر الفاطمي أنّ زمام المبادرة كان بيد أمراء مكة، وساعدت الظروف والتطورات السياسية، سواء في بغداد أم القاهرة، على تعزيز نفوذ أمراء مكة في مواجهة أمراء المدينة.

واستمرت العلاقة بين الطرفين في صورتها العدائية خلال العصر الأيوبي، غير أنّ ميزان القوى قد مال لصالح أمراء المدينة في بداية تلك الفترة نتيجة دعم الخلافة العباسية والسلطنة الأيوبية لهم، وتوضح الحادثة التي وقعت بين أمير الركب العراقي طاشتكين المستنجدي المُرسَل من قبل الخلافة العباسية والأمير مكثر بن عيسى أمير مكة سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م هذا التحول، فبعد محاولة أمير الركب العراقي إعادة الأمن إلى مكة، التجأ أميرها إلى حصن بناه أبوه فوق جبل أبي قبيس مما حدا بأمير الركب العراقي لتعيين قاسم بن مهنا الحسيني أمير المدينة أميراً على مكة، غير أنه عجز عن إدارتها مما اضطره أن يطلب بعد ثلاثة أيام من توليه منصبه إعفاءه من تلك المهمة، فقام أمير الركب بتعيين داود بن عيسى أخي أمير مكة السابق مكانه بعد أن اشترط عليه إسقاط المكوس[٣].

(١) الكامل في التاريخ: ج ١٠ ص ٦١؛ تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٣.
(٢) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٣؛ وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٧٠.
(٣) المنتظم: ج ١٨ ص ٢٢٢-٢٢٤؛ العقد الثمين: ج ٤ ص ٣٥٥؛ إتحاف الورى: ج ٢ ص ٥٣٧-٥٣٨.

في أواخر القرن السادس الهجري حدث تطور كبير في مكة حين استولى أحد أشراف ينبع -وهو الشريف قتادة- عليها، غير أنّ الأمر لم يستتب له تماماً إلا بعد وفاة مكثر بن عيسى سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م[١].

وبعد أن استقرت له الأوضاع بادر بمهاجهة المدينة سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م[٢]؛ فخرج له أميرها سالم بن قاسم الحسيني وتصدَّى له، غير أنّ شريف مكة تمكن من هزيمته ومحاصرة المدينة لعدة أيام إلا أنّ ميزان القوى مال لصالح أمير المدينة بعد أن تمكن من استمالة بعض قادة جيش قتادة كما تلقّى مدداً من قبيلة بني لام[٣]، فاضطر قتادة للتراجع نحو مكة، فتعقّبه سالم، وحاصره فيها، إلا أنّ قتادة تمكن من تغيير المواجهة لصالحه مما أدّى لعودة الشريف سالم للمدينة[٤].

من خلال الأحداث نلاحظ أنّ المواجهة السابقة بين أمراء المدينة ومكة لم تُحسم لصالح أيٍّ من الطرفين، كما اتسمت العشر السنوات التالية بالهدوء والاستقرار النسبي في العلاقة بين الطرفين رغم ما شاب فترتها الأخيرة من توتر؛ فقد أوضحت أحداث حج سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م مدى توتر العلاقات بين الطرفين، فحينما رافق أمير المدينة الملك المعظَّم عيسى بن العادل الأيوبي أمير دمشق إلى مكة في ذلك العام عومل سالم بن قاسم معاملة سيئة من قبل قتادة، كما حاول أمير مكة القبض عليه فلم يفلح؛ لوجوده مع المعظَّم عيسى الذي صحبه معه إلى دمشق[٥].

وفي السنة التالية ٦١٢هـ/ ١٢١٥م انتهز قتادة فرصة وجود سالم في دمشق فهاجم المدينة غير أنّ أهلها دافعوا عنها مما اضطره لفك الحصار والعودة لمكة[٦]،

(١) العقد الثمين: ج ٧ ص ٤٠.
(٢) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٢٠٣، ومختصر أبي الفداء: ج ٣ ص ١٠٦.
(٣) العقد الثمين: ج ٧ ص ٤١؛ وشفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٩.
(٤) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٤؛ وغاية المرام: ج ١ ص ٥٥٣.
(٥) مرآة الزمان: ج ٨ ص ٥٧٠؛ والبداية والنهاية: ج ١٣ ص ٦٧؛ والنجوم الزاهرة: ج ٦ ص ٢١١.
(٦) الذيل على الروضتين لأبي شامة: ص ٨٩-٩٠.

وحينما علم سالم بأمر الهجوم بادر بطلب الدعم من الملك المعظَّم عيسى الذي أمدَّه بقوة زحفت على مكة، ودخلتها مما اضطر قتادة للانسحاب إلى البادية[١]. غير أنّ بعض المصادر تذكر أنّ سالماً توفي وهو في طريقه من الشام إلى الحجاز على رأس قوة من التركمان فتولّى الإمارة وقيادة الجيش ابن أخيه قاسم بن جمّاز[٢]، الذي هزم جيش قتادة بوادي الصفراء[٣] قرب ينبع في شهر ذي القعدة سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م[٤].

وفي تلك الفترة من تاريخ العلاقات بين المدينة ومكة نجد أنّ صراعاً قد حدث بين جناحي البيت الأيوبي في كل من الشام ومصر بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وانعكس هذا الصراع على نفوذ الأيوبيين في الحجاز فدعم بعض أمرائهم في الشام أمير المدينة فيما دعم جناح البيت الأيوبي بمصر الشريف قتادة أمير مكة[٥].

بعد هزيمة قتادة انسحب إلى مكة، وحاول أمير المدينة في العام التالي الاستيلاء على جدة باعتبارها بوابة مكة، غير أنه فشل في مهمته بعد أن لحقت به الهزيمة في الحميمة في ذي الحجة سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م[٦]، وفي الأعوام التالية

---

(١) العقد الثمين: ج ٧ ص ٤٢؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٢٠.

(٢) الذيل على الروضتين: ص ٩٠؛ والعقد الثمين: ج ٧ ص ٤٣.

(٣) وادي بمنطقة المدينة ذو قرى كثيرة اشتهرت بالزراعة، أسماء جبال تهامة وسكانها، ضمن نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون: ج ٢ ص ٤٢٨؛ ومعجم البلدان: ج ٣ ص ٤١٢.

(٤) الذيل على الروضتين: ص ٩٠؛ والعقد الثمين: ج ٧ ص ٤٣؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٢١.

(٥) نرى ذلك واضحاً حينما جهز صاحب، دمشق الملك المعظم عيسى بن العادل جيشاً مع الناهض بن الجرخي لنجدة أمير المدينة ضد شريف مكة سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، مرآة الزمان: ج ٨ ص ٥٧٠؛ والذيل على الروضتين: ص ٩٠، فيما دعم الكامل الأيوبي قتادة سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م بتسلم نواب الكامل قلعة ينبع من قتادة حماية لها من قاسم بن جماز أمير المدينة، العقد الثمين: ج ٧ ص ٤٤-٤٥.

(٦) العقد الثمين: ج ٧ ص ٤٥؛ والسلوك: ج ١ ص ١٨٥.

بين ٦١٥-٦١٧هـ/ ١٢١٨-١٢٢٠م(١) أصبح زمام المبادرة بيد الشريف قتادة، الذي حاول الاستيلاء على المدينة، غير أنه فشل في تلك المحاولات، ثم اغتيل على يد ابنه الحسن سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م(٢) فخلفه في منصب الإمارة.

دخلت مكة مرحلة جديدة من تاريخها؛ تمثلت في الصراع السياسي بين أبناء قتادة، كما كانت مكة -أيضاً- مجالًا للتنافس السياسي بين الأيوبيين والرسوليين، ودخل أمراء المدينة طرفاً في ذلك التنافس بانضمامهم إلى الأيوبيين؛ ففي سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م تدخل أمراء المدينة في الصراع السياسي لصالح الأيوبيين ضد أحد أبناء قتادة المدعوم من الرسوليين حكّام اليمن، وهو راجح الذي قاد حملة للاستيلاء على مكة، فاستنجد الوالي الأيوبي طغتكين(٣) بالملك الكامل صاحب مصر، الذي بادر بإرسال حملة من مصر مدعومة بقوات من الشريف أبي سعد الحسن بن قتادة صاحب ينبع والشريف شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني أمير المدينة، فتمكنوا من إعادة السيطرة على مكة(٤).

ويظهر أن التنسيق والدعم الذي تلقاه أمراء المدينة من الأيوبيين قد شجعهم على مهاجمة مكة في الأعوام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩(٥)، ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م(٦)، ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م(٧).

---

(١) تاريخ المستبصر: ج ١ ص ١٦.

(٢) التكملة لوفيات النقلة: ج ٣ ص ١٧؛ والذيل على الروضتين: ص ١٢٣؛ والبداية والنهاية: ج ١٣ ص ٩٢؛ والعقد الثمين: ج ٧ ص ٥٩؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٢٧.

(٣) شجاع الدين أبو بكر بن عمر بن محمد الطغتكيني الملكي الكاملي أمير مكة من قبل الأيوبيين بين سنة (٦٢٦-٦٢٩هـ/ ١٢٢٨-١٢٣٢م) العقد الثمين: ج ٥ ص ٦٤-٦٦؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٨؛ وغاية المرام: ج ١ ص ٦١٢-٦١٤.

(٤) العقد الثمين: ج ٢ ص ٢٨٤؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٩-٥٠.

(٥) العقد الثمين: ج ٥ ص ٢٣ وج ٦ ص ٣٤٦؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٥٦؛ والعقود اللؤلؤية: ج ١ ص ٦٦.

(٦) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٥٦-٥٧؛ والعقود اللؤلؤية: ج ١ ص ١٧.

(٧) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٥٧-٥٨؛ والعقود اللؤلؤية: ج ١ ص ٧٠؛ والسمط الغالي الثمن في

أرسل الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل الشريف شيحة بن هاشم أمير المدينة إلى مكة على رأس جيش سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، فاشتبك مع عسكر الملك المنصور بن عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن، فخرج عسكر المنصور واستولى شيحة على مكة، غير أنّ ملك اليمن ما لبث أن أرسل جنده إلى مكة وعليهم الشريف راجح بن قتادة فأخرجوا العسكر الأيوبي منها[١].

وفي أعقاب حوادث سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م تتوقف المصادر عن ذكر طبيعة العلاقات بين الطرفين، فقد شُغل كلاهما بنزاعاتهم الداخلية، كما اصطدم أشراف مكة مع الرسوليين حكّام اليمن، الذين كانوا يحاولون مدَّ نفوذهم إليها مستغلين ضعف الدولة الأيوبية ثم انهيارها سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م.

ومع قيام دولة المماليك في مصر والشام سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م شغل قادتها في بداية حكمهم بالصراعات على السلطة، وبتوطيد سلطانهم في مصر والشام، على أنه في ظل الصراع بين أشراف مكة على السلطة جرت محاولة من جانب الرسوليين للقضاء على تلك الاضطرابات ضماناً لنفوذهم فيها، فأرسل السلطان الرسولي الملك المظفر يوسف جيشاً إليها سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م وكان يحكمها أميران هما: أبو نمي وعمه إدريس بن علي، اللذان انتزعا السلطة من غانم بن راجح بن قتادة، ولعجز الأميرين عن صد الجيش الزاحف فقد طلبا المساعدة من أمير المدينة الشريف جمّاز بن شيحة، الذي قد جيشاً لدعم أشراف مكة غير أنه لحقت به الهزيمة على يد ابن برطاس قائد الجيش الرسولي أواخر سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، وفي أوائل ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م تمكن الأميران من استعادة سلطتهم، وطُرد الجيش الرسولي[٢].

أخبار الملوك من الغز باليمن لابن حاتم: ص ٢٢٠-٢٢١.

(١) الأرج المسكي في التاريخ المكي: ص ١٢٧-١٢٨ و ٤٣١.

(٢) السمط الغالي: ص ٣١٨-٣٢١؛ والعقد الثمين: ج ٧ ص ٤٨٨-٤٨٩؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٧٧.

مهما يكن من أمر فإنه يبدو أنّ العلاقات بين أمراء المدينة ومكة خلال تلك الفترة كانت سلمية، حتى إنّ كلا الطرفين كان يدعم كل منهما سلطة الآخر ضد مناوئيه، وقد ظهر ذلك واضحاً في المساندة السابقة التي قدَّمها أمير المدينة لأمراء مكة(١).

وقد ردَّ أبو نمي هذا الجميل لأمير المدينة جمّاز حين تدخل في الخلافات الداخلية بين أفراد البيت الحاكم من بني مهنا بدعم جمّاز ضد ابن أخيه مالك بن منيف بن شيحة الذي انتزع الإمارة من عمه سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م، ورغم الدعم الذي قدَّمه أمير مكة لجماز إلا أنه لم يتمكن من استعادة السلطة، غير أنّ مالكاً ما لبث أن سلَّم الإمارة طوعاً لعمه بعد انسحاب جيش مكة(٢).

وابتداءً من سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م بدأت العلاقات بين الطرفين في التدهور؛ فقد طمع أمير المدينة جمّاز بن شيحة في السيطرة على مكة وضمِّها لنفوذه؛ فاستعان لهذا الغرض بأحد الأشراف المناوئين لأبي نمي وهو غانم بن إدريس بن حسن بن قتادة فتمكنا من الاستيلاء على مكة وطرد أبي نمي منها، غير أنه ما لبث أن عاد بعد أربعين يوماً واستعاد سلطته(٣).

استمرت العلاقات بين الطرفين في صورتها العدائية في السنوات التالية؛ ففي سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م حاول جمّاز بن شيحة الاستيلاء على مكة مرة أخرى متحالفاً هذه المرة مع أمير ينبع إدريس بن الحسن بن قتادة الحسيني، ودار قتال بين جمّاز وحليفه من جهة وأبي نمي من جهة أخرى بمر الظهران، انهزم فيها عسكر المدينة وينبع وأسر إدريس فيما انسحب جمّاز إلى المدينة(٤).

---

(١) السمط الغالي: ص ٣١٧؛ والعقود اللؤلؤية: ج ١ ص ١١٥.

(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٦-٤٣٧؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٣.

(٣) العقد الثمين: ج ١ ص ٤٦٠- ٤٦١؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ١٠١؛ وأخبار الدول للقرماني: ج ٢ ص ٣٤٣.

(٤) العقد الثمين: ج ١ ص ٣٦١ وج ٧ ص ٤ وفيه يرى، وينقل عنه ابن فهد أنّ الذي انضم لجمّاز سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م هو غانم بن إدريس بن الحسن وليس إدريس. انظر: غاية المرام: ج ٢ ص ٤٨. أما ابن فهد فيشير إلى صاحب ينبع بإدريس بن الحسن، إتحاف الورى: ج ٣ ص ١٠٥.

بعد تلك المعركة خيَّم الهدوء على العلاقات بين الجانبين وأحجم كل منهما عن مهاجمة الآخر، وقد أدَّى انشغال الظاهر بيبرس بمحاربة المغول وحلفائهم من سلاجقة الروم إلى اضطراب الأوضاع في الحجاز وحدوث صراعات بين أشرافها[١]. غير أنّ السلطنة المملوكية حاولت توطيد نفوذها في الحجاز بمحاولة ضرب الأشراف أمراء المدينة ومكة بعضهم ببعض، فقد أغضب السلطان المملوكي المنصور قلاوون الصالحي عدم وفاء أبي نمي باليمين الذي قطعه على نفسه سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م بالولاء والطاعة والإخلاص للسلطنة المملوكية، كما أحسَّ أنّ أبا نمي يطمح لتحقيق الاستقلال عن السلطنة، لهذا وافق على طلب أمير المدينة جمّاز بن شيحة بمحاربة أمير مكة، فسيّر معه سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م جيشاً إليها حيث انتزعها منه فحقق بذلك أمير المدينة ما يطمح إليه من السيادة على مكة، وخطب للسلطان فيها، وضُربت السكة باسمه، غير أنه ما لبث أن تركها بعد ما بلغه من المراسلات السرية بين قائد العسكر المملوكي وأبي نمي[٢].

يتضح من تطور الأحداث بعد استيلاء جماز والعسكر المملوكي على مكة أنّ السلطان المملوكي كان يهدف من تلك الحملة إلى تدعيم نفوذ السلطنة المملوكية بالحجاز دون المساس بسلطة أبي نمي، فقد أشار الفاسي إلى هذه النقطة بقوله: «ويبعد جداً أن يعيِّن أحداً على أبي نمي مع وفاء أبي نمي باليمين المذكورة؛ لأنّ الملوك تقنع من نوابهم بالطاعة، وإظهار الحرمة، سيما نوّاب الحجاز»[٣]، أما أمير المدينة فقد حقق بعض أهدافه المتمثلة في مدِّ نفوذه إلى مكة ولو إلى حين.

---

(١) السلوك: ج ١ ص ٥٨٣-٤٦٢؛ والأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ريتشاد مورتيل: ص ٥٨.

(٢) الدرر الكامنة: ج ١ ص ٧٥؛ والعقد الثمين: ج ١ ص ٤٦٢؛ والدليل الشافي على المنهل الصافي: ج ١ ص ٢٥٠؛ وغاية المرام: ج ٢ ص ١٧؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ١١٨-١١٩؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٤. وذكر الفاسي في العقد الثمين أنه خطب لجمّاز بمكة وضربت السكة باسمه، وهذا وهم منه؛ حيث إنّ ابن حجر ذكر أنّ الخطبة والسكة كانت باسم السلطان المملوكي.

(٣) العقد الثمين: ج ١ ص ٢١٢.

ظلّت العلاقات بعد ذلك بين الطرفين هادئة ومستقرة حتى وفاة كلٍّ من أمير مكة أبي نمي سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م[١] وأمير المدينة جمّاز سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م[٢].

وفي خلال الصراع بين أبناء أبي نمي حميضة ورميثة من جهة، وأبي الغيث وعطيفة من جهة أخرى[٣]، وما ذُكر عن سوء معاملة الحُجّاج والمجاورين من جانب أمراء مكة؛ أرسل السلطان المملوكي الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م جيشاً لعزل حميضة ورميثة وإحلال أخيهما أبي الغيث مكانهما، واستعان خلال حملته بخمسمائة فارس أرسلهم أمير المدينة منصور بن جماز بن شيحة[٤]، واستطاع الجيش المملوكي الاستيلاء على مكة بعد خروج أميريها إلى حلي بن يعقوب[٥] ثم عاد حميضة

---

(١) العقد الثمين: ج ١ ص ٤٧٠-٤٧١.

(٢) العقد الثمين: ج ٤ ص ٢٣٢-٢٣٣؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ١٣٨-١٤٣.

(٣) العقد الثمين: ج ١ ص ٢١٢.

(٤) العقود اللؤلؤية: ج ١ ص ٤٠٧؛ والعقد الثمين: ج ٤ ص ٤٠٦؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ١٥٠-١٥١.

(٥) مدينة ساحلية تقع في تهامة وهي عاصمة وادي حلي تقع حالياً إلى الشمال الشرقي من مدينة مخشوش وإلى الجنوب من منطقة الصلب، وهي تتوسط قرى وادي حلي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص ٨٥؛ ومعجم البلدان: ج ٢ ص ٢٩٧. زارها الرحالة ابن بطوطة ووصفها قائلًا: «وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكناً بها قديماً وهي كبيرة حسنة العمارة، يسكنها طائفتان من العرب، وهم بنو حرام وبنو كنانة. وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي، من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد، وله خلوة متصلة بالمسجد، فرشها الرمل، لا حصير بها ولا بساط، ولم أرَ بها حين لقائي له شيئاً إلا إبريق الوضوء، وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة، وصحيفة فيها ملح وسعتر فإذا جاءه أحد قدَّم بين يديه ذلك، ويسمع به أصحابه، فيأتي كل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء وإذا صلّوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ إلى صلاة المغرب وإذا صلّوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل، فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة، فإذا صلّوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون في أول الثلث الثالث إلى المسجد فيتهجدون إلى الصبح، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الإشراق، فينصرفون بعد صلاتها ومنهم من يقيم إلى أن يصلّي صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم، أبداً، ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقي عمري، ولم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه».

إلى مكة سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م فيما هرب أبو الغيث إلى أخواله من هذيل بوادي نخلة[١].

في خضم الصراع بين أشراف مكة أبناء أبي نمي على السلطة وقف السلطان المملوكي إلى جانب أبي الغيث الذي توجه بطلب مساعدة من أمير المدينة منصور بن جمّاز ضد أخيه حميضة فجهز له عسكراً من قبيلتي بني عقبة[٢] وبني مهدي[٣] وذلك في سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م[٤].

ابتداء من سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م دخلت العلاقات بين المدينة ومكة طوراً جديداً طابعها العام سلمي، فقد ورد أنّ ثقبة وعجلان ابني رميثة بن أبي نمي أميري مكة زارا المدينة وهما في طريقهما إلى مصر سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م تلبية لدعوة السلطان المملوكي الملك الناصر حسن وكان أمير المدينة في تلك الفترة سعد بن ثابت بن جمّاز[٥].

ومنذ تلك الفترة حتى أواخر القرن الثامن الهجري لم تشر المصادر إلى علاقات بين الطرفين، فقد شغل كلاهما بالنزاعات الداخلية على السلطة، غير أنه في سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م تشير بعض المصادر إلى مجيء علي بن عجلان بن رميثة[٦] أمير مكة لزيارة المدينة[٧].

---

(١) العقد الثمين: ج ٤ ص ٢٣٢ و ٢٣٣ وج ٨ ص ٨٠.

(٢) بنو عقبة قبيلة من جذام كانت تسكن شمال الحجاز من الأزلم إلى الكرك، الدرر الفرائد: ج ١ ص ٢٣٠ وج ٢ ص ٣١٨-٣٢٠؛ ومعجم قبائل المملكة العربية السعودية: ج ٢ ص ٥٤١؛ ومعجم قبائل الحجاز: ج ٢ ص ٣١٨.

(٣) بنو مهدي بطن من عروة من مالك من جهينة كانت تسكن العيص شمال الحجاز، معجم قبائل الحجاز: ج ٣ ص ٣٨٥.

(٤) إتحاف الورى: ج ٣ ص ١٥٢-١٥٣.

(٥) نصيحة المشاور: ص ٢٥٧-٢٥٨؛ والعقد الثمين: ج ٦ ص ٦٢-٦٣؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٦) ولي أمر مكة منفرداً دون شريك ثماني سنين من سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م بعد عزل عنان بن مغامس، العقد الثمين: ج ٦ ص ٢٠٦.

(٧) العقد الثمين: ج ٦ ص ٢٠٩-٢١٠.

وفي أوائل القرن التاسع الهجري حدث تطور مهم له أبعاده في طبيعة العلاقة بين المدينة ومكة؛ ففي شهر ربيع الأول سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م عمد السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق إلى توسيع سلطة الشريف حسن بن عجلان[١] أمير مكة فضم إلى حكمه المدينة وخليص والصفراء وأعمالها، فيما ظل أبناء بركات وأحمد يليان إمارة مكة بصفتهما نائبين عن أبيهما بها[٢].

ويتضح من ذلك أنّ السلطان المملوكي أراد حصر السلطة في الحجاز في يد أمير واحد من الأشراف يسهل التعامل معه ويوطد في ذات الوقت نفوذ السلطة المملوكية في الحجاز، كما أضاف هذا القرار نفوذاً وهيبة لسلطة شريف مكة أصبح من خلالها يمارس سلطة وتأثيراً على بقية الحجاز، وقد أتيحت له فرصة ممارسة نفوذه في المدينة حين أصدر السلطان المملوكي فرج بن برقوق أمراً بعزل جمّاز بن هبة أوائل ٨١١هـ/ ١٤٠٨م وتولية ثابت بن نعير[٣]، غير أنّ ثابت توفي قبل أن يصله التقليد السلطاني مما أتاح الفرصة للحسن بن عجلان أمير مكة لفرض نفوذه السياسي على المدينة فاستدعى عجلان بن نعير أخا ثابت وفوَّض إليه إمرة المدينة، وكان جمّاز بن هبة الأمير السابق في المدينة حين صدر القرار ثار وقام بالاستيلاء

---

(١) تولّى حسن بن عجلان إمارة مكة ونيابة السلطنة لفترات متفرقة ابتداء من (٧٩٧-٨٢٩هـ/ ١٣٩٤-١٤٢٦م) وكانت مدة إمارته اثنتين وثلاثين سنة تقريباً، العقد الثمين: ج ٤ ص ٨٦-٨٧؛ وإنباء الغمر: ج ٨ ص ١١٢؛ والضوء اللامع: ج ٣ ص ١٠٤.

(٢) العقد الثمين: ج ٤ ص ١٠٥؛ والسلوك: ج ٤ ص ٧٦؛ والنجوم الزاهرة: ج ١٥ ص ١٣٥ ومن الجدير بالذكر أنّ ينبع لم تذكر ضمن المنطق الداخلة تحت سلطته.

(٣) حدث نزاع بين أشراف المدينة أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجريين، فقد تولّى مثلاً جمّاز بن هبة الإمارة في المدينة عدة مرّات في خضم صراعه مع أبناء عمومته ومن بينهم نعير بن منصور ومحمد بن عطية بن منصور بن جماز وثابت بن نعير، مما جعل السلطنة المملوكية تسند أمر المدينة المنورة للشريف حسن بن عجلان، إنباء الغمر: ج ٢ ص ٧٣؛ النجوم الزاهرة: ج ١٣ ص ١٧٣؛ العقد الثمين: ج ٤ ص ١٠٥؛ السلوك: ج ٤ ص ٧٥؛ التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٧-٤٢٨. أما ثابت بن نعير بن منصور بن جمّاز فقد تولى إمرة المدينة للمرة الأولى ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، انظر: النجوم الزاهرة: ج ١٣ ص ١٨٣؛ والضوء اللامع: ج ٣ ص ٥٠.

على محتويات المسجد النبوي[١].

لقد أثبت الحسن بن عجلان قدرته على مواجهة هذا الموقف بإرسال قوتين عسكريتين إلى المدينة إحداهما بقيادة ابنه أحمد والأخرى بقيادة الأمير الجديد عجلان بن نعير، الذي سلك طريقاً إلى الشرق من المدينة حتى يقوم بحركة التفاف دون أن يشعر به جمّاز، وحينما وصل الجيشان إلى المدينة في جمادى الأولى ٨١١هـ/ ١٤٠٨م وجدا أنّ جمّازاً قد خرج منها هارباً فاستقر عجلان بن نعير في منصب الإمارة، وخُطب فيها للسلطان المملوكي فرج بن برقوق ثم لنائب السلطنة حسن بن عجلان ولأمير المدينة عجلان بن نعير[٢].

أكسب هذا التصرف الذي قام به نائب السلطنة احترام السلطان المملوكي له، فالسلطنة المملوكية يهمها في المقام الأول استقرار الأوضاع في الحجاز والولاء والطاعة للسلطنة، وقد لقي تعيين عجلان بن نعير موافقة السلطان المملوكي الذي أصدر تقليداً بإمرة المدينة له، واشترط أن يلقى تعيينه موافقة نائب السلطنة[٣]، وهذا الشرط يدل على مدى الثقة التي أولاها السلطان المملوكي لشريف مكة.

ورغم ما ساد مكة من اضطراب نتيجة عزل السلطنة المملوكية للشريف حسن عن نيابة السلطنة أكثر من مرة عام ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م، ثم عودته، ثم عزله عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، وعودته، في ٨١٩هـ/ ١٤١٦م.. فقد ظلت العلاقات بين المدينة ومكة ودية، وارتبط أمير عجلان بن نعير بعلاقة تحالف مع أمير مكة[٤].

وقد أكسب هذا التحالف الشريف عجلان بن نعير مكانة لدى أشراف مكة؛ فاستطاع حل الخلاف بين أمير مكة حسن بن عجلان وابن أخيه رميثة بن محمد

---

(١) العقد الثمين: ج ٤ ص ١٠٦؛ والسلوك: ج ٤ ص ٧٦؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٦٣-٤٦٥.
(٢) العقد الثمين: ج ٤ ص ١٠٦؛ والسلوك: ج ٤ ص ٧٦؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٦٣.
(٣) النجوم الزاهرة: ج ٣ ص ١٧٢؛ التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٩٦؛ الضوء اللامع: ج ٣ ص ٥٠.
(٤) العقد الثمين: ج ٤ ص ص ١٠٧-١٠٨؛ وشفاء الغرام: ج ٢ ص ٢٥٣؛ والسلوك: ج ٤ ص ٣٤١-٣٤٢؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٧١؛ والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٦-١٧٧.

الذي كان قد هرب للمدينة وطلب من أميرها التوسط لدى عمه حتى يعفو عنه، وقد نجحت وساطته في عودته لمكة[١]. ويبدو أنّ العلاقات قد ظلت طيبة بين المدينة ومكة حتى عُزل الشريف عجلان بن نعير عن إمارة المدينة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م[٢]، ووفاة الشريف حسن بن عجلان في نفس العام[٣].

وفي سنة ٨٤٢/ ١٤٣٨م، في عهد إمارة إميان بن مانع على المدينة، كانت العلاقات بين الطرفين ودية حيث قام الشريف بركات بزيارة للمدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ والمسجد النبوي[٤]. غير أنّ هذه العلاقات تدهورت أواخر القرن التاسع الهجري حين تدخل شريف مكة محمد بن بركات في شؤون المدينة سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م فقام بأمر من السلطان قايتباي بعزل ضيغم بن خشرم عن الإمارة وعين بدلاً منه قسيطل بن زهير بن سليمان بن هبة[٥].

وقد ازداد نفوذ أمير مكة قوة بعد أن منحه السلطان المملوكي قايتباي سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م سلطات في حكم الحجاز كلها فأصبح من حقه تولية جميع المناصب في الحجاز.

وقد مارس الشريف محمد بن بركات هذا التفويض في ذلك العام بعزل قسيطل وتعيين زبيري في إمارة إمرة المدينة؛ بعد عقود مجالس ومشاورة أهل المدينة في ولايته أو ولاية قسيطل ثم وقع الاختيار على زبيري[٦].

---

(١) العقد الثمين: ج ٤ ص ١٤٥؛ وإنباء الغمر: ج ٨ ص ١١٢-١١٣؛ وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٧١.

(٢) العقد الثمين: ج ٤ ص ١٥٢؛ والسلوك: ج ٤ ص ٧٠٦.

(٣) في يوم الخميس ١١ شوال ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م سافر الشريف بركات من القاهرة إلى مكة أميراً عليها مكان والده الشريف حسن بن عجلان، النجوم الزاهرة: ج ١٤ ص ٣٠٤.

(٤) إتحاف الورى: ج ٤ ص ١٢٦-١٢٧.

(٥) إتحاف الورى: ج ٤ ص ٦٣٥-٦٣٦؛ وغاية المرام: ج ٢ ص ٥٣٠-٥٣١؛ والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٢-٢٥٣؛ والضوء اللامع: ج ٤ ص ٢.

(٦) غاية المرام: ج ٢ ص ٥٣٧-٥٣٨.

وقد مُنح الشريف محمد بن بركات عدة ألقاب لم يمنحها أحد من أشراف مكة منذ سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م؛ فهو سلطان مكة وسلطان الحجاز ثم لقب نائب السلطنة بالأقطار الحجازية، وقد دعي له على منبر المدينة[١].

وفي أواخر العصر المملوكي صدر تفويض من جانب السلطان المملوكي محمد بن قايتباي للشريف بركات بن محمد بن بركات بولاية مكة وأعمالها وجميع الحجاز بمرسوم صدر سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م مقابل مبلغ من المال يدفعه للسلطان[٢].

وفي سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م أصدر السلطان الغوري مرسوماً كلفه بالنظر في أمر تعيين أمير جديد للمدينة بالتعاون مع قضاة المدينة وشيخ الحرم النبوي، فأرسل أمير مكة في رجب من ذلك العام ابنه السيد أبا نمي والشريف عراراً وقاضي القضاة الشافعي الصلاحي بن ظهيرة للمدينة، فاجتمعوا بشيخ الحرم شاهين والقضاة، واتفقوا على تولية ثابت بن ضيغم، ثم عادوا إلى مكة[٣]، كما قام الشريف محمد بن بركات بزيارة المدينة عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م وفرق تسعمائة دينار ذهب على أهلها[٤].

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨٠-٨١؛ والضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٣٢-٢٣٣.
(٢) غاية المرام: ج ٣ ص ٧٣.
(٣) غاية المرام: ج ٣ ص ٢٨١.
(٤) غاية المرام: ج ٣ ص ٣١٨.



العلاقة بين أشراف المدينة والقبائل المجاورة

لقد قامت القبائل العربية المحيطة بالمدينة والقريبة منها بدور مهم في الأوضاع السياسية فيها، فقد تدخل بعضها لدعم الفئات المتنازعة على السلطة، كما انضم بعضها لأشراف مكة في مهاجمة المدينة، وقام بعضها الآخر بمهاجمة المدينة طمعاً في الحصول على المغانم.

وحين نتتبع نمط العلاقات القبلية مع المدينة منذ العهد الفاطمي نرى أنه من أبرز المشكلات التي واجهت أمراء المدينة ومكة كانت غارات القبائل وقطعهم طرق الحاج طمعاً في النهب والسلب.

ومن أبرز الطرق التي تعرضت لتلك الغارات: طرق الحج المصري والشامي والعراقي، كما تعرض الطريق بين مكة والمدينة لغارات القبائل؛ ففي عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م خرجت قبيلة «زعب[١] ومن انضم إليها على الحجاج بالغرابي بين مكة والمدينة فأخذوهم ولم يسلم إلا القليل»[٢].

وفي العصر الأيوبي تعرضت المدينة لهجوم قبلي كبير عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م تحت قيادة قبيلة زعب أيضاً، منتهزين فرصة وجود أميرها جماز بن قاسم بن مهنا الحسيني في الشام فهاجموها في جمادى الآخرة من ذلك العام بقصد السلب

---

(١) زعب بطن من قبيلة سليم، معجم قبائل المملكة: ق ١ ص ٣١٠؛ المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: ج ١ ص ٥٩.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ١١ ص ١٤٨-١٤٩.

والنهب، فخرج إليهم أخوه هاشم -الذي كان نائبه على المدينة- وقاتلهم فقتل في تلك المعركة، غير أنّ ابن الأثير لم يحدد نتيجة المعركة وهل دخلت الأعراب المدينة[١].

وفي ظل الصراع بين بعض أمراء المدينة والقبائل اغتيل أحد أمرائهم وهو قاسم بن جماز على يد قبيلة بني لام سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م[٢].

كما اغتال بنو لام أيضاً أمير المدينة شيحة بن هاشم بن قاسم سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م[٣].

في أوائل العصر المملوكي حاول السلطان المملوكي الظاهر بيبرس استخراج الزكاة من سائر الجهات،، فأرسل إلى الحجاز سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م الأمير شكال بن محمد الذي طلب الدعم والمساندة من أمير المدينة جماز بن شيحة فلم يستجب له، فاتجه إلى بني خالد لدعمه في استخراجها من قبائل الحجاز فلم يستجيبوا له مما حدا به إلى أن يطلب من السلطان إعفاءه من منصبه[٤].

وفي سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م حاول أمير المدينة جماز بن شيحة استعادة سلطته التي فقدها على يد ابن أخيه مالك بن منيف بن شيحة؛ فاستعان لذلك بصاحب مكة محمد أبي نمي وببعض القبائل غير أن تلك المساندة لم تفلح في إعادته، وبعد

(١) الكامل في التاريخ: ج ١٢ ص ١١٠.

(٢) نصيحة المشاور: ص ٢٤٧؛ والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٩.

(٣) نصيحة المشاور: ص ٢٤٧؛ وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي: ج ٢ ص ٢٧-٢٨؛ والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٢٧، ذكر أنّ الأمير شيحة كان في طريقه إلى العراق مع عدد قليل من رجاله لزيارة الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، غير أني لم أجد لزيارته للخليفة ما يسنده من المصادر التاريخية.

(٤) السلوك: ج ١ ص ٥٥٨؛ وعقد الجمان: ج ١ ص ٤٢٨-٤٢٩، يذكر الرواية بطريقة مختلفة فيتحدث عن وقوعها سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م وأنّ مندوب السلطان «ذهب لبني خالد ليستعين بهم على محاربة أمير المدينة، وأنّ جمازاً بعد أن علم بذلك رضخ وأذعن للقيام بحقوق الله واستخرجها من قومه».

انسحاب حلفائه تنازل مالك لعمه عن الإمارة طواعية كما أسلفنا[١].

وقد تعرضت المدينة لهجمات بعض القبائل التي ساندت بعض الأشراف، ففي عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م ساندت القبائل طفيل بن منصور الذي عزل ابن عمه سعد بن ثابت بن جماز، فانتقم طفيل بأن هاجم المدينة بمساندة تلك القبائل ونهبها كما نهب ما كان بها للحجاج[٢].

في سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م تعرضت القبائل القاطنة شمال المدنية للحجاج وقطعت عليهم الطريق ونهبتهم كما قتلت أعداداً منهم[٣].

وفي ظل الصراع على الإمارة بالمدينة عُزل جماز بن هبة بن جماز بن منصور من منصبه سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م بعد أن تولى الإمارة عدة مرات فانتقم بأن أخذ حاصل المدينة وخرج إلى البرية فتعرضت له قبيلة مطير[٤] واغتالته سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م[٥].

وقد استعانت السلطنة المملوكية ببعض القبائل التي لم تُذكر أسماؤها ضد أمراء مكة والمدينة، فقد أرسل السلطان المملوكي جقمق عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٣م

---

(١) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٦-٤٣٧؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٣؛ وغاية المرام: ج ٢ ص ٤٩-٥٠.

(٢) نصيحة المشاور: ص ٢٥٥-٢٥٦، حيث وصف تلك الحادثة وصفاً تفصيلياً لأنه معاصر لها وشاهد عيان، غير أنه لم يشر إلى أسماء تلك القبائل بل ذكر الصعاليك من أهل المدينة والخيابرة التي تبعت القبائل في نهب المدينة؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١١٢٥؛ والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٣٢٤-٣٢٥؛ والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٣) السلوك: ج ٣ ص ٢٥٧، وكان التعرض للحجاج على طريق الحج الشامي؛ بدائع الزهور: ج ١ ق ٢ ص ١٦١.

(٤) تقع الديار الأصلية لقبيلة مطير بالقرب من المدينة وبلادهم حالياً منتشرة في عالية نجد ووسطها وشرق الدهناء، الدرر والفرائد: ج ١ ص ٢٣٠، ومعجم قبائل المملكة العربية السعودية: ج ٢ ص ٧٨٠.

(٥) السلوك: ج ٤ ص ١٢٩؛ والضوء اللامع: ج ٣ ص ٧٨؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٧-٤٢٨؛ ووفاء الوفاء: ج ٢ ص ٥٨٧.

إلى جماعة من عرب نجد يطلبهم إلى القاهرة «ليولي كبيرهم إمرة المدينة لكونهم من أهل السنة قمعاً للرافضة وأن يمشوا إلى مكة والمدينة ليخلصوا أهلها من الشيعة والرافضة»[١].

ويتضح من النص السابق أنّ السلطان المملوكي قد بدأ عهده بمحاولة التخلص من أمراء المدينة من الإمامية وأمراء مكة الزيدية المخالفين له في المذهب، عن طريق بعض قبائل نجد المناهضين لهم، غير أنّ محاولته لم يكتب لها النجاح نظراً لتدخل بعض أهل النفوذ في دولته لصالح أمراء مكة والمدينة، فقد أشار السخاوي إلى ذلك بقوله: «لكن لم يتم له ما رامه لغرض بعض أهل الدولة»[٢] وربما يشير بذلك إلى مصالح بعض حاشيته في عدم عزلهم أو مناهضتهم.

في عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م تعرضت قبيلة بلي[٣] لقافلة يتقدمها أحد الأشراف كانت متجهة من المدينة إلى جدة، فأخذت ثيابهم وأمتعتهم وأحمالهم[٤].

ورغم ذلك، فإنه بالنسبة للقبائل المجاورة تعد المدينة سوقا لهذه القبائل ترتاده للبيع والشراء وبخاصة شراء المواد الغذائية والملابس والأسلحة.

---

(١) عقد الجمان (حوادث وتراجم): ص ٥٨٣؛ وحوادث الدهور: ج ١ ص ٧٥؛ والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي: ص ٤٤.

(٢) التبر المسبوك: ص ٤٤.

(٣) «بلي» النسبة إليها «بلوي» تنتشر بلادها في شمال الحجاز حول الوجه ممتدة شرقاً إلى العلا ونواحيها، معجم قبائل المملكة: ج ١ ص ٥٣.

(٤) بلوغ المرام، لابن فهد: ص ٢٨ حوادث (٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م) وكانت القافلة قد خرجت من المدينة في شهر رجب مقدمها محمد قاوان الشريف إسحاق العجمي الذي كان قدم من القاهرة عبر البحر إلى جدة في شهر جمادى الثانية ثم اتجه من هناك إلى المدينة.

القسم الأول

أمراء الشيعة الأشراف في المدينة المنورة



القرن الثالث..

محمد بن الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم

قال شيخ الشرف العبيدلي: هو المليط[١] الثائر بالمدينة[٢].

وقال أبو الحسن العمري: قتل ثمانية من بني جعفر الطيار[٣].

وقال القاضي التنوخي في كتاب (نشوار المحاضرة): كان بدوياً ينزل أُثال وهو منزل في طريق مكة[٤].

وكان موصوفاً بالشجاعة البارعة والفروسية الحسنة، ورد بغداد في أيام نقابة أبي عبد الله بن الداعي، وكان قديماً يتعرض للحاج، ويطالبهم بالخفارة فإن أعطوه وإلا أغار عليهم، وكان صاحب طرق بتلك النواحي؛ لا تناله يد، ولا يتسلط عليه سلطان، إلا أنه لم يدعُ إلى مذهب ولا ادَّعى إمامة، ثم تاب عن هذا الفعل، ودخل

(١) المليط، كأمير. انظر: لسان العرب: ج ١٠ ص ٤٢٢.
(٢) المجدي في أنساب الطالبيين: ص ١٠٩؛ عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ص ٢١٩.
(٣) المجدي في أنساب الطالبيين: ص ١٠٩؛ عمدة الطالب: ص ٢١٩.
(٤) عمدة الطالب: ص ٢١٩.

الحضرة، وطرح نفسه على أبي عبد الله بن الداعي، وسأله مسألة معز الدولة في تقليد إمرة الموسم من مدينة السلام إلى الحرم، وإقامة الحج، فأوجب ابن الداعي قصده إياه وذمامه، وسأل معز الدولة فقال له: أنا أقلدك ذلك، وأسأل الخليفة أن يعقد لك عليه ويخلع عليك، فإن شئت فاستخلف أنت هذا الرجل، فأنا لا أعرف هذا، وهو رجل من أهل البادية وبالأمس كان لصاً، فإن جنى جناية على القافلة إلى أي شيء نرجع منه؟

فقال أبو عبد الله بن الداعي: أما أنا فلا أتقلّد هذا فإن رأى الأمير أن يجيب شفاعتي ويقلّد الرجل، وأنا أضمن له دركه وجناياته، فقلَّده ذلك صارفاً لأبي عبد الله العلوي الكوفي، وعقد له، وخلع عليه، وحجَّ في تلك السنة، وأقام الحجَّ على أحسن حال وآمن مما يخاف، وما حمد الحُجّاج والياً كما حمدوه قبله ولا بعده سنين[1].

وحكى القاضي أبو المحسن بن علي بن محمد التنوخي في كتابه المذكور: أنّ رجلًا كان يعرف بأبي الحسين بن شاذان بن رستم السيرافي الفارسي، وكان يكاشف بالإلحاد إذا أمن على نفسه ويظهر الإسلام، فخرج متجراً على الموسم وأظهر أنه يريد الحج، فاعترض تلك السنة المليط القافلة، ومنع الناس من السير إلا بخفارة ومنعه أمير القافلة من ذلك، فهمَّ بالغارة عليها وتحدَّث الناس بذلك، فقال ابن شاذان لأمير القافلة: أرسلني إليه برسالتك. وكان يعرفه طيباً.

فقال له: أي شيء تقول له؟

قال: أمضي وأقول له: يا هذا نحن قوم من فارس وغيرها من البلدان، لا نسب لنا في العرب ولا رغبة، فجاء أبوك إلينا، فضرب أدمغتنا بالسيوف، وقال: تعالوا حُجّوا هذا البيت؛ فقلنا له السمع والطاعة، وجئنا على أن نحجَّ إليه؛ جئت أنت الآن وقلت لا أدعكم إلا بدراهم لا تجب فإن لم تطيعوني لا أمكّنكم إن كان قد بدا لكم

(١) عمدة الطالب: ص ٢١٩.

فالله أقالكم، ونحن أيضاً قد بدا لنا فنرجع من حيث جئناك.

فضحك منه، وقال: هذا إن سمعه العلوي منك قتلك. وأنفذ غيره في الرسالة واصطلحا وسار الناس إلى حجهم.

ومن هذا المليط رهط المايطية والملطة أيضاً[1]، قال ابن طباطبا: فمن ولد محمد الثائر أبو جعفر محمد المليط بن محمد أبي عبد الله بن محمد المليط بن الحسن بن جعفر بن الكاظم عليه السلام[2].

قال ابنه عنبه: «وعندي أنّ الحكاية التى حكاها التنوخي عن هذا أبي جعفر محمد المليط بن محمد بن محمد المليط الكبير، فإنّ الأول كان متقدماً على زمن ابن الداعي وكان بالمدينة وثار بها وقتل جماعة من بني جعفر أيام الفتنة وكاتبوا في عزله عنها، والثاني قبره ببغداد.

قال ابن طباطبا: والملطة لهم عدد وانتشار، ومنهم فرسان حمزة، ومنهم بالبصرة طائفة لهم قوة وشوكة شديدة. وأكثر الملطة اليوم بالحجاز، ومنهم بالعراق قوم[3].

إسحاق بن محمد بن يوسف الجعفري

إسحاق بن محمد بن يوسف بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة ووادي القُرى ونواحيها؛ في سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م، في خلافة المعتمد[4].

(١) المجدي في أنساب الطالبيين: ص ١٠٩؛ عمدة الطالب: ص ٢٢٠.
(٢) عمدة الطالب: ص ٢٢٠.
(٣) عمدة الطالب: ص ٢٢٠-٢٢١.
(٤) تاريخ الطبري: ج ٩ ص ٥٥٢.

وفي حوادث سنة ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م، قال الطبري: «وفيها كانت فتنة بالمدينة ونواحيها بين الجعفرية والعلوية، وكان سبب ذلك أنّ القيّم بأمر المدينة ووادي القُرى[١] ونواحيها؛ كان في هذه السنة إسحاق بن محمد بن يوسف الجعفري، فولّى وادي القُرى عاملاً من قبله، فوثب أهل وادي القُرى على عامل إسحاق بن محمد، فقتلوه، وقتلوا أخوين لإسحاق، فخرج إسحاق إلى وادي القُرى، فمرض به ومات، فقام بأمر المدينة أخوه موسى بن محمد»[٢].

وأعتقد أنّ الحادثة جرت فيما بعد سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م.

وترجم له صاحب المجدي: «إسحاق بن محمد.. أمير المدينة، كان جليلاً، وقد وقعت بينه وبين بني علي الفتنة العظيمة[٣]. وأمه فزارية، بدرية، ومن ولد الأمير عبد الله بن الأمير إدريس...»[٤].

وهو الذي بنى سور المدينة، وله بقية بوادي القرى[٥].

وقد حدَّد صاحب موسوعة العتبات المقدسة: أنه جدَّد سور المدينة في حوالي سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م، وسُمِّي -تصحيفاً- إسحاق بن محمد الجعدي[٦].

لكنّ الذهبي، في تاريخ الإسلام، ذكر في أحداث سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م: «وفيها خرج بالمدينة إسحاق بن محمد الطالبي الجعفري، فقتل أمير المدينة الفضل بن

---

(١) ويعرف اليوم بوادي العُلا: مدينة عامرة شمال المدينة المنورة، على قرابة ٣٥٠ كيلومتر، كثيرة المياه والزرع، وتمرّ في هذا الوادي سكة حديد الحجاز المعطّلة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٥ ص ٥٢٥؛ أعيان الشيعة: ج ٣ ص ٢٧٩.

(٣) قال: أبو الغنائم الحسني، قال ابن خداع أبو القاسم النسابة: «ضرب محمد ابن يحيى إسحاق بن محمد بن يوسف الجعفري -أمير المدينة- بالعصا مبطوحاً وحسبه؛ فلأجله كانت الفتنة بين بني علي وبني جعفر». انظر: المجدي في أنساب الطالبيين: ص ١٦٢.

(٤) المجدي: ص ٣٠٣.

(٥) تهذيب الأنساب: ص ٣٢٥؛ وعمدة الطالب: ص ٤٣.

(٦) موسوعة العتبات المقدسة (قسم المدينة): ص ٣٣.

العباس بن حسن العباسي، عاث وأفسد وخرَّب المدينة، وعلى هذا فولايته على المدينة كانت سنة ٢٧١هـ»[١].

الحسن بن الإمام موسى الكاظم

الحسن بن موسى (الكاظم) بن جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٢].

أمير المدينة المنورة في خلافة المعتمد سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م[٣].

له من الأولاد: محمد، علي، جعفر[٤].

استولى على المدينة سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م؛ عندما مات أميرها إسحاق بن محمد بن يوسف، وولي أخوه موسى بن محمد بن يوسف، فأرضاه موسى بن محمد بن يوسف بثمانمائة دينار[٥].

وعلى هذا الأساس فإنّ الحسن هذا باع الإمارة مقابل ثمانمائة دينار. إلى موسى بن محمد بن موسى شقيق أمير المدينة السابق، وعلى هذا أيضاً فإنّ مدة ولاية الحسن كانت قصيرة.

قال ابن عنبه: «والعقب من الحسن بن موسى الكاظم عليه السلام، وهم قليل جداً؛ لا أعرف منهم أ حداً، وربما كانوا قد انقرضوا. وقد عدَّ الشيخ أبو نصر البخاري الحسنَ بنَ موسى من الخلَّص من الموسوية، الذين لا نجد أحداً يشك فيهم.. وقال

(١) تاريخ الإسلام: ج ٢٠ ص ٢٢١-٢٢٢.
(٢) عمدة الطالب: ص ١٩٤، والفخري في النسب: ص ١٨.
(٣) تاريخ الطبري: ج ٩ ص ٥٥٢.
(٤) عمدة الطالب: ص ١٩٤، والفخري في النسب: ص ١٨.
(٥) تاريخ الطبري: ج ٩ ص ٥٥٢.

ابن طباطبا وأبو الحسن العمري: أعقب الحسن بن موسى من جعفر وحده»[١].

موسى بن محمد بن يوسف الجعفري

من سلالة جعفر بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في خلافة المعتمد، في سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م وما بعدها[٢].

ولي إمارة المدينة بعد وفاة شقيقه إسحاق بن محمد بن يوسف في وادي القُرى، فخرج عليه الحسن بن موسى بن جعفر، فأرضاه بثمانمائة دينار، ثم خرج عليه أبو القاسم أحمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد، ابن عم الحسن بن زيد صاحب طبرستان، فقتل أبو القاسم أحمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد، ابن عمّ الحسن بن زيد صاحب طبرستان، فقتل موسى وغلب على المدينة »[٣]، وليس واضحاً لنا تاريخ مقتل موسى بن محمد هذا.

ولا ندري تاريخ مقتل المذكور وولاية أحمد بن إسماعيل، ولكن استناداً إلى ما ذكره الذهبي من أنَّ: محمد بن إسحاق استولى على المدينة بعد مقتل أميرها الفضل بن العباس في سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م، فيكون بعد ذلك التاريخ، والذي أراه من خلال السياق فإنّ الحسن بن موسى بن جعفر قد استولى على المدينة بعد موت أميرها إسحاق بن محمد بن يوسف، وتسلَّم الإمارة، ولكنه عاد وتنازل عنها إلى أخيه موسى بن محمد بن يوسف مقابل ثمانمائة دينار.

---

(١) عمدة الطالب: ص ٢٣٢. وانظر: الشجرة المباركة في أنساب الطالبية، فخر الدين الرازي: ص ٩٢؛ المجدي في أنساب الطالبيين: ص ١٢١-١٢٢.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٩ ص ٥٥٢؛ أعيان الشيعة: ج ١٠ ص ١٩٥؛ مقاتل الطالبيين: ص ٧٢٠.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٩ ص ٥٥٢.

الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم

الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

قال ابن عنبة: «والعقب من جعفر بن موسى الكاظم عليه السلام، ويقال له الخواري، ويقال لولده الخواريون والشجريون أيضاً؛ لأنّ أكثرهم بادية حول المدينة يرعون الشجر، في رجلين موسى والحسن»[١].

أمير المدينة المنورة في خلافة المعتضد العباسي (٢٧٩هـ - ٢٨٩هـ/ ٨٩٢م - ٩٠٢م) استيلاءً.

ذكر في حاشية لباب الأنساب هو الحسن الثائر بالمدينة، خرج هذا الثائر أيام المعتضد، وغلب على المدينة ثم قُتل في اليمامة، وذكر أنه ليس له عقب[٢].

ونسبه الصحيح عند العمري: وولد جعفر بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو لأم وُلِدَ ثمانية نسوة وهن: عباسة، حسنة، عائشة، فاطمة الكبرى، وفاطمة، وأسماء وزينب، وأم جعفر، والرجال ستة لم نذكر لهم ولداً وهم الحسين، ومحمد، وجعفر، ومحمد الأصغر، والعباس، وهارون، وثلاثة أعقبوا: الحسن، الحسين الأكبر وموسى[٣].

ونسبه الصحيح عند صاحب الفخري: وأما جعفر بن موسى الكاظم، فعقبه من رجلين: موسى اللحق بالحجاز والحسن الثائر بالمدينة[٤].

ونسبه الصحيح في عمدة الطالب: والعقب من جعفر بن موسى الكاظم.. في

(١) عمدة الطالب: ص ٢١٨.
(٢) لباب الأنساب: ص ٤٤٠.
(٣) المجدي في النسب: ص ١٠٩.
(٤) الفخري في النسب: ص ١٨.

رجلين موسى والحسن.. وأعقب الحسن بن جعفر بن موسى كاظم.. من رجلين أحدهما محمد المليط الثائر بالمدينة.. [١]

فنحن أمام رواية منفردة، أنه ثار بالمدينة، وغلب عليها، وقُتل باليمامة دون التأكد من مصدر آخر. ونرجّح ذلك من خلال الطريقة التي تعامل ابناه بها عندما ثارا مرة أخرى بالمدينة واستوليا عليها ولعله ثأراً لأبيهما؟[٢].

ولعله ما ورد عند الطبري في ترجمة الفضل بن العباس الإسترآباذي: «وقد ولي المدينة المنورة في سنة ٢٦٩هـ، حيث ورد ذكره في وقعة بين الحسينيين والحسنيين والجعفريين، فقُتل من الجعفريين نفرٌ، وعلا الجعفريون، فتخلصوا الفضل بن العباس العامل على المدينة»[٣].

وصاحب الترجمة هذا جعفريٌّ، وهو الذي عاد وتخلص من والي المدينة بثورة جديدة، ولم تصلنا معلومات عنه وعن طبيعة هذه الثورة أيضاً، وعن مدة إقامته بالمدينة بعد الاستيلاء عليها.

ولكني أرجح أنّ ولاية المذكور كانت بعد مغادرة هارون بن محمد بن إسحاق الحجاز إلى مصر في حوالي سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م أو ما بعدها.

---

(١) عمدة الطالب: ص ٢١٩.
(٢) المنتظم في تاريخ الأمم: ج ١٢ ص ٢٤٣؛ تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ٣٤٤ و ج ٤ ص ١١.
(٣) تاريخ الطبري: ج ٩ ص ٦٢١.

القرن الرابع....

الحسن بن طاهر بن يحيى الحسيني

الحسن بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر الحجة بن عبيد الله بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام [(١)].

قال القلقشندي: «كانت الرياسة بالمدينة آخراً لبني الحسين بن علي. وكان منهم أبو جعفر عبيد الله بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب.

وكان من جملة ولده جعفر حجة الله، ومن ولده الحسن، ومن ولد الحسن يحيى الفقيه النسّابة، كانت له وجاهة عظيمة وفخر ظاهر، وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م، ومن ولده أبو القاسم طاهر بن يحيى، ساد أهل عصره وبنى داراً بالعقيق ونزلها، وتوفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م.

وكان من جملة ولده الحسن بن طاهر رحل إلى الإخشيد بمصر، وهو يومئذ

---

(١) م.س: ص ٢٣٢.

ملكها، فأقام عنده، وأقطعه الإخشيد[١] ما يُغِل في كل سنة مائة ألف دينار، واستقر بمصر، وكان له من الولد طاهر بن الحسن، وتوفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)»[٢].

ويتفق كل من ابن خلدون[٣] والقلقشندي[٤] أنّ المذكور خلّف ابناً اسمه محمد الملقَّب بمسلم؛ كان صديقاً لكافور الإخشيدي والي مصر، وحينما استولى الفاطميون على مصر، ووصل المعز لدين الله القاهرة، خطب من مسلم كريمته لأحد بنيه، فردَّه، فسخط عليه، واستصفى أمواله، واعتقله حتى مات، وقيل إنه فرَّ من سجنه ولحق ابنه طاهراً بالمدينة سنة ٣٦٦هـ/ ٩٨٦م فقدَّمه بنو الحسين على أنفسهم، واستقل بإمارتها سنين[٥]، وكانت وفاته سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م.

محمد بن يوسف بن جعفر

محمد بن يوسف بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي ابن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب، أبو علي.

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م[٦].

---

(١) يبدو أنه محمد بن طغج الإخشيدي حكم من (٣٢٣-٣٣٤هـ/ ٩٣٤-٩٤٦م) وفيات الأعيان: ج ٥ ص ٥٦-٦٣، سير أعلام النبلاء: ج ١٥ ص ٣٦٥-٣٦٦، الدول الإسلامية لستانلي لين بول: ج ١ ص ١٣٠ وذكر أنّ الإخشيد أرسل الحسن بن طاهر إلى سيف الدولة الحمداني حاكم حلب ليفاوضه من أجل السلام وتحديد الحدود بينهما، كما كان سفيراً بين الإخشيد وابن رائق الذي هاجم مصر سنة ٣٢٧هـ/ ٩٢٩م. انظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري آدم ميتز الجزء الأول.

(٢) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٢.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٩.

(٤) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٥) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٧.

(٦) معجم الأسرات الحاكمة: ص ١٧٧؛ مقاتل الطالبيين: ص ٧٢٠.

وكان أميراً جليلاً[١].

ورد ذكره في معجم الأسرات الإسلامية الحاكمة: «محمد بن يوسف، نسبه غير معروف، حارب القرامطة»[٢].

ولدى تدقيق الاسم في بعض المصادر المتخصصة بالأنساب، كعمدة الطالب، والفخري في النسب، جمهرة أنساب العرب، ورد ما يشير إلى ذلك:

بنو محمد بن يوسف بن جعفر.. ولي منهم إسحاق، وموسى، وجعفر إمارة المدينة[٣]. وهذا يشير إلى إمكانية ولاية المذكور للمدينة.

وورد ذكره بأنه كان أميراً على خيبر[٤]، مما يقرب الاحتمال أنه قد حارب القرامطة عند مقدمهم للمدينة سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م؛ لكون خيبر قريبة من المدينة، إلا أننا لا ندري عن نتائج محاربته القرامطة أي شيء.

ولدى تفصيل نسبه في المجدي قال: «ومنهم يوسف بن جعفر بن إبراهيم.. ومن ولده إبراهيم ومحمد، هما لأم ولد، كانا أميرين جليلين»[٥]، وهذا يشير إلى أنّ إمارته إما للمدينة أو خيبر أو الاثنتين معاً. ومن المحتمل أنّ ولايته كانت بعد محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان، وهذا بداية حكم العلويين للمدينة.

موسى بن محمد بن يوسف الجعفري

موسى بن محمد بن يوسف بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[٦].

---

(١) عمدة الطالب: ص ٤٣.
(٢) م.ن.
(٣) جمهرة أنساب العرب: ص ٨٦.
(٤) الفخري في النسب: ص ١٨٦.
(٥) المجدي: ص ٣٠٣؛ عمدة الطالب: ص ٤٧.
(٦) جمهرة أنساب العرب: ص ٦٩، الفخري في النسب: ص ١٨٦، وعمدة الطالب: ص ٤٧.

أمير المدينة المنورة فيما بعد سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م وما بعدها[١].

انفرد صاحب جمهرة أنساب العرب بولايته للمدينة المنورة، وليس لدينا من دليل على تاريخ هذه الولاية سوى ما ذكر عن والده محمد بن يوسف أنه ولي المدينة وحارب القرامطة سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م، ولكن الذي نستغربه أن يكون ولي أربعة أولاد للمدينة من أبنائه كما ذكر صاحب جمهرة أنساب العرب، وهم بالإضافة إلى موسى هذا: سليمان، جعفر، القاسم.

ومن المرجَّح أنّ المذكور وأولاده ظلّوا يحكمون المدينة حتى تسلَّمها منهم عبيدالله بن طاهر قبل سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م.

سليمان بن محمد بن يوسف الجعفري

سليمان بن محمد بن يوسف بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة ووادي القُرى[٢].

انفرد صاحب جمهرة أنساب العرب بولايته للمدينة المنورة، دون الإشارة إلى تاريخ الولاية.

جعفر بن محمد بن يوسف الجعفري

جعفر بن محمد بن يوسف بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب.

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ص ٦٩، والفخري في النسب: ص ١٨٦.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ص ٦٩، وعمدة الطالب: ص ٤٣.

أمير المدينة المنورة[١].

انفرد صاحب جمهرة أنساب العرب بولايته للمدينة، دون الإشارة إلى تاريخ الولاية، وذكره صاحب عمدة الطالب بصاحب خيبر.

القاسم بن محمد بن يوسف الجعفري

القاسم بن محمد بن يوسف بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة[٢].

انفرد صاحب جمهرة أنساب العرب بولاية المذكور للمدينة دون الإشارة إلى تاريخ الولاية.

محمد بن عبيد الله بن علي

أبو جعفر محمد بن عبيد الله بن علي (الصالح) بن عبيد الله بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٣].

الأمير بالحرمين في حوالي سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م[٤].

ذكره صاحب الفخري في النسب: محمد أبو الحسين، الأشتر، الأمير بالحرمين، ورئيس الطالبيين والنقيب بالكوفة، وأمير الحجيج، الملقَّب (بالمصهرج)[٥]، وهو

(١) جمهرة أنساب العرب: ص ٦٩، وعمدة الطالب: ص ٤٣.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ص ٦٩، وعمدة الطالب: ص ٤٣.
(٣) المجدي: ص ١٩٩، والفخري في النسب: ص ٦٧، وعمدة الطالب: ص ٣٢٢.
(٤) الفخري في النسب: ص ٦٠.
(٥) الفخري في النسب: ص ٦٧، وعمدة الطالب: ص ٣٢٣، والمجدي: ص ١٩٩. والمصهرج: الصوت الثقيل بلا تلوين ولا تنغيم

الذي مدحه المتنبي بقصيدته التي مطلعها[١]:

أهـــلاً بـــدار سبـاك أَغْـيَـدُهـا أَبـعْـدَ مـا بـان عنك خُـرَّدُهَـا

ويُلقَّب أيضاً بالأشتر، لضربة كان في وجهه ضربها إياها غلام الفدان الزيدي، وقيل إنّ الضربة أُصيب بها أثناء غزوه الكفار[٢].

وبعض أبيات القصيدة[٣]:

يُعطي فـلا مَـطْـلُـهُ يُـكـدِّرُهَـا بـهـا ولا مَـــنُّـــهُ يـنـكِّـدُهـا
خـيـرُ قُـريـش أبـاً وأمـجـدُهـا أكـثـرُهـا نـائـلاً وأجـودُهـا
أطـعـنـهـا بـالـقـنـاة أضـربُـهـا بالسيف جحجاحُها مسوِّدُها
أفـرسُـهـا فـارسـاً وأطـولُـهـا بـاعـاً ومِـغـواراً وسـيِّـدُهـا

وأعتقد أنّ ولايته للحرمين مشكوك بها؛ لأنّ النص ورد (الأمير بالحرمين) ولو كان أميراً على الحرمين لورد (أمير الحرمين)، وقد يكون أميراً للحاج، وأطلق عليه أمير الحرمين من باب الفخر أنه أمير على الحاج في الحرمين مكة والمدينة، ويعزز ذلك ما ورد في عمدة الطالب: «وأعقب عبيد الله الثاني بن علي الصالح بن عبيد الله الأعرج.. أبي جعفر محمد، فعقبه قليل لا يعرف منهم إلا أهل بيت واحد في الكوفة، يقال لهم بنو قاسم»[٤].

عبيد الله بن طاهر بن يحيى

أبو علي عبيد الله بن أبي الحسن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن عبدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٥].

---

(١) ديوان المتنبي: ج ١ ص ١٢، إكمال الكمال لابن ماكولا: ج ١ ص ٨١.
(٢) عمدة الطالب: ص ٣٢٣، والمجدي: ص ١٩٩.
(٣) ديوان المتنبي: ج ١ ص ١٢-٣٧.
(٤) عمدة الطالب: ص ٣٢٢.
(٥) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٩٩.

أمير المدينة والعقيق.

أمه فاطمة بنت حمزة بن عبيد الله الأعرج.

ورد عنه: عبيد الله بن طاهر.

وخلف أبو علي عبيد الله ثلاثة بنين: أبا جعفر مسلماً، وأبا الحسن إبراهيم ويعرف بأبي إسحاق، والأمير أبا أحمد القاسم، أمهم كلثم بنت عمه علي بن يحيى. وزاد السيد في الشجرة ابنين: أبا عبد الله الحسين، وأبا العباس مسلماً[١].

وكان أبو علي أميراً على المدينة والعقيق، وتوفي سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م[٢]، ولا ندري تاريخ ولايته للمدينة المنورة ولكني أرجح أنها كانت في بداية القرن الرابع الهجري، أو بعد موت شقيق عج بن حاج[٣] سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، أو أنه استولى على المدينة من ولاة خيبر الذين يتزعمهم موسى بن محمد بن يوسف بن جعفر وأولاده، وليست لدينا الكيفية التي تمَّ الاستيلاء فيها على المدينة..

ولهذا الكلام أهمية كبيرة؛ حيث إنّ استلام عبيد الله بن طاهر للمدينة كان بداية لحكم الحسينيين على المدينة المنورة، الذي استمر فيما بعد في نسله إلى عدة قرون حتى حوالي سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م.

مسلم بن أحمد بن محمد العقيلي

مسلم بن أحمد بن محمد بن مسلم بن عقيل بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب (أبو القاسم).

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٩٩.

(٢) الفخري في النسب: ص ٥٩.

(٣) مولى الخليفة العباسي المعتضد، ولي إمرة مكة من سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م وحتى ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م، ويحتمل أن يكون قد ولي قبل هذا التاريخ وبعده (العقد الثمين، للفاسي: ج ٦ ص ٥٨).

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٣٢٩ - ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ - ٩٤٢م[١].

كان متأدباً حسن الصورة، مات سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م، وله عقب، ويُكنى أبا القاسم[٢].

وقد ورد في المجدي في النسب: الأمير بالكوفة، مات سنة ٣٣٠ هـ/ ٩٤٢م، متأدباً، حسن الجملة، وله عقب[٣].

فنحن أمام روايتين: ولكني أرجح ما ورد في عمدة الطالب، بأنه كان يلي بالمدينة؛ لأنّ جدَّه محمد بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب ولي المدينة، وقتله ابن أبي السَّاج[٤]، ولعل هذا الخبر الذي ورد في عمدة الطالب يتوافق فيما ذكره صاحب العيون والحدائق وغيره، حيث قال: «في سنة ٣٢٩ هـ لم يوافِ أحدٌ المدينة لخروج العقيقي بها، والذي توفي في سنة ٣٣٠هـ»[٥].

ولعل ما ورد في نسبة «العقيقي» فيها بعض التحريف والتصحيف، والأرجح «العقيلي»؛ لأننا تتبعنا العقيقي في العديد من المصادر ولم نصل إلى خبر دقيق، وقد ورد في العديد من المصادر أيضاً طالبي.

وفي الكامل: «عاد الحجاج إلى العراق، ولم يصلوا إلى المدينة، بل سلكوا الجادة بسبب طالبيٍّ ظهر بتلك الناحية وقوي أمره»[٦].

وأعتقد أنّ المذكور هو الذي ولي أمر المدينة بالقوة بعد موت عبيد الله بن طاهر في سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م.

---

(١) عمدة الطالب: ص ٣٢.
(٢) عمدة الطالب: ص ٣٢٢.
(٣) المجدي: ص ٣١٢.
(٤) عمدة الطالب: ص ٣٢٢.
(٥) العيون والحدائق: ج ٤ ص ٣٧٧، والمنتظم: ج ٦ ص ٣١٩، والكامل: ج ٨ ص ١٣٣ و ٣٧٨.
(٦) الكامل: ج ٨ ص ٣٧٨.

القاسم بن عبيد الله الحسيني

أبو أحمد القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة (٣٢٩-٣٣٠هـ/ ٩٤٠-٩٤١م) و(٣٣٦هـ/ ٩٤٧م)[٢].

أمّه كلثم بنت علي بن يحيى[٣].

وهناك احتمالان لتاريخ ولاية القاسم للمدينة:

أحدهما: بعد وفاة والده سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م، وقد ظهر العقيقي واستولى على المدينة من القاسم، ثم قُتل العقيقي أو عاد وتغلّب عليه القاسم واستولى على السلطة.

ثانيهما: أنه بعد وفاة والده عبيد الله بن طاهر، استولى العقيقي (العُقيلي) على السلطة، وعاد القاسم واستولى على المدينة بعد قتله أو وفاته بشكل طبيعي.

وظل القاسم أميراً على المدينة حتى سنة وفاته، ولم تذكر كتب التاريخ وفاته، سوى ما ذكر من أنّ شقيقه مسلم محمد أبو جعفر ولي إمرة المدينة سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، وهذا يعني أنه ولي إمرة المدينة بعد وفاة شقيقه أبو أحمد القاسم هذا.

ولدينا إشارة أنه تغلّب على إمرة المدينة؛ جاء في المنهل الصافي: «غلب على إمرة المدينة»[٤].

---

(١) عمدة الطالب: ص ٣٣٦، ولباب الأنساب: ص ٦١٦، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٩٩، والمنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩.
(٢) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٩٩.
(٣) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩.
(٤) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩.

وقد أعقب خمسة أولاد: «أبا الفضل جعفراً الأديب، وأبا هاشم داود، وفضل الله العفيف، وعبيد الله، وموسى، وأبا محمد الحسن»[١].

ولعل ما ورد في المنهل الصافي: أنّ أبا أحمد القاسم ولي المدينة في سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م ليس صحيحاً، ولا يستقيم، ولعله خطأ في النقل بين ٣٢٩هـ وبين ٣٩٧هـ.

محمد مسلم بن عبيد الله بن طاهر الحسيني

أبو جعفر (محمد - مسلم) بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في سنة ٣٣٦ هـ/ ٩٤٧م.

قال الذهبي: «مسلم بن عبيدالله بن طاهر بن يحيى بن الحسن، أبو جعفر العلوي الحسني المدني. سمع: من جده طاهر، ومحمد بن إبراهيم الديلي، وأبي بشر الدولابي، والخضر بن داود[٢]. سمع كتاب النسب للزبير[٣]. روى عنه الدراقطني. هو حافظ نبيل»[٤].

وقال السيد ضامن: «كان سيداً جليل القدر، عظيم الشأن، رفيع المنزلة، جمّ المحاسن، حسن الشمائل، عالي الهمّة، وافر الحرمة، كريم الأخلاق، زكي الأعراق، ذا مروءة وشهامة ونجدة وبراعة عالماً فاضلاً كاملاً، روى كتاب الزبير في النسب وغيره، قرأ عليه أبو الحسن علي الدارقطني سنة ٣٣٦هـ... »[٥].

---

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٢٠٢؛ عمدة الطالب: ص ٣٣٦.

(٢) المؤتلف والمختلف: ج ١ ص ٧٨٨.

(٣) المؤتلف والمختلف: ج ١ ص ٢٩٧.

(٤) تاريخ الإسلام: ج ٢٦ ص ٤٦٦.

(٥) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٩٩.

والأخبار المتعلقة به متضاربة، فمنها من يقول بولايته للمدينة المنورة، ومنها أنه لم يلِ المدينة، ولكني أرجّح ولايته للمدينة؛ وذلك لأنه ولي بعد وفاة شقيقه القاسم بن عبيد الله ابن طاهر، ونصَّ صاحب التحفة اللطيفة على ولايته في سنة ٣٣٦ هـ/ ٩٤٧م تحديداً.

وسبب هذا التضارب بالأخبار أنه كان يقطن بمصر، ولعب دوراً هاماً في أثناء دخول الفاطميين لمصر[١]، وأعتقد أنه هو الذي مهَّد وساعد الفاطميين بالدخول إلى مصر، وساهم بشكل فعَّال بذلك؛ نظراً لضلوعه بأحوال مصر، وظروفها الصعبة بعد موت كافور الأخشيدي[٢]، وبعد دخول الفاطميين لمصر ثبتوا ولايته للمدينة وعززوها.

قال القلقشندي: «ولم يكن في زمنه بمصر أوجه منه»[٣].

ووصفه ابن تغري بردي أنه «من صالحي الأشراف»[٤].

(١) لما اختل أمر الأخشيدية دعا مسلم للمعز صاحب أفريقية يومئذ. ولما قد المعز إلى الديار المصرية بعد فتح جوهر القائد لها، تلقاه مسلم بالجمال بأطراف بَرْقَة من جهة الديار المصرية، فأكرمه وأركبه معدلاً له واختص به، انظر: جمهرة أنساب العرب: ص ٥٥؛ وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٩٨. وفي تولية إمارة المدينة انظر: تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٢؛ وسياسة الفاطميين الخارجية محمد سرور: ص ٢٢.

(٢) كانت علاقة مسلم بن عبيدالله بكافور الإخشيدي علاقة مودة وإجلال؛ يقول أبو جعفر مسلم بن عبيدالله بن طاهر العلوي: «ما رأيت أكرم من كافور؛ كنت أسايره يوماً، وهو في موكب خفيف، يريد التنزه، وبين يديه عدة جنائب بمراكب ذهب وفضة، وخلفه بغال المراكب، فسقطت مقرعته من يده ولم يرها ركابيته، فنزلت عن دابتي، وأخذتها من الأرض، ودفعتها إليه. فقال: أيها الشريف، أعوذ بالله من بلوغ الغاية، ما ظننت أنّ الزمان يبلغني حتى تفعل بي أنت هذا. وكاد يبكي. فقلت: أنا صنيعة الأستاذ ووليه. فلما بلغ باب داره ودعني، فلما سرت التفت فإذا الجنائب والبغال كلها خلفي، فقلت: ما هذا؟ قالوا: أمر الأستاذ أن يحمل مركبه كله إليك. فأدخلته داري وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار». انظر: النجوم الزاهرة: ج ٤ ص ٣-٤.

(٣) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٢.

(٤) النجوم الزاهرة: ج ٤ ص ٤.

وقال السيد ضامن: «وكان سيد الناس بالحجاز ومصر قطن بها على عز واحتشام واجلال واعظام وعلو رفعة واكرام، مقرباً من ملكها السلطان المعز لدين الله بن المنصور بالله إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي لدين الله عبد الله بن أبي علي ميمون العبيدلي العلوي الفاطمي أول خلفاء العبيدليين»[١].

وتضاربت الأخبار حول وفاته، فمنها أنه قُتل من قبل الحاكم الفاطمي، ومنها أنه فرَّ منه إلى الحجاز حيث قُتل أو هلك في البوادي.

ولكن هناك خبر يقول بأنه: تمَّ نقل رفاته إلى المدينة، وصلّى عليه الحاكم الفاطمي، وهذا ما أرجحه، ويُعزى غضب الحاكم الفاطمي عليه أنه وجد في داره رقعةً مكتوب عليها:

إنْ كنت من آل أبي طالب فاخطب إلى بعض بني طاهر
فإن راك القوم كفواً لهم في باطن الأمر وفي الظاهر[٢]

حيث اعتذر عن تزويج بناته من الحاكم بحجة أنّ كلَّ واحدة منهن لها عقد زواج من بني أعمامهن.

ولي أبو جعفر مسلم إمارة المدينة بعد شقيقه، وظلَّ يتنقل بينها وبين مصر، وكان يلي أمر المدينة نيابة عنه ابنه طاهر، ولا أعتقد أنه حُبس أو قُتل من قبل الحاكم الفاطمي؛ لأنَّ الدعوة الفاطمية لم تزل في بدايتها، وكانت بحاجة إلى تلك الشخصية التي قدَّمت خدمات جُلَّى للحركة قبل وصولها إلى مصر، رغم أنَّ شقيقه عبد الله كان من ألدِّ أعداء الفاطميين والذي تحالف ضدهم.

وكانت وفاة أبي جعفر مسلم في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٦م[٣].

---

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٩٩.
(٢) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، وتحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٩٩.
(٣) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٢٠٠.

طاهر بن مسلم بن عبيد الله الحسيني

أبو علي طاهر (المليح) بن مسلم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

« الأمير، الشاعر، أمه ميمونة بنت الأمير جعفر ابن يحيى النساب، وله تسعة بنين »[١].

كنّاه صاحب الفخري بأبي الحسين[٢]، وكنّاه السيد ضامن أبا علي[٣].

ولد بمصر، ولحق بـ« المدينة الشريفة فقدّمه بنو الحسين على أنفسهم واستقل بإمارتها سنين، وكان يلقب بالمليح، وتوفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة »[٤].

ولي إمارة المدينة بعد وفاة والده مسلم، محمد بن عبيد الله بن طاهر في سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م، وظل أميراً عليها حتى سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م[٥].

وقد أثار تولّي طاهر بن مسلم إمارة المدينة تساؤلاً كبيراً ؟!

وأقرب الاحتمال أنّ الحسينيين -أمراء المدينة- كانوا يعانون من مشكلة في إمارتهم للمدينة، ويرشدنا إلى هذا الاحتمال ابن خلدون في تاريخه فيقول:

« ترددت ولاية بني العباس عليها (أي المدينة المنورة) والرياسة فيها بين بني حسين وبني جعفر، إلى أن أخرجهم بنو الحسين، فسكنوا بين مكة والمدينة، ثم أجلاهم بنو حرب من زبيد إلى القرى والحصون، وأجازهم إلى الصعيد، فهم هنالك

---

(١) الفخري في النسب: ص ٦٠.
(٢) الفخري في النسب: ص ٦٠.
(٣) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٨٠.
(٤) الفخري في النسب: ص ٦٠، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٢.
(٥) العقد الثمين: ج ٦ ص ٤٥٨، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٢٩٨، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٧.

إلى اليوم، وبقي بنو حسين بالمدينة إلى أن جاءهم طاهر بن مسلم من مصر »[١].

ويتحدث أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي عن بدايات حكم بني الحسين للمدينة بقوله: «لجأ طاهر والد الحسن المذكور إلى مدينة الرسول ﷺ، متأمراً على أهلها، ومعه ابن عم له يعرف بأبي علي بن طاهر وختنه على أخته، فلما مضى طاهر لسبيله ورث أبو علي المذكور مكانه من الإمارة إلى أن لحق به، وورثه ولداه هانئ ومهنا دون الحسن »[٢].

أما ابن عنبة[٣] فيرى أنّ أول من تولّى الإمارة في المدينة من بني طاهر هو الحسن بن طاهر بن مسلم.

على أني أميل لرأي العتبي لكونه المصدر الأقدم[٤].

ومهما يكن من أمر فإنّ الظروف التي جاءت ببني مهنا للإمارة على المدينة ترتبط إلى حد كبير بالأوضاع السياسية للدولة الفاطمية في مصر، وهذا يدعونا للتساؤل عن طبيعة العلاقة التي ربطت بين هذه الأسرة والفاطميين!!.

لقد كانت الخلافة الفاطمية تؤمن بسيادتها الشرعية على العالم الإسلامي دون الخلافة العباسية في بغداد. وإذا كان الفتح الفاطمي لمصر والشام قد تمَّ بالقوة العسكرية، فإنَّ النفوذ الفاطمي في الحجاز قد جاء بطرق مهدَّ له الفاطميون بحذق ومهارة. فنراهم يشجبون أعمال القرامطة دعاة الإسماعيلية الذين هاجموا مكة سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م وأعملوا النهب والقتل، وأكثر من ذلك اقتلاع الحجر الأسود، حتى أعادوه إلى مكانه سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م بمساعي الخلفاء الفاطميين المهدي ثم القائم ثم المنصور[٥].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٣٩.
(٢) تاريخ العتبي: ص ٦١.
(٣) عمدة الطالب: ص ٣٣٥.
(٤) لتفصيلات أكثر عن هذه الأسرة، انظر: جمهرة أنساب العرب: ص ٥٤-٥٦؛ تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٩؛ سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، للعصامي: ج ٤ ص ١٢٥.
(٥) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ٨٩.

كذلك سعى المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع إلى عقد الصلح بين الأسرات العلوية المقيمة بالحجاز وإصلاح ذات بينهم وتحمّل ديات القتلى منهم عن طريق سفارة أرسلها لهذا الغرض. إلا أنَّ لهذه السفارة غرضاً سرياً آخر وهو الاتفاق على دخول السادة العلوية في تبعية الخلافة الفاطمية بسبب ما قدمته من أياد بيضاء وما بينهم من قرابة، على أساس توليتهم أمر مكة والمدينة ومساعدات مالية وعينية ترسل إليهم سنوياً.

فما إن تمَّ ذلك عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، حتى بادر جعفر بن محمد وبنو سليمان من آل الحسن بن علي بن أبي طالب بتقليد أمر مكة، والدعوة باسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة[١]، وكذلك عمل طاهر بن مسلم على الدعوة باسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة وقت كان نائباً عن أبيه في المدينة سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م[٢].

وهكذا فإنَّ تولِّي السادة من آل البيت شؤون الحجاز يشكل استقلالاً ذاتياً في إطار التبعية للخلافة الفاطمية، وصار يطلق عليهم لقب الأشراف.

وظهرت بوادر الخير بالنسبة لأهل الحجاز عندما بدأت الخلافة الفاطمية بإرسال الأموال والخلع إلى أشراف الحجاز وأسرهم، وكذلك شحنات الحبوب والبقول لسكان مكة والمدينة المنورة والقرى المجاورة لها[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه منذ بداية النفوذ الفاطمي في الحجاز بدأت ظاهرة جديدة في التاريخ الإسلامي وهي التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية على إقامة الخطبة لأيٍّ منهما على منابر الحرمين الشريفين، وقام هذا التنافس على مبدأ السيادة الشرعية على العالم الإسلامي تكون لمن يُدعى باسمه على منابر الحرمين

(١) إتحاف الورى: ج ٢ ص ٤٠٦، واتعاظ الحنفا: ج ١ ص ١٠٤، ودرر الفوائد: ص ٢٢٤؛ وسمط النجوم العوالي: ج ٤ ص ١٩٥.

(٢) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٩٠.

(٣) درر الفوائد، للجزيري: ص ٢٤٥، وسياسة الفاطميين الخارجية: ص ٢٤.

الشريفين دون الآخر، ومما يؤكد هذا ما يُرسل سنوياً من أموال وأعطيات وهدايا وخلع إلى الحكام والأهالي، حتى إذا ما انقطع إرسال هذه الأموال فإنّ السيادة تصبح في خطر[١].

ولعبت هذه الأعطيات دوراً بالغ الأهمية في تحديد واستمرار العلاقة المذهبية والسياسية في الحجاز لكل من الخلافتين العباسية أو الفاطمية. فقد واظب المعز لدين الله على إرسال هذه الأعطيات سنوياً في موسم الحج دون انقطاع. فاستمر الدعاء له على منابر الحرمين طوال عهده. وما أن انقطعت هذه الأعطيات في عهد ابنه العزيز حتى تحوَّلت الخطبة للخليفة العباسي الذي انتهز هذه الفرصة وبادر بإرسال أموال كثيرة لضمان تبعية مكة له. فاضطر الخليفة العزيز بالله إلى إرسال باديس بن زيرى الصنهاجي أميراً على ركب الحج المصري عام ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م وأمره بالاستيلاء على الحرمين. فلما قدم إلى مكة وضيَّق الحصار على أهلها كان من نتيجة ذلك إعادة الخطبة على منابر مكة للخليفة الفاطمي بدلاً من الخليفة العباسي[٢].

ولم تتأثر المدينة بانقطاع أعطيات الخليفة العزيز إلى شريفها بسبب ما في أرضها من خيرات زراعية، فظلَّ الأمر فيها مستقراً بالولاء للفاطميين حتى توفي أميرها طاهر بن مسلم، وخلفه ابنه الحسن الذي سار على نهج والده بإعلان تبعيته للخليفة الفاطمي[٣].

ولذا لا نميل إلى تلك الرواية التي تقول بأنّ طاهر بن مسلم كان مناوئاً للحكم الفاطمي، وهرب من مصر إلى المدينة بسبب أنّ المعز لدين الله الفاطمي عندما

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٢، ودرر الفوائد: ص ٢٤٧، وشفاء الغرام: ج ٤ ص ٢٩٤، وتاريخ مكة: ج ١ ص ١٧٤.

(٢) اتحاف الورى: ، وتاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٠، وخلاصة الكلام لدحلان: ص ٢٢، وتاريخ مكة: ج ١ ص ١٧٣، وسياسة الفاطميين الخارجية: ص ٢٤.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠١، وسياسة الفاطميين الخارجية: ص ٢٥، وتاريخ مكة: ج ١ ص ١٧٣.

جاء إلى مصر أراد أن يتقرَّب من مسلم، لنسبه العلوي، ولأنّه أحد رجال كافور الإخشيدي، والذي كان يحكم مصر سابقاً، فخطب المعز ابنته لأحد أبنائه، فرفض مسلم الخطبة، وغضب المعز، وسجن مسلماً واستصفى أمواله، وظلَّ مسجوناً حتى مات، وفرّ ابنه طاهر إلى المدينة، وقد احتفى به الحسينيون، وذكروا فضل أبيه، وقدموه عليهم وجعلوه أميراً للمدينة[1].

وفي المقابل لم نلحظ من طاهر بن مسلم أيَّ عداء للخلافة العباسية، وكان وزيرها آنذاك عضد الدولة البويهي، والذي أرسل مع أمير الحج العراقي لموسم عام ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م أموالاً طائلة وهدايا قيمة للأمير الحسيني.

والظاهر أنّ طاهر بن مسلم أعاد الخطبة للعباسيين في وقت احتاجت المدينة المنورة إلى إعادة بناء سورها المتهالك، وكانت المدينة بأمسِّ الحاجة إلى ذلك، فأحجم الخليفة الفاطمي العزيز عن مدِّ يد العون، فانتهز عضد الدولة البويهي الفرصة، وبعث بأموال طائلة إلى الأمير طاهر، الذي أشرف بدوره على بناء السور بتلك الأموال.

ولم يجد طاهر نفسه إلا مضطراً بإعادة الولاء للعباسيين، فنزع الرايات البيضاء، وقطع الخطبة عن الفاطميين، وحوَّلها للعباسيين.

يقول اللواء إبراهيم رفعت: «وفي سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م بنى عضد الدولة بن بويه وزير الطائع لله بن المطيع سوراً للمدينة وقد تهدم على طول الزمان، ولم يبقَ إلا آثاره ورسومه»[2].

وقد حفظ السور المدينة من غارات الأعراب، ومنح أهلها الطمأنينة والأمان حتى عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م حيث قرَّر الخليفة الفاطمي العزيز بالله -في هذه السنة- استعادة المدينة من العباسيين.

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٤٠.

(٢) مرآة الحرمين: ج ١ ص ٤١٠.

فجهَّز حملة قوية، خرجت من مصر في شوال سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، فوصلت المدينة مع اقتراب موسم الحج.

أغلق أهل المدينة السور، فحاصرها الجيش الفاطمي، غير أنّ الأمير طاهر بن مسلم أراد أن يتجنب الصدام مع الفاطميين ففاوضهم على الصلح، وصالحهم، وقطع الخطبة للعباسيين وأعادها إلى الفاطميين نهائياً، مقابل تأمين المدينة وأهلها، وفتحت أبواب السور وأُنزلت الرايات السوداء ورُفعت الرايات البيضاء، وأعلن الأمير طاهر بن مسلم في خطبته على المنبر ولاءه وولاء أهل المدينة للفاطميين[١].

يقول المؤرخ ابن الفوطي: «كان طاهر شاعراً أديباً، وحدثني أبو الحسن بن محمد، قال: اجتمعت بطاهر المليح في المدينة على ساكنها أفضل السلام، وكان إذ ذاك أميرها، فدعاني يوماً، فحضرت وحضر أولاده على المائدة وهم سودان، فقلت: أيها الأمير غيَّرت نسل رسول الله ﷺ بالسودان؟

فقال: هن سخيّات، فقلت: لا عين، فضحك، وأنشدني فيهم:

أولاد بـازٍ نشوا في رأس مرقبة	عيطاء شاهقة زلّـت مراقبها
عاشوا زماناً خيار الطير يطعمهم	بـازٍ كسور وخير الطير بازيها
ألـفـوا لآبـائـهـم بنيان مكرمة	فشيدوها وزادوا في معاليها[٢]

الحسن بن طاهر بن مسلم الحسيني

الحسن المليح بن طاهر بن مسلم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٣].

ولد بالمدينة المنورة، كان فاضلًا كريماً شاعراً نسابة، قدم دمشق وهو شاب

(١) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء: ج ١ ص ١٧٢.
(٢) مجمع الآداب: ج ٥ ص ٧٦٠ رقم ١٦٩٥.
(٣) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، والفخري في النسب: ص ٦٠.

على الأمير بكجور النائب[١]، وكان أبوه آنداك أميراً في المدينة. ذكره العميدي في مشجره، وقال: هكذا حكاه أبو الغنائم النسابة في (نزهة العيون)، وعنه الذهبي في (مختصر التاريخ)، وذكره أبو طالب إسماعيل المروزي في (أنساب الطالبية)، وابن عنبة في (العمدة)[٢].

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م[٣].

وفي فترة إمارته سار على نهج والده بإعلان تبعيته للخليفة الفاطمي[٤].

وظل أميراً عليها حتى سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م عندما استولى الحسن بن جعفر أمير مكة على المدينة المنورة وتأمر بها.

وكان بالإضافة إلى إمارته على المدينة إلا أنه «أملى، وحدَّث عن ميمون بن حمزة»[٥].

وورد في غير مصدر:

الأمير الشريف، أبو محمد العلوي، الحسيني، المدني، أمير المدينة، وابن أميرها، أبي طاهر ولي المدينة بعد وفاة أبيه سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م، ثم غلب على الإمارة بنو عم أبيه: أبي أحمد ابن القاسم بن عبيد الله، وهو أخو جده مسلم[٦]،

---

(١) بكجور أبو الفوارس التركي، مولى قرعويه، أحد غلمان سيف الدولة أبي الحسن بن حمدان، ولي دمشق من قِبل المصريين، وقدمها من حمص، وكان يليها أيضاً قبل دمشق في يوم السبت لسبع خلون من رجب سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م. أنظر: تاريخ دمشق: ج ١٠ ص ٣٧٥، والوافي بالوفيات: ج ١٠ ص ٢٠٢.

(٢) آل الأعرجي أحفاد عبيد الله الأعرج: ص ٤٢.

(٣) الفخري في النسب: ص ٦٠، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٢.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠١، وسياسة الفاطميين الخارجية: ص ٢٥، وتاريخ مكة: ج ١ ص ١٧٣.

(٥) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور: ج ١ ص ١٩١.

(٦) عمدة الطالب: ص ٣٣٥.

والاعتقاد أنهم غلبوا عليها بعد حوالي ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م.

وقد ورد في عمدة الطالب: أنه غادر المدينة المنورة إلى السلطان محمود بن سبكتكين، بسبب أنّ الحسن هذا أعطى مقاليد أمره إلى ابن عمه أبا علي ابن طاهر، فلما توفي أبو علي قام إبناه هاني ومهنا مقامه، فامتعض الحسن بن طاهر بن مسلم من ذلك وفارق الحجاز[١].

وذكر صاحب المنهل الصافي أنه: انتقل فيما بعد إلى بُست[٢]؛ بدعوة من السلطان محمود بن سُبكتكين، وله عقب بخراسان[٣]، وتوفي سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م، هناك دون تعليل سبب الانتقال.

والذي أراه أنّ الحسن بن طاهر غادر الحجاز والمدينة المنورة حصراً، بسبب استيلاء الحسن بن جعفر أمير مكة على المدينة، والذي حدث -ربما- بمساعدة هانئ ومهنا أولاد عمه، وقد يكون لسبب آخر؛ وهو فساد اعتقاد الفاطميين، حيث ورد إلى السلطان محمود بن سبكتكين رسولٌ من الحاكم الفاطمي في مصر[٤]. فاتهم بفساد الاعتقاد عند السلطان محمود، وقبول السلطان محمود له قد يكون لاقى هوى في نفسه تجاه ذلك الاعتقاد.

وقد ذكر الذهبي عنه: أنه زار دمشق أثناء إمارة أبيه، والتقى بالأمير بكجور نائب دمشق سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م، وأهداه شعرات من شعر النبي ﷺ، وألقيت بالنار فلم تحترق أمام المشككين بنسبته للنبي ﷺ فبكى بكجور[٥].

وذكر المقريزي أنه سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م؛ ضُرب رجل، وطيف به المدينة، من

(١) عمدة الطالب: ص ٣٣٥-٣٣٦، وتحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٨٠.
(٢) بست: إحدى مدن إيران من أعمال إقليم سجستان، وتقع هذه المدينة في هذا العصر بأفغانستان.
(٣) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩.
(٤) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٨٠.
(٥) تاريخ الإسلام: ص ٤٠٧.

أجل أنه وجد عنده موطأ مالك، كان في عهد توليه إمرة المدينة[١].

وأقرب الظن أنه بعد استيلاء الحسن بن جعفر بن محمد بن الحسين أمير مكة على المدينة، غادر الحسن بن طاهر المدينة إلى محمود سبكتكين، واستطاع داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر من أولاد عمه، الاستيلاء على المدينة من الحسن بجعفر وورث أولاده من بعده حكم المدينة لعدة قرون تالية.

أبو علي بن طاهر بن الحسين الحسيني

أبو علي بن طاهر بن الحسين بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٢].

أمير المدينة مشاركة مع الحسن بن طاهر المليح بن مسلم، محمد بن عبيد الله بن طاهر في سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م.

ذكر ابن خلدون: «بعد وفاة طاهر المليح أمير المدينة المنورة ولي ابنه الحسن بن طاهر وابن أخيه»[٣].

وليس لدينا مصدر آخر يحدد من هو ابن أخيه هذا، هل هو ابن أخ الحسن بن طاهر أم ابن أحد أخوة طاهر المليح بن عبيد الله، ولعل ما ورد في عمدة الطالب يوضح الأمر ويحسمه: «أنّ الحسن بن طاهر بعد تولّيه إمرة المدينة أعطى مقاليد الأمر إلى ابن عمه أبو علي بن طاهر»[٤].

ولدى الرجوع إلى مشجّرات الأنساب الواردة في عمدة الطالب نرى أنّ هذا لا ينطبق إلا على «أبو علي بن طاهر بن الحسين بن طاهر» ابن عم الحسين بن

(١) اتعاظ الحنفا: ج ١ ص ٢٧٣.
(٢) عمدة الطالب: ص ٣٣٥.
(٣) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٧ و ٢١٣.
(٤) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، وتحفة الأزهار: ج ٢ ص ١٨٠.

طاهر، وهو ما نرجّحه.

وأقرب المرجّحات عندي أنّ أبا علي هذا هو ابن عمه وصهره داود بن القاسم بن عبيد الله الحسيني الآتي ذكره.

القرن الخامس....

داود بن القاسم بن عبيد الله الحسيني

هو داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة والعقيق في سنة ٤٠١هـ/ ١٠١١م[٢].

قال القلقشندي: «وكان من ولد مسلم -هذا- طاهر أبو الحسين، فلحق طاهر بالمدينة الشريفة، فقدّمه بنو الحسين على أنفسهم، واستقل بإمارتها سنين، وكان يلقب بالمليح، وتوفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وولي بعده ابنه الحسين بن طاهر وكنيته أبو محمد.

قال العُتْبيّ: وكان موجوداً في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وغلبه على إمارتها بنو عمّ أبيه أبي أحمد القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر حجة الله واستقلوا بها.

(١) عمدة الطالب: ص ٣٢٢، والفخري في النسب: ص ٦٠، والمجدي: ص ٢٠٤.

(٢) الفخري في النسب: ص ٦٠.

وكان لأبي أحمد القاسم من الولد داود ويكنى أبا هاشم. وقال العُتْبيّ: الذي ولي بعد طاهر بن مسلم صهره وابن عمه داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر، وكناه أبا علي.. وكان لداود بن القاسم من الولد مُهنا وهانئ والحسن.

قال العُتْبيّ: ولي هانئ ومهنا، وكان الحسن زاهداً»[١].

ورد أنه بعد شخوص الحسن بن طاهر إلى السلطان محمود بن سبكتكين في خراسان، ولي المدينة صهره الملقب بأبي علي داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر[٢].

والذي نراه أنّ داود بن القاسم ولي إمارة المدينة وحدها من قبل الحاكم العبيدي، عندما قام الحسن بن جعفر بالخروج على طاعة العبيديين الفاطميين، وخطب فيها في الحرمين للخليفة المقتدر وذلك في سنة ٤٠١هـ/ ١٠١١م، عند ذلك عينه الحاكم العبيدي أميراً عليها[٣].

وفي ترجمة المهنا بن داود، ما يشير إلى أنّ ولايته لم تدم طويلاً وقد لا تكون عدة أشهر؛ لأنّه ولي المدينة في سنة ٤٠١هـ/ ١٠١١م، أي في نفس سنة تولي داود هذا وقد يكون توفي بعد ولايته المدينة بعدة أشهر، نظراً لتقدمه بالسن حيث أنّ وفاة والده كانت ٣٢٩هـ/ ٩٤١م، وقد أعقب من أربعة رجال وهم: الأمير أبو عمارة المهنا واسمه حمزة، والحسن الزاهد، وأبو محمد هاني، واسمه سليمان والحسين[٤].

---

(١) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٢ - ٣٠٣.
(٢) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩، وفي عمدة الطالب: ص ٣٣٥ ملقبها بأبي هاشم.
(٣) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩، وعمدة الطالب: ص ٣٣٥، والعقد الثمين: ج ٨ ص ٥٧ رقم ٢٩١٣، وغاية المرام: ج ١ ص ٤٩٤.
(٤) عمدة الطالب: ص ٣٣٦.

هاني (سليمان) بن داود بن القاسم الحسيني

هاني (سليمان) بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى ابن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

أبو محمد، أمير المدينة المنورة[٢].

انفرد صاحب المنهل الصافي بولايته على المدينة قبل أخيه حمزة (أبو عمارة مهنا) دون تحديد السنة، ولم يذكر ذلك في عمدة الطالب.

وله أربع بنين معقبين بالمدينة، منهم مهنا بن داود.. [٣]

وربما ولي المدينة نيابة عن أبيه، أو لمدة محدودة في سفرة سافرها والده فيها فيما بعد ٤٠١هـ/ ١٠١١م، أو كنائب لأخيه أبو عمارة حمزة المهنا.

أبو عمارة حمزة (المهنا) بن داود بن القاسم الحسيني

هو حمزة (المهنا) بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٤].

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٤٠١-٤٠٨هـ/ ١٠١١-١٠١٧م. في مدة خلافة المستنصر بالله الفاطمي.

---

(١) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، والفخري في النسب: ص ٦٠، والمنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩.
(٢) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩.
(٣) الفخري في النسب: ص ٦٠.
(٤) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، والفخري في النسب: ص ٦٠.

قال الشريف الحراني النسَّابة: وكان بها في ثمان وأربعمائة أبو عمارة حمزة. ومقتضى كلامهم أنه بقي غلى ما بعد خلافة القادر[1].

أمه فاطمة بنت مسلم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى النسَّابة، أعقب من ثلاثة رجال: عبد الوهاب، وسبيع، وشهاب الدين الحسين أمير المدينة..

وفي المنهل الصافي: ولي بعد أخيه هاني إمرة المدينة[2].

وقال شيخ الشرف العبيدلي (ت ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م): «منهم الأمير مهنا، أبو عمارة، واسمه حمزة بن أبي هاشم داود.. »[3].

ولعله المقصود في (النجوم الزاهرة): حيث ذكر أسباب المجاعة التي حاقت بمصر في سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م وما قبلها، وقد قطعت في مكة والمدينة الخطبة للمستنصر الفاطمي، وخطب للعباسيين، أخذ أمير مكة قناديل الكعبة وستورها وصفائح الباب والميزاب، وصادر أموال أهل مكة فهربوا، وكذا فعل الأمير المهنا بأهل المدينة.

قال شمس الدين بن قزأوغلي في (المرآة): « .. وضاقت يد أبي هاشم محمد أمير مكة بانقطاع ما كان يأتيه من مصر؛ بسبب البلاء والغلاء بمصر، فأخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح الباب والميزاب، وصادر أهل مكة فهربوا. وكذا فعل أمير المدينة مهنأ، وقطعا الخطبة للمستنصر، وخطبا لبني العباس الخليفة القائم بأمر الله، وبعثا إلى السلطان ألْب أرسلان السلجوقي حاكم بغداد بذلك، وأنهما أذّنا بمكة والمدينة الأذان المعتاد، وتركا الأذان بـ(حيّ على خير العمل)، فأرسل ألْب أرسلان إلى صاحب مكة أبي هاشم المذكور بثلاثين ألف دينار، وإلى صاحب المدينة بعشرين ألف دينار، وبلغ الخبر بذلك المستنصر، فلم يلتفت إليه لشغله

(١) مآثر الإنافة: ص ٣٢٨.

(٢) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩.

(٣) تهذيب الأنساب: ص ٢٣٢.

بنفسه ورعيته من عِظم الغلاء»[١].

وفي المجدي: «بنو مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر، لهم جلالة ورياسة وفيهم كثرة، كان منهم عبد الله بن مهنا فقتله الهاشميون غدراً وأخذ بثاره»[٢].

عبيد الله بن داود بن القاسم بن عبيد الله الحسيني

عبيد الله بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ذكر القلقشندي أنه تولَّى إمارة المدينة بعد أبيه المهنا، وكان بالمدينة سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، وقتله موالي الهاشميين بالبصرة[٣].

الحسين بن داود بن القاسم بن عبيد الله الحسيني

الحسين بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٤].

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م.

ورد ذكره عند صاحب الفخري: الحسين الأصغر أبو محمد الزاهد الأمير بعد أخيه (المهنا حمزة) أبو عمارة بن داود بن القاسم بن عبيد الله.

وهناك ولدان لداود أحدهما اسمه الحسين، والآخر الحسن الزاهد وهذا

(١) النجوم الزاهرة: ج ٥ ص ٢٢.
(٢) المجدي: ص ٢٠٤.
(٣) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٣، ومآثر الإنافة: ص ٣٤٧.
(٤) الفخري في النسب: ص ٦١.

يعني أنه الحسين، وقد يكون ولي قبل المهنا، أو ناب عنه في إحدى المرّات.

الحسين بن حمزة بن داود بن القاسم الحسيني

الحسين (شهاب الدين) بن حمزة (أبو عمارة المهنا الكبير) بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٤٢٨-٤٦٩هـ/ ١٠٣٧-١٠٧٦م.

ورد في عمدة الطالب: أنّ شهاب الدين الحسين بن حمزة (أبو عمارة المهنا) ولي المدينة، مع أنه لم يشر في الفخري إلى ذلك سوى أبو ملك الأمير، وفي العادة يذكر المؤلف الأمير بالمدينة، ولكنه هنا اكتفى بالقول فقط الأمير.

وذكره صاحب التحفة اللطيفة فقال: «أول من ولي إمرة المدينة، الآتي جده الأعلى طاهر»[٢].

ومؤدّى كلامه أنّ كل الذين سبقوه ليسوا بأمراء على المدينة وهذا ما لا نوافقه لعدة أسباب:

١ - أنّ الذين ذكروا ذلك أسبق منه.

٢- ورد في النجوم الزاهرة: «في صفر ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، غلب على المدينة النبوية مخيط العلوي وطرد أميرها الحسين بن مهنا بن داود فقصد الحسين ملكشاه السلجوقي»[٣].

٣- أنّ السخاوي -نفسه- قال في موطن آخر: «فأول الأمراء من أشراف

(١) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، والفخري في النسب: ص ٦٠.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٥١٥ رقم ١٠٠١.
(٣) النجوم الزاهرة: ج ٥ ص ٢٠.

المدينة: حسين بن مهنا الأكبر بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين »[١]، ولعل ما جاء في كلامه أولاً هو من السهو.

والذي أرجّحه أنّ الحسين بن حمزة ولي المدينة بعد وفاة عمه الحسين بن داود بن القاسم في سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م.

ولعله نفسه الذي عناه ابن الجوزي في المنتظم حيث قال: « في سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م كان بالمدينة أمير يقال له: الحسين بن مهنا قد وضع على من يرد لزيارة رسول الله ﷺ ضريبة تشبيهاً بما يُفعل بمكة، وإنّما يؤخذ من التجار القاصدين مكة، فأما المدينة فإنه لا يراد منها إلا الزيارة، ونشأت بذلك السمعة، فدخل رجل علوي المدينة، فخطب للمصري في صفر وهرب ابن مهنا »[٢].

وقال ابن عنبة: « وأما شهاب الدين الحسين أمير المدينة ابن المهنا فأعقب من رجلين مالك ومهنا أميري المدينة »[٣].

داود بن الحسن الزاهد بن داود الحسيني

داود بن الحسن بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٤].

قال شيخ الشرف العبيدلي: « وأمير المدينة اليوم (في القرن الخامس الهجري) أبو هاشم داود بن الحسن الأمير بن أبي هاشم داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر،

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٩٣.
(٢) المنتظم: ج ١٦ ص ١٨٠.
(٣) عمدة الطالب: ص ٣٣٧.
(٤) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، والمجدي: ص ٢٠٤.

وفيه خير، وكان أبوه أيضاً خيّراً ديّناً »[١].

قال النسابة العمري: « منهم أمير المدينة اليوم أبو هاشم داود بن الحسن بن داود بن أبي أحمد القاسم بن عبيد الله بن طاهر »[٢].

والظاهر أنه ولي الإمارة قريب من سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م؛ حيث قال السيد ضامن معلقاً على مقالة النسابة العمري: « وقوله (اليوم) يريد سنة ست وعشرين وأربعمائة »[٣].

وفي عمدة الطالب: أنّ الحسن (الزاهد) بن داود له ولد اسمه داود بن الحسن، دون أي إضافة أخرى[٤].

والذي أعتقد أنّ المذكور داود بعد انقطاع نسله ووفاته عادت الإمارة إلى أبناء أبو عمارة المهنا حمزة بن داود بن هاشم أولاد عمه، ولا سبيل لتحديد تاريخ ولايته ووفاته بدقة، نظراً لعدم توفر مصادر خطية، ولكن من المفترض أنّ ولايته كانت في عهد ولاية الحسين (شهاب الدين) بن حمزة أبو عمارة المهنا الأكبر بن داود بن القاسم بن عبيد الله، أي سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧، وربما كان ينوب عنه في بعض الأوقات، بدليل أنّ الحسين بن مهنا أخذت منه الولاية في سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦م من قبل مخيط كما هو منوّه عنه في ترجمته اللاحقة.

الحسين بن مهنا الأكبر

هو الحسين بن مهنا الأكبر بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى النسابة بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين الأصغر ابن زين العابدين بن

(١) تهذيب الأنساب: ص ٢٣٢.
(٢) المجدي في النسب: ص ٢٠٤.
(٣) تحفة لب اللباب: ص ١٠٢.
(٤) عمدة الطالب: ص ٣٣٥.

علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسيني.

قال السيد ضامن: «السيد أبو عبد الله الحسين شهاب الدين بن الأمير أبي عمارة المهنّا الأكبر. كان سيداً جليل القدر، رفيع المنزلة، عظيم الشأن، عالي الهمّة، وافر الحرمة، جمّ الفضائل، حسن الشمائل، كريم الأخلاق، زكّي الأعراق، مهذّباً مودّباً ذكيّاً فطناً، ذا حدس وحزم وعزم وجزم ومروّة ونجدة وشهامة وجود وكرم وسخاوة، وصولة ودولة ومهابة وفراسة تقدمها شجاعة»[١].

ووصفه جدّه السيد حسن بقريب من هذه الأوصاف[٢].

وآل مهنا الحسيني الهاشمي ولقبه أبو عمارة والأعرج، وهو أول أمراء آل مهنا الحسينيين الذي أعادهم أمير مكة محمد بن جعفر الحسني[٣]، إلى إمارة المدينة سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م بعد أن كان أمراؤها حسنيين ويتبعون لأمراء مكة الحسنيين

---

(١) تحفة لب اللباب: ص ١٦٤.

(٢) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم محمد ابن الحسين بن محمد ابن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو هاشم الحسني المكي. أمير الحرمين في حوالي سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م. أول أمر ولايته لمكة في سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٥٣م، بعد أن دخل الصُليحي مكة قادماً من اليمن، واستولى عليها، عين محمد بن جعفر هذا نائباً له، وحاول الأشراف طرده من مكة إلا أنه تغلب عليهم، كانت تحته فرس تسمي دنانير، لا يكل ولا يمل.. ذكر ابن خلدون: أنّ ولايته كانت ثلاثاً وثلاثين سنة، وأنه جمع اتحاداً من الترك وزحف بهم إلى المدينة وأخرج منها بني حسين وملكها، وجمع بين الحرمين، وذكر غيره: أنه في سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م، أُسْتُميل في قطع الخطبة للمستنصر العبيدي صاحب مصر، وخطب للقائم العباسي. وتكرر فعله لذلك، وأنه في سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م، روسل من المستنصر بتقبيح فعله وترغيبه في الرجوع، فلم يلتفت، ثم لما مات القائم خطب للمقتدر العباسي، وتارة لبني عبيد، إلى أن هرب من مكة إلى بغداد في سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، ثم أرسل عسكراً لنهب الحاج سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م، وقد أخذ سنة ٤٦٢هـ قناديل الكعبة وستورها، وصفائح الباب، وصادر أهل مكة حتى هربوا منه. مات سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، وقد جاوز السبعين. (عمدة الطالب: ص ١٣٧، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٥٥٢ رقم ٣٧٠١، والكامل في التاريخ: ج ١٠ ص ٦١، وتاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٠٣).

أيضاً في الفترة من (٤٣٦-٤٦٣هـ/ ١٠٤٤-١٠٧١م).

وقد استقل الأمير الحسين بإمارة المدينة بعد أن غادر ابن جعفر إلى مكة، وسار في بداية عهده سيرة حسنة، ثم بدت منه بعد فترة تصرفات تضايق منها أهل المدينة، وذلك أنه فرض على التجار والمزارعين ضرائب يؤدونها للإمارة، وابتدع ضريبة على زوار المدينة بحيث يدفع كل وافد إليها مبلغاً من المال للإمارة، مما أنكره عليه المؤرخون، وشاعت بذلك سمعته السيئة داخل المدينة وخارجها، وكان ولاء المدينة في عهده للعباسيين دون الفاطميين حكام مصر، وظلت الأحوال في المدينة على هذا الشكل حتى استولى مخيط العلوي عليها عام ٤٦٩هـ، فيُروى أن أميرها الحسين هرب من المدينة، ولحق بالسلطان السلجوقي ملك شاه في بلاد العراق وفارس، ويُروى أيضاً أنه التحق بأقاربه في خيبر وأقام فيها حتى وفاته.

وآل مخيط هم الفرع الثاني من عقب الأمير طاهر بن يحيى النسَّابة بن الحسين بن جعفر الحجة بن عبيد الله الأعرج. فهم بنو حسين الملقب بـ(مخيط) أمير المدينة سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م ابن أحمد الجواد بن حسين بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر[١]، وكانوا يقيمون بالمدينة المنورة حتى القرن السابع الهجري[٢]، ثم دخلوا العراق وكانت لهم بها بقية[٣].

مالك بن الحسين بن حمزة الحسيني

مالك بن الحسين (شهاب الدين) بن حمزة (أبو عمارة المهنا) بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله ابن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٤].

---

(١) الأصيلي: ص ٥٩.
(٢) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٢٠٥.
(٣) عمدة الطالب: ص ٤١٥، وبحر الأنساب: ص ٥٤.
(٤) عمدة الطالب: ص ٣٣٦.

قال السيد ضامن: «كان سيداً جليل القدر، عظيم الشأن، جمّ المحاسن، حسن الشمائل»[١].

أمير المدينة المنورة بعد سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م.

ورد في عمدة الطالب: أنّ مالك بن الحسين، كان أميراً على المدينة المنورة، دون تحديد السنة، وأعتقد أنه وليها بعد وفاة والده الحسين بن حمزة.

مع العلم أنّ مالك هذا هو ابن للحسين بن حمزة، وقد يكون وليها لمدة قصيرة أو كنائب لأخيه مهنا الأعرج، ولكن دون تحديد مدة الولاية بشكل دقيق ولكن يمكن تحديدها بشكل تقريبي في حوالي سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، حيث توفي مخيط الحسين بن أحمد الجواد بن الحسين بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر.

وخلف مالك عبد الواحد وهو جد السادة الوحاحدة ويقال لولده الوحاحدة، فمنهم طائفة بالمدينة منازلهم بمحلة سويقة غربي المسجد النبوي، وطائفة بنفهنة قرية بريف مصر، ومنهم طائفة بوادي الفرع، وهو قرى كثيرة النخل قبلي المدينة على أربع مراحل منها[٢].

منظور بن عمارة الحسيني

ولدى التدقيق في صحة نسبه في عمدة الطالب صح نسبه على النحو التالي: منصور (منظور) بن عمارة بن مهنا بن سُبيع بن مُهنا بن داود بن القاسم ابن عبيد الله ابن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله...[٣]

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٢١٢-٢١٣.
(٢) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٢١٣.
(٣) عمدة الطالب: ص ٣٣٧.

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٤٩٥-٤٩٧هـ/ ١١٠٢-١١٠٤م.

ترجم له ابن الأثير: في سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م توفي منظور بن عمارة الحسيني، أمير المدينة المنورة، وقام ولده مقامه، وهو من ولد المُهنا، وقد كان قد قتل المعمار الذي أنفذه مجد الملك البلاساني، لعمارة القبة على قبر الحسن بن علي، والعباس عليهما السلام، وكان من أهل قُم[1].

وكان البلاسلاني، قد فرّ إلى مكة، وآمنه، أرسل إليه بأمانة، ثم قتله.

وقد وصف بأنه كان فاضلاً، وذا حزم وشجاعة.

وليس لدينا دليل على بداية إمارته على المدينة المنورة، سوى تحديد وفاته التي ذكر أيضاً أنها كانت في سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م حسب رواية صاحب حماة[2].

والذي أراه أن يكون المذكور قد استولى على المدينة بعد وفاة مالك بن الحسين بن حمزة بن داود بن القاسم أو في حياته، حيث ورد غير مرة أنه قد استولى أولاد العم على الإمارة من بعضهم، وفي كثير من الأحيان جرت معارك بين الأخوة أنفسهم للحصول على الإمارة.

---

(١) الكامل في التاريخ: ج ١٠ ص ٣٥٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ٢٣٤، نقلًا عن مؤرخ حماة أبي الفداء.

القرن السادس....

مهنا بن الحسين بن حمزة الحسيني

مُهَنَّا الأعرج بن الحسين شهاب الدين بن أبي عمارة حمزة (المهنا الأكبر) بن أبي هاشم داود بن أبي أحمد القاسم بن أبي علي عبيد الله بن أبي الحسن طاهر بن أبي الحسين يحيى النسابة بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله ابن الحسين بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة المنورة بعد سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م.

ونقل السيد ضامن عن جده حسن المؤلف: أنّ مهنا الأعرج ولي إمارة المدينة سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م، ولم يزل بها أميراً إلى سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م، ويقال لولده المهانية[٢].

وأعقب من ثلاثة رجال: الحسن أمير المدينة، والأمير عبد الله، وقاسم أبو فليتة ولي المدينة، ولي الحسين المدينة، وقتل عبد الله في وقعة نخلة.

(١) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، والمنهل الصافي: ج ٤ ص ١٩٠، والعقد الثمين: ج ١ ص ٤٤٠.
(٢) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٣٥.

الحسن بن مهنا الأعرج بن الحسين الحسيني

الحسن بن مهنا الأعرج بن الحسين بن حمزة (أبو عمارة، المهنا) بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى النسابة بن الحسين بن جعفر بن عبد الله بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة المنورة بعد سنة ٥٢٢هـ-٥٥٨هـ/ ١١٢٨-١١٦٣م.

سار في بداية عهده سيرة حسنة، ثم بدت منه بعد فترة تصرفات تضايق منها أهل المدينة؛ وذلك أنه فرض على التجار والمزارعين ضرائب يؤدّونها للإمارة، وابتدع ضريبة على زوار المدينة بحيث يدفع كل وافد إليها مبلغاً من المال للإمارة، وساءت بذلك سمعته داخل المدينة وخارجها.

ورد في لباب الأنساب: أنّ القاسم بن مهنا بن الحسين استولى على المدينة بالقوة، وطرد أخاه الحسن بن مهنا، وذهب الأمير إلى البر ثم إلى خيبر.

وفصل في ذلك بقوله: دخل الأمير عز الدين قاسم قصور الإمارة بالمدينة، وكان أخوه الأمير الحسين أميراً بالمدينة، وقال له: يا ابن أبي الإمارة بيننا ميراث، نصف لي ونصف لك، وأنت قد استوفيت حقك. وأخرجه من القصر، واستولى على المدينة، وذهب أخوه الأمير الحسن إلى البر ثم إلى خيبر، وله أقارب من بني حرب وغيرهم، وهم الآن أمير خيبر، يدخل المدينة، ويخرج منها[٢].

القاسم بن مهنا الحسيني

أبو فليتة القاسم شمس الدين الكبير بن مهنا الأعرج بن حسين شهاب

(١) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٩٠، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٥١٥ رقم ١٠٠٠، وتحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٣٥.
(٢) لباب الأنساب: ص ٥٣٣.

الدين بن مهنا الأكبر بن داود بن القاسم بأبي أحمد بن أبي عبد الله بن أبي القاسم طاهر بن يحيى النسابة بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(١).

أمير المدينة المنورة أيام الخليفة المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله العباسي (٥٦٣-٥٨٣هـ/ ١١٦٨-١١٨٧م)، وليها بعد أخيه الحسن بن مهنا الأعرج(٢).

ويذهب السيد ضامن إلى أنّ إمارته على المدينة كانت قبل سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م(٣).

قال عنه المجد الفيروزآبادي: «كان جميل النقيبة، وسيم المُحيَّا، قَيِّم الوجه، أسحج أبلج، مَنْظَرانياً بهياً، وضَّاحاً غسَّانياً، ذا رأي سديد، وشأو بعيد»(٤).

وقال السيد ضامن: «كان سيداً جليل القدر، رفيع المنزلة، عظيم الشأن، كريماً سخيّاً، قويَّ الجنان، ذا مروّة وشهامة، وفراسة وشجاعة، وعقل وكمال، وآراء صائبة ووجاهة»(٥).

وصفه العماد الأصفهاني: «وهو ذو شيبة تَقِدُ كالسِّراج، وما برح مع السلطان مأثور المآثر، مذكور المفاخر، ميمون الصُّحبة، مأمون المحبَّة، مبارك الطلعة، مشاركاً في الوقعة،... ورأيت السلطان له مشاوراً محاوراً...»(٦).

---

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٤٠-٣٤٣، وتحفة لب اللباب: ص ٢٣١-٢٣٥، وغاية المرام: ج ١ ص ٥٤٤ رقم ١٥٠، العقد الثمين: ج ٧ ص ٣١ رقم ٢٣٢٦.

(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤٠٤ رقم ٣٤٦٤، والمنهل الصافي: ج ٤ ص ١٩٠، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٤.

(٣) تحفة لب اللباب: ص ٢٣٢.

(٤) المغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٦٥ رقم ٦٢.

(٥) تحفة لب اللباب: ص ٢٣١-٢٣٢.

(٦) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤٠٥، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٦٥-١٢٦٦.

قال أبو شامة: «كان السلطان صلاح الدين محبّاً في الأمير قاسم بن مهنا، يستصحبه في غزواته، ويستنصر ببركاته في فتوحاته، حضر معه أكثر الفتوحات في تلك السنين، وكان السلطان يجلسه منه على اليمين، ويستوحش بغيبته، ويستأنس بشيبته، وما حضر مع السلطان حصار بلد أو حصن إلا فتحه الله على المسلمين. وكان السلطان يعتقد بركة نسبه الطاهر، ويتحفه ويكرمه بالمكارم البواهر»[١].

انفرد الأمير قاسم بن مهنا بإمارة المدينة من غير منازع ولا مشارك، خمساً وعشرين سنة[٢].

قال عز الدين بن فهد: «ووجدت بخط بعض المكيين أنه قدم إلى مكة في موسم سنة إحدى وسبعين وخمسمائة مع الحاج، وأنّ أمير الحاج سلّم إليه مكة ثلاثة أيام، ثم سلمت بعد ذلك لداود بن عيسى بن فليتة»[٣].

وهو أول أمير من أمراء المدينة بعد القرن الثالث الهجري، يخرج من حدود الحجاز، ويلتقي برجال العصر، ويقيم معهم علاقات وطيدة، تعود آثارها الطيبة على المدينة وأهلها.

سافر إلى العراق سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م عندما تولى المستضيء، وأكدّ ولاءه للعباسيين، فأصدر الخليفة مرسوماً بتثبيته في الإمارة؛ تأكيداً لارتباط المدينة بالخلافة العباسية[٤].

وقد حكى ابن النجار في «تاريخ المدينة» أنّ أول من كسا الحجرة الشريفة الحسين

---

(١) الروضتين: ج ٢ ص ١٣٤، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٦٦-١٢٦٧، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤٠٤، وغاية المرام: ج ١ ص ٥٤٥-٥٤٦، وتحفة لب اللباب: ص ٢٣٢، وتاريخ ابن خلدون: ج ٥ ص ٣١٦، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٤.

(٢) غاية المرام: ج ١ ص ٥٤٥، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٤..

(٣) غاية المرام: ج ١ ص ٥٤٥.

(٤) الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، لجميل حرب: ص ٦٨ن وذكر السخاوي أنّ ذلك كان في خلافة المستعلي لا المستضيء. انظر: التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٢٩٧..

بن أبي الهيجاء، صهر الصالح طلائع بن رذيك وزير العاضد، والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين، .. ولما جهَّزوها إلى المدينة، ا متنع قاسم بن مهنا، أمير المدينة، يومئذٍ، من تعليقها حتى يأذن فيه المستضيء، فنفّذ الحسين بن أبي الهيجاء قاصداً إلى بغداد في استئذانه في ذلك، فأذن له، فعلقت الستارة على الحجرة الشريفة نحو سنتين(١).

وتردد الأمير قاسم على بغداد بعد ذلك عدة مرات، ونال أعطيات الخليفة له وللمدينة(٢).

بل بدل -بأمر المستضيء- ستارة الحجرة النبوية بستارة بعث بها المستضيء، وكانت من الإبريسم البنفسجي، عليها الطرز والجامات البيض المرقومة، وعلى دور جاماتها مرقوم «أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي»، وعلى طرازها اسم الإمام المستضيء بالله.(٣)

وسافر في العام التالي إلى مصر واتصل بصلاح الدين الأيوبي، فأحبَّه وقامت بينهما علاقات طويلة، واصطحبه في بعض معاركه، وكان يتفاءل بوجوده معه ويستبشر بالنصر(٤).

ورغم انهماك صلاح الدين الأيوبي في الحروب ضد الصليبيين إلا أنه التفت إلى المدينة المنورة، واهتم بأحوالها بعد أن اتصل به أميرها القاسم بن مهنا، فقد أرسل إليها أموالاً كثيرة لإصلاح مرافقها، وتأمين الطريق إليها، وحفر الآبار فيها، وأرسل أموالاً للقبائل المقيمة على طريق الحرمين كي لا يتعرضوا للحُجَّاج والمسافرين، وطلب من أمير المدينة وأمير مكة إبطال الرسوم المفروضة على الحُجَّاج والزائرين، وعوضهم عما كانوا يحصلون عليه من خزانته(٥).

---

(١) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٦.
(٢) مضمار الحقائق وسر الخلائق، محمد بن تقي الدين الأيوبي: ص ٣٩-٤٠.
(٣) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٧.
(٤) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٤، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٣٧٩.
(٥) النجوم الزاهرة. ج ٦ ص ٧٨، والمدينة في العصر الأيوبي: ص ٨٩-٩٠.

وأرسل ثمانية آلاف إردباً قمحاً لتُفرَّق على أهل الحرمين، وأرسل أربعة وعشرين خادماً خصيّاً لخدمة الحرم، وجعل عليهم شيخاً اسمه بدر الدين الأسدي، وكان هؤلاء بداية فئة الأغوات التي توالت على خدمة المسجد النبوي في الأجيال التالية، وأوقف لهم صلاح الدين قريتي قبالة ونقادة في صعيد مصر ليكون دخلهما رواتب دائمة لهم ولمن يخلفهم[١].

وأقنع صلاح الدين القاسم بن مهنا بحذف عبارة (حي على خير العمل) من الأذان، فاستجاب القاسم لطلب صلاح الدين، وأمر بحذف تلك العبارة من الأذان في المدينة فحذفت[٢].

وفي سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م سقطت حمامة على أحد قبور الحجرة الشريفة، فأمر الأمير قاسم شيخ الموصليّة بالموصل عمر السابي لينزل، فنزل ودخل بشمعة من باب الخوخة التي بناها عمر بن عبد العزيز في السقف، فوجد الطير قد مات فأزاله[٣].

وفي الحادي عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م ظهر من الحجرة الشريفة رائحة منكرة، فأمر الأمير قاسم بيان الأسود الخصيّ، ومصطفى الموصلي متولّي عمارة المسجد، وهارون السادي الصوفي بعد التماسه وبذل أمواله لينزل معهما، فنزلوا وأظهروا هرّة قد سقط من الشباك الأعلى، ومات في الحائر بين الحجرة والجدار، فما خرج هارون إلا وكفّ بصره[٤].

وتذكرنا هذه الحادثة برواية، يرويها الشيخ الكليني رحمه الله في الكافي بسنده، قال: عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد البرقي، عن جعفر بن المثنى الخطيب[٥]

---

(١) بدائع الزهور: ج ١ ص ٧٢، والسلوك: ج ١ قسم ١ ص ٥٧.
(٢) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: ج ١ ص ١٧٦، وبدائع الزهور في وقائع الدهور: ج ١ ص ٧٢.
(٣) تحفة لب اللباب: ص ٢٣٢.
(٤) تحفة لب اللباب: ص ٢٣٢.
(٥) قال المجلسي: «الحديث مجهول، وكأنّ في السند سقطاً أو إرسالاً؛ فإنّ جعفر بن المثنى من

قال: كنت بالمدينة وسقف المسجد الذي يشرف على القبر قد سقط، والفعلة يصعدون وينزلون، ونحن جماعة، فقلت لأصحابنا: مَن منكم له موعد يدخل على أبي عبدالله عليه السلام الليلة؟ فقال مهران بن أبي نصر: أنا، وقال إسماعيل بن عمار الصيرفي: أنا، فقلنا لهما: سلاه لنا عن الصعود لنشرف على قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما كان من الغد لقيناهما، فاجتمعنا جميعاً، فقال إسماعيل: قد سألناه لكم عما ذكرتم، فقال: «ما أحب لأحد منهم أن يعلو فوقه، ولا آمنه أن يرى شيئاً يذهب منه بصره، أو يراه قائماً يصلّي، أو يراه مع بعض أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

والمعروف عند أهل المدينة أنّ النظر إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسبب العمى[2]، وعندما يقع شيء في الضريح يربط منديل على عين طفل ويدخل بعد ذلك إلى الضريح ليخرج حاجتهم. وقوله عليه السلام «ما أحب» في هذه الرواية تفيد الكراهة إلا أنّ العلة التي تليها دليل على الحرام[3].

وقال العلامة الشعراني في تعليقته على شرح المازندراني: «النهي عن الإشراف لترك الأدب، وهو علّته كما ذكره الشارح أولاً، لكن يذكر للتنفير عن بعض المنهيّات أمور نظير قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[4] في التنفير عن الغيبة. وقد أبدع عليه السلام في التعبير؛ لأنّ كلّ من ينفّر عن حرام لا بدّ أن يشبهه بشيء خبيث ويمثّله في صورة موهنة مزجرة، ألا ترى أنه نفّر عن النظر إلى الشطرنج بأنّ الناظر إليه كمن ينظر إلى فرج أمّه، ومثّل المال الحرام بعرق خنزير في كفّ مجذوم. وذكر الخبائث هنا إساءة أدب، لكنه ذكر عليه السلام ما يزجر عن الإشراف ولا يوهن ولا يستلزم ترك الأدب، وهذا أعلى درجات البلاغة»[5].

أصحاب الرضا عليه السلام ولم يدرك زمان الصادق عليه السلام»، مرآة العقول: ج ٥ ص ٢٧٢.

(١) الكافي: ج ١ ص ٤٥٢ ح ١.

(٢) أنظر: التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٥١٦، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٧.

(٣) أنظر: شرح الكافي للمازندراني: ج ٧ ص ١٩٤.

(٤) الحجرات: ١٢.

(٥) انظر: شرح الكافي للمازندراني: ج ٧ ص ١٩٤.

حملة صليبية تهدد المدينة:

بعد أن تعددت الضربات التي كالها صلاح الدين الأيوبي لأرناط[1] في حصني الكرك والشوبك، فكر أرناط أن يصيب المسلمين في مقتل، وأن يحقق مشروعاً كبيراً طالما حلم به، ورأى أنّ ذلك المشروع يحقق له عدة نتائج عسكرية واستراتيجية واقتصادية، وكان هذا المشروع يتلخص في توسيع دائرة الصراع بين الصليبيين والمسلمين، ليشمل منطقة البحر الأحمر، ومن هناك مهاجمته أقدس بقعتين لدى المسلمين وهما الحرمان الشريفان في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وقد فطن القادة والمؤرخون المسلمون إلى الأهداف الحقيقية لهذا المشروع الصليبي حيث أورد المؤرخان أبو شامة وابن واصل رسالة للقاضي الفاضل

---

(١) أرناط أو رينالد من شايتون بفرنسا، برزت شخصيته على مسرح الأحداث في بلاد الشام وفلسطين في أعقاب الحملة الصليبية الثانية وقبيل مقدم الحملة الصليبية الثالثة، فقد كان صليبياً مغامراً، قدم من مدينة شاتيون بفرنسا، بدافع الطمع، وباحثاً عن المجد والمغامرة، التي سيطرت على كثيرين ممن شاركوا في الحملات الصليبية من أمراء وإقطاعي أوروبا. ومنذ بداية وصوله إلى المنطقة برزت شخصية أرناط كشخصية غريبة وعجيبة اتسمت بالمكر والخبث والتهور، وذات قدرة على التأثير على معظم الشخصيات الحاكمة، تنزع إلى السيطرة، ولم يسلم من ضغوطه وممارساته ملوك بيت المقدس الذين عاصرهم. وكثيراً ما اختلفت سياسات هؤلاء وخططهم مع تصرفاته وطموحاته، وأثار أمامهم العديد من المشاكل والاضطرابات والضغوط. طغت على شخصيته وتصرفاته القسوة والتصلب والتنكر للعهود والمواثيق، وكان قرصاناً خطيراً وقاطعاً للطرق سفاكاً للدماء، كلما كان ذلك محققاً لمصلحته وطموحاته كما أنه امتلك من صفات المكر والدهاء والذكاء ما ساعده في تحقيق كثير من طموحاته ومكنه من السيطرة على الآخرين. قال عنه ابن الأثير: «كان البرنس أرناط، صاحب الكرك، من أعظم الفرنج وأخبثهم، وأشدِّهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم»، ويصفه أبو شامه بأنه «كان أغدر الفرنجيه وأخبثها، وأفحصها عن الردى والرداءة، وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة وأنكثها وأحنثها». (انظر: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، سعيد عبد الفتاح عاشور: ص ٥٠؛ الحرب المقدسة، كارين أرمسترونج، ترجمة سامي الكعكي: ص ٣٠٤؛ الكامل في التاريخ: ج ٩ ص ١٥٢؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة: ج ٢ ص ٧٥).

يتحدث فيها عن أهداف ذلك الغزو، وأنّ الفرنج أرادوا من ورائه تحقيق هدفين خطيرين، أولهما قطع طريق الحجاج إلى مكة، وضرب العالم الإسلامي في قلبه، وطعن المسلمين في قبلتهم، وثانيهما: أنّ الصليبيين كانوا يزعمون الاستيلاء على عدن في جنوب البحر الأحمر لأخذ تجار اليمن، وأكارم عدن، وبذلك يتمكنون بفضل السيطرة على إيلة في الشمال وعدن في الجنوب من إغلاق البحر الأحمر في وجه أعدائهم واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندي(١).

بينما حدَّد المؤرخون الغربيون أنَّ هدف هذا المشروع كان التحكم في حركة المرور الدولية بين آسيا ومصر عن طريق باب المندب(٢)، فيما ذهب البعض الآخر منهم إلى التقليل من أهداف هذا الغزو وأنها تتمثل في النهب فقط(٣)، وفي الضغط على صلاح الدين ليخفف من غاراته على مدن بلاد الشام وفلسطين، وحرمانه من الأموال الطائلة التي تدرّها تجارة البحر الأحمر مع أوروبا، وهي التي تعينه على مواصلة نضاله ضد الصليبيين(٤).

كما أنّ ابن جبير يرى أنّ أرناط كان يهدف إلى عدم السماح للمسلمين بزيارة مكة والمدينة، إلا بعد دفع مبلغ كبير يفرضه هو بنفسه(٥).

وأياً كانت الأهداف التي خطط أو هدف لها أرناط من وراء حملته في البحر الأحمر وصولاً إلى منطقة الحجاز، فإنّ هذه العملية شكلت خطورة كبيرة على المسلمين، وعلى الوجود الإسلامي، وعلى الصراع بين المعسكرين الإسلامي والصليبي، وكذلك أعطت نموذجاً حياً على مغامرات أرناط وجرأته، التي لم يسبقه اليها أحد من الصليبيين.

---

(١) كتاب الروضتين، أبو شامة: ج ٢ ص ٣٧، ومفرج الكروب، ابن واصل: ج ٣ ص ٣١٧.
(٢) عالم الصليبيين، يوشع براور، ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفه: ص ٧٤٥.
(٣) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ترجمة أحمد الشيخ: ص ١٩١.
(٤) قلعة فرعون ساحة للصدام الصليبي والإسلامي، رياض مصطفى شاهين، بحث في كتاب ندوات اتحاد المؤرخين العرب رقم ١١، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ١٢٤.
(٥) رحلة ابن جبير: ص ٣٤.

كانت الخطوة الأولى لحملة أرناط هي قيامه في شتاء سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م بالتحرك على رأس جيش كبير نحو جنوب حصن الكرك(١)، وكان اختياره لفصل الشتاء حتى يحمي قواته من حرارة الصيف، إلا أنّ الحملة فشلت فشلاً ذريعاً، بسبب طول المسافة وتعرقل الإمدادات والمؤن عن جنده، والأهم من ذلك تنبه المسلمين إلى هذا التحرك فتصدوا له مبكراً، حيث قام عز الدين فروخ شاه، نائب صلاح الدين على دمشق، بتحرك سريع، فقصد إمارة الكرك وبدأ محاصرتها، وعندما علم أرناط بذلك، عاد مسرعاً إليها قبل أن تقع في أيدي المسلمين، وهكذا فشلت الحملة، وكل ما حققته هو مهاجمة إحدى القوافل التجارية بالقرب من تيماء. إلا أنّ هذه الحملة أتاحت له التعرف على طبيعة البلاد التي مرَّ بها، والمصاعب التي يمكن أن تواجهه.

وأتبع ذلك بتحرك آخر، حيث قام بمهاجمة المناطق المجاورة للكرك، وكان يهدف إلى الاستيلاء على مدينه إيلة(٢)، والتي سبق أن استعادها صلاح الدين الأيوبي، ولكن حاميتها استبسلت في الدفاع عنها، فلم يستطيع أن ينال منها(٣).

أتاحت له هذه التحركات الاستكشافية أن يستكمل مخططه، ويوفر له جميع عوامل النجاح، كما تصور، وتطورت لديه فكرة المهاجمة عن طريق البحر، بعد أن فشلت محاولته البرية، وجهَّز أرناط كميات كبيرة من الأخشاب، والتي أمدَّته بها غابات الكرك، كما استدعى أمهر الصناع من مختلف مدن الشام التي تحت سيطرة الصليبيين، وبدأو في صناعة مراكب منفصلة، وقام بتجربة أجزاء منها في البحر الميت ليتأكد من سلامتها، ثم أعاد فصلها مرة أخرى، وحملها على الجمال التي استأجرها من العرب المجاورين، حيث نقلت إلى خليج العقبة، وأعاد الصنَّاع تركيبها وإعدادها للإبحار(٤).

---

(١) أمارة الكرك الأيوبية، د. يوسف درويش غوانمه: ص ١٢٨.

(٢) إيلة: إيلات الحالية، مدينة على البحر الأحمر وتقع في خليج العقبة، وكانت قديماً آخر الحجاز وأول الشام، وكانت نقطة تجمع حجاج مصر والشام، وتعتبر المفتاح الشمالي للبحر الأحمر، أنظر معجم البلدان: ج ٢ ص ٢٩٢.

(٣) كتاب الروضتين: ج ٢ ص ٣٧.

(٤) رحلة ابن جبير: ص ٣٤، باركر، مرجع سابق، ص ٨٢.

وتذكر المراجع أنّ عدد الجنود الذين استقلوا هذه السفن والتي كانت تسمى بـ«الغربان» بلغوا أكثر من ١٥٠٠ مقاتل[١]. حيث ابحروا في خريف ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، وكان هدفهم إيلة، والتي تمكّنوا من الاستيلاء عليها[٢]، ثم قاموا بمهاجمة جزيرة فرعون، والتي تعتبر مفتاح خليج العقبة، ولكنهم فشلوا في تحقيق هدفهم، بسبب البسالة والمقاومة التي أبداها أهلها، ولأنّ أرناط كان لا يريد إضاعة وقته في محاصرتها، فقرّر أن يترك سفينتين لمحاصرتها ومناوشه أهلها ومنع المياه والمؤن عنهم حتى يستسلموا[٣].

ومن إيلة قرّر أرناط أن يطوّر خطته العسكرية، وأمر أن تسير فرقه من جيشه براً وبمحاذاة الساحل وتكون وجهتها مدينة تبوك، للتصدِّي لأي قوة إسلامية تأتي من البر وتحاول قطع طريقه.

ومن هناك، واستباقاً لأي تحرك إسلامي، قرّر أن يتوغّل في البحر الأحمر بعد أن انحرف إلى الساحل المصري، فواصل إبحاره جنوباً، دون أن يتعرض لأي مقاومة حتى وصل إلى شواطئ ميناء عيذاب[٤]، وقام جيشه هناك بإحداث محرقه للسفن الراسية على الشاطئ، حيث استولوا على تسعة عشر مركباً، وقاموا بنهبها

---

(١) إمارة الكرك الأيوبية، د. يوسف درويش غوانمه: ص ١٢٩، والغراب وجمعها غربان هو نوع من المراكب القديمة التي عرفت منذ الرومان واستخدمت في البحر الأحمر والمتوسط حتى عهد الدولة العثمانية، وسُمّيت بهذا الاسم لأنّ مقدمتها تشبه رأس الغراب، واستخدمت في المعارك الحربيه، وكانت تُطلى باللون الأسود، لمزيد من التفاصيل (انظر: البحرية في مصر الإسلامية، سعاد ماهر: ص ٣٥٩).

(٢) الحملات الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة نور الدين خليل: ج ٢، ص ٤٩٦.

(٣) رياض شاهين، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٤) عيذاب: ميناء على الساحل الغربي بالبحر الأحمر، وهي ميناء تجاري يستقبل التجار القادمين من اليمن وهي الميناء الرئيسي للحجاج المغادرين من مصر إلى الأراضي المقدسة، وكانت ذات نشاط تجاري كبير، ومقصد التجار القادمين من الهند، لمزيد من التفاصيل عن عيذاب (انظر: الأهمية التاريخية لميناء عيذاب، د حياة الحجي، ندوة اتحاد المؤرخين العرب، رقم ١١، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٨٣.

وأشعلوا فيها النيران[١]. وقاموا بعمليه قرصنة رهيبة حيث استولوا على مركب كان يقلّ حُجّاجاً قاصدين جدّة، كما استولوا على عدد من السفن القادمة من الهند واليمن[٢].

وأثارت هذه الأحداث الرعب لدى سكّان مدينة عيذاب، والذين لم يسبق لهم رؤية أمثال هذه السفن الفرنجية، وأمثال هؤلاء القوم أو المحاربين[٣]. وازداد رعبهم وخوفهم عندما نزل أرناط بقواته إلى البر وبدأ في نهب الدور وقتل الرجال ونهب المؤن، وأحدث هناك مذبحه لم تسلم منها قوافل الحجاج، أو أبناء المدينة[٤].

ومن عيذاب قرَّر أرناط في جرأة عجيبه أن يتوجه إلى الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وفي طريق انتقاله للساحل الشرقي لم تسلم السفن التجارية من اعتداءاته ونهبه، وأخيراً وصلوا إلى رابغ على ساحل البحر الأحمر، ومنها انتقلوا إلى الحوراء حيث قرَّر أرناط أن يبقى بعض جنوده فيها، وأن ينتقل بجزء منهم لمهاجمة المدينة المنورة[٥].

قضيتان هامتان: الأعراب وعيون صلاح الدين

وقبل أن نواصل تتبع مغامرة أرناط والنتائج التي انتهت إليها، نجد لزاماً أن نتوقف لمناقشة قضيتين هامتين برزتا خلال هذا الدور من المغامرة، وكان لهما دورهما في تطور الأحداث، وتصاعدها على هذه الوتيرة.

النقطة الأولى هي المساعدات المحلية التي تلقاها أرناط، من البدو والقراصنة المحليون والتي أعانته على المضي في مغامرته، وتحقيق النجاح في هذا الدور، فيذكر المؤرخون أنّ أرناط قد استفاد كثيراً من هذا الدعم المحلِّي،

(١) رحلة ابن جبير: ص ٣٥.
(٢) الحملات الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة نور الدين خليل: ج ٢ ص ٤٩٦.
(٣) الكامل، ابن الأثير: ج ٩ ص ١٥٩.
(٤) مفرج الكروب، لابن واصل: ج ٢ ص ١٢٧، يوشع براور، مرجع سابق، ص ٧٥.
(٥) الروضتين، أبو شامة: ج ٢ ص ٣٧.

ومن بعض الخيانات التي قدَّمها البدو منذ البداية، فمثلاً هناك إجماع على أنَّ أرناط قام بنقل سفنه من الكرك إلى خليج العقبة على ظهور الجمال التي حصل عليها بـ« الكراء »[١] من البدو القاطنين هناك، ويصف أحد المؤرخين هؤلاء بأنهم كانوا أصدقاء متنكرين[٢]؟! فتنكرهم يدل على أنهم كانوا من غير جنس الصليبيين، ولا يريدون أن يتعرف أحد على شخصياتهم؟!

وبطبيعة الحال فالأمر قد لا يبدو مستغرباً كثيراً، فأمثال هؤلاء الخونة الذين يعينون الأعداء مقابل، أموال ورشى يتواجدون دائماً في كل الحروب، وفي كل أنحاء العالم، وفي كل مراحل التاريخ، سواء أولئك الذين يؤجرون جهودهم أو يعطون ولاءهم، وحفلت حقبة الحروب الصليبية بالكثير من هؤلاء، وأحياناً يكونون من الناس العاديين المغامرين أو الخارجين عن القانون والراغبين في الكسب السريع، وأحياناً يكونون زعامات معروفه معادية لهذا النظام أو ذاك، ولها مصالح مالية أو سياسية لتقديم العون لهؤلاء الأعداء.

كما أنّ أرناط حظي ببعض المساعدة من القراصنة المحليين، فقد قام بعض هؤلاء من القراصنة بالعمل أدلّاء له في البحر، ودلّوه على سفن المسلمين، وكانوا في مقدمة سفنه بعد أن غادر جزيرة فرعون متوجهاً إلى مدينة عيذاب، فالصليبيون لم يكن لهم سابق معرفه بموانئ البحر الأحمر وإنما هؤلاء القراصنة هم الذين كانوا يسيرون هذه السفن[٣]، وكانوا معهم كأدلّاء على موانئ الحجاز لاستكمال الغزوة.

ويذكر المؤرخ أبو شامه أنّ هؤلاء الخونة كانوا من الأعراب، ويصدر حكمه عليهم بترديده « من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً »[٤].

وليس الأعراب فقط الذين لعبوا أدواراً مثل هذه، وكما قلنا فإنّ حقبة الحروب

---

(١) رحلة ابن جبير: ص ٣٤.
(٢) شعلة الإسلام، هارولد لامب، ترجمة محمود عبدالله يعقوب: ص ٩٥.
(٣) الحملات الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة نور الدين خليل: ج ٢ ص ٤٩٦.
(٤) الروضتين: ج ٢ ص ٣٧.

الصليبية، وجولاتها المتعددة، شهدت الكثير من أمثال هؤلاء الذين عملوا مع الصليبيين، مدفوعين بأطماعهم، أو وراء مصالح يحققها لهم التعاون مع العدو.

والنقطة الثانية التي تستحق الوقوف والمناقشة هي: أين كان صلاح الدين وأين كان وكلاؤه وحكامه على هذه الأقاليم التي شهدت بداية الغزوة أو كانت ضحية لها؟! وأين كانت عيونه وجواسيسه الذين يُفترض أن ينشطوا في أوقات الحروب وأوقات الأزمات؟! وبالذات أمام أرناط الذي كان يثير القلاقل أمام المسلمين؟!

وأين كان أسطوله الحربي سواء على الشاطئ المصري أو الحجازي؟!

ولا شك أنّ هناك ثغرات عديدة استفاد منها أرناط في تحقيق عنصر المفاجأة والمبادأة. فصلاح الدين كان مشغولاً في تلك الفترة بالصراعات المحتدمة في حلب والموصل، ومنهمكاً في هذا الصراع في محاولة منه لتوحيد الجبهة الإسلامية، وهو انشغال أحسن أرناط استغلاله أحسن استغلال حيث مضى في مشروعه بسرية وتكتم، مختاراً أفضل الأوقات وحتى دون أن يعلم بقية القيادات الصليبية بهذا المشروع؟!

كما أنّ تركيز صلاح الدين في الأسطول البحري كان منصبّاً على البحر المتوسط، فلم يكن لديه أي قطع بحرية في البحر الأحمر، ولم يسبق أن عرفت شواطئه أو مياهه أي تواجد للصليبيين.

تبقى نقطة الجواسيس أو العيون، الذين كان يجب أن يبثّهم صلاح الدين في مختلف المناطق الصليبية، وبالذات المناطق المثيرة للقلق مثل المنطقة التي كان يسيطر عليها أرناط في الشوبك وحصن الكرك! لقد عرفت الحروب مع الصليبيين، شأنها شأن كل الحروب، العيون والجواسيس، وكان صلاح الدين يستخدمهم في مراقبة نشاط الصليبيين، وكانوا يدخلون إلى القلاع والمعسكرات الصليبية متنكرين بزي بائعين أو عابرين، وكان العديد منهم من النصارى العرب، بل والنصارى

اللاتين، بل ومن داخل بلاطات الأمراء والبارونات الصليبيين[١]. ولكن يبدو أنه في هذه الفترة لم يتم الاستفادة منهم بشكل عملي، إما لأنهم لم يتوفروا في هذه المنطقة، أو أن يكون أرناط قد استطاع شراء سكوتهم، أو أن يكون استطاع أن يخفي أمره وأحسن التكتم حتى أنه لم يكن ممكناً كشف أمر هذه المغامرة إلا بعد فترة طويلة، يقدرها المؤرخون المسلمون بأربعة أشهر[٢]، بينما يقدّرها أحد المؤرخين الغربيين في مبالغة واضحة بأنها استغرقت قرابة العام[٣].

الرد الإسلامي على مغامرة أرناط

عندما وصلت أخبار مغامرة أرناط إلى صلاح الدين، وقد أصبح أمرها مكشوفاً بوصولها إلى الساحل الحجازي، وتهديدها المباشر للحجاج الذين كانوا في طريقهم إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج لذلك العام[٤]، بادر صلاح الدين من مقر إقامته في دمشق، إلى اتخاذ الخطوات اللازمة للتصدي لهذه المغامرة الخطيرة، ولم تثر أخبار هذه المغامرة صلاح الدين وحده وإنما تجاوبت معها مختلف القوى الإسلامية، حتى أنّ أتابكة حلب والموصل الذين كانوا في صراع مع صلاح الدين، وفي تحالفات مع الصليبيين ضده أوقفوا هذه الصلات وانحازوا إلى موقف صلاح الدين[٥].

(١) يذكر المؤرخ أبو شامة أنّ سيبيل الزوجة الثالثة لبوهيموند الثالث، أمير أنطاكية، كانت تتصل سراً بصلاح الدين الأيوبي، وتخبره بتحركات الجيوش الصليبية أولاً بأول في مقابل ما كان يعطيه لها من أنفس الهدايا، وانتقاماً من زوجها. انظر: الروضتين: ج ٢ ص ٥٢ و ١٣١.

(٢) مفرج الكروب، ابن واصل: ج ٢ ص ٣١٢، والخطط المقريزية: ج ١ ص ٣٠٠.

(٣) شعلة الإسلام، هارولد لامب، ترجمة محمود عبدالله يعقوب: ص ١٩٤.

(٤) حدَّد المؤرخون المسلمون أنّ مغامرة أرناط بدأت في الفترة من شعبان وانتهت بنهاية شهر ذي القعدة لعام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، ومعنى ذلك أنها كانت في فترة توافد الحُجّاج إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج، ولذلك فإنّ لقاءها الحجاج والتعرض لهم سواء في البر أو البحر كان حتمياً. انظر: مفرج الكروب، ابن واصل: ج ٢ ص ٣١٢، والخطط المقريزية: ج ١ ص ٣٠٠.

(٥) الحملات الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة نور الدين خليل: ج ٢، ص ٤٩٦.

سارع صلاح الدين في الكتابة إلى أخيه العادل نائبه في مصر وهو كان الأقرب إلى الأحداث، والمتصرف في مركز دولة صلاح الدين، لاتخاذ الإجراءات اللازمة للتصدي لأرناط، وبادر العادل إلى تكليف القائد حسام الدين لؤلؤ[١]، قائد أسطول صلاح الدين في مصر، لإعداد الأسطول للتصدي لهذه المغامرة الصليبية، ولأنّ المعلومات كانت قليله عنها وعن المدى الذي وصلته والزمن الذي قطعته فكان لا بد من تتبع تحركاتها منذ البداية، وهنا يظهر أنه لم يكن هناك أسطول جاهز، أو في مستوى التصدي لهذه المغامرة في سواحل البحر الأحمر، لذلك فقد قام قائد الأسطول بإعداده في خليج السويس، ووصلته إمدادات من الإسكندرية والقاهرة، ثم الانتقال به إلى إيلة (إيلات) وهي نفس المنطقة التي ابتدأت منها محاولة أرناط وهناك تم استعادة إيلة من الصليبيين، في سهولة تامة، لأنّ أرناط لم يترك بها سوى بعض جنوده[٢].

ويذكر المؤرخون هنا أنّ قوام هذا الأسطول والجيش الذي رافقه، كان في أغلبه من المقاتلين المغاربة ويقدّمون تبريرات لذلك منها أنّ المغاربة اكتسبوا مهارة في ركوب البحار من خلال عملهم في بحر الروم (البحر المتوسط)، وكانت الدولة الفاطمية، التي على أنقاضها قامت الدولة الأيوبية، تعتمد على هؤلاء البحارة اعتماداً كبيراً[٣]، وأنه كان للمغاربة وضعهم المتميز في مختلف أجهزة الدولة ومنها الأسطول البحري بشقيه العسكري والتجاري، وهو ما استمر في دولة صلاح الدين الأيوبي، بل وفي بعض الأحيان تم التوسع فيه[٤].

وكلها تبريرات تبدو معقولة ومقبولة إلا أنّ الأهم من ذلك أنّ مغامرة أرناط

---

(١) حسام الدين لؤلؤ: كان أحد كبار قادة صلاح الدين، ومن أشجع الفرسان، شارك في العديد من المواجهات مع الصليبيين، وكان واسع الثراء، وكثير الجود بماله، توفي في القاهرة سنة ٥٩٦هـ. الروضتين: ج ٢ ص ٢٤٠.

(٢) السلوك، المقريزي: ج ١ ص ٣٩.

(٣) المقدمة، لابن خلدون: ص ٢٣١.

(٤) الخطط المقريزية: ج ٢ ص ٢١٣.

قد استفزت جميع المسلمين، ومنهم المغاربة، وهذا لا ينفي أنّ آخرين من جنود صلاح الدين قد شاركوا في حملته للتصدي لأرناط منهم من أهل الشام ومصر والترك وغيرهم[١].

في إيلة تم توجيه ضربة قوية للصليبيين الذين كانوا يعسكرون في جزيرة فرعون، فأُحرقت مراكبهم، وقُتل وأُسر عدد كبير منهم، واستعيدت المدينة[٢]، وبدأ القائد حسام الدين لؤلؤ، يتتبع أخبار الصليبيين، فعلم أنهم ساروا إلى عيذاب فسارع إليها على عجل، إلا أنه لم يعثر على أحد منهم ولكنه عثر على أثار تخريبهم وتدميرهم للمدينة، ونهبهم لسكانها وقاصديها من حُجَّاج بيت الله الحرام[٣].

ومن هناك عدَّل مساره متتبعاً أثر الصليبيين إلى الساحل الحجازي للحاق بأسطولهم الذي كان قد أثار الرعب والنهب على الشاطئ الحجازي والذي وصلت بعض سفنه إلى مدينة رابغ، وتُرك القسم الأكبر منها في الحوراء، وكان عدد من التجار والحجاج قد تعرضوا للأسر والنهب من الصليبيين.

قرَّر أرناط أن يصاحبه عدد من فرسان الداوية[٤]، وقرابة ٣٠٠ من المقاتلين الصليبيين، وبرفقتهم بعض المرشدين من الأعراب، التوجه إلى المدينة المنورة،

---

(١) التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، نظير سعداوي: ص ٢٩٣.

(٢) جزيرة فرعون، جزيرة صغيرة من الصخور الجرانيتية الصلبة، وتبعد عن نويبع حوالي ستين كيلومتراً، وتعتبر من الجزر المرجانية ويبلغ حجمها حوالي ألف متر وطولها شمالاً وجنوباً ٣٠٠ متر، ويبلغ عرضها في أوسع نقطه مائة وخمسون متراً، بنيت بها قلعة بها عدة أبراج للمراقبة، ولعبت دوراً كبيراً في فترة الحروب الصليبية، لمزيد من التفاصيل، انظر: قلعة فرعون، رياض شاهين: ص ٥٣.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٩ ص ١٦٠.

(٤) الداوية والاسبتارية: منظمتان صليبيتان تشكلتا في بداية قيام مملكة بيت المقدس للعناية بمرضى الصليبيين وعلاجهم، ثم تحولت إلى منظمات عسكريه، واتخذت طابعاً حربياً، وصار عليهما أن تدافعا عن الممتلكات الصليبية في بلاد الشام وحماية أماكنهم المقدسة، ومحاربة المسلمين، وساعدهم في ذلك ما جمعوه من ثروة طائلة وما استولوا عليه من ممتلكات عديدة حتى صار لهم مدن وقلاع وجيوش، انظر: الحركة الصليبية، سعيد عاشور: ج ١ ص ٥٠٠.

وترك بقية جيشه في الحوراء ورابغ[١]. وفي ذلك الوقت وصل الأسطول الإسلامي إلى ساحل الحوراء، وقام بالاصطدام بالسفن الصليبية وأعمل فيها الحرق والقتل، وفر عدد من الحراس الصليبيين إلى الجبال والشعاب المجاورة فعمل المسلمون على مطاردتهم مستعينين، بالخيول التي حصلوا عليها من أهل المنطقة[٢]، وعلى مدى خمسة أيام استمرت المطاردة وحصدت عدداً كبيراً من الأسرى والقتلى الصليبيين[٣].

لقد استفاد المقاتلون المسلمون ولا شك من التقسيم الذي تمَّ في الجيش الصليبي، ومغادرة قيادته، وعدد من فرسانه له وتركه على الساحل، والتوجه إلى الداخل، واستطاعوا مباغتة هذا الجزء بعد أن كانوا مطمئنين إلى عدم وجود تحرك إسلامي يتصدى لهم، وشعورهم بالزهو من الانتصارات التي استطاعوا تحقيقها في المحطات السابقة. إنّ مغادرة أرناط ومعه عدد من مقاتليه وفرسانه قد أفقد الجيش الصليبي لقيادة قوية تستطيع تدبر الأمور، كما أن انشغال هذا الجيش بتتبع التجار والسكان المسلمين ونهبهم، قد حقق مع المباغتة التي قام بها أسطول حسام الدين لؤلؤ انتصاراً سريعاً وحاسماً أفقد الصليبيين، اطمئنانهم السابق، وأدَّى إلى حرق سفنهم التي كانت راسية على الشاطئ، وأسر وقتل الكثير منهم.

وبادر حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول الإسلامي بعد أن علم أن أرناط قد اصطحب مجموعه من مقاتليه قاصدين المدينة المنورة لتنفيذ هدفهم الخبيث، بادر إلى ملاحقتهم، ومهاجمتهم في الصحراء، وعلم أرناط وهو يغذّ السير إلى المدينة المنورة بما حلَّ ببقية جيشه وملاحقته من قبل المسلمين، مما أربك مجموعته، وجعله يتخبط في اتخاذ قراره، ولجأ رجاله إلى الشعاب والجبال يختبئون بها، وتمكن حسام الدين لؤلؤ من إدراكهم وأخذ في مطاردتهم في تلك المرتفعات

(١) مفرج الكروب، ابن واصل: ج ٢ ص ١٣١.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ١٢ ص ٣١١.
(٣) كتاب الروضتين: ج ٢ ص ٣٧.

والجبال، وقد استغرقت عملية المطاردة وقتاً طويلاً، مما أتاح الفرصة لأرناط بما عرف عنه من دهاء ومكر من الإفلات منها والفرار إلى الشمال، ووقع عدد كبير من قواته بين أسير وقتيل، وقُدِّر عدد الأسرى بـ(١٧٠) أسيراً[١].

ويبدو أنّ أرناط منذ البداية اتخذ قراره بالفرار، وترك مجموعته تقع في أيدي المسلمين، فلم يبادر باللجوء إلى الجبال والمرتفعات كما فعلت مجموعته ولكنه فرَّ إلى الشمال، دون أن يعلم به أحد، وهو ما لم يدركه حسام الدين لؤلؤ والذي اعتقد أنه كان محتمياً في الجبال، وأمضى وقتاً طويلاً في البحث عنه، فيما كان هو يغذ السير إلى تبوك، ومعه مجموعة قليله من رجاله، حيث وصلها منهكاً طريداً، والتقى هناك مجموعته التي كانت تعسكر بجوار تبوك، واصطحبها عائداً إلى الكرك يجر أذيال الفشل الذريع والخسران المبين، ولكنه استطاع النجاة بنفسه، مما أضاع الفرصة للإمساك به وأسره، والانتقام منه لفعلته الشنيعة[٢].

تبرز هنا نقطة أخرى أثارت جدلاً لدى المؤرخين، فكثير منهم ومنهم المقريزي وابن واصل ذكروا أنّ أرناط وصل إلى مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة؟! وهذا كلام يبدو مبالغاً فيه، وليس من هدف له سوى التهويل من تحركات أرناط، فالمؤرخ أبو شامه يذكر أنه بمجرد وصول المسلمين إلى الحوراء، ورآهم الصليبيون فإنهم فرّوا جميعاً إلى الجبال والشعاب المجاورة خوفاً من القتل أو الوقوع في الأسر، ولا يتصور أنّ الفرنج وهم في هذه الحالة من الخوف والرعب يمكنهم أن يواصلوا سيرهم إلى المدينة المنورة لينفِّذوا ما قدموا من أجله؟! وحتى إن فكّروا في ذلك فإنّ الأدلّاء من البدو الذين كانوا يرافقونهم، خافوا من بطش حسام الدين لؤلؤ، فتركوا الفرنج وحدهم وعادوا مدبرين، ثم وجد الفرنج أنفسهم فرادى في منطقة جبلية وعرة، لا يعرفون لهم طريقاً أو سبيلاً، وبالرغم من ذلك فإنّ المسلمين لم ينتهوا منهم ويكملوا تطويقهم إلا بعد خمسة أيام؟!

---

(١) مفرج الكروب، ابن واصل: ج ٢ ص ١٣١.
(٢) كتاب الروضتين، أبو شامة: ج ٢ ص ٣٧.

والحوراء كما نعلم كانت بعيدة عن المدينة المنورة، فكيف يكون ليس أمامهم سوى مسيرة يوم واحد؟! على الجانب الآخر ذكر بعض المؤرخين أنّ الصليبيين وصلوا بسفنهم إلى ميناء ينبع! ولو افترضنا ذلك فإنَّ ينبع تبعد عن المدينة المنورة ٢٥٠ كيلومتراً إلى الغرب، وهذا البعد هو الذي يحسم الموقف، ويذكر ياقوت الحموي أنّ ميناء ينبع يبعد عن المدينة المنورة مسافة سبع مراحل(١)، وهذه السبع مراحل تقدر بمسيرة سبعة أيام، وليست يوماً واحداً، على اعتبار أنّ مسيرة اليوم الواحد تقدر بـ(٤٠-٣٠) كيلو متراً كما قدَّرها الأقدمون، وكما قلنا فإنّ هناك مبالغة في تقدير اقترابهم من المدينة، وليس من مبرر لها سوى تشنيعهم واستهوالهم لهذه المغامرة الصليبية، التي كادت تنجح، ولم يفصلها سوى مسيرة يوم واحد، كما يزعمون!!

مصير الأسرى والفارين من حملة أرناط

سبق أن أوردنا أنّ المؤرخين ذكروا أنَّ عدد المقاتلين الذين شاركوا في حملة أرناط تجاوزوا ١٥٠٠ مقاتل، ولم يستطع أرناط الفرار إلا بعدد قليل من رجاله الذين رافقوه إلى تبوك، ولذلك فإنه لا شك أنّ عدد القتلى كان كبيراً، وكذلك عدد الأسرى، ولقد اختلف مصير هؤلاء الأسرى، ويذكر المؤرخون كذلك أنّ حسام الدين لؤلؤ أرسل اثنين من هؤلاء الأسرى مكبَّلين بالأغلال؛ لينحروا في مِنى أمام الحُجَّاج المسلمين(٢)، وليكون ذلك عبرة لغيرهم من الصليبيين، وإعلاناً عن انتصار المسلمين على الصليبيين في موسم الحج.

واصطحب حسام الدين لؤلؤ بقية الأسرى في طريق عودته إلى مصر، والذي

---

(١) معجم البلدان: ج ٥ ص ٤٤٩.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٩ ص ١٦٠، رانسيمان، مرجع سابق: ج ٢ ص ٤٩٦، غوانمة، مرجع سابق: ص ١٣٤. ويبدو أنّ هناك مبالغة في استخدام مفردة (النحر) فليس الغرض التمثيل بالأسرى بقدر ما هو الغرض إعلام الحُجّاج وكانت المغامرة في زمن الحج عن فشل هذه المغامرة التي تجرأ عليها الصليبيون، وإشعار الحجاج بهذا الانتصار.

فضل أن يكون في نفس الطريق الذي جاء عبره الصليبيون، فقد انتقل إلى عيذاب ومنها إلى قوص وصولًا إلى القاهرة، وهناك تم استقباله استقبالاً يليق بهذا الانتصار الكبير، وبناء على أوامر صلاح الدين تم توزيع الأسرى على شتى أقاليم مصر ليلقوا نفس مصير الأسيرين السابقين وكان أمره «ضرب رقابهم وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف، ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف»(١).

ويروي ابن جبير، وكان شاهد عيان لهذه الأحداث في رحلته، ما رآه في الإسكندرية في محرم ٥٧٨هـ/ مايو ١١٨٣م «حيث احتشد الناس في جمع عظيم لرؤية أسرى الروم (يقصد الصليبيين) الذين أُدخلوا إلى البلد راكبين على الجمال، ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق، حيث قطعت رقابهم انتقاماً منهم لما أقدموا عليه»(٢).

فهذا كان مصير الأسرى الذين استطاع حسام الدين لؤلؤ أن يلقي القبض عليهم، وأن يسوقهم أمامه مكبَّلين، ولكن ما هو مصير أولئك الذين نتوقع أنهم استطاعوا الاختباء في الجبال والمرتفعات والشعاب، أو قبض عليهم البدو والأعراب، واحتفظوا بهم، أو كانوا بعيدين عن قوات حسام الدين لؤلؤ، ولم يكونوا في مجال مطاردته أو استطاعوا النجاة من تلك المطاردة؟! ذلك ما تسكت عنه المصادر التاريخية!! ولكن هناك رحالة، ودراسات أنثربولوجيه تعطي مؤشرات قد تدل على مصير أولئك الفارين، ولا تخلوا من قيمة، فهم يذكرون أنّ هناك جماعات بشريه قد تواجدت وتعايشت مع سكان شمال وشمال غرب الجزيرة العربية، تقترب كثيراً في مواصفاتها الجسمانية، وسحنتها الشكلية إلى تلك المواصفات الأوروبية أو الأفرنجية ويطلق عليهم السكّان المحليون في بعض المناطق تسمية

---

(١) كتاب الروضتين: ج ٢ ص ٣٦ ويبدو أنّ قضية الأسرى الصليبيين والتصرف حيالهم وأخبار الانتصار قد شغلت صلاح الدين حتى أنه بعث بعدة خطابات إلى مصر والى بغداد، يوضح فيها أخبار هذا الانتصار، ويبرر موقفه من قتل الأسرى حتى يكونوا عبرة لغيرهم، وجزاء ما أقدموا عليه.

(٢) رحلة ابن جبير: ص ٢٩.

شعبية تميزهم عن فئات السكان الأخرى وترتبط بهم وتعرف بهم هي الـ« صلبة » ومفردها « صلبي »، والكلمة كما يبدو من تركيبها مشتقه من كلمة « الصليبيون »، وتأتي على طريقة البدو في نطق العديد من الكلمات والمسميات عند النسبة.

ويذكر الرحالة محمد أسد في كتابه الشهير « الطريق إلى مكة » أنه في إحدى جولاته في الجزيرة العربية تفاجأ بأحد هؤلاء في الصحراء وعندما سأله من يكون قال أنه صلبي، ثم يقدم تعريفاً لهؤلاء الصلبة وأصلهم[1] والأقوال التي تتردد عن موطنهم الأصلي ويربطهم بالحروب الصليبية وعلاقاتهم بأهل المنطقة والأعمال التي كانوا يجيدونها ويعتمد عليهم السكان فيها[2]، ويذكر جانباً مهماً عن سحناتهم ومواصفاتهم الجسمانية ولون أعينهم وبشرتهم، وكيف أنها أقرب ما تكون إلى الفرنج منها إلى أبناء المنطقة وشعوبها. ومن حديثه مع هذا الرجل الذي عرَّف نفسه بأنه صلبي، يذكر أنّ أسلافه وأجداده جاؤوا من الشمال، ولكنه لا يعرف في أي زمن أو تاريخ!!

فهل هذه الجماعات أي الـ« صلبة » هم من بقايا الأسرى والفارون والملتجئون إلى الجبال والوهاد والمرتفعات، والذين لم يتمكن القائد صلاح الدين من العثور عليهم، والإمساك بهم ؟! أو من أخفاهم الأعراب لديهم، هم من بقايا هذه المغامرة التي قام بها أرناط؟!

قد يكون الأمر كذلك!! وقد يكون هؤلاء الـ« صلبة » ليسوا من مخلَّفات هذه الغزوة فقط، وإنما قد يكونوا جاءوا من مجموع الصليبيين الذين وقعوا في الأسر في العديد من الجولات والمعارك التي دارت بين الصليبيين والمسلمين في عدة أنحاء خلال فترات الصراع الطويلة، ومن ثم تم نقلهم إلى أماكن أخرى قد تكون بعيدة عن مناطق تواجدهم الأولى في بلاد الشام وفلسطين، ومنهم هؤلاء الذين رافقوا أرناط، خاصة وأنّ محمد أسد يذكر أنّ مؤرخي العرب القدماء يقولون أنهم

(١) الطريق إلى الإسلام، محمد أسد: ص ١٧٩.
(٢) الطريق إلى الإسلام، محمد أسد: ص ١٨٠.

متحدِّرون من الصليبيين الذين وقعوا أسرى صلاح الدين، وجيء بهم إلى الجزيرة العربية حيث اعتنقوا الإسلام فيما بعد[1].

أو قد يكونوا من أولئك الذين تخلَّفوا بعد جلاء الصليبيين من المنطقة وانتهاء تواجدهم وسيطرتهم عليها، وخلال سنوات عديدة عاشوا بين القبائل العربية وذابوا فيها، وبالذات تلك التي كانت تمارس الترحال والتنقل بين مختلف أنحاء الجزيرة وبلاد الشام، مثل الرولة والعقيلات، وأصبحوا جزءاً من هذه القبائل، أو تابعين لها ومحسوبين عليها، بحكم التحاقهم بها، وارتباطهم بالخدمة والعمل لديها؟!

والذي يدفع إلى هذا الاعتقاد أنّ عدد الأسرى الذين عاد بهم حسام الدين لؤلؤ إلى مصر مقارنة بعدد الذين شاركوا في المغامرة منذ خروجها من الكرك يبدو كبيراً، فعدد الذين شاركوا منذ البداية كانوا يزيدون على ١٥٠٠ مقاتل، بينما الأسرى الذين عاد بهم لم يتجاوزوا ١٧٠ كما يقول المؤرخون المعاصرون فأين ذهب الباقون؟!

إنّ الاستعانة بمزيد من الدراسات الأنثروبولوجية والسكانية، ومشاهدات الرحالة، قد تلقي شيئاً من الأضواء عن هذا الأمر، وتكشف مزيداً من المعلومات عن مصير الذين شاركوا في مغامرة أرناط في البحر الأحمر والساحل الحجازي، ومصير الصليبيين الذين ذابوا في السكان المحليين في شمال الجزيرة العربية أو بلاد الشام وفلسطين.

نتائج مغامرة أرناط على المسلمين والصليبين

لقد كان لمغامرة أرناط في ارتياد البحر الأحمر ومهاجمته مدن الساحل المصري والحجازي، ومن ثم التهديد بغزو المدينة المنورة، ومكة المكرمة، أي قلب العالم الإسلامي، والاستيلاء على جثمان الرسول ﷺ، ومن ثم فشله، آثاراً ونتائج خطيرة على الصراع بين المسلمين والصليبيين، وعلى إيقاع هذا الصراع

(١) الطريق إلى الإسلام، محمد أسد: ص ١٧٩.

وعلى موقف القوتين المتصارعتين.

فعلى الجانب الصليبي، لو نجح هذا المشروع -لا قدر الله- فإنه كان سيقلب موازين القوة في المنطقة، وسيفقد المسلمين أعز ما يملكون، وسيضيف للصليبيين انتصاراً كبيراً ومدوياً، ربما كان غير من واقعهم ووجودهم في المنطقة، ولكن فشله الكبير والذريع أدَّى إلى نكسة كبيرة للصليبيين، كما أدَّى إلى تصدّع صفوفهم وعجل بنهايتهم[١].

كما أنّ هذا الفشل كشف أرناط أمام الصليبيين، ومقدار طيشه ومغامرته، وعدم محافظته على مصالح الصليبيين، وعدم مراعاته لأوضاعهم السياسية والعسكرية ساعة قيامه بهذه المغامرة.

وكذلك توريطهم في عدم المحافظة على معاهدات السلام التي كانت معقودة في هذه الفترة بين الطرفين، والتي كان المستفيد الأكبر منها الصليبيون الذين كانت أوضاعهم السياسية في أسوأ حالاتها، ومراحلها.

كما أنّ هذه النتيجة التي انتهت بها المغامرة أوضحت مقدار الضعف الذي كانت تمر به مملكة بيت المقدس، وكان أكثر العارفين بهذا الضعف أرناط نفسه الذي تمرد على أوامر ملكها، الذي كرر مطالبته لأرناط بالتعقل وعدم استفزاز المسلمين، ولكنه لم يستجب لذلك، وكان عصيانه وبالاً عليه وعلى الصليبيين[٢].

أما على الجانب الإسلامي فقد كان لهذه النهاية لمغامرة أرناط أثار كبيرة، فهي قد وحَّدت بين صفوف المسلمين وألهبت حماستهم، وعجَّلت بتحقيق وحدتهم، وجعلت المناوئين لصلاح الدين يخجلون من تصرفاتهم بالتحالف مع الفرنج، وأشعرتهم بالخجل[٣]، فقام صاحبا الموصل وحلب بالتفاهم مع صلاح

(١) شعلة الإسلام، هارولد لامب، ترجمة محمود عبدالله يعقوب: ص ١٢٠.
(٢) الحرب المقدسة، كارين أرمسترونج، ترجمة سامي الكعكي: ص ٣٠٤.
(٣) الحروب الصليبية، ماير، ترجمة د.عماد الدين غانم: ص ١٩٦.

الدين، وقطعوا اتصالاتهم بالفرنج.

كما أنّ هذه النهاية ساهمت في ازدياد مكانة صلاح الدين لدى المسلمين، والتفافهم حوله، وذاعت شهرته في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأصبح الزعيم الأكبر المعقودة عليه الآمال في استعادة الأرض العربية وتحقيق الآمال الإسلامية. كما أنها حسَّنت موقف المسلمين العسكري ورفعت معنوياتهم الحربية، وأظهرت حقيقة الصليبيين، وحقيقة أطماعهم، فازدادت الكراهية لهم، وكان عاملاً مهماً في إحجام أي قوة إسلامية عن التعاون معهم(١).

ومن المكاسب المادية أن شجعهم هذا الانتصار على مهاجمة السفن الصليبية في البحر المتوسط، والظفر بمراكب تحمل أخشاباً منجورة، ومعها نجّارون لإعدادها وبنائها، فأُسر النجّارون وكانوا يزيدون على سبعين، كما انتفع المسلمون بالأخشاب في تقوية أسطولهم(٢). على أنَّ الأهم من كل ذلك أن فشل هذه المغامرة قد أوقف التطلعات الصليبية إلى موانى البحر الأحمر، فلم تتكرر محاولاتهم في الاقتراب من شواطئه، أو الإبحار بين موانئه ونهب وسلب مرتاديه من تجار وحجاج.

ولكن ما هي العوامل التي ساعدت على وصول المغامرة إلى هذه النهاية الفاشلة؟! في الواقع أنَّ مشروعاً خطيراً مثل هذا المشروع الذي أقدم عليه أرناط بضخامته وخطورة أهدافه، كان محكوماً عليه بالفشل منذ البداية، وذلك بالنظر إلى الأوضاع السيئة التي كانت تعيشها مملكة بيت المقدس، والصراعات التي ألمت بها، وبقية الأمارات الصليبية طوال الربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي السادس الهجري.

فقد ساءت أحوالها الداخلية، وخاصة في الفترة التي بدأت بوصاية ريموند

(١) إمارة الكرك الأيوبية، د. يوسف درويش غوانمه: ص ١٣٥، رانسيمان، مرجع سابق: ج ٢ ص ٤٩٦.

(٢) كتاب الروضتين: ج ٢ ص ٣٧.

الثالث أمير طرابلس على عرش بلدوين الرابع ملك بيت المقدس المريض وما صاحب تلك الوصاية من صراعات بين البارونات والأمراء، وما أدَّى اليه من زيادة في الضعف والشقاق. وبالتالي فلم يكن هناك قوة يعتمد عليها أرناط أو إجماعاً يحمي ظهره، ويدعم مغامرته.

فأرناط لم يحالفه التوفيق في اختيار الوقت المناسب لتنفيذ هذا المشروع الخطير، وكان من الممكن التفكير في ذلك المشروع، وتوقع النجاح لو أنَّ ذلك تمَّ في عهد ملوك بيت المقدس الأقوياء، أمثال الملك بلدوين الثالث أو الملك فولك، عندما كان زمام القوة والتفوق الحربي في بلاد الشام وفلسطين في يد الصليبيين، وهو الوقت الذي شهد فيه العالم الإسلامي ضعفاً شديداً، ولم تكن الوحدة الإسلامية التي هدف اليها صلاح الدين قد اكتملت بعد[1]. ففي السنة التي شرع فيها أرناط بتنفيذ مغامرته على بلاد الحجاز (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) أصبحت كفة المسلمين هي الأرجح، وجبهتهم التي شملت الشام ومصر هي الأقوى، وفي هذه الفترة بالذات نشطت همة صلاح الدين لتحقيق الوحدة الإسلامية، التي يستطيع بها ضرب الوجود الصليبي، فبذل جهوداً مكثفه ومتواصلة، للوصول إلى هذا الغرض، وخاض عدداً من الحروب والمواجهات والاتفاقيات التي مكنته من تحقيق هذه الوحدة، في الوقت الذي شهدت جبهة الصليبيين تفككاً كان له أثره الكبير في زيادة الاضطرابات في معسكرهم.

لذلك فإنّ محاولة أرناط، الذي لم يلق اهتماماً للأوضاع العسكرية كانت أقرب إلى الطيش والارتجالية والمغامرة، منها إلى الواقع، وهذا ما يؤكد عليه الصليبيون أنفسهم، ومؤرخوهم، قبل المؤرخين المسلمين.

غير أنّ الجدير بالذكر أنّ عنصري المفاجأة والسرية التامة اللتين اتبعهما أرناط في بداية المغامرة، وفي الجزء الأكبر منها، قد شكلا إرباكاً خطيراً، ليس في

---

(١) الحركة الصليبية، سعيد عاشور: ج ٢ ص ٨٧٤.

الأماكن التي حلَّت بها قواته فقط وإنما في أرجاء العالم الإسلامي، وشكَّلت تهديداً خطيراً، ورغم أن ردَّ الفعل الإسلامي كان في بداية الأمر متأخراً وربما ضعيفاً، إلا أنه ما لبث أن تمَّ تدارك ذلك، بالتحرك القوي والفعَّال، بعد أن أوشك أرناط أن يحقق جانباً كبيراً من مشروعه، فقد اقترب كثيراً من المكان الذي كان يسعى إليه، لتنفيذ جريمته، لولا أن أعيته مشاق الطريق وصعوبته، وقسوة المناخ في المناطق التي مر بها، كذلك قلة الجنود الذين استخدمهم لتنفيذ مشروعة وتناقص هذا العدد كلما تقدم، ثم اجتهاد الجيش الإسلامي في تعقبه ورجاله على الساحل والداخل الحجازي، لينحصر همه في نهاية الأمر في البحث عن طريقة للنجاة بحياته، وليس لإنقاذ مغامرته.

مصير أرناط

لقد استطاع أرناط بالدهاء والمكر الذي عُرف بهما، وهو الأمر الذي جعل ابن الأثير يطلق عليه بأنه شيطان من شياطين الفرنج ومردتهم وأخبثهم[١]، أن ينجو من مطاردة حسام الدين لؤلؤ، ولشدة أذاه للمسلمين، وجرأته عليهم وعلى مقدساتهم، فإن صلاح الدين قد أقسم على أن يقتله بنفسه إذا وقع في يده[٢].

والواقع أنّ أرناط بما عرف عنه من مكر وخداع وطمع، وخرق للاتفاقيات، وهي من الصفات التي أشتهر بها[٣]، لم يرتدع لهزيمته، وأخذت تحدثه نفسه مراراً بمهاجمة القوافل التجارية وقوافل الحجاج رغم توقيع هدنة واتفاقية بين الصليبيين وصلاح الدين[٤].

ففي أواخر ٥٨٠هـ/ ١١٨٦م انقض فجأة على قافلة مسلمة متجهة من القاهرة

(١) الكامل في التاريخ: ج ٩ ص ١٥٢.
(٢) كتاب الروضتين: ج ٢ ص ٧٥.
(٣) شعلة الإسلام، هارولد لامب، ترجمة محمود عبدالله يعقوب: ص ٩٤.
(٤) كان صلاح الدين في أعقاب فشل حملة أرناط، قد عقد هدنه مع الصليبيين، ومع أرناط نفسه، ولكن ذلك الفارس اللص كما يسميه جروسيه كان لا يستطيع الحياة بدون أن ينهب ويسرق.

إلى دمشق، ويبدو أنّ تلك القافلة بما حملته من نفائس وثروات أسالت لعاب «الفارس اللص» فلم يبال بالعهود والمواثيق[١]. وقام بمهاجمتها وأسر رجالها ونهب أموالها[٢].

وأرسل صلاح الدين إلى أرناط مقبّحاً لأعماله، ومذكّراً له بالعهود والاتفاقيات، وهدّده، ولكنّ أرناط رفض إطلاق سراح الأسرى، وبلغ من جرأته أن أجاب رسل صلاح الدين في صورة استفزازية بقوله: قولوا لمحمد يخلصكم[٣]. وحاول صلاح الدين كما هي عادته بالتذرع بالحلم، أن يلجأ إلى ملك بيت المقدس الضعيف جاي لوز جنان، ولكنّ أرناط كرّر إعراضه، وأصرَّ على عدم تنفيذ الأوامر التي أصدرها إليه ملك بيت المقدس لإعادة ما استولى عليه من القافلة الإسلامية[٤].

ويبدو أنّ أرناط اختار مرة أخرى الوقت السيئ لاستثارة صلاح الدين، واستفزازه، فقد كان الانشقاق قائماً بين الصليبيين، وكان هناك اعتراض على تولّي لوز جنان عرش بيت المقدس من أمير طرابلس وأمير أنطاكية، بل إنّ هذين الأميرين

---

(١) يصف ابن الأثير تلك القافلة بأنها قافلة عظيمة، غزيرة الأموال، كثيرة الرجال (الكامل: ج ٩ ص ١٦٦)، وتشيع المراجع الصليبية أنه كان من بين الأسرى في تلك القافلة أخت صلاح الدين، وهو خطأ لا يوجد ما يؤيده في أخبار المؤرخين المسلمين، ولو كان الأمر كذلك لأشار إلى ذلك هؤلاء المؤرخين المعاصرين، ويتضح مما ذكره أبو شامة أنّ أخت صلاح الدين أتت في قافلة أخرى قادمة من مكة المكرمة ووصلت إلى دمشق في صيف ٥٨٠هـ/ ١١٨٧م. الروضتين: ج ٢ ص ٧٥.

(٢) كان يرافق هذه القافلة جماعه من الأجناد لحراستها، ولكن أرناط نجح في أن ينصب كميناً لهم، وقام بإلقاء الأسرة في حصن الكرك، وسامهم الشد والشدة. الروضتين: ج ٢ ص ٧٥، والسلوك: ج ١ ص ٩٢.

(٣) مفرج الكروب، ابن واصل: ج ٢ ص ١٩٤.

(٤) الحملات الصليبية، ستيفن رانسيمان، ترجمة نور الدين خليل: ج ٢ ص ٥٠٩، ويبرر رانسيمان رفض أرناط لتعليمات ملك بيت المقدس إلى أنّ أرناط كان يشعر بأنه صاحب الفضل في وصول لوز جنان إلى عرش بيت المقدس، ومساندته له ضد خصومه، مما جعله يستخف بأوامر ملك بيت المقدس، وعجز الملك عن إجباره.

انشقا على الصليبيين، واتصلوا بصلاح الدين وجدّدوا المعاهدات معه[١].

وسرعان ما تسارعت الأحداث، ففي الوقت الذي عصفت الخلافات بالصليبيين، استكمل صلاح الدين استعداداته وتجهيزاته وبدأ في عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م هجماته على الصليبيين وكانت أولى الانتصارات في صفورية، ثم تلاها الانتصار الكبير والحاسم في حطين، بجوار بحيرة طبريه[٢]. في حطين حلت الهزيمة بالصليبيين، وتساقط جيشهم بين قتيل وأسير، وكان من بين الأسرى الملك جاي لوز جنان ملك بيت المقدس، وأرناط، وجيراردي مقدم الداوية، وغيرهم من أكابر الصليبيين[٣].

وفي خيمة صلاح الدين كتبت الصفحة الأخيرة في حياة أرناط المغامر

---

(١) يذكر ابن الأثير أنّ (القمص) الأمير ريموند الثالث أمير طرابلس راسل صلاح الدين وانتمى إليه (الكامل: ج ٩ ص ١٧٤) كما يشير إلى اختلاف الفرنج بالشام، وعن الاتفاق بين بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وصلاح الدين. أنظر: الحركة الصليبية، د سعيد عاشور: ج ١ ص ٧٩٩، كما يذكر لامب جانباً من هذه الخلافات والتي كانت حول تعيين لوز جنان على عرش بيت المقدس، لامب، مرجع سابق، ص ٩٩، ويذهب أبو شامة بعيداً في الحديث عن علاقات صلاح الدين بريموند فيقول: التجأ القمص إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع، فقبله السلطان وقواه، وشد عضده بإطلاق سراح من كان من الأسرة من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم، أبو شامة، ج ٢ ص ٧٤، ولكن سنجد فيما بعد أنّ ريموند الثالث، عندما بدأ صلاح الدين بشن هجماته على الصليبيين، ينكث عهوده، وينظم إلى الصليبيين مجدداً، انظر المقريزي، السلوك، ج ١ ص ٥٧ و ٩٣.

(٢) تقع حطين بالقرب من بحيرة طبرية، وقد عسكر صلاح الدين غربيها حيث المراعي ووفرة المياه، فيما عسكر الصليبيون على سفح جبل طبرية المشرف على سهل حطين، وهي هضبة مرتفعة عن سطح البحر بأكثر من ٣٠٠ متر، وكانوا قد هدهم التعب والعطش في شهر يوليو شديد الحرارة، أنظر: مفرج الكروب: ج ٢ ص ١٨٩.

(٣) استطاع ريموند الثالث أمير طرابلس الذي نكث بعهوده مع صلاح الدين، وعاد إلى الصليبيين، أن ينجو في قلة من رجاله، ويفسر ابن الأثير الطريقة التي نجا بها أنه عندما أيقن من الهلاك أراد الهرب بأي وسيلة، فحمل حملة مكروب، وعندما فتح له تقي الدين عمر ابن صلاح الدين طريقاً خرج منه وفر إلى صور أنظر: ابن الأثير، ج ٩ ص ١٧٨. ويحفظ لنا المؤرخون اسم آسر ملك بيت المقدس وهو درباس الكردي، واسم آسر أرناط وهو غلام الأمير إبراهيم المهراني، (كتاب الروضتين: ج ٢ ص ٨٢).

الصليبي الجريء، الذي لم يسلم من أذاه وتهوره كلا المعسكرين، حيث يذكر المؤرخون أنّ صلاح الدين استعرض الأسرى، وأجلس إلى جانبه الملك لوز جنان وقد أهلكه العطش، وقدم له إناءاً به ماء مثلج[١]، فشرب منه وأعطى ما تبقى لأرناط فشرب، وعندئذ غضب صلاح الدين وقال: إنّ هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيناله أماني، ثم التفت إلى أرناط وذكره بجرائمه وخياناته وقرعه بذنوبه وعدد عليه غدراته، ثم أمسك بسيفه وأطاح برأسه[٢]، ولم يسلم أيضاً أسرى الداوية والإسبثاريه من غضبة صلاح الدين، حيث أمر لكل من يحضر واحداً منهم بمكافأة، ثم أمر بضرب أعناقهم، مما يدل على استيائه البالغ منهم وحنقه عليهم[٣].

وهكذا برَّ صلاح الدين بقسمه الذي أقسمه بحق أرناط وهو أن يقتله بيده، جزاء جرائمه بالمسلمين، ومغامراته ضد مقدساتهم، وبمقتل أرناط انفتح الطريق إلى بيت المقدس التي بقيت زهاء قرن في أسر الصليبيين[٤] والى حصن الشوبك والكرك، وبقي البحر الأحمر بحيرة عربية بعيدة عن طموحات وتطلعات الصليبيين ومغامراتهم طوال فترة الحروب الصليبية.

ولقد نعمت المدينة المنورة بفترة هدوء ورخاء طيلة إمارة القاسم بن مهنا التي امتدت عشرين سنة (٥٦٣-٥٨٣هـ/ ١١٦٨-١١٨٧م)، وقيل: امتدت خمساً وعشرين سنة[٥].

---

(١) الكامل في التاريخ: ج ٩ ص ١٧٨، أما لامب فيقول أنه كان ماء ورد مثلج، كما أنه يذكر أنّ صلاح الدين قبل أن يقتل أرناط عرض عليه الإسلام، فلم يفعل، لامب، مرجع سابق: ص ١١٣.

(٢) مفرج الكروب: ج ٢ ص ١٩٤، أما لامب فيذكر أن قتله كان بـ« النمجاة » وهي خنجر مقوس يشبه السيف القصير، وأنه بهذه الضربة حل كتفه، وتمم عليه من حضر، ثم أخذ ورمي به إلى باب الخيمة (لامب ص ١١٤) أما سبط ابن الجوزي فيذكر أنهم أطعموا جثته للكلاب!! وهو ما نستبعده لحسن تعامل صلاح الدين مع الصليبيين الأحياء فكيف بالأموات، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ج ٨ ص ٢٥٨.

(٣) الفتح القسي، عماد الدين الأصفهاني: ص ٢٤، والسلوك: ج ٢ ص ٢٠٧.

(٤) إمارة الكرك الأيوبية، د. يوسف درويش غوانمه: ص ١٥٨.

(٥) غاية المرام: ج ١ ص ٥٤٥، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٤.

سالم بن القاسم بن مهنا ا الحسيني

سالم بن القاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيدالله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة المنورة سنة (٥٨٣-٦١٢هـ/ ١١٨٧-١٢١٥م)، وليها بعد وفاة والده القاسم بن مهنا سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م.

واشتبه السيد ضامن فذكره بعنوان سالم بن شيحة «أمير المدينة سنة ٥٨٤هـ»[٢].

كان شاعراً شجاعاً، سار على نهج أبيه في إقامة العلاقات الطيبة مع كل من الأيوبيين والخليفة العباسي، وكانت بينه وبين صلاح الدين الأيوبي مودّة ومهاداة، ففي سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وصل الكسوة[٣]، وقدّم هدايا للسلطان وهي تحف وخيول، ووصل إلى دمشق أيضاً[٤].

قال ابن الحجة الحموي: «حكى أبو الفوارس بن اسرائيل الدمشقي قال: كنت يوماً عند السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فحضر رسول صاحب المدينة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ومعه قُوّاد وهدايا، فلما جلس أخرج من كمّه مروحة بيضاء عليها سطران بالسعف الأحمر، وقال الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول: هذه المروحة ما رأى مولانا السلطان ولا أحد من بني أيوب مثلها، فاستشاط السلطان صلاح الدين غضباً، فقال الرسول: يا مولانا السلطان لا تعجل

(١) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٩١، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١١٠ رقم ١٤١٤ و١٤٠٧، والعقد الثمين: ج ٤ ص ٤٣.
(٢) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٥١.
(٣) الكسوة: بلد جنوب دمشق تبعد عنها ١٨ كم.
(٤) العقد الثمين: ج ٤ ص ٤٣.

قبل تأملها، وكان السلطان صلاح الدين ملكاً حليماً، فتأملها فإذا عليها مكتوب:

أنا من نخلة تجاورُ قبراً ساد مَن فيه سائر الناس طُرّاً
شملتني عناية القبر حتى صرت في راحة ابن أيوب أقرا

وإذا هي من خوص النخل الذي في مسجد الرسول ﷺ، فقبّلها السلطان صلاح الدين، ووضعها على رأسه وقال لرسول صاحب المدينة النبوية: صدقت فيما قلت من تعظيم هذه المروحة[1].

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي -عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م- راسل الأمير سالم بن القاسم أخاه العادل، وخطب له على المنبر بعد الخليفة العباسي[2]. وسافر في العام التالي لزيارته ولزيارة الخليفة العباسي الناصر، وجعل أخاه هاشم بن القاسم نائبه في إمارة المدينة. وكانت لهذه العلاقات الطيبة آثار حسنة على المدينة وأهلها.

وانتهزت بعض القبائل فرصة غياب الأمير سالم عن المدينة، فطمعوا في الإغارة عليها ونهبها، وكان في مقدمة الطامعين بعض رؤساء قبيلة زعب[3]، فاجتمع

---

(١) ثمرات الأوراق: ج ١ ص ١٢.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٣.

(٣) تنتمي قبيلة زعب إلى زعب بن مالك بن خفاف بن أمرئ القيس بن بهثة بن سُليم. وقبيلة زعب إحدى قبائل بنو سُليم ولقد كانت مساكنهم بين الحرمين في أرض الحجاز وتمتد شرقاً في بلاد نجد في ديار قومهم بنو سُليم، وهي قبيلة قوية الشكيمة، وفيها يقال المثل (زعبي ولا تسأل) بمعنى أنّ من لجأ إلى زعب اعتبروه كأنه منهم يحمونه ويدفعون عنه كلّ ضيم ويذودون عنه كلّ معتد، فلا يسأل الزعبيون مَن هذا؟ وهل هو من لحمتهم أم لا؟ ولكنهم يفدونه بأرواحهم ما دام أنه أعلن أنه زعبي وفي حمى زعب.

وبنو سُليم قبيلة عربية قيسية، كانوا يقيمون بنجد والحجاز، ثم انتقلوا إلى ليبيا وتونس بتوجيه من الدولة الفاطمية، وبقي جزء يسير منهم في ديارهم في الحجاز، ما بين مكة والمدينة وفي حرة بني سليم وفي محافظة الكامل، وقد هاجروا من نجد في عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م إلى المغرب العربي، واستقرت بطونهم في ليبيا وتونس، حيث استقر بنو هيب وناصرة وسمال وعميرة وبهز في إقليم برقة وطرابلس، وبنو دبّاب وزعب وعوف والشريد وعصيّة وذكوان

هؤلاء الطامعون في جمادى الآخرة سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م وتحركوا إلى المدينة. ووصل الخبر إلى المدينة، فجمع الأمير هاشم بن القاسم ما لديه من رجال، وخرج بهم إلى ظاهر المدينة لملاقاة الغزاة وقتالهم؛ كي لا يحاصروا المدينة ويخربوا سورها، ووصلت جموع زعب ومَن معهم، ودار قتال شرس، واستبسل الأمير هاشم ورجاله، ولكن الغزاة كانوا أكثر عدداً وأشد فتكاً.

فقُتل هاشم وقتل عدد من رجاله، وبدأ الآخرون بالهرب إلى المدينة، فتبعهم الغزاة ودخلوا المدينة، ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم من الدكاكين والبيوت، ومكثوا أياماً قليلة، والناس في ذعر شديد، ثم خرجوا إلى بلادهم[1].

عاد سالم إلى المدينة واهتم بإصلاح ما أفسده الغزاة في السور وداخل

بإقليم طرابلس خصوصاً برقة وتونس كذلك.

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الأسدي سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م: «سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفه بن قيس بن عيلان بن مضر، وسليم شعب لا قبيلة، لأنه خرج منه عدة قبائل وعمائر وبطون وأفخاذ.

قال الحمداني: «وهم أكثر قبائل قيس عدداً، وفيهم الأبطال الأنجاد، والخيل الجياد».

وقال ابن خلدون: «وأما بنو سليم هؤلاء فبطن متسع من أوسع بطون مضر وأكثرهم جموعاً، وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس، وفيهم شعوب كثيرة».

ويذكر الرواة من القبيلة أنّ قبيلة زعب في بداية القرن التاسع للهجرة كانت معارضة لدولة الشريف (وهو الشريف بركات الذي تولّى إمارة مكة أوائل القرن التاسع للهجرة) في بلاد الحجاز، وسبب الحرب مع عسكر الشريف في مكة وقتئذ هو قيام الشرف وأعوانه بالاعتداء على ابن صنجي الحربي وجماعته من قبائل حرب، وهم جيران لقبائل بني سُليم وخاصة قبيلة زعب بن مالك التي كانت هي أقوى قبائل سُليم في هذا الوقت بعد رحيل الكثير من قبائل سُليم إلى مصر والمغرب العربي. فلما همت فرسان زعب بمناصرة جارهم الحربي وقد حمت جماله ونوقه من النهب والسلب من عساكر الشريف وقتلت البعض منهم، ثارت ثائرة الشريف في مكة وحشد جيوشاً عرمرمية وقصد زعب وحاربها عدة سنوات حتى أزاحها عن الحجاز بعيداً عن ملكه بين الحرمين، وكانت من نتيجة هذه الحروب أن اتجهت عشائر زعب إلى الشرق من الجزيرة العربية وتوطنت في الإحساء كبادية رحل، ثم استقرت في قرى ومدن نجد والإحساء وبلدان الخليج في القرون الثلاثة الأخيرة.

(١) الكامل: ج ٩ ص ٢٣١، والحجاز واليمن في العصر الأيوبي: ص ٧٩-٨٠

المدينة، ولكنه لم يهتم بإنشاء قوة عسكرية ثابتة في المدينة تحفظها من أطماع الغزاة، وسرعان ما نسي الناس تلك الغزوة، وانخرطوا في شؤون حيلتهم اليومية.

وتعيش المدينة المنورة -بعد هذه الحادثة- هدوءاً واستقراراً، وكانت الأموال والأعطيات تصل إليها من الأيوبيين والعباسيين ومن الزائرين أيضاً. فكانت قبائل السرويين تأتي كل موسم من اليمن؛ تحمل الميرة والطعام والفواكه الميبَّسة، فيقضون حجَّهم ويسارعون إلى المدينة، ومعهم طعام كثير يوزعونه على المجاورين والفقراء[١].

وقد اهتم الملك العادل بالحرمين كاهتمام صلاح الدين، فواصل إرسال الأموال والأعطيات، وبخاصة بعد أن اتسع ملكه وشمل البلاد التي كان يحكمها أبناء صلاح الدين، ودُعي له على منبر المسجد النبوي والمسجد الحرام بمكة[٢].

لذلك نجد بعض الناس في مصر يلتجئون إلى المدينة ومكة عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م عندما بسط النيل واشتد عليهم الغلاء والوباء[٣].

ومع مطلع القرن السابع الهجري/ مطلع القرن الرابع عشر الميلادي تضطرب الحياة في المدينة المنورة بسبب المصادمات مع أمير مكة الشريف قتادة بن إدريس الحسني[٤].

---

(١) رحلة ابن جبير: ص ١٤٣.
(٢) النجوم الزاهرة: ج ٦ ص ١٩٦.
(٣) النجوم الزاهرة: ج ٦ ص ١٧٣.
(٤) كان قتادة بن إدريس ينشر نفوذه في القبائل، فدان له وادي ينبع وما جاوره، وكان الأمير على مكة آنذاك مكثر بن عيسى الهاشمي الذي كان أهل مكة لا يطيقون حكمه لظلمه وعربذته، وزاد الظلم على مكة، فتحرك قتادة لمحاربة مكثر فجهز جيشاً كثيفاً وزحف به إلى مكة، ولم يعبأ مكثر بالأمر استخفافاً بقتادة، حتى فاجأه على أبواب مكة، ورأى جيشه الكثيف، فلم يجد حيلة سوى الهرب، وترك مكة فدخلها قتادة في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٩٧هـ، فاتجه إلى مقر الإمارة ونصب نفسه أميراً عليها. ولكن قتادة لم يكتف بما حصل عليه، وتطلع إلى بقية الحجاز واليمن، وسرعان ما اتجهت أنظاره إلى المدينة المنورة وأميرها سالم بن قاسم. (العقد

خرج جيش قتادة من مكة قبل أن يتم استعداد أهل المدينة، ولما صار على مقربة منها خرج جيش المدينة لملاقاته، وتواجه الطرفان عند ذي الحُليفة، ودارت معركة ضارية، واستبسل فيها جيش المدينة وأوقعوا خسائر كبيرة في جيش قتادة، ولكن جيش قتادة كان أكبر من جيش سالم، وأكثر منه خبرة في الحرب، لذلك استطاع أن يضغط على جيش سالم وأن يوقع فيه عدداً من القتلى ثم يضطره إلى التراجع.

وأخذ سالم ورجاله يتقهقرون إلى المدينة وهم يدفعون خصومهم ما استطاعوا، وأخيراً أمر سالم قسماً من جيشه بمشاغلة الغزاة بقية اليوم ريثما ينسحب القسم الآخر إلى ما وراء السور، فإذا حلّ الظلام وتوقف القتال انسحبت المجموعة المقاتلة بهدوء إلى المدينة، ونجحت الخطة وعاد الجيش إلى المدينة بعد أن خسر عدداً من رجاله، وأغلق عليه الأبواب.

وفي الصباح اكتشف قتادة انسحاب المدنيين فأمر بمحاصرة المدينة، ونشر رجاله على امتداد السور أملاً في أن تستسلم له المدينة أو ينفذ إليها بعد حين.

وحسب قتادة أنّ أهل المدينة سيسلمون له بعد حين، لذلك لم يفعل شيئاً سوى الحصار والمراقبة، وامتد الحصار أياماً، كان جيش قتادة يلتقط فيها أنفاسه ويستريح من السفر الطويل والقتال المرهق الذي شهده.

وفي هذا الأثناء كان جيش سالم يعيد تنظيم صفوفه ويعوض خسائره برجال لم يشاركوا في المرة السابقة، وكانت دكاكين الحدّادين والنجّارين تصنع مزيداً من الأقواس والسهام والرماح والسيوف والتروس، وشهدت الساحات الضيقة داخل المدينة تنظيم الجيش إلى مجموعات وتدريب الأفراد الجدد وتنشيط الذين شاركوا من قبل، وفي الوقت نفسه كان عدد من الرجال يتناوبون الحراسة على أطراف السور كي لا يفاجئهم رجال قتادة بتسلل أو هدم.

الثمين: ج ٧ ص ٤٠).

ومع امتداد الحصار ركن جيش قتادة إلى الراحة مستفيداً من البساتين المحيطة بالمدينة؛ فقد استباحها ونعم بما فيها من تمور وخضر وفواكه ومياه عذبة، بينما كان أهل المدينة يعيشون على ما خزّنوه في بيوتهم.

وقرر سالم أن يستخدم أسلوباً آخر، فبعث عدداً من رجاله إلى أطراف السور يخاطبون من يعرفونهم من رجال قتادة، وخاصة القادة منهم، ونجحوا في استمالة بعضهم وحصلوا منهم على وعود قاطعة ألا يقاتلوهم إذا وقع القتال.

وسُرّ سالم بهذه النتيجة وقرر أن يخرج لملاقات قتادة ليدفعه عن المدينة، فذهب سالم إلى المسجد النبوي، وصلّى عند الحجرة النبوية الشريفة، ودعا الله أن ينصره على قتاده، ثم خرج برجاله للقاء قتادة، ودارت بينهما معركة حامية، وقتل عدد من الفريقين، واستبسل سالم ورجاله، وانتصر أهل المدينة وطردوا قتادة وجيشه، وأسروا بعض رجاله، ومنهم وزيره ومساعده الأكبر ابن الريحاني، وغنموا غنائم وفيرة[1].

وقبل أن يستريح الجيش وينفرط عقده، قرر الأمير سالم مطاردة الشريف قتادة والقضاء على قوته كي لا يطمع في المدينة ثانية، وخرج في اليوم الثاني في إثره، وعلم قتادة بالأمر، فأسرع السير ووصل مكة قبل أن يدركه جيش المدينة

---

(١) الكامل: ج ٩ ص ٢٦٩، وإتحاف الورى بأخبار أم القرى: ج ٣ ص ٣، وتاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٤١، والحجاز واليمن في عصر الأيوبيين: ص ٣٩ .. ويعرض ابن خلدون صورة أخرى للمعركة، فيروي أنّ قتادة يئس من استسلام أهل المدينة، فرحل عنها، وبعد رحيله مباشرة وصل مدد من قبيلة لام -إحدى بطون همدان- فتقوّى به سالم وخرج لملاحقة قتادة، فأدركه في بدر، واقتتل الفريقان قتالًا شديداً، وهلك منهم خلق كثير، وانهزم قتادة إلى مكة، ويسمي المعركة معركة المصارع؛ لأنّ قتادة تمثل فيها ببيت يقول فيه:

مصارع آل المصطفى عدن مثلما بدأن ولكن صرن بين الأقارب

ويكشف هذا البيت إحساس قتادة بالمرارة لهذه المعركة، وهو إحساس يناقض ما نره في شخصيته وسلوكه، فهو الذي بدأ العدوان على المدينة، وهو الذي جرّد السيف لقتال أبناء عمه!!

ودخلها وأغلق عليه أبواب سورها، وما لبث سالم ورجاله أن وصلوا إلى مشارف مكة وانتشروا حولها، وعاشت مكة أياماً صعبة من الحصار، واستبسل قتادة ورجاله ورفضوا التسليم للأمير سالم، وأخذوا يعدون العدة لكرة أخرى.

كانت مشاعر الثأر تملأ الأمير سالم ورجاله، ولكنّ هذه المشاعر بدأت تهدأ بتوالي أيام الحصار، فقد هدأ الغضب تدريجياً، وتحوَّل إلى رغبة في معاقبة قتادة ورجاله وإذلالهم، وعمد قتادة إلى ما عمد إليه سالم من قبل، فاستنهض من المكيين مَن لهم أدنى صلة بأهل المدينة، ومن نكصوا عن القتال في الموقعة الأخيرة، وبثَّهم ليحاوروا المحاصرين ويقنعهم بوقف إراقة الدماء ومراعاة حرمة البلد الأمين.

وأثَّرَ ذلك في بعض المدنيين، وبخاصة بعد أن فقد المدنيون الدافع القوي الذي كان فيهم من قبل للقتال، لذلك بدأ بعضهم يتحدث عن جدوى الحصار ومغزى الحرب، وتحوَّل الهمس إلى كلام مسموع انتقل إلى الأمير سالم، فأدرك سالم أنّ عدداً من رجاله بينهم بعض قادته قد ينقلبون عليه، وأنّه إذا خرج إليه أهل مكة مدافعين فلن تكون له القوة السابقة، وجاءت رسالة قتادة تحض سالماً على المصالحة ورفع الحصار يقول فيها: «يا ابن العم كسرة بكسرة، وأيام حصار بمثلها، والبادئ أظلم، فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا في القابل»[1]. وكانت لهجة الرسالة مرضية لسالم، فقرر فكَّ الحصار والعودة إلى المدينة[2].

وظلت المدينة محافظة على ولائها للأيوبيين، وكان سالم يراسل الملك المعظم (عيسى بن محمد الأيوبي) سلطان دمشق، ويراسل الملك الكامل سلطان مصر.

وفي سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م جاء الملك المعظم من الشام حاجاً فخرج سالم وعدد من وجوه أهل المدينة لاستقباله، واحتفوا به، وأكرموه إكراماً بالغاً، وقدَّموا له كل ما تحتاجه قافلته من خيل ومؤن، وسلَّمه سالم مفاتيح المدينة وأنزله في داره،

(١) العقد الثمين: ج ٧ ص ٤٢.

(٢) منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم: ج ٢ ص ٢٧٠، وأعيان الشيعة: ج ٢ ص ٥٠٨.

وسهر على راحته، فسُرَّ المعظم بذلك.

وعندما خرج المعظم من المدينة إلى مكة، صحبه الأمير سالم، ونزل معه في مكة وصحبه في المشاعر، وحاول قتادة أن يبطش بالأمير سالم، فأرسل بعض رجاله ليقضوا عليه ويحضروه إليه، وكان سالم يتوقع غدر قتادة، فلزم مع رجاله موكب الملك المعظم، ولما قدم رجال قتادة للقبض على سالم أحسّ رجال المعظم بهم فطردوهم، وكادوا أن يبطشوا بهم، وبلغ الخبر الملك المعظم فغضب غضباً شياً، وحنق على قتادة الذي لم يحسن استقباله، ولم يلقه بمثل ما لقيه به أمير المدينة وأهلها. وانتهز سالم الفرصة فأخبر الملك المعظم بتحرشات قتادة وبعض رجاله وإفسادهم في مكة وينبع وبعض قرى المدينة، فقرَّر الملك المعظم أن يكسر غرور قتادة ويلقّنه درساً قاسياً، ووعد سالماً أن يرسل فور عودته جيشاً لذلك[١].

لم يكن سالم يرغب في أن تعود الحرب بين المدينة ومكة. ولم يكن يملك القوة الكافية لمواجهة جيش قتادة الذي قوي في السنوات القليلة الماضية، ولم يكن أيضاً مطمئناً إلى أنّ قتادة لن يعود إلى مواجهة المدينة، خاصة بعد أن حاول اختطافه في موسم الحج، لذلك مكث ينتظر الجيش الذي وعده به الملك المعظم من الشام.. وفي الوقت نفسه يجهز رجاله القليلين ليكونوا قادرين على رد أي عدوان يحدث على المدينة وضواحيها.

وتختلف الروايات التاريخية حول مجريات الأحداث بعد ذلك:

فبعضها تقول إنّ سالماً عاد مع الملك المعظم إلى الشام، فشكى الملك المعظم إلى أبيه الملك العادل ما لقيه من قتادة وما يلقاه الناس منه، فجهز الملك العادل جيشاً وبعثه مع الأمير سالم ليطرد صاحب مكة فلما انتهوا إليها هرب منهم إلى الأودية والجبال والبراري[٢].

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٧٣، والعقد الثمين: ج ٤ ص ٦٠٩.
(٢) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٧٣.

وتقول بعضها الآخر إنّ الأمير سالماً مكث في المدينة ينتظر الجيش، فلما تأخر قدومه خرج إلى الشام لاستعجاله فالتقى بالجيش في الطريق يقوده الأمير الناهض بن الجرخي، فاصطحبهم إلى المدينة، وخرج معهم لقتال قتادة، وبلغ الخبر قتادة فاستعد لهم بجيشه، وخرج للقائهم، ودارت بينهم معركة كبيرة في منطقة الصفراء، فهزم قتادة وفرَّ إلى حصنه في ينبع، وتبعه الجيش وحاصره فيها وذلك سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م[١].

ومنهم من يقول إنّ سالماً لم يشهد المعركة مع قتادة؛ وأنه توفي أثناء عودته من الشام مع الجيش[٢].

ومنها من يؤخر المعركة إلى سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م.

قال أبو شامة في أخبار سنة اثنتي عشرة وستمائة: ووصل الخبر من جهة الحجاز، بنزول قتادة صاحب مكة على المدينة حرسها الله تعالى، تاسع صفر، وحصرها أياماً، وقطع ثمرها جميعه، وكثيراً من نخيلها، فقاتله من فيها، وقتل جماعة من أصحابه، ورحل عنها خاسراً.

وقال في أخبار هذه السنة أيضاً: وفي ثالث شعبان، سار الأمير سالم صاحب المدينة بمن استخدمه من التركمان، والمراحل إليها من المخيم السلطاني بالكسوة، ثم توفي بالطريق قبل وصوله إلى المدينة، وقام أخوه جمّاز بالإمرة بعدهبعده، واجتمع أهله على طاعته، فمضى بمن كان مع عمه، لقصد قتادة صاحب مكة، فجمع قتادة عسكره وأصحابه، والتقوا بوادي الصفراء، فكانت الغلبة لعسكر المدينة، فاستولوا على عسكر قتادة قتلًا ونهباً، ومضى قتادة منهزماً إلى ينبُع، فتبعوه وحصروه بقلعته، وحصل لحميد بن راجب من الغنيمة، ما يزيد على مائة فرس، وهو واحد من جماعة كثيرة من العرب الكلابيين، وعاد الأجناد الذين كانوا مضوا

---

(١) الذيل على الروضتين: ص ٨٧.

(٢) الحجاز واليمن في العصر الأيوبي: ص ٤٠.

مع الأمير سالم من الشام، من التركمان وغيرهم، صحبة الناهض بن الجرخي خادم المعتمد، وفي صحبتهم كثير مما غنموه من أعمال قتادة، ومن وقعة وادي الصفراء، من نساءٍ وصبيان، وظهر فيهم أشراف حسنيون وحسينيون، فاستعيدوا منهم، وسلِّموا إلى المعروفين من أشراف دمشق، ليكلفوهم ويشاركوهم في قسمهم من وقفهم[1].

جمّاز بن قاسم بن مهنا الحسيني

جمّاز بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[2].

أمير المدينة المنورة فيما بين ٥٨٣هـ-٦١٢هـ/ ١١٨٧-١٢١٥م.

قال الذهبي، وابن فهد المكي: «مات سالم بن قاسم بن مهنا الأعرج في الطريق، أثناء مقابلته لصلاح الدين الأيوبي في الشام سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وقام بعده ابن أخيه جمّاز(؟)»[3].

والصحيح أنّ جمّاز هو أكبر ولد القاسم بن مهنا، وهو الذي خلف أباه في إمارة المدينة المنورة؛ ففي نصيحة المشاور قال: «استقر جمّاز بن قاسم بن مهنا في إمرة المدينة بعد أبيه إلى أن مات، فاستقر بعده ابنه قاسم»[4].

---

(١) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٢٢٠، والعقد الثمين: ج ٧ ص ٤٣، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٤.

(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور، لابن فرحون: ص ٢٤٧، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٢٤٦ رقم ٩٧٣، وتاريخ الإسلام: رقم ٩٧.

(٣) قد يكون جمّاز هذا هو ابن هاشم بن قاسم حيث ينطبق على ابن أخي سالم، ولا بد أنه خلل في ترتيب الاسم «جمّاز بن هاشم بن قاسم».

(٤) نصيحة المشاور وتعزية المجاور، لابن فرحون: ص ٢٤٧، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٦ رقم ٧٩٠.

وفي غاية المرام: «ولما مات استقر عوضه جمّاز أكبر أولاده، وهو جد الجمامزة، وهو أول من عرف من أمراء هذا البيت للمدينة، قال شيخنا ابن حجر في درره»[١].

من خلال الخبرين الواردين أعلاه نلاحظ أن جمّاز بن قاسم بن مهنا ولي المدينة قبل كلٍّ من أخيه هاشم بن قاسم، وسالم بن قاسم، وعلى هذا فإذا كانت وفاة والده قاسم بن مهنا في سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م فالأرجح أن يكون ولي إمرة المدينة، وولي بعد وفاته شقيقه سالم الذي استخلف شقيقه الآخر هاشم لسفرة غادر بها المدينة المنورة.

وذلك لأنّ نص الذهبي وصاحب التحفة اللطيفة واحد: مات سالم وقام بعده ابن أخيه جمّاز، واستقر جمّاز بن قاسم بن مهنا بإمرة المدينة بعد أبيه إلى أن مات، ولا يمكن لقاسم ابن جمّاز بن قاسم أن يلي المدينة في حياة أخيه سالم، حيث ولي بعد موته.

وافتراض آخر هو أن يكون المذكور ولي المدينة نيابة عن أخيه سالم لمدة قصيرة كنائب أو غيره لسفرة سافرها إلى الشام أو مصر، حيث كانت علاقة سالم بصلاح الدين وطيدة.

هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني

هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله ابن طاهر ابن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب.

---

(١) غاية المرام: ج ٢ ص ٥٤٦، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٢٤٦ وج ٣ ص ٤٠٤، والدرر الكامنة: ج ٥ ص ١٣٢ رقم ٤٨٤٩.

أمير المدينة المنورة وكالة.

ورد ذكره في الكامل في التاريخ: في سنة ٥٩٠ هـ/ ١١٩٤م، في جمادى الآخرة، اجتمعت زُعب وغيرها من العرب، وقصدوا مدينة النبي ﷺ، فخرج إليهم هاشم بن قاسم (مهنا)، أخو أمير المدينة، فقاتلهم، فقُتِلَ هاشم، وكان أمير المدينة قد توجه إلى (الشام)، فلهذا طمعت العرب فيه.

وفي إتحاف الورى ورد: في سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م حاصر الشريف قاسم أمير مكة، ولم يدخلها، وقتل ابن عمه هاشم الحسيني[١].

وورد الخبر بطريقة مغايرة في نفس المصدر: في سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤م جاء قاسم الحسيني إلى مكة بعسكر كثير وحاصرها شهر زمان، وكان نواب الكامل فيها، وقُتِلَ قاسم الحسيني، ولم يتمكن من أخذها[٢].

إنّ سياق الخبر الوارد لا ينطبق على هاشم بن قاسم ولكنه ينطبق على أمير آخر يحمل نفس الاسم (هاشم)؛ ولعله هاشم بن شيحة بن هاشم ابن قاسم بن مهنا الأعرج.

وعلى هذا فإنّ هاشم المترجم هذا كان ينوب عن أخيه سالم بن قاسم بن مهنا الذي توفي أثناء عودته من دمشق بعد مقابلة الملك المعظم الأيوبي.

وعلى هذا فنحن أمام احتمالين:

الأول: أنه ولي المدينة بدلاً عن أخيه سالم الذي ذهب إلى الشام أو لحاجة أخرى خارج المدينة كالحج والعمرة أو لغزوة غزاها، وهذا يرجّح وفاته سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م.

الثاني: أنه ولي المدينة إثر مغادرة شقيقه سالم لمقابلة الملك المعظم الأيوبي

(١) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٦.
(٢) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٣٩.

في الشام والذي مات على أثرها في الطريق سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وهذا يتلاقى مع ما ورد في إتحاف الورى أنّ هاشم الحسيني قتل بين سنة ٦٢٢-٦٢٦هـ/ ١٢٢٥-١٢٢٩م.

ولكن الاحتمال الأول يبقى هو الأرجح.

ويبقى السؤال: من ولي المدينة بعد مقتله؟!



القرن السابع....

قاسم بن جمّاز بن قاسم الحسيني

قاسم بن جمّاز بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيدالله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1].

أمير المدينة المنورة في سنة (٦١٢-٦٢٤هـ/ ١٢١٥-١٢٢٧م).

ورد في ترجمة عمّه سالم بن قاسم بن مهنا: فمات سالم في الطريق وقام بعده ابن أخيه جمّاز الذي هو قاسم بن جمّاز، وهو الابن الوحيد لجمّاز، كما هو منصوص عليه في مشجّرات النسب الطالبي، وذلك في سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، حسب بعض الروايات.

إلّا أنّ صاحب التحفة ذكر في ترجمته أنه ولي المدينة بعد موت أبيه، ولكنَّ الذهبي وابن فهد المكي أقدم من صاحب التحفة، وسياق الأحداث فيما بعد تؤكد

(١) عمدة الطالب: ص ٣٣٥، التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٩ رقم ٣٤٥٢ و ج ٢ ص ٢٢٥ رقم ١٧٥٥، وإتحاف الورى: ج ٣ ص ٢٠، والمنهل الصافي: ج ٤ ص ١٩١.

ولايته المدينة بعد عمّه سالم بن قاسم الحسيني.

وأقرب الروايات صحة أنه تسلَّم إمارة المدينة سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، في ظروف الصراع مع قتادة بن إدريس الحسني أمير مكة. فاهتم بالجانب العسكري اهتماماً كبيراً، وجنّد عدداً من رجال المدينة، واستعان وبعض التركمان الذين قدموا من الشام مع الجيش الأيوبي في القوة المسلحة، وأخذ يرد على اعتداءات رجال قتادة بمثلها، ويرسل رجاله للإغارة على ممتلكاته[1].

وقد استشعر قاسم بن جمّاز القوة فقرّر أن يوسِّع إمارته ويقوِّي نفوذه، فخرج برجاله في أوائل سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م إلى وادي القُرى، واستولى عليها، وغنم منها أموالاً وافرة فرَّقها على رجاله وقوَّى بها جيشه، وأخذ يفكر في الاستيلاء على ينبع ومكة وإنهاء أمر قتادة. وعلم قتادة بمآرب قاسم بن جمّاز، وشعر أنّ جيش قاسم قد أصبح قادراً على قهر بقية جيشه، لذلك أرسل إلى الملك الكامل الأيوبي سلطان مصر يستغيث به، ويطلب منه حماية إمارته من قاسم وجيشه.

لقد كان الأيوبيون راضين عن أمراء المدينة ويقدّمونهم على أمراء مكة لأسباب عدة، منها المكانة الرفيعة التي كانت لأمير المدينة الأسبق القاسم بن مهنا عند الأيوبيين، ومنها أنَّ أمراء المدينة لم يخرجوا قط على طاعة الأيوبيين، وظلّوا يدعون لهم على المنابر، بخلاف أمراء مكة الذي خرج بعضهم عليهم، ومنها إساءة بعض أمراء مكة للحجيج، وبخاصة مكثر بن قتادة، ولهذا سارعو إلى نجدة سالم ابن قاسم على قتادة عام ٦١١هـ/ ١٢١٤م.

ورغم ذلك فقد استجاب الملك الكامل، سلطان مصر، لاستغاثة قتادة أمير مكة[2]، وأرسل إليه قوة نزلت في ينبع وفرضت حمايتها عليها، وكان قتادة قد خرج

(١) الحجاز واليمن في العصر الأيوبي: ص ٤٠.

(٢) قد يكون السبب في حماية الأيوبيين لقتادة رغبتهم في حفظ التوازن بين الأمراء الحسنيين والحسينيين في مكة والمدينة، إضافة إلى أهمية موقع ينبع عند الأيوبيين فهي المرفأ الذي تبحر إليه السفن القادمة من عيذاب في مصر، ومركز تجمع قافلة الحج المصرية غالباً.

منها إلى مكة لتجهيز قواته فتسلمتها القوات المصرية من نائب قتادة وحمتها من هجوم قاسم بن جمّاز.

توقف جيش المدينة عن الزحف إلى ينبع بعد أن وصلها الجيش المصري، ولم يضيِّع قتادة الوقت، واستشعر القوة بوصول النجدة المصرية، فجمع رجاله في مكة في مطلع ذي الحجة سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م وسار بهم للإغارة على المدينة، وعلم قاسم بن جمّاز بتحركه فتحرك لمقابلته بجيشه، فالتقى الجيشان عند قرية الحُمَيْمة، وهي أقرب إلى مكة، واقتتل الفريقان قتالاً مريراً في مطلع يوم النحر، ورغم أنّ النجدة المصرية لم تكن مع قتادة، فقد استطاع قتادة بمن معه من رجال أن يضغط على جيش قاسم بن جمّاز وأن يهزمه آخر النهار، وتوقف القتال وانسحب قاسم بن جمّاز، بمن معه، إلى المدينة، وعاد قتادة إلى مكة.

ولقد أجَّجت هذه المعركة الخصومة بين الأميرين وجعلتها إحدى همومها الكبيرة، ولم يكن لهذه المعركة أية آثار سلبية مع الأيوبيين، ولم يشعر أهل المدينة أنّ الملك الكامل الأيوبي سلطان مصر يقف ضدهم؛ ذلك أنّ جيشه لم يشارك في المعركة، واكتفى بحماية ينبع، وينبع مهمة لسلطان مصر؛ لأنها المرفأ الذي تبحر إليه السفن القادمة من عيذاب في مصر، ومركز تجمع قافلة الحج المصرية غالباً.

والراجح أنّ أمير المدينة قد أدرك هذه المعاني فلم يغيِّر علاقته بالأيوبيين، وظل محافظاً على مودَّة سلاطينهم جميعاً، كما أنّ الأيوبيين حافظوا على تقديرهم لأمير المدينة ولأهلها، وذكر ابن خلكان أنّ الملك الكامل سلطان مصر عندما انتصر على الصليبيين في معركة دمياط عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، علم أنّ أحد الصليبيين كان يسبّ النبي ﷺ جهاراً نهاراً، فلما أُسر هذا الصليبي في المعركة أمر الكامل بإرساله إلى أمير المدينة كي يُقتل فيها، فلما وصل الأسير إلى المدينة أُقيم قريباً من قبر الرسول ﷺ، فقيل: يا رسول الله، هذا عدو الله وعدوك، فتهادته أيدي الناس ضرباً بالسيوف[1].

---

(١) وفيات الأعيان: ج ٥ ص ٩١.

وسارت الحياة في المدينة في عهد قاسم بن جمّاز وسط هاجس الصراع مع قتادة ورجاله، فهزيمة جيش قاسم في موقعة الحميمة لم تشف قتادة القاسي الطموح، وقد نجح قتادة في مدِّ نفوذه إلى الطائف، وحصل على رضا الخليفة العباسي رغم اعتداء رجاله على الحجيج مرّات عديدة، ولم يعد يشغله شيء عن التوجه إلى المدينة والاستيلاء عليها، وكان قاسم بن جمّاز يدرك ذلك، ويعمل جهده لتقوية جيش المدينة والإعداد بالمؤن والسلاح للموقعة المترقبة.

وفي سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م وصلت الأخبار بأنّ قتادة يجهز جيشه للاستيلاء على المدينة وأنّه استعد لخوض معركة كبيرة، ولكن ما أن تحرك قتاده بجيشه دبّ فيه المرض واشتدّ، وتوقف عند وادي الفرع، فاستخلف على جيشه كلاً من أخيه الحسن وابنه الحسن، وأمرهما بمواصلة السير إلى المدينة، وطلب إعادته إلى مكة، وعندما فصل الجيش من وادي الفرع، دبّ الخلاف بين القائدين.

وبلغ الحسن بن قتادة أنّ عمّه الحسن قال لبعض جنده: إنّ أخي مريض، وهو ميت لا محالة، وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة، فحضر الحسن عند عمّه، واجتمع إليه كثير من الأجناد والمماليك الذين لأبيه، فقال الحسن لعمّه: قد فعلت كذا وكذا.

فقال: لم أفعل.

فأمر الحسن الحاضرين بقتله، فلم يفعلوا وقالوا: أنت أمير وهذا أمير، ولا نمدّ أيدينا إلى أحدكما.

فقال غلامان للحسن بن قتادة: نحن عبيدك فمرنا بما شئت.

فأمرهما أن يجعلا عمامة عمّه في عنقه، ففعلا، ثم قتله. فسمع قتادة الخبر فبلغ منه الغيظ كلَّ مبلغ، وحلف ليقتلن ابنه، فكتب بعض أصحابه إلى الحسن يعرّفه الحال، ويقول له: ابدأ به قبل أن يقتلك، فعاد الحسن إلى مكة، فلما وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير، فوجد على باب الدار جمعاً كثيراً، فأمرهم بالانصراف إلى

منازلهم، ودخل الحسن إلى أبيه، فلما رآه أبوه شتمه وبالغ في ذمه وتهديده، فوثب إليه الحسن فخنقه، وخرج إلى الحرم الشريف، وأحضر الأشراف وقال لهم: إنّ أبي قد اشتد مرضه، وقد أمركم أن تحلفوا لي أن أكون أنا أميركم، فحلفوا له، ثم أظهر تابوتاً ودفنه ليظن الناس أنه مات، وكان قد دفنه[١].

ومن الواضح أنّ هذا التفسخ الذي وصلت إليه أسرة قتادة في مكة، قد سلمت منه أسرة المهنا في المدينة، فشخصية قتادة الطموحة القاسية أنجبت شخصية أخرى أشد منها ضراوة وأكثر دموية هي شخصية الحسن بن قتادة، الذي قتل عمه وأباه، واستدعى أخاه من ينبع وقتله كي لا ينافسه على الإمارة.

وكانت نهاية حكم آل قتادة على يديه؛ فقد دهمه الملك المسعود الأيوبي ملك اليمن حيث طرده من مكة سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، فهام على وجهه ومات شريداً على دكة في الجانب الغربي من بغداد[٢].

وبهذا استراح القاسم بن جمّاز من مصادماته مع قتادة ورجاله. فنعم أهل المدينة والمجاورون بالأمن، وتواصلت الحركة العلمية في المسجد النبوي، والمدارس التي أنشئت حوله وبعض الرباطات، ونمت الحركة التجاية شيئاً ما، ووجدت البساتين من يعطيها مزيداً من الوقت للعناية بها واستخراج الخضار والفواكه والتمور منها، ويذكر صاحب التاريخ المنصوري أنّ الحج كان في غاية الأمن والرخاء وكثرة المياه وغيرها في تلك السنوات[٣].

غير أنّ الروح العسكرية عند قاسم بن جمّاز لم تخل من آثار سلبية أضرت ببعض أهل المدينة، وأضرت به بالذات، بل وقضت عليه، فرغم العلاقة التاريخية الطيبة بين الأيوبيين وآل المهنا أمراء المدينة، منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، ورغم الاحترام الشديد الذي كان الأيوبيون يظهرونه لأمراء المدينة وأهلها، فإنّ قاسم بن

(١) الكامل: ج ٩ ص ٣٤٦.
(٢) الكامل: ج ٩ ص ٣٤٦.
(٣) التاريخ المنصوري: ص ١١٦.

جمّاز قد تصرف تصرفاً خاطئاً عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، أي بعد سنتين من استيلاء الملك المسعود الأيوبي -سلطان اليمن- على مكة المركمة؛ فقد انحاز قاسم بن جمّاز إلى آل قتادة ضد الأيوبيين، رغم ما أصاب المدينة من شرورهم، ورغم أنهم حاولوا طرد آل المهنا من المدينة أكثر من مرة.

يروي المقريزي أنّ راجح بن قتادة لجأ إلى قاسم بن جمّاز، واستنصره على الأيوبيين ليعيد مكة إلى أبناء قتادة الذين بقي منهم راجح هذا، فأمر قاسم بن جمّاز بتجهيز حملة من أهل المدينة ومن العربان حولها لمهاجمة مكة وانتزاعها من الأيوبيين، وتجهَّز الجيش سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م في جرف المدينة، ثم سار به إلى مكة بقيادة قاسم، وكان الملك المسعود الأيوبي قد غادرها إلى اليمن وخلَّف عليها نور الدين عمر نائباً عنه، ولم يأبه نور الدين لأخبار الجيش الزاحف أول الأمر، واكتفى بتحصين أسوار مكة وتدعيمها، أملًا في أن يفاوض قاسم بن جمّاز ويردَّه بحكم الصداقة العريقة بين أسرته والأيوبيين، ولكنّ قاسم بن جمّاز نشر رجاله حول الأسوار، وأصرّ على أن تستسلم له، ويخرج الأيوبيين ويعود الأمر إلى آل قتادة، ورفض الأيوبيون ومعظم أهل مكة، واستمر الحصار شهراً كاملًا، عندها يئس نور الدين عمر من ردّ قاسم بن جمّاز، ويئس من وصول نجدة تنهي هذا الحصار، فجمع ثلاثمائة فارس من أشداء جيشه ومن أهل مكة، وخرج بهم لقتال قاسم بن جمّاز، ودارت معركة طاحنة، واشتد نور الدين عمر ورجاله على جيش قاسم، واجتهدوا في الوصول إليه بالذات لتحطيم معنويات رجاله وهزيمتهم، وتمّ له ذلك خلال جولات سريعة حاسمة، فقتل أحد مماليك نور الدين قاسمَ بن جمّاز، وعلت أصوات المنادين بالخبر، وقُتل مع قاسم عدد من رجاله الأشداء، فتضعضع جيش المدينة، وانسحب إلى التلال الخلفية تاركاً عدداً من القتلى والأسرى[1].

وفي بعض الروايات أنّ قاسم بن جمّاز قتل في سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧م، وفي روايات أخرى أنه ملك المدينة ٢٥ سنة، وأعتقد أنّ خطأ في النقل حيث جرى التباس بينه وبين قاسم بن مهنا جدّه الذي ولي المدينة ٢٥سنة.

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٢١٩.

ترجم له صاحب معجم الألقاب[١]: كان من السادات الأفاضل، ذكره شيخنا العلامة النسابة جمال الدين أبي الفضل أحمد بن المهنا الحسيني وقال: كان جليل القدر، أنشد...، ذكره العماد في الفتح القدسي: كان أمير المدينة.

وذكر عنه صاحب إتحاف الورى[٢]: انكسر قاسم هذا في موقعة الحميمة قرب مكة في سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، وكانت المعركة بينه وبين قتادة أمير مكة.

شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني

شيحة بن هاشم بن قاسم بن مُهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٣].

أمير المدينة المنورة في سنة ٦٢٤-٦٤٧هـ/ ١٢٢٧-١٢٤٩م.

وأمير مكة في سنة ٦٢٧-٦٤٧هـ/ ١٢٣٠-١٢٤٩م.

بعد مقتل الأمير قاسم بن جمّاز بن قاسم بن مهنا في سنة ٦٢٤هـ، كان «الأمير شيحة متولياً على المدينة انتزعها من الجمامزة في سنة أربع وعشرين وستمائة، وطريق وصولها إليه أنَّ صاحب المدينة المتولّي عليها في أيام الخليفة أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله العباسي، هو الأمير عز الدين أبو فليتة قاسم بن مهنا، هكذا ذكره مؤلف (الروضتين في أخبار الدولتين) النورية، والصلاحية»[٤].

(١) تلخيص معجم الألقاب: ج ١ ص ٢٧٩.
(٢) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٢٣.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٩ رقم ٣٤٥٢ وج ٢ ص ٢٢٥ رقم ١٧٥٥، وعمدة الطالب: ص ٣٣٥، والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢١١، والعقد الثمين: ج ٥ ص ٢٢-٢٤ رقم ١٣٨٦.
(٤) نصيحة المشاور وتعزية المجاور، لابن فرحون: ص ٢٣٣-٢٣٤، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٩ رقم ٣٤٥٢.

قال أبو شامة: «وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب تغمده الله برحمته محباً في الأمير قاسم بن مهنا، يستصحبه معه في غزواته وفتوحاته، فحضر معه أكثر الفتوحات، وكان السلطان صلاح الدين يجلسه عن يمينه ويستوحش لغيبته، ويستأنس بشيبته».

وقال -أيضاً-: «وما حضر الأمير قاسم مع السلطان صلاح الدين حصار بلد أو حصن إلا فتح الله تعالى على المسلمين، فكان السلطان يعتقد بركة نسبه الطاهر، ويكرمه ويتحفه بأجل الكرامات»[١].

يُكنى أبا عيسى، الحسيني، والد جمّاز، وله من الولد عيسى وبه يُكنى، ومنيف وهما أميران، وهاشم، وبرجس، ومحمد، وسالم.

هل شيحة ومنيف إسمان لشخص واحد؟

وسبب هذا السؤال أنّ السيد حسن بن ضامن أثناء حديثه عن عقب هاشم بن الأمير القاسم بن المهنا قال: «فهاشم خلف سبعة بنين: أبا عيسى شيحة الأمير منيفاً، وسالماً، وحسناً، وهاشماً، وأبا كليب محمداً، والأمير عيسى، والأمير أبا سند جمّاز»[٢].

قال ضامن بن شدقم الحسيني: «قال جدي علي رَحِمَهُ اللهُ: الموجود بخط المؤلف طاب ثراه اتصال اسم شيحة بقوله الأمير منيفاً بغير فصل، بعد أن كان بينهما (واو) فضرب عليها، فإن كان الضرب عمداً أو صواباً كان الاسمان بمقتضى العربية واردين على مسمّى واحد، والأمير ثانياً منصوب بفعل محذوف تقديره أعني الأمير منيفاً، ومنيفاً بدلاً من هذا الأمير، كما أنَّ شيحة بدل من الأمير أولاً، وإن كان الصواب إثبات الواو كان الاسم الثاني معطوفاً على الأول، والبدلية بحالها، ويحتمل كون اسقاط الواو بينهما حكمين أحدهما: واو بالفعل الماضي مع واو

(١) الروضتين في أخبار الدولتين: ج ٢ ص ١٢٥، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٩.
(٢) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٤٩-٣٥٠.

الاستئناف، والثاني: شيحة فاعل هذا الفعل، أي وولد شيحة الأمير منيفاً، فالأمير مفعول ولد ومنيفاً بدل منه.

فعلى الأول يكون عقب هاشم سبعة بنين، ومنيف هو نفس شيحة، وعلى الثاني يكون ثمانية بإضافة منيف، وعلى الثالث إنما أعقب هاشم شيحة وحده، ثم شيحة خلف السبعة الباقين ومن جملتهم منيف، والمحل غير منقح، وكلام المؤلف غير موضح، ثم إني وجدت هذا الاحتمال الأخير هو المطابق للعمدة»[1].

انتزع إمرة المدينة من الجمامزة سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، وكان عليها أميراً جدَّه قاسم بن مهنا من قبل، ولم يتمكن الجمامزة من انتزاعها منه ولا من أولاده.

بعد مقتل القاسم بن جمّاز على يد رجال نور الدين عمر، رجع الجيش إلى المدينة المنورة يحمل نعي أميرها قاسم بن جمّاز، وقبل أن يجتمع آل جمّاز ليختاروا الأمير الجديد، كان ابن عمٍّ لقاسم يُدعى شيحة بن هاشم نازلاً عند بعض الأعراب قرب المدينة، فلما بلغه مصرع قاسم جمع أعوانه، واستنصر أولئك الأعراب، فنصروه وأمدّوه بعدد من رجالهم، فقادهم إلى المدينة ودهمها، واستولى على دار الإمارة دون إراقة دماء، وأصبح الناس فرأوا شيحة على منبر المسجد النبوي يدعو الناس إلى مبايعته بالإمارة والحلف له على السمع والطاعة، ورجاله قائمون في أنحاء المسجد وخارجه حول الإمارة والطرقات، فلم يكن بدّ من مبايعته. حتى الجمامزة أبناء قاسم اضطروا لإعطاء البيعة والحلف على الطاعة للأمير الجديد.

كان شيحة قوياً عاقلاً حسن السياسة، لذلك كان أول عمل قام به هو مسح أخطاء سلفه الأمير قاسم بن جمّاز، وأهمها الروح العسكرية الصارمة، ومعاداة الأيوبيين. فبدأ بتخفيف وطأة الروح العسكرية والقتالية، وأوقف الصراع مع أمراء مكة ورجالهم.

وقد أرسل رسله إلى السلطان الكامل الأيوبي في مصر، تحمل معها ولاء

---

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٥٠.

المدينة له، فسرَّ السلطان بذلك، وأرسل الخلع والأموال للأمير ولأهل المدينة، ونعمت المدينة بالطمأنينة والأمن إلى نهاية ذلك العقد، وسارت الحياة العلمية والاقتصادية في مجرياتها الهادئة.

وكان من الممكن أن تستمر على هذا المنوال تحت حكم الأمير شيحة لولا الأحداث التي وقعت خارج المدينة وبعيداً عنها، ولكنها أثَّرت فيها، فقد واصل شيحة محافظته على الأمن بحزم لا يقل عن حزم قاسم بن جمّاز من قبله، واستفاد من صِلاته القديمة بالأعراب المحيطين بالمدينة فضمن عدم إغارتهم عليها، وأنفق مقابل ذلك بعض الأموال التي كانت ترده من مصر والشام.

غير أنّ هذه السكينة والطمأنينة تبددتا بسبب الأحداث التي وقعت في اليمن ثمّ في مكة سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م وسنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م.

توفي السلطان الأيوبي مسعود حاكم اليمن سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م وهو في طريقه إلى مصر، وخلفه على اليمن أحد أعوانه المخلصين نور الدين عمر، الذي سبق أن تولَّى أمر مكة وقاتل قاسم بن جمّاز وقتله، وقد أظهر نور الدين الولاء للأيوبيين أول الأمر.. ثم استقل عنهم في العام التالي وتلقب بالمنصور ودعا لنفسه. وجهّز جيشاً سيَّره إلى مكة المكرمة لطرد أميرها من قبل الأيوبيين طغتكين بن عبدالله الكاملي.

وعندما اقترب الجيش اليمني من مكة عمل قائده ابن عيدان على استمالة أهلها، وشعر طغتكين بذلك وفرّ إلى ينبع مركز تجمع القوة الأيوبية آنئذ، وأرسل من هناك إلى السلطان الكامل يطلب منه النجدة لاستعادة مكة. ودخل ابن عيدان مكة وخطب فيها لنور الدين عمر الرسولي وجعلها تابعة للرسوليين[1].

ولما بلغ الخبر السلطان الكامل جهَّز جيشاً بإمرة فخر الدين ابن الشيخ الجويني إمام الحرمين المشهور، وأرسل إلى الأمير شيحة يطلب منه أن يجهّز قوة

(١) انظر: الملحق (٤).

من أهل المدينة وينضم بها إلى جيش فخر الدين، كما أرسل إلى أمير ينبع الشريف أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة أن يفعل ذلك، ولم يجد شيحة بداً من الانصياع لطلب السلطان الكامل الأيوبي، فأمر بالنفير وجهّز رجاله، واستقبل الجيش القادم من مصر وخرج معهم إلى مكة، وفي الطريق انضمت إليهم القوة القادمة من ينبع بقيادة أميرها أبي سعد، وسار الجيش الضخم إلى مكة، وحاصرها حصاراً شديداً، وانتشرت القوة الكبيرة حول سورها تمنع الدخول والخروج، وتناوش الحراس بالنبال، وما لبث ابن عيدان أن رتّب رجاله واندفع بهم خارج السور، والتقى الجيشان في معركة طاحنة غير متكافئة قُتل فيها ابن عيدان وعدد كبير من أعوانه، وهرب جنده الآخرون إلى تلال مكة البعيدة.

ودخلت القوة الأيوبية المنتصرة إلى مكة، ودخل معها شيحة ورجاله، ولم يخسر الجيش المنتصر سوى عدد قليل من القتلى، وقد ارتكب طغتكين حماقة عظمى؛ إذ أباح لجنوده أن ينهبوا ما تصل إليه أيديهم من أموال ومتاع ذلك اليوم. وغضب شيحة لذلك وأمر رجاله بالانسحاب من مكة والعودة إلى المدينة، وكتب إلى السلطان الكامل بذلك، فغضب السلطان وعزل طغتكين، وأمر الجيش كله بالانسحاب من مكة والعودة إلى ينبع ومصر(١).

وبعد الذي حدث في مكة من فعل طغتكين قرر ألا يشترك مع الجيش المصري في أحداث مكة المتوالية، فقد حدث في السنة نفسها أن جمع راجح بن قتادة بعض الأعراب وأغار على مكة، فخرج منها واليها الأيوبي، ولم يتحرك الأمير شيحة، ولم يُرسِل قوة من المدينة، واضطر السلطان الكامل إلى إرسال قوة من مصر بقيادة الأمير الزاهر استطاعت في آخر ذلك العام أن تعيد مكة إلى طاعة الأيوبيين وأن تقيم الحج بأمن وطمأنينة(٢).

وبقي الأمير شيحة على حياده هذا في الصراع الذي استمر سبع سنوات

---

(١) العقد الثمين: ج ٥ ص ٦٥.
(٢) سمط النجوم: ص ٤٨٠.

متوالية، أي إلى سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، حيث كان كل من الأيوبيين والرسوليين يستولي على مكة مدة من الزمن، ثم يخلّيها عندما تأتي قوة كبيرة للطرف الآخر.

ففي سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م استقر الأمر في مصر للسلطان الصالح نجم الدين أيوب بعد سنتين من الصراع بين أبناء السلطان الكامل الذي توفي سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، وسافر الأمير شيحة مع عدد من وجوه المدينة إلى القاهرة لتهنئته بالسلطنة، فاستقبله السلطان الصالح أحسن استقبال وأكرمه وخلع عليه، ثم حادثه بشأن مكة المكرمة التي استولى عليها الرسوليون -حكّام اليمن- قبل وفاة السلطان الكامل، وطلب منه أن يقود الحملة لإخراج الرسوليين منها وإعادتها إلى الحكم الأيوبي، فوافق الأمير شيحة على طلب السلطان الصالح، وعاد إلى المدينة ومعه ألف فارس من الجيش الأيوبي.

مكث الأمير شيحة في المدينة مدة يسيرة، جمع فيها عدداً من رجاله ليصحبوه إلى مكة، وقوّى جيشه ببعض المؤن والعتاد وتوجه إلى مكة المكرمة، وكان الرسوليون قد أسندوا إمارتها إلى الشريف راجح بن قتادة الذي انتصرت له المدينة سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م. وقاتل رجالها من أجل إعادتها إلى إمارة مكة وقتل أميرها قاسم بن جمّاز في سبيل ذلك، ولقد تحوَّل الصديق إلى عدو والمنجد إلى محارب.

وصل الأمير شيحة إلى ضواحي مكة المكرمة فعلم أنّ الشريف راجح بن قتادة مسافر إلى اليمن قبل أن تتحرك الحملة، وأنّ الذين يتولون أمر مكة هم قادة الجيش اليمني المرابط فيها، وتمهل شيحة فلم يهاجم مكة أملاً في أن يستسلم الجيش اليمني وينحاز المكيّون إليه، خاصة بعد أن عُرف عنه غضبه لاستباحة الأموال فيها في حملة طغتكين سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م، وأرسل من يتحسس له الخبر، وقد صدق حدسه إلى حد ما؛ إذ جاءه المخبرون بأنّ القادة اليمنيين عندما علموا بقوة جيشه خرجوا من مكة إلى اليمن، ففرح شيحة بذلك وأمر الجيش بإغماد السيوف ودخول مكة سلماً، وأرسل المنادين ينادون فيها بالأمان، ودخل شيحة واتجه مع

كبار قادته إلى البيت الحرام وطاف فيه، واستقبل الشرفاء ووجوه أهل مكة، وأخذ منهم البيعة للأيوبيين، ومكث فيها يدير بنفسه شؤونها، وترك أمور المدينة لولده عيسى بن شيحة.

غدت مكة امتداداً لإمارة المدينة التي يديرها الأمير شيحة، وكانت هذه الإمارة انغماساً في الصراع بين الأيوبيين والرسوليين، الذي امتد إلى نهاية الحكم الأيوبي، فلم يكد الأمر يستقر لشيحة في مكة حتى بلغه أنّ السلطان المنصور الرسولي في اليمن قد جهّز جيشاً كبيراً بقيادة الأمير ابن النضيري لاستعادة مكة منه، وأرسل معه راجح بن قتادة الذي ترك أتباعه ومؤيديه في مكة، وعندما تحقق شيحة من تحرك الجيش وقرب وصوله إلى مكة، وتحقق أنّ عدده كبير ولا طاقة لجنده بمواجهته، أمر رجاله بالانسحاب والاتجاه شمالاً إلى المدينة المنورة.

عاد الأمير شيحة إلى المدينة وقد أحس بالضيق لانسحابه الاضطراري، وأبقى الجيش فيها، وسافر إلى مصر يطلب من السلطان الصالح مدداً آخر يواجه به الجيش الرسولي الذي استولى على مكة دون قتال، ورغم أنّ الأمير شيحة كانت له صلة حسنة بالقبائل المحيطة بالمدينة فإنّه لم يستمد منها العون لمواجهة الجيش الرسولي، ولم يعتمد أيضاً على أهل المدينة. والراجح أنه فعل ذلك ليقينه بأنّ المدينة غير قادرة على تجنيد العدد اللازم لمواجهة الجيش الرسولي، وبأنّ الأعراب والقبائل المحيطة بالمدينة قد لا تلبِّي دعوته وقد لا تكون طيعة لقيادته، وهكذا أصبح أمير المدينة مشغولًا بقضية مكة ومنشغلاً عن تدبير أمور إمارته الأساسية، ومتورطاً في الصراع العسكري.

لبَّى الملك الصالح طلب الأمير شيحة، وجهَّزه بجيش كبير يفوق عدده الجيش اليمني بقيادة الأميرين علم الدين الكبير، وعلم الدين الصغير، والمدهش أنّ الملك الصالح الذي كان يواجه الإعصار الصليبي الذي كان يهدد مصر، والذي استولى على بعض مدنها الساحلية لبعض الوقت، قد انغمس أيضاً في هذا الصراع الهامشي على السلطة والنفوذ.

والمؤلم أنّ تشتت الجهود الإسلامية في وقت كانت فيه كتائب الصليبيين تحاول استعادة ما انتزعه منها صلاح الدين وأخوه الملك العادل، وكانت زحوف التتار تهدد الأمصار الإسلامية في الشمال والشرق، وتُنذر بقرب توجهها نحو الشام والعراق، ومع ذلك كانت حمّى الصراع على الإمارة تستنزف الجهود والأموال والدماء.

وفي رجب سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م تحرك الجيش نحو مكة، وسبقت أخبار هذا الزحف الكبير إلى مكة، وأحسَّ راجح بن قتادة والجيش الرسولي أنّ خصمه يفوقه عدة وعتاداً، فانسحب من مكة وأخلاها له[١]، فدخلها شيحة بجحافله منتصراً، وعاد إلى كرسي الإمارة، ومكث في مكة إلى نهاية العام، مكتفياً بإنابة ابنه جمّاز حيناً، وابنه الآخر عيسى حيناً آخر، لإدارة شؤون المدينة الداخلية، فكانت المدينة في هذه المدة تابعة لمكة[٢].

وما ان انتهى موسم الحج ذلك العام حتى وصلت الأخبار إلى الأمير شيحة بأنّ السلطان المنصور الرسولي جهز جيشاً كبيراً يفوق جيشه عدداً وعدة، وسيَّره إلى مكة المكرمة بقيادة الشريف علي بن قتادة، فقرَّر الأمير شيحة ألا يغادر مكة هذه المرة، وأرسل على وجه السرعة رسولاً إلى الملك الصالح يطلب منه نجدة سريعة، نأرسل الملك الصالح مائة وخمسين فارساً بقيادة الأميرين مبارز الدين علي بن الحسن بن برطاس ومجد الدين أحمد التركماني، ووصلت أخبار النجدة قبل وصولها، فأشاعها الأمير شيحة وتعمد تسريبها إلى خصومه الزاحفين إليه، فلما بلغتهم توقفوا عن الزحف عند قرية السرين، وأرسل الشريف علي بن قتادة إلى المنصور الرسولي يخبره بذلك ويطلب منه نجدة إضافية، وتحمَّس السلطان المنصور الرسولي لذلك، وأمر بتجهيز أكبر قوة ممكنة على وجه السرعة، وقرر أن يخرج بنفسه على رأسها.

---

(١) الحجاز واليمن: ص ٦١.
(٢) السلوك: ج ١ قسم ٢ ص ٣٢١.

ولا شك أنّ هذا القرار يبين حقيقة الصراع الذي يقف فيه أمير المدينة شيحة وأشراف مكة من آل قتادة، فهو صراع مزدوج أو صراعان متوازيان:

الصراع الأول (الأكبر): بين الأيوبيين والرسوليين، فالأيوبيون في مصر هم الذي يجهّزون القوة الحقيقية التي ترهب الرسوليين وتخرجهم من مكة، وتقاتلهم إذا التقت الجموع، كما حدث في عامي ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م و ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، والرسوليون في اليمن هم الذي يجهزون القوة الحقيقية التي ترهب الأيوبيين وتقاتلهم وتخرجهم من مكة.

الصراع الثاني (الأصغر): فهو الصراع بين أمراء المدينة من آل مهنا وأمراء مكة من آل قتادة، ولهذا الصراع خلفية تاريخية ترجع إلى عهد قتادة نفسه عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٥م عندما زحف إلى المدينة وحاصرها، ثم ردّ له أمير المدينة سالم بن قاسم الهجمة بمثلها فلحقه إلى مكة وحاصره فيها. وقد استفاد الأيوبيون والرسوليون من هذه الحادثة في بسط نفوذهما على هذه البقعة المقدسة، فتحول الصراع تنفيذاً لرغبة كل من الأيوبيين والرسوليين، حتى إنّ الأمير شيحة لم يستطع في حملة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م أن يمنع الجيش المصري من نهب مكة إذ لم يكن هو القائد العام للجيش، وكذلك في الحملات التالية.

خرج السلطان المنصور الرسولي من اليمن بنفسه على رأس القوة التي جمعها ومعه أموال ومؤن كثيرة، ولحق بجيشه في السرين، وزحف الجميع إلى مكة.

وقبل أن يصل إليها وصلت أخبار من المدينة اضطرب لها الأمير شيحة، وخرج مسرعاً برجاله تاركاً مكة للجيش المصري.

كانت الأخبار تتعلق بأمن المدينة، وبإمارته عليها؛ فقد حرَّكت غيبته الطويلة أطماع أقاربه في الإمارة، كما حرَّكت أطماع بعض الأعراب المقيمين حولها، خاصة بعد أن لمسوا غياب القوة المسلَّحة عنها وانشغال الأمير شيحة ورجاله

بمكة، فداهم الأعراب أطراف المدينة ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم.

وتحرك أيضاً عمير بن قاسم بن جمّاز ابن عم شيحة، وبدأ يجمع الجموع حوله لينتزع الإمارة من شيحة ويردَّها إلى الجمامزة، ونجح في جمع أعداد غفيرة من الأعراب طالبي الجوائز، وأوشك أن يهاجم المدينة، لذا سارع الأمير شيحة بالعودة إلى المدينة، لكن عميراً فاجأه بجموعه أواخر صفر من العام نفسه، واقتحم سور المدينة، وانتشر رجاله في أحيائها واتجهوا إلى الإمارة للقبض عليه، فلم يجد بداً من الهرب والنجاة بنفسه.

اختبأ الأمير شيحة في بعض بساتين المدينة إلى الليل، ثم خرج إلى الجبال البعيدة حيث أصدقاؤه القدامى الذين ساعدوه في الاستيلاء على الإمارة قبل سبع عشرة سنة، فلجأ إليهم، وبدأ يستعيد نشاطه بجمع الرجال حوله، واستطاع بعد فترة زمنية من إعادة سيطرته على المدينة[١].

وبعد هذا المواقف القاسية، اقتنع الأمير شيحة بالابتعاد نهائياً عن الصراع بين الأيوبيين والرسوليين على مكة، ولم يعد يتدخل في شؤونها رغم الصراع المحتدم، وتفرغ لإدارة شؤون المدينة، واهتم بتقوية سورها وتحسين مرافقها، واهتم بتأديب الأعراب الذين هاجموا المدينة، والذين ناصروا ابن عمه عميراً وبخاصة بعض فروع بني لام، المقيمين في ضواحي المدينة.

وفي عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م خرج الأمير شيحة مع عد قليل من رجاله إلى العراق لزيارة الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين، فعلم بخروجه الحانقون عليه من بني لام فلحقوه وأدركوه غير بعيد عن المدينة وقتلوه، وفرّ أصحابه إلى المدينة يحملون إلى أهلها نعي أميرهم الذي امتدت إمارته قرابة ربع قرن من الزمان، كان فيها فترات طويلة من الهدوء والسكينة[٢].

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٣٢١، والعقد الثمين: ج ٥ ص ٢٣ - ٢٤.
(٢) السلوك: ج ١ ص ٣٢١، والعقد الثمين: ج ١ ص ١٧٦.

وصفه صاحب مجمع الألقاب: كان شجاعاً دمث الأخلاق، حسن السيرة في رعيته قرأت بخطه:

تنقّل المرء في الآفاق يُكسبه محاسناً لم تكن فيه ببلدته
أما ترى بيذق الشطرنج أكسبه حسن التنقل فيها فوق رتبته[1]

عمر بن قاسم بن جمّاز بن قاسم بن مهنا الحسيني

(عُمير) عمر بن قاسم بن جمّاز بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[2].

أمير المدينة المنورة في صفر سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م[3].

ذكر صاحب التحفة أنه قد انضم إليه في صفر سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م جمع عديد، وأخرجوا شيحة بن هاشم بن قاسم ابن مهنا... أمير المدينة، ولم يزل هارباً حتى تحصن في بعض التلال أو الجبال[4].

وظل أميراً على المدينة حتى سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م في خلافة المستعصم بالله، واعترض ركب الحاج القادم من العراق بقيادة قائد الحج سيف الدين كيكلدي في رمضان قرب وادي المحرم وحال بينهم وبين طلب الماء، وطلب منهم مالاً، واشتد في الطلب، وهدّدهم بالمحاربة، واستطاعوا الانتصار عليه، واستسلامه واعتذاره[5].

---

(١) أعيان الشيعة: ج ٧ ص ٣٥٤.
(٢) المنهل الصافي: ج ٤ ص ٨٩، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٢٢٦ رقم ١٧٥٥، وعمدة الطالب: ص ٣٣٥.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٢٢٦ رقم ١٧٥٥، والمنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٩.
(٤) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٢٢٦ رقم ١٧٥٥، وتحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٥٠.
(٥) الحوادث الجامعة: ص ٨٨.

عيسى بن شيحة بن هاشم الحسيني

عيسى بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م.

كان عيسى بن شيحة ينوب عن أبيه في إمرة المدينة؛ فقد عرفه أهل المدينة في فترات غياب أبيه نائباً عنه في الإمارة ومدبراً لشؤون المدينة، ولما قتل بنو لام أباه استقل بإمارة المدينة[١].

ويذكر أنّ الجمامزة طمعوا في انتزاع الإمارة من عيسى؛ قال السيد ضامن بن شدقم الحسيني في (تحفة الأزهار):

«ولي الإمارة سنة أربع وعشرين وستمائة بعد أن قُتل والده، فجاء الجمامزة في طلب الإمارة، فقبض على جماعة منهم وعلى آخرين من أتباعهم، وقيل: إنّه ولي الإمارة بعد أن قُتل الأمير قاسم بن جمّاز بن أبي فليته القاسم شمس الدين الكبير، فأتاه عمير ابن الأمير قاسم المذكور بجمع غفير من العُربان، فخرج خائفاً وجلاً إلى الفلاة، فلم يزل عمير بها أميراً إلى أن مضت ثلاث سنوات، ثم أتى عيسى فانهزم عنه عمير، وأقام بها عيسى ثلاث سنوات، ثم أنّ صاحب مصر أيوب المنصور بالله أقام أخاه جمّاز بن شيحة مقامه وجهّزه بألف فارس ليأخذ مكة المشرفة من السيد راجح بن قتادة النابغة الحسني -أميرها يومئذ من قبل صاحب اليمن عمر نور الدين المنصور بالله- فاستولى عليها من غير قتال، إلا أنّه نهب جيع ذخائر الكعبة والمسجد الحرام ومال التجارة وغيرهم، وقبض على وزيره النصري.

وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة جهّز صاحب اليمن عمر الشريف راجح وابن

(١) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٨٣.

النصري بجيش كثيف، فاستمالا الرجال ببذل الأموال، فانهزم عيسى -لعدم قدرته على القتال- إلى المدينة، فأمدّه صاحب مصر الملك الكامل فسار إليها واستولى عليها، وانهزم عنه راجح فأقبل عمر نور الدين بذاته فدخلها في شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وستمائة واستولى عليها، واستخلف عليها مملوكه السلاح.

قال السيد ضامن: وعندي في صحة هذه القضية نظر بين كونها كما هي مذكورة هنا وبين كونها مع أبيه شيحة، والله أعلم[١].

وفي سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م حصل بين عيسى وأخويه أبي الحسين منيف وجمّاز منافرة فأخرجهما من المدينة فكاتبا وزيره فأدخلهما الحصن القديم ليلاً فقبضا عليه وقيَّداه في الحديد، وتولّى الإمارة منيف وخطب باسمه ونادى بالأمان.

وخلف الأمير أبو محمد عيسى الحرون أحد عشر ابناً: شيبان، ودمخا، وأبا قطامي، وتوبة، وشداداً، ومنصوراً، وماجداً، وقاسماً، وحسناً، وحسيناً، ومخدماً، ومسهراً[٢].

وقال القلقشندي: «ثم قبض عليه أخوه جمّاز سنة تسع وأربعين وستمائة وملك مكانه»[٣].

ويعتقد أنه راسل الخليفة العباسي في بغداد في سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م عندما أصابت هزة بركانية المدينة في تلك السنة، واشتعلت النار بالحرم، فدمر جزء منه، وقد بقي الطلب بدون جواب بسبب أنّ الأسرة العباسية الحاكمة في بغداد كانت تترنح يومذاك قبل سقوطها الذي تم بعد سنتين[٤].

---

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٥٠. والصحيح أنّ هذه الحادثة وقعت في إمارة أبيه شيحة على مكة، فإنّ عيسى أقام علاقات ودية مع الأيوبيين في مصر والشام، وحافظ على الولاء لهم، كما أقام علاقة حسنة مع آل قتادة، ولم يدخل في الصراع حول مكة المكرمة. تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٤١، والتحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: ج ٣ ص ٣٨٣.

(٢) أعيان الشيعة: ج ٨ ص ٣٨٣.

(٣) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٤.

(٤) موسوعة العتبات المقدسة (قسم المدينة): ص ٢٠٣.

وقد ذُكر أنّ الأمير راجح بن قتادة استنجد به لإخراج أخيه أبي سعد الحسن بن علي من مكة، فسار ومعه من المدينة بسبعمائة فارس من بني الحسين، وكان عليهم عيسى هذا الملقب بالحرون، وقد هزمهم أبو نُمَي.. وانتشرت عمامة عيسى هذا، وذهب يجرها خلفه، فقال جعفر الحسيني النسابة بالعراق:

ألم يبلُغْك شأنُ بني حسينٍ وفرّهمُ وما فعل الحَرُونُ
فَيَا للهِ فعْلُ أبي نُمَيّ وبعضُ البأس يُشبِهُهُ الجنونُ
يصولُ بأربعينَ على مئاتٍ وكم من كثرةٍ ظلَّتْ تهونُ[١]

منيف بن شيحة بن هاشم الحسيني

منيف بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنّا بن حسين بن مهنّا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب[٢].

أمير المدينة المنورة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م مشاركة، و ٦٥٦-٦٥٧هـ/ ١٢٥٨-١٢٥٩م استقلالاً.

ورد في ترجمة شقيقه جمّاز بن شيحة: ولي جمّاز بن شيحة بعد موت أخيه مُنيف وذلك في سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م.

---

(١) سمط النجوم العوالي: ج ٤ ص ٢٤١.

(٢) تضطرب الروايات التاريخية في اسم الأمير الذي تسلّم الإمارة بعد عيسى. ذكر ابن خلدون أنّ الذي تولّى الإمارة بعد عيسى هو جمّاز، (تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٤١)، بينما ذكر السخاوي أنّ الذي تولى الإمارة بعد عيسى هو منيف، (التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٣)، وقد اضطرب السخاوي في هذا الموضوع؛ لأنه أرخ استلام منيف للإمارة في مكان آخر من كتابه عام ٦٥٧هـ، وهو العام الذي توفي فيه منيف، (التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٨٣)، وذكر ابن الأثير أنّ جمّازاً كان على رأس الإمارة في سنة ٦٥٩هـ وسنة ٦٧٩هـ، (البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٢٤٢ وج ١ ص ٣٠٧) و(انظر: النجوم الزاهرة: ج ٧ ص ١٤٦).

وفي الدرر الكامنة: «قُتل شيحة بن هاشم بن قاسم سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، وولي ولده جمّاز»[1].

وفي ترجمة شقيقه عيسى بن شيحة الذي تولى إمارة المدينة في سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م استقر منيف بالمدينة سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م أو التي قبلها.

وعلى هذا فولاية المذكور للمدينة بالبداية مشاركة لأخيه عيسى وجمّاز ثم استقل بها في سنة ٦٥٦-٦٥٧هـ/ ١٢٥٨-١٢٥٩م قد لا تزيد كثيراً على سنة واحدة.

إذن، كانت إمارة المدينة لأخيه عيسى بن شيحة الذي تولى الإمارة من سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م إلى سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م، وفي هذا العام تعاون الأخوان جمّاز ومنيف ضد عيسى، وهاجموا الإمارة، وقبضوا على عيسى وسجنوه وأعلنوا عزله[2].

ولقد حكم الأخوان جمّاز ومنيف المدينة كالتالي:

١- الإمارة الأولى: حكم فيها جمّاز من سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م إلى سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م.

٢- الإمارة الثانية: حكم فيها منيف من سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م إلى سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م.

٣- الإمارة الثالثة: حكم فيها جمّاز من سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م إلى سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م.

إمارة منيف بن شيحة:

ظلَّت المدينة هادئة في السنة الأولى من إمارة منيف، وكانت العلاقات الخارجية حسنة مع جميع الأطراف، فبعد أن ساعد جمّاز آل قتادة في مكة ضد

(١) الدرر الكامنة: ج ٢ ص ٨٨.
(٢) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٤١.

الرسوليين لم يتدخل في شؤون مكة، ثم عاد الصراع بين الإخوة من آل قتادة على الإمارة، فوقفت المدينة على الحياد. واستمرت العلاقات مع بقية الأيوبيين في الشام، ولم تحدث أية مشكلة مع المماليك في مصر الذين استولوا على الحكم من الأيوبيين فيها والمدينة تفتح أبوابها للقادمين من جميع الجهات وتحسن معاملتهم، والأمن مستتب بشكل عام، فليست هناك صراعات ظاهرة حول الإمارة وليس هناك من يهددها من القبائل المحيطة بها.

ولكنَّ حكم الأمير منيف بن شيحة لم يخلُ من شدة وظلم أحياناً، فهناك مكوس تؤخذ من القادمين إلى المدينة، ومكوس تفرض على التجار وعلى المحاصيل الزراعية، وقد بلغ الأمر بمصادرة بعض أموال التجار والمزارعين الذين يخفون أملاكهم أو يتخلفون عن دفع المكوس المفروضة.

وكانت الحركة التجارية رغم ذلك تجري في الأسواق بشكل طبيعي، وكذا الحركة العلمية في المسجد النبوي بشكل رئيسي، حيث حلقات العلم المختلفة وبخاصة حلقات التفسير والحديث والفقه، يشارك فيها عدد كبير من الزائرين والمجاورين.

وفي عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م شهدت المدينة المنورة حدثين كبيرين وهما: انفجار بركان في منطقة الحرة الشرقية وهو ما تسميه كتب التاريخ القديمة «النار العظيمة»، واحتراق المسجد النبوي الشريف، وليس بين الحدثين سوى شهرين اثنين.

انفجار البركان:

أورد المؤرخون روايات مختلفة تناقلتها الكتب من شهود عيان[1]، لا يخلو

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: ج ١ ص ٤٤، تحفة الأزهار وزلال الأنهار في نسب أبناء الأئمة الأطهار: ج ٢ ص ٣٥١-٣٥١، البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٢٠١-٢٠٣، السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٣٩٨- ٣٩٩، عمدة الأخبار في مدينة المختار العباسي: ص ١٢٧، نزهة الناظرين في مسجد سيد المرسلين الأولين والآخرين البرزنجي: ص ٥٦، الوفا بما يجب لحضرة المصطفى السمهودي: ص ٩٧، وفاء الوفاء: ج ١ ص ١٤٣-١٥١، النهاية في الفتن والملاحم: ج ١ ص ٦، ذيل مرآة الزمان لليونيني: ج ١ ص ٢-٤.

بعضها من التناقض. وباستعراض هذه الروايات نخرج بالصورة التالية:

١- شهد عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م منذ شهوره الأولى أحداثاً جيولوجية عدة في منطقة العراق والشام والحجاز؛ فقد حدثت تغييرات مفاجأة في الطقس، وهطلت أمطار غزيرة أعقبتها سيول وفيضانات أغرقت بغداد وهدمت دوراً كثيرة، وصار الناس ينتقلون في الشوارع بالقوارب، وحدثت سلسلة من الهزّات الأرضية في منطقة الحجاز، ووقع أعنفها في محيط المدينة المنورة وانتهت بانفجار البركان في الحرة الشرقية.

٢- في يوم الاثنين أول رجب عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م وقع زلزال خفيف أحسّ به بعض أهل المدينة ولم يشعر به الآخرون، ويبدو أنّ مركز هذا الزلزال كان بعيداً عن المدينة فوصل إليه أطراف منه. وقد تكررت الهزات الخفيفة في الليل، وسمع بعضهم له صوتاً يشبه صوت الرعد البعيد تارة تارة. وفي اليوم الثاني من رجب اشتدت الهزّات وتوالت وأحسَّ بها أهل المدينة جميعاً.

٣- في الثالث من رجب: الأربعاء من رجب حدثت زلزلة قوية في الثلث الآخر من الليل، فزع لها الناس، وقد وصف القاضي سنان أثرها في رسالته فقال: إنه كان في المسجد النبوي، وأنّ المنبر قد اضطرب له حتى سمعوا صوت الحديد الذي فيه واضطربت قناديل الحرم.

٤- في الرابع من رجب: في يوم الخميس اتصلت الهزّات على شكل نوبات متقطعة.

٥- في ضحى يوم الجمعة، الخامس من رجب، حدثت زلزلة قوية، أعقبها دوي هائل مثل دويّ الرعد القاصف، فارتاع الناس روعة عظيمة، وظهرت لهم نار هائلة تنفجر من الأرض في الجهة الشرقية من المدينة، وظهر لها دخان عظيم في السماء يتعقّد حتى يبيض كالسحاب الأبيض، واستمر تدفّق الدخان إلى السماء يخفي في ثناياه النار إلى مغيب الشمس. وفي الليل بدت ألسنة النار الهائلة

-وإشعالها أكثر من ثلاث منارات- تصعد في السماء ثم ينحدر منها شلال ضخم فيه صخور تحترق وأبخرة تتصاعد.

٦- كان موقع البركان قريباً من منطقة بني قريظة، ويبدو أنه رأس تل من التلال المنتشرة هناك، ويقع بين جبلين، وبجانبه واد كبير انهمرت فيه الحمم، وأخذت تجري محرقة كل ما تصادفه أمامها من نبات قليل وصخور صغيرة، ولأول مرة يشاهد أهل المدينة ناراً على الأرض تمشي «مثل النهر أحمر وأزرق».

٧- استمر تفجّر البركان وارتفاع اللهب في عنان السماء طوال الليل، ولم يجرؤ الناس على الذهاب إلى المنطقة التي تفجر فيها، وتوجلت القلوب وأشفقت وأيقن الناس أنّ العذاب قد أحاط بهم.

٨- توجّه القاضي سنان إلى أمير المدينة منيف بن شيحة، ووعظه ونصحه أن يتوب إلى الله، وأن يقلع عن ذنوبه، فأعتق كل مماليكه، وردّ على الناس مظالمهم وأبطل المكس، وهبط من قصره ومعه أعيان البلد إلى المسجد النبوي، وتوجّه اهل المدينة إليه ومعهم النساء والأطفال حتى لم يبقّ في النخل أحد، وأخذوا يبكون ويتضرعون إلى الله أن يكشف عنهم الضر، وأحاطوا بالحجرة الشريفة كاشفين رؤوسهم مقرِّين بذنوبهم مبتهلين مستجرين بنبيهم ﷺ.

٩- في يوم الأحد: شاهد الناس من أسطحة المنازل نهراً من الحمم يتجمع في واد قرب موقع الانفجار، ثم يتحرك غرباً باتجاه المدينة ففزع الناس فزعاً شديداً ولم يجسر أحد على الذهاب إلى المنطقة، وأرسل الأمير عدداً من الفرسان للاتيان بخبرها، فلم تجسر الخيل على القرب منها، فترجَّل أصحابها واقتربوا من نار الحمم قدر غلوتين بالحجر، ولم يستطع أحد أن يجاوز موقعه من حرارة الأرض ومقابلة ما يتصاعد من اللهب، وكانت الحمم تتحرك وتضطرم فيظهر فيها شرر، وتتدحرج الأحجار فتشتعل. واشتد فزع الناس فلجأوا إلى المسجد النبوي وازداد بكاؤهم وتضرعهم.

١٠- تجمعت الحمم في بحيرة صغيرة، ثم بدأت تشق طريقها في أكثر من اتجاه، اتجه القسم الرئيسي منها شمالاً نحو جبل أحد، وانحرف تيار منها في ميلان خفيف نحو الغرب واقترب من منطقة العريض، وهذا ما أفزع الناس، فلو استمر هذا التيار في اتجاهه لنزل إلى المدينة، وأتى عليها لأنها منخفضة عن العريض. يقول القاضي سنان: «إنّ سيل النار انحدر مع وادي الشظاة حتى حاذى جبل أحد، وكادت النار أن تقارب حرة العريض وخاف الناس منها خوفاً عظيماً، ثم سكن قتيرها الذي يلي المدينة، وطفئت مما يلي العريض بقدرة الله تعالى».

١١- شاء الله أن يتوقف التيار المتجه غرباً عند العريض، ويتابع التيار الشمالي ويتجه جزء منه شرقاً حتى تقاطع مع مجرى وادي قناة (ويسمى أيضاً وادي شظاة) القادم من الشرق، فأخذت الحمم تتجمع فيه يوماً بعد يوم، وكلما انسابت موجة جديدة وقفت فوق الحمم السابقة وأخذت تبرد وتجمد، فبدأ يتكون في مجرى الوادي سد كبير ما لبث أن امتد إلى طرفيه، وأخذ يحدث تلة طويلة تمتد يوماً بعد يوم.

١٢- استمر ثوران البركان اثنين وخمسين يوماً في بعض الروايات، وثلاثة أشهر في رواية أخرى، وتوقف اللهيب فترة بسيطة في السابع والعشرين من شهر رجب عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م ثم عاود الاشتعال.

١٣- كوَّنت الثورة البركانية ستة مخاريط بركانية جديدة، ودفعت بطفوحها لمسافة زادت على ثلاثة وعشرين كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب، وامتدت حتى الطرف الجنوبي لموقع مطار المدينة المنورة الحالي، ثم تحولت إلى الشمال لطفا بأهل المدينة، وكرامة لساكنها ﷺ بعد أن أصاب الناس كثير من الذعر والهلع.

حريق المسجد النبوي:

لم تكد صدمة البركان تنتهي حتى فاجأت أهلَ المدينة صدمة أخرى كان لها وقع شديد في نفوسهم أيضاً؛ ففي ليلة أول جمعة من شهر رمضان المبارك عام

٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، وبعد أن انصرف الناس من صلاة العشاء والتراويح إلى بيوتهم، وقبل أن يخلدوا إلى النوم، ارتفع الصريخ في أرجاء المدينة ينادي باشتعال النار في المسجد النبوي الشريف.

وكان السبب أنّ أحد خدام المسجد الشريف -واسمه أبو بكر بن أوحد- دخل إلى مخزن في الجهة الشمالية الغربية من المسجد ليخرج بعض القناديل التي تعلق في منارات المسجد طوال ليالي رمضان، وكان بيده سراج يستضيء به، فوضعه على قفص من أقفاص القناديل، وعليه قطعة قماش من كتان، ريثما يخرج القناديل المطلوبة، فعلقت النار بقطعة الكتان فاشتعلت، وامتدت النار إلى الحُصُر والبُسُط والقصب الموجودة في المخزن.

حاول أبو بكر إطفاء النار فلم يستطع، بل ازدادت وامتدت إلى القناديل المملوءة بالزيت، وتزايد اللهب ووصل السقف، عندئذ رأى بعض الناس من خارج المسجد لهيب النار فهالهم ذلك، وتصايحوا وأسرعوا إلى المسجد بوسائلهم البسيطة، وجرى المنادي في أحياء المدينة حتى وصل الخبر إلى الأمير فهرع مع رجاله إلى المسجد النبوي.

واجتمع غالب أهل المدينة يحاولون إخماد النار ولكن النار أمسكت بخشب السقف الجاف، وما فيه من حصر وردم، وامتدت من خشبة إلى أخرى، وأخذت الأخشاب المحترقة تتساقط في أطراف المسجد فتحرق ما تقع عليه من بسط ووسائد خشبية وخزانات جانبية ومصاحف، فتزداد النار التهاباً وتصل نار الأرض بنار السقف، وتعجز الدلاء المسفوحة عن إيقافها.

ثم بدأ السقف يتهاوى، وعلقت النار بعدد من الرجال الذين يحاولون إطفاءها دون جدوى، فأسرع إليهم إخوانهم ليخلصوهم منها، وارتفع أزيز اللهيب من أطراف السقف كله ولم يعد أحد يستطيع الوصول إلى أعلى المسجد، وصار الناس يسفحون الماء من الجوانب والنار تستعر داخل المسجد حتى أتت على المنبر

والشبابيك الخشبية ورؤوس السواري، ووقع السقف الذي على أعلى الحجرة على سقف بيت النبي ﷺ فوقعا جميعاً في الحجرة الشريفة[١].

ولم يسلم من هذه النار إلا قبة بناها الناصر لدين الله سنة ست وسبعين وخمس مئة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م وسط المسجد الشريف لحفظ ذخائر الحرم، مثل المصحف العثماني وبعض المقتنيات، ضمن صناديق كبار صنعت بعد الثلاث مئة، وأصبح الناس يوم الجمعة وقد عزّ عليهم المصاب، فعزلوا موضعاً من المسجد الشريف للصلاة فيه.

وكتب أمير المدينة منيف بن شيحة إلى الخليفة المستعصم يخبره باحتراق المسجد النبوي وتهدمه، ويطلب منه المساعدة لإعادة بنائه، فأمر الخايفة بإرسال فريق من البنائين والنجارين والحدادين والصناع ومعهم أدوات البنأ اللازمة، وسيره على الفور مع المركب العراقي الذاهب إلى الحج، ووصل الفريق المدينة فطلب منه الأمير أن يؤخر العمل حتى ينتهي موسم الحج وينصرف الزوار. وفي أول محرم سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م بدأ العمل في المسجد.

وأشرف الأمير منيف على البناء، واستمر منيف في الإمارة حتى وفاته عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، ولم تسجل المصادر المتاحة أحداثاً متميزة في بقية سنوات إمارته.

جمّاز بن شيحة بن هاشم الحسيني

جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله ابن الحسين بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب.

عز الدين، أبو سند الحسيني[٢].

---

(١) وفاء الوفاء: ج ٢ ص ٥٩٩ - ٦٠١.

(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٣.

قال الذهبي: «فيه تشيع ظاهر»[1].

ولي المدينة بعد موت أخيه منيف، وفي حياة أخيهما عيسى سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م.

ثم انتزعها منه ابن أخيه مالك بن منيف في سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م، فاستنجد بأمير مكة، وبغيره من العُربان، وساروا إلى المدينة، فلم يقدروا على إخراجه منها، فلما أيسوا رحل صاحب مكة، وغيره من العربان، وبقي جمّاز مع جماعته.

ولما يئس مالك بن منيف تصالح معه بعد أن تنازل له عن الإمرة، وظل جمّاز مستقلاً بها حتى وفاته في صفر سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م.

له بنون آخرون: وقد تأمَّر منهم: منصور، وُدي، والذين لم يلوا المدينة: ثابت، حنيش، وجوشن راجح، سند، قاسم، مبارك، مقبل.

خلع نفسه سنة ٧٠٠ هـ/ ١٣٠١م بعد أن أضرّ في آخر عمره وشاخ، وتنازل لابنه منصور وأقام بداره التي بناها في عرصة السوق، المعروفة بدار خزيمة، حتى وفاته في صفر سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م.

يقول ابن فرحون: «أول مَن أدركته من الأمراء الأمير عز الدين جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن حسين (حسن) بن جعفر بن حسين بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب ﷺ وعن فاطمة الزهراء البتول وعن ذريتهما الطيبة الطاهرة، وحشرنا في زمرتهم، ونفعنا بمحبتهم، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. كان الأمير جمّاز رحمه الله شجاعاً مهيباً سايساً حازماً، ذا رأي مصيب وهمة عالية»[2].

---

(١) الدرر الكامنة: ج ٢ ص ٨٨.

(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٣٣.

الإمارة الأولى لجمّاز بن شيحة:

في فترة إمارته الأولى عاشت المدينة حياة عادية هادئة رغم العواصف التي ألمت بالمسلمين، فقد انتهت الدولة الأيوبية واستيلاء المماليك على الحكم بعد مقتل شجرة الدر، وفي مكة المكرمة كان الصراع بين آل قتادة على الإمارة مستمراً، وقد شارك جمّاز بن شيحة في بعض هذه الأحداث أواخر ولايته الأولى، وناصر الرسوليين الذين قدموا من اليمن لانتزاعها منهم، ففي شوال سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م استطاع الشريفان أبو نمي وإدريس بن قتادة الاستيلاء على مكة، وحكماها معاً وأقاما الخطبة لسلطان مصر المملوكي، إلى أن فاجأه جيش الرسوليين بقيادة ابن برطاس في الخامس والعشرين من ذي القعدة من العام نفسه، وكان جمّاز أمير المدينة في مكة، وانتصر لهما، وخرج برجاله فقاتل معهما ابن برطاس على أبواب مكة، وانتصر الرسوليون وهزم أبو نمي وإدريس وجمّاز، ودخل برطاس مكة، ومكث فيها إلى أيام الحج حيث قاد وفود الحجيج، ودعا للرسوليين، وبقي إلى آخر ذي الحجة.

وفي أوائل محرم سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م أعاد أميرا مكة تنظيم صفوفهما وانضم إليهما أمير المدينة برجاله، وهاجموا ابن برطاس ورجاله، وقاتلوهم قتالاً عنيفاً على أبواب مكة وهزموهم، واسترد شريفا مكة إمارتها، وعاد جمّاز ورجاله إلى المدينة[1].

الإمارة الثانية لجمّاز بن شيحة:

في عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م توفي منيف بن شيحة، وكان جمّاز خارج المدينة، فجاءها مسرعاً وتولى الإمارة ولم يكن مستقلاً بالإمارة وحده، بل كان معه ابن أخيه مالك بن منيف، ولأول مرة يشترك أميران في إدارة المدينة المنور.

---

(١) العقد الثمين: ج ١ ص ٤٥٨، وسمط النجوم العوالي: ج ٤ ص ٢٣٦ - ٢٣٧، والسلوك: ج ١ ص ٤٨٧.

والراجح أنّ آل المهنا هم الذين فرضوا هذه الشراكة فمالك هو ابن الأمير المتوفى، وهو الوريث الحقيقي للإمارة، غير أنّ حداثة سنه، وحاجته لخبرة عمه جمّاز الذي تولّى الإمارة أربع سنوات من قبل جعلت الأسرة تشركه في الإمارة.

ولم يكن جمّاز مقتنعاً بهذه الشراكة، ولكنه قبلها على مضض، وكان هو المتنفذ الحقيقي، وعندما دبَّ الخلاف بينهما بعد ذلك طرد جمّاز ابن أخيه عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م. فذهب مالك إلى السلطان بيبرس -وكان يحارب الصليبيين في صفد آنئذ- وشكا إليه ما فعله عمّه، فكتب بيبرس رسالة إلى جمّاز يطلب منه إعادة منيف إلى نصف إمارته، واستجاب جمّاز لطلب بيبرس وأعاد ابن أخيه[1].

وبعد عامين استطاع ردّ مالك لعمه الكيل بمثله، وكاد له في الأسرة، واستطاع أن يقنعهم بعزله، ولم ينتصر له أحد داخل المدينة.

واستنجد جمّاز بأميري مكة اللذين وقف معهما في إمارته الأولى عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م ضد الرسوليين، فأنجداه، وجاء معه إدريس ين قتادة ليرد له الجميل، وينصره على ابن أخيه مالك، كما ناصره بعض العُربان الذين سبق أن أحسن إليهم جمّاز واتجه الجميع إلى المدينة وحاصروها، ولكنّ مالك بن منيف أحسن التحصن والمقاومة، وصمد لمهاجميه حتى يئسوا منه، فرجع أمير مكة إلى بلده ورجع العربان إلى مناطقهم، وبقي جمّاز ورجاله في ضواحي المدينة.

ثمّ إنّ مالك بن منيف قام بعد ذلك بمبادرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المدينة من آل المهنا، إذ أرسل إلى عمه جمّاز بكتاب يتنازل فيه له عن إمارة المدينة[2]؛ احتراماً لحقوقه لكونه عمه، قائلاً: «إني أراك على الإمارة حريصاً، فأنت عمّي وصنو أبي، وقد كنت له معاضداً، ومعه على الأعداء ناصراً، فيجب لك علينا الاحترام والإيثار، يا نسل خير أمة كرام، وقد نزلت لك عنها طوعاً لا جبراً ولا

(١) النجوم الزاهرة: ج ٧ ص ١٤٦، والسلوك في معرفة دول الملوك: ج ١ ص ٥٦٠.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٥٦.

اكراهاً، ولك الأمن والأمان، والله على ما نقول وكيل، والسلام»[١]. فاسترّ جمّاز فرحاً فعاد إلى المدينة أميراً، واستمال بني أخوته وعمومته وعشيرته ومن لاذ بهم، وبذل لهم الأموال، وخضع لهم الجناح فقوي أمره.

الإمارة الثالثة لجمّاز بن شيحة:

كان الأمير جمّاز مختلفاً عن أخيه الأمير منيف وابن أخيه مالك، فمنيف أقرب إلى الرقة والليونة، وعندما ثار بركان الحرة الشرقية استمع إلى وعظ القاضي سنان، وأعتق مماليكه وردّ المظالم وألغى المكوس، ولم يدخل طوال مدة إمارته في نزاع مع سلطان أو أمير، وأحسن العلاقة مع الأيوبيين والمماليك وأمراء مكة والرسوليين، فلم يكن له خصوم.

أما جمّاز فكان أميل إلى الحزم والشدة، قليل الاهتمام بالعلاقات الخارجية، وقد اختلف مع مماليك مصر. ففي جمادى الآخرة عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م جاءه الأمير شكال بن محمد أحد كبار المسؤولين في دولة المماليك وطلب منه أن تسهم إمارته في تكاليف الحرب ضد الصليبيين، وكانت تجمع من المناطق التي تتبع المماليك في كل مكان، وتسمى (العداد) فرفض جمّاز، فهدده شكال بالحرب، واستعان عليه ببني خالد المقيمين في بادية الحجاز، فخاف جمّاز وأرسل مذعناً[٢].

وبقيت العلاقات غير وديّة مع المماليك أيام الظاهر بيبرس. رغم ما كان يبديه بيبرس من اهتمام بالحرمين الشريفين، ورغم إسهامه في إعادة عمارة المسجد النبوي إثر حريق ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م. وإرساله منبراً قيّماً ليقام فيه. فعندما حجّ الظاهر بيبرس عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م هرب جمّاز وخرج من المدينة، ومكث بيبرس ثلاثة أيام في المدينة، وقال لمن حوله: لو كان جمّاز يستحق القتل لما قتلته؛ لأنه في حرم

---

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٦٢.

(٢) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: ج ١ ص ٤٢٣، وعقد الجمان: ج ١ ص ٤٢٨، والسلوك في معرفة دول الملوك: ج ١ ص ٥٥٨ ويؤرخها المقريزي بعام ٦٦٥هـ/ ١١٧١م.

النبي ﷺ. ووزَّع أموالاً كثيرة على أهل المدينة والمجاورين[١].

وما لبث جمّاز أن اختلف مع أمير مكة، وفتح صفحة جديدة من العلاقات المضطربة والحروب بين المدينتين، فقد دخل في الصراع الدائر هناك بين آل قتادة على الإمارة، وانتصر لفريق على فريق، وشارك بنفسه وبرجاله في القتال. فقد أدّى الخلاف المستعر بين آل قتادة على إمارة مكة إلى صراع بين الشريكين إدريس بن علي بن قتادة وابن أخيه أبي نمي محمد بن حسن بن علي بن قتادة، وكانا قد اشتركا في حكم مكة سبعة عشر عاماً بعد أن خلَّصاها من الرسوليين بمساعدة جمّاز أمير المدينة.

واتهم أبو نمي عمّه إدريس بالميل إلى الرسوليين، فأخرجه من مكة عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م وكتب إلى الظاهر بيبرس يعلمه بطرد عمّه لميله إلى الرسوليين، ويعلن ولاءه لمصر، ويطلب تثبيته وحده دون عمّه في الإمارة. فقبل منه بيبرس الولاء واشترط عليه فتح مكة للحجاج والمعتمرين دون قيد أو شرط، وحمايتهم، وحماية التجار الوافدين والخطبة له وذكره في العملة المسكوكة، ونفذ أبو نمي كل هذه الشروط. ولكن بعض آل قتادة ما لبثوا أن صالحوه مع عمّه إدريس، فعاد إدريس إلى مشاركته في الإمارة.

وفي سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م دبّ الخلاف ثانية بين الأميرين، واستطاع إدريس هذه المرة أن يطرد أبا نمي من مكة، فذهب أبو نمي إلى ينبع، واستعان بأميرها، وحارب عمَّه إدريس، وقتله واستقل بإمارة مكة. ولجأ أحد أبناء إدريس، واسمه غانم، إلى الأمير جمّاز بن شيحة، ونجح في استثارته لمساعدته على قتال أبي نمي. فجهز جمّاز حملة من رجاله، وخرج معهم بصحبة غانم بن إدريس في صفر سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧٢م إلى مكة وحاصروها، وقاتلوا رجال أبا نمي، وتغلبوا عليهم، فهرب أبو نمي إلى بعض ضواحي مكة، ودخل جمّاز وغانم بن إدريس مكة ومكثا فيها معاً، وحاول جمّاز أن يضمَّها إلى إمارته، ويجعل غانماً نائبه فيها، غير أنّ أبا

---

(١) السلوك في معرفة دول الملوك: ج ١ ص ٥٥٨.

نمي استطاع أن يجمع أعوانه واستعان ببعض أقاربه ومناصريه خارج مكة، وهاجم جمّازاً وغانماً وأخرجهما من مكة بعد أربعين يوماً فقط من خروجه منها[١].

وقد أعادت هذه الحادثة الصراع بين أمراء مكة والمدينة وجعلت جمّازاً ينتظر الفرصة المناسبة للعودة إلى مكة وقتال أبي نمي. ففي شعبان سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م خرج جمّاز برجاله إلى مكة، ولم يكن خروجه هذه المرة انتصاراً لأحد من آل قتادة، بل ثأراً لنفسه من الهزيمة السابقة وكسر شوكة أبي نمي. غير أنّ أبا نمي تحاشى المواجهة، وأرسل يفاوض جمّازاً على الصلح، وعرض عليه أن يدفع له مبلغاً مجزياً من المال، على أن يرجع ويتخلى عن نصرة خصومه من آل قتادة الذين قتلوا والده نهائياً. ونجحت المفاوضات، وقبل جمّاز العرض، ورجع عن مكة، وخلّى بينه وبين قتلة أبيه[٢].

ولكن جمّازاً لم يحافظ على تعهده طويلاً، فقد نجح أمير ينبع إدريس بن حسن بن قتادة في استثارته واستعداءه على أبي نمي بعد سنتين، فخرج جمّاز مع إدريس بن حسن في ربيع الأول عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م لقتال أبي نمي، وكان عدد رجال الأميرين المتحالفين مائتين وخمسة عشر فارساً وستمائة راجل.

وعلم أبو نمي بالخبر فخرج على جيش قوامه مائتا فارس ومائة وثمانون راجل. وسار إلى مَرّ الظهران[٣]، وخطط للمعركة بدقة، وقاد القتال في التاسع عشر من الشهر نفسه، ونجح رغم قلة عدد رجاله في كسر الأميرين المتحالفين ضده وتغلب عليهما، فارتدا منسحبين بعد أن خسرا عدداً من رجالهما وعتادهما. وعاد أبو نمي إلى مكة منتصراً[٤].

---

(١) العقد الثمين: ج ١ ص ٤٦٠ - ٤٦١، والنجوم الزاهرة: ج ٧ ص ١٤٦.
(٢) العقد الثمين: ج ١ ص ٤٦٠ - ٤٦١، والنجوم الزاهرة: ج ٧ ص ١٤٦.
(٣) واد قلما يوجد في أودية الحجاز مثله خصوبة ومياهاً وكثافة سكان، لقد كان فيه ثلاثمائة عين جارية.
(٤) العقد الثمين: ج ١ ص ٤٦١.

وبعد هذه الحادثة، بدأت فترة مصالحة وعلاقة حسنة، فقد اصطلح جمّاز مع أبي نمي، وحرص كل من الأميرين على أن يكون الصلح قوياً ودائماً، وأن تنشأ بينهما ارتباطات وشيجة، فتزوج جمّاز بن شيحة من خزيمة ابنة أبي نمي وصار صهراً له.

وأما صلحه مع المماليك فبعد وفاة الظاهر بيبرس عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م أرسل جمّاز بالولاء إلى ابنه السعيد بركة الذي خلفه في الملك، وخطب له على منبر المسجد النبوي، فقبل السعيد الولاء وأرسل أموالاً وكسوة للحجرة النبوية الشريفة. وامتدت فترة الهدوء هذه اثني عشرة عاماً، حظي فيها جمّاز بثناء المؤرخين[١].

غير أنّ العلاقات مع أبي نمي ما لبثت أن اضطربت عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م وتحولت إلى قتال بين الفريقين. وكان المسؤول عن ذلك هو أبو نمي وليس جمّازاً؛ لأنّ جمّازاً كان ممثلًا للسلطة الشرعية في مصر لمعاقبة أبي نمي على خطئه.

وترجع أصول المشكلة الجديدة إلى الصراع الدائر آنئذ بين الرسوليين في اليمن والمماليك في مصر. وحرص كل من الفريقين على بسط نفوذه على مكة المكرمة والاحتفاظ بولائها لسلطانه.

وكان أبو نمي قد أعلن ولاءه للمماليك في مصر عام ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م. فكتب عهداً للسلطان قلاوون يلتزم فيه بوضع الكسوة التي يرسلها المماليك على الكعبة وبالخطبة لهم وكتابة أسمائهم على العملة المسكوكة وحماية الحُجَّاج والتجَّار، وغير ذلك من الالتزامات. وكان المماليك يدفعون له ثلاثين ألف درهم سنوياً ويرسلون الأعطيات والنفقات للحرم.

وفي عام ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م استطاع الرسوليون في اليمن إقناع أبي نمي بالخطبة لهم، فخطب لملكهم المظفر الرسولي. وغضب السلطان قلاوون، وأرسل حملة بقيادة مملوكه الجماكي، وطلب من أمير المدينة أن ينضم إليه لمقاتلة

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٤.

أبي نمي وإعادة الخطبة للماليك. وجاء الجماكي إلى المدينة فخرج جمّاز معه برجاله رغم مصاهرته لأبي نمي، وخرجت معه أسرته وفيها زوجته خزيمة بنت أبي نمي ووصيفاتها. وعلم أبو نمي بالحملة، فخرج من مكة ولجأ إلى بعض أقاربه في ضواحيها، ودخل جمّاز مكة، واستولى على دار الإمارة، وأعاد الخطبة للمماليك، وأمر أن تُضرب العملة في دار السكة باسمه وباسم السلطان المنصور قلاوون.

ولم يكن أبو نمي خصماً سهلاً؛ فقد عمل ببراعة على إخراج جمّاز، إذ راسل الجماكي قائد الجيش المملوكي ووعده بتنفيذ كل ما يريده السلطان قلاوون، كما حرَّض ابنته خزيمة على التخلص من جمّاز، واستطاعت إحدى وصيفات خزيمة، واسمها أم هجرس، أن تدسَّ السم في شراب جمّاز، فاعتل جمّاز وكاد أن يهلك لولا أن سارع بعضهم لمعالجته.

وعلم جمّاز بالمراسلات التي تجري بين الجماكي وبين أبي نمي، وحصل على دليل قاطع بأنّ الجماكي تواطأ مع أبي نمي وأنه سينقلب عليه، فاشتد الأمر عليه ورأى أنه لا مخلص له من هذه الورطة إلا الرحيل عن مكة، فأمر بالعودة سريعاً إلى المدينة ليكمل علاجه فيها، وقبض على الجماكي وأرسله موثوقاً إلى السلطان قلاوون بمصر، فعزله قلاوون عن وظيفته وسجنه. أما جمّاز فقد تعافى من السم بعد مدة، وعاد لإدارة إمارته في المدينة والاهتمام بشؤونها[١].

بنى جمّاز لنفسه قصراً على جبل سلع، وجعله قلعة يتحصن بها ويشرف منها على مداخل المدينة، وما لبث أن نقل قصر إمارته إليه[٢]، وصانع عدداً من القبائل المحيطة بالمدينة والتي ظهرت شوكتها، ودفع «خفارة لمن تخشى غوائله من رؤسائها»[٣].

وساعد على تهدئة الخلافات بين السنة والشيعة في المدينة، وأذن للقاضي

---

(١) العقد الثمين: ج ١ ص ٤٦٢.
(٢) وفاء الوفاء: ج ٤ ص ١٢٣٦.
(٣) النجوم الزاهرة: ج ٧ ص ٣٥٧.

السني الشيخ سراج الدين عمر بن أحمد الخضر في معالجة أمور أهل السنة وإمامتهم والخطبة في المسجد النبوي، وسمح له بالبقاء الدائم في المدينة وحماه من تهجم الشيعة المتطرفين، وقد نجح الشيخ سراج الدين بالتعاون مع جمّاز في استمالة الشيعة، وصاهرهم ولم يعد أحد يتعرض له بالأذى[١].

نتيجة لذلك علت مكانة الأمير جمّاز عند السلطان قلاوون، فاستقبله عام ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م، واحتفى به حفاوة كبيرة، وكان قلاوون قد غضب على أمير ينبع وسجنه في مصر، فتشفَّع فيه الأمير جمّاز، فقبل شفاعته وأطلقه له، وأعاده إلى الإمارة، وأجاز جمّازاً بأموال وفيرة وأرسل إلى المدينة مثلها.

نجح جمّاز في ضبط الأمن في المدينة المنورة وحفظها من المغيرين والطامعين سواء بالمصانعة أو بالتأديب والعقوبة، وقد حاول أحد أمراء العُربان عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م الإغارة على المدينة المنورة -وكان شديد الفتك كثير الإغارة على المناطق الأخرى- فجهّز جمّاز رجاله وعدداً من أشداء المدينة المتطوعين، وسار بهم إليه فالتقاه في منطقة قريبة من المدينة وقتله، وقتل عدداً من رجاله فحمد الناس لجمّاز هذا العمل، وانتشر صيته في البلاد، وعاشت المدينة المنورة بقية إمارة جمّاز هادئة آمنة[٢].

وقد ورد في حوادث سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م: توفي في هذه السنة عبد السلام بن محمد بن مزروع البصري، نزيل الحرم الشريف النبوي، وكان عند الأمير عز الدين، صاحب المدينة، بمنزلة الأب والوزير، وعرض عليه وزارته فأبى، وكان يرسله في مهماته إلى مصر والشام، والعراق، وجاور بالمدينة مدة خمسين سنة[٣]. وهكذا نرى أنَّ مصطلح وزير المدينة مصطلح قديم.

وفي عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م ضعف جسم جمّاز، ولم يعد قادراً على إدارة

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ج ٣ ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
(٢) عقد الجمان: ج ٣ ص ٢٩٦.
(٣) عقد الجمان: ج ٣ ص ٣٧٣.

شؤون الإمارة، فتنازل لابنه منصور عن الإمارة، واعتكف في قصره -الذي بناه على جبل سلع- يعيش بقية أيام شيخوخته، وتوفي سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م[١].

يقول ابن الطقطقي: «وأما عزّ الدين جمّاز بن شيحة، فهو أمير المدينة في هذا العصر، وشيخ بني حنين وفارسهم الشهير، وبطلهم المجيد، وأمير طيبة، سيد جليل القدر، عظيم الشأن، مشكور الطريقة مستقيمها، مرضيّ السيرة كريمها، يسكن طيبة مدينة سيدنا رسول الله ﷺ، له أولاد كثيرون، قد بلغ الثمانين من عمره»[٢].

مالك بن منيف بن شيحة

مالك بن مُنيف بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م.

انتزع الإمارة من عمه جمّاز بن شيحة في سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م، فاستنجد جمّاز عليه صاحب مكة، وبغيره من العُربان، وساروا إلى المدينة، فلم يقدروا على إخراجه، فلما أيسوا، رحل صاحب مكة، وغيره من العُربان، وبقي جمّاز مع جماعته، فأرسل إليه مالك ابن أخيه يقول: أراك حريصاً على إمرة المدينة، وأنت عمّي، وصنو أبي، وقد كنت لي معاضداً ومساعداً، ويجب علينا أن نحترمك، ونرعى حقوقك، وقد استخرت الله تعالى، فنزلت عن الإمارة طوعاً، لا كرهاً، فسُرّ بذلك الأمير جمّاز وحمد الله تعالى على حقن الدماء وبلوغ المقصود، واستقل بالإمارة من يومئذ، فلم تخرج عن يده إلى أن مات، واستقرت بيد ذريته[٣].

(١) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٧.
(٢) الأصيلي في أنساب الطالبيين: ص ٣١١.
(٣) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٦٢، ونصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٤٨.



القرن الثامن....

منصور بن جمّاز بن شيحة الحسيني

منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنّا بن حسين بن مهنّا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ولد في سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، وتولّى إمارة المدينة المنورة في حدود سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م[١]. وذلك بعد أن ضعف أبوه الأمير شيحة عن إدارة شؤون الإمارة[٢].

قال ابن الطقطقي: «أبو عامر منصور، هو اليوم فارس الحجاز، أخبرني بشجاعته مَن أثق بأخباره من علويّة الحجاز»[٣].

يقول ابن فرحون: «فلما كان عام سبعمائة خلع الأمير جمّاز نفسه من الولاية،

(١) تحفة لب اللباب: ص ٣٦١.
(٢) الدرر الكامنة: ج ٤ ص ٣٦٢.
(٣) الأصيلي في أنساب الطالبيين: ص ٣١١.

ونزل عنها لولده الأمير منصور، وأمر أن يخطب له على المنبر، وحالف الناس على طاعته ونصرته؛ وذلك لأنه كان قد أضرَّ في آخر عمره وشاخ وضعف، وكان ولده منصور أبرّ أولاده به، فحسده إخوته»[١].

واستهلت أيام الأمير منصور بن جمّاز بخير وفير عمّ أهل المدينة:

ففي موسم عام ٧٠٠ هـ/ ١٣٠١م حجّ بكتمر أمير جندار المنصوري، كان أولًا جوكنداراً ثم صار أمير جندار وكان الناصر يقول له يا عمي ويقول لولده ناصر الدين يا أخي ولي إمرة الحاج سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م، فشكرت سيرته، ورجع الحاج وهم يصفون بره وإحسانه العام، وأنه أنعم على أبي نمي صاحب مكة وعلى أولاده بمال كثير، وفرّق على المجاورين مالًا كثيراً، وكذا صنع بالمدينة حتى قيل أنّه خرج منه في تلك السفرة أكثر من ثمانين ألف دينار[٢].

وفي عام ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤م حجّ وفد الأمير سلاّر نائب السلطة بمصر يصحبه ثلاثون أميراً ومعهم آلاف الأرداب من القمح - عشرة آلاف منه، وعشرة آلاف من الأمير سنقر، وآلاف أخرى من سائر الأمراء - فرّقها في مكة والمدينة وأعطى كل واحد قوت سنة، كما فرّق أموالاً طائلة[٣].

وفي عام ٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م أعاد سلّار الكرّة وأغدق العطاء على أهل الحرمين، وكان بصحبته قوة مسلحة كافية لتأمين طريق الحج. وقد شكا إليه بعضهم ما تعرض له بعض الحجّاج في الطريق بين مكة والمدينة، فقاد رجاله لمطاردة الأعراب الذين اعتدوا على الحجاج، ووصل إلى مضاربهم وقبض على خمسين رجلاً منهم ممن شارك في الجريمة وأخذهم إلى المدينة واستفتى الفقهاء فيهم، فأفتوه بتطبيق حدّ الحرابة عليهم؛ ليكونوا عبرة لمن خلفهم فلا يتجرأ أحد على طريق الحج بين مكة والمدينة. فأمر سلاّر بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفذ الحدّ، وسرت أخباره

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٤٨.
(٢) الدرر الكامنة: ج ٢ ص ١٨؛ ودرر الفوائد: ص ٦٩٤.
(٣) الدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢٧٦؛ والسلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١ ص ٩٥٤.

بين القبائل فكان لها أثر كبير في تأمين الطريق عدة سنوات[١].

وهكذا مضى معظم العقد الأول من القرن الثامن الهجري والحياة في المدينة المنورة هادئة هانئة، استتب الأمن، وتوافرت السلع، وتوالت العطاءات من السلطان والأمراء، إلى أن كان عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، قبل أن ينتهي العقد، حيث حدث شرخ في أمن المدينة كاد أن يعيدها إلى أيام الفتن والحروب المضنية.

وكان السبب في هذا الشرخ تنافس الأخوة على الإمارة، وسوء تصرف السلطان المملوكي. فرغم أنّ سلطة السلطان المملوكي على المدينة المنورة إسميّة أكثر منها فعلية، فقد كان يتدخل في تعيين الأمير، وكان قراره مؤثراً يلتزم به الأشراف أمراء المدينة. ولكن المؤسف أنّ هذا القرار لم يكن يصدر عن رؤية أو معرفة بالأمور، أو سياسة حكيمة، بل كان قراراً ارتجالياً في غالب الأحوال، فعندما يقصد أحد الأشراف السلطان ويطلب منه أن يعيّنه في الإمارة أو يشركه في إمارة أمير موجود يستجيب له السلطان، دون أن يدرس أثر استجابته على الوضع في المدينة.

وهذا ما وقع في سنة ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩م؛ فقد طمع طفيل بن جمّاز شقيق الأمير منصور بن جمّاز، في إمارة المدينة، ولم يكن قادراً على انتزاعها من أخيه، ولم يجد حجة يقنع بها السلطان كي يعزله، لذلك اكتفى بطلب المشاركة في الإمارة. وقصد طفيل السلطان الملك المظفر سلطان المماليك في مصر، فاستقبله المظفر وأكرمه واستجاب لطلبه، وأعطاه أمراً سلطانياً يشركه فيه بالإمارة مع أخيه منصور بن جمّاز[٢].

وعاد طفيل إلى المدينة، وقبل أن يصلها علم أنّ أخاه منصوراً مسافر إلى نجد، وأنّه استخلف على إمرة المدينة ابنه كبيش بن منصور، فتحركت أطماع طفيل، ولم

(١) المصدر السابق: ج ٢ ص ١٢.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٨٢، وتاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٤١، والنجوم الزاهرة: ج ٨ ص ٢٢٢.

يقتنع بما أعطاه السلطان من مشاركة في الإمارة، وقرّر أن يستغل الفرصة ويستولي على الإمارة كلها وينفرد بها، فجمع رجاله وأعوانه خارج المدينة، ثم أغار على المدينة في السادس عشر من شعبان سنة ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩م، فأغلقت المدينة أبوابها، وتحصّن الناس خلف السور، وأمر كبيش أن لا يبيت رجل قادر على حمل السلاح في بيته، حتى المجاورون والفقراء الذين في الرباطات أمرهم بالخروج والتوجه إلى القلعة وأطراف السور والسهر في الحراسة، فكرب الناس لذلك ولم يسعهم إلا الطاعة ولم يتخلف أحد.

واستمر الحصار ليلتين، وفي الليلة الثالثة استخدم رجال طفيل سلّماً طويلاً أحضروه من الشام قُطعاً، وتسلقوا السور وفاجأوا المحاصرين بالهجوم، فتضعضع الناس وبدأوا بالفرار، وتراجع كبيش ورجاله، وخرجوا من المدينة لبعض الوقت، ولكنهم ما لبثوا أن جمعوا صفوفهم واستنهضوا الناس معهم من أطراف المدينة والمرابطين على الجهات الأخرى من السور وهاجموا طفيلاً ورجاله، واشتد القتال، وكاد كبيش أن يهرب ولكنه ثبت أخيراً واستطاع مع أنصاره أن يصل إلى طفيل ويقتله، وقتل معه عدداً من أعوانه، وفرّ الباقون[١].

وهكذا أمضت المدينة ثلاث ليال من الخوف والقلق، انتهت بمعركة دامية بين أفراد الأسرة الواحدة بغى فيها الأخ على أخيه، واقتتل أبناء العائلة الواحدة، وقتل ابن الأخ عمه وأبناء عمه[٢].

وعاد الأمير منصور بن جمّاز إلى إمارته وقد أقلقه ما حدث؛ لأنّ السلطان الذي أصدر مرسوماً بإشراك أخيه طفيل في الإمارة يمكن أن يصدر أمراً آخر لغيره من أفراد الأسرة الطامعين في الإمارة، لذلك ما إن جاءه الخبر بمقتل السلطان المظفر وتولي السلطان محمد بن قلاوون حتى شدّ الرحال إلى مصر لتهنئة السلطان

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٤١.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٤١.

بالسلطة، واستصدر منه مرسوماً بتفرده بالإمارة وإلغاء ما سبق[١].

ولكنّ هذا المرسوم السلطاني الجديد لم يدرأ الفتن، بل كان بداية لدوامة من الفتن والحروب الصغيرة المتصلة الحلقات في عهد منصور بن جمّاز؛ فقد أثار مقتل طفيل بعض أفراد العائلة على الأمير منصور وأوتر ابنه ماجداً، ولجأ ماجد إلى بعض الضواحي قرب المدينة المنورة، وكانت لهم اقطاعات فيها ملكها أبوه، فجعلها مركز إقامته، وبدأ ماجد يعدّ العدّة للثأر من الأمير منصور وإخراجه من المدينة والاستيلاء على الإمارة. واتصل ماجد بأمير ينبع قتادة بن إدريس الذي شايعه وشجّعه وأمدَّه ببعض المال والرجال، فاتسعت جبهة الخصومة ضد أمير المدينة.

بدأ ماجد بشن غارات مفاجئة على المدينة المنورة، يحاول فيها النيل من الأمير منصور ورجاله، فيتصدَّى له رجال الإمارة وتدور معركة صغيرة وسريعة، ويقع فيها بعض الضحايا ثم يرتد المهاجمون إلى مكامنهم تاركين وراءهم حالة من الفزع والاضطراب، وقد يحمل معهم المغيرون ما تصل إليه أيديهم من سلاح ومؤونة.

ثم أخذ ماجد يتحين فرص خروج الأمير منصور من المدينة ليشنَّ الغارة ويحاول الاستيلاء على الإمارة. وضاق الأمير منصور بهذه الغارات وخرج متقفياً ابن أخيه فلم يظفر به، فقرّر أن يضعف قوته ويقطع عنه مدد أمير ينبع قتادة بن إدريس، وفي الوقت نفسه يعاقب قتادة لمساعدته ابن أخيه ماجد، فخرج بقواته إلى ينبع في سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م. وعلم أمير ينبع بخروجه فأعدّ العدة لملاقاته وعزّز حصنه، ولم ينجح الأمير منصور في مباغتة قتادة بن إدريس، ووقعت بين الفريقين مناوشات محدودة وتحصَّن قتادة بقلعته، وأدرك الأمير منصور أنّه لن يظفر بطائل من حملته، وخشي أن يستغل ماجد غيبته ويستولي على المدينة، لذلك انسحب مع

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٩٤.

رجاله عائداً إلى المدينة[١].

أثَّرت هذه الفتنة في أمن المدينة وحياتها الهادئة، واضطربت هيبة الإمارة، وظهرت آثار هذه الاضطرابات في اللغط الذي انتشر في المدينة حول غارات الشريف ماجد، واستفاد الطامعون والمفسدون من هذا الوضع، فتحركوا ليزيدوا الحالة بلبلة واضطراباً.

يقول السخاوي: «إنّ بعض الشرفاء المتمرِّدين على الأمير منصور أو المتعاطفين مع ماجد؛ أشاعوا أنهم سوف يغلقون أبواب الحرم بعد صلاة الصبح على الناس، وينقضون على بيوتهم فينهبونها، وأنّهم سوف يقتلون مَن بالحرم من الناس، فاستعد المجاورون والخدام لذلك، وقام الشيخ علي بن يحيى نور الدين بعد صلاة الصبح وصاح بأعلى صوته: يا أيها الناس الفتنة خامدة، لعن الله مثيرها، وكرّر ذلك مراراً، واستمر يسكِّن الفتنة، وساعده أشياخ مثله في حلمه وعقله حتى سكنت»[٢].

ساعدت حالة الاضطراب هذه على نشر الإشاعات العدائية المتبادلة بين الشيعة والسنة، وراجت حكايات لا تُعرف مصادرها الحقيقية حول صدامات وعمليات انتقام متوقعة، وبخاصة بعد أن أُشيع أنه لن يحجَّ في هذه السنة أحد من المماليك والقادة لانشغالهم بمواجهة التتار، ولكن ما لبث الخبر أن جاء بأنّ السلطان الناصر بن محمد بن قلاوون سيحج ومعه عدد كبير من الأمراء، فهدأت الأحوال، وجاء السلطان ومرافقوه إلى المدينة أواخر ذي القعدة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، وفرّق الأموال، وسكنت الفتنة بين الشيعة والسنّة.

وفي سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م شارك عدد من أشراف المدينة في الصراع الدائر بين أبناء أبي نمي في مكة؛ حيث انخرط خمسمائة فارس من أهل المدينة وما

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ١٤١.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

حولها، في حملة قادها أبو الغيث بن أبي نمي ضد أخويه رميثة وحميضة، وأعانوه على الاستيلاء على مكة[١].

وطبيعي أنّ مثل هذه المشاركة ستزيد الروح الحماسية والاستعداد للقتال والمصادمات عند هؤلاء، وبالتالي فإنّ أخبار الغارات التي يشنها ماجد والخصومة مع قتادة بن إدريس وتحركات بعض الأعراب المحيطين بالمدينة المنورة ستجد بيئة تنمِّيها، وتزيد الاضطرابات على حساب السكينة والأمن اللتين كانت المدينة تنعم بهما.

وشاعت أخبار هذه الاضطرابات، ووصلت إلى السلطان محمد بن قلاوون الذي كان مشغولاً بالتصدي للتتار وتعقبهم وإخراج بقية الصليبيين من السواحل. فتضايق وعدّ ذلك ضعفاً من أمير المدينة أو سوء إدارة.

وزاد من ضيقه شكاوى الحجّاج وأمراء الحج من اضطراب الأمن في الحرمين الشريفين والطريق بينهما، وأثّر ذلك في فقدان السلع وغلاء الأسعار، فأمر قائد موكب الحج عام ٧١٦هـ/ ١٣١٦م بالقبض على الأمير منصور واحضاره إلى مصر للتحقيق معه في هذا الأمر.

ونفَّذ قائد الركب الأمر، فقبض على الأمير منصور واصطحبه معه في العودة إلى مصر، وأناب أخاه الأمير ودي في إمارة المدينة، وهناك استطاع الأمير منصور أن يقنع السلطان بأنه ليس مسؤولاً عن الحالة المتردية في المنطقة، وأنّ المسؤول الحقيقي هم خصومه: ماجد وقتادة بن إدريس، وعدد من أشراف المنطقة وشرفاء مكة.

وعندما نجح الأمير منصور بن جمّاز في إثبات براءته أطلقه السلطان، وجهّزه وأعاده إلى إمارته في ربيع الأول سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م غير أنّ أخاه ودياً طمع في الإمارة وحاول أن يتصدى لأخيه منصور، ويمنعه من دخول المدينة، وجمع رجاله

(١) إتحاف الورى: ج ٣ ص ١٥٠.

وأعوانه لذلك. ووقعت مناوشات بين الطرفين استطاع الأمير منصور آخر الأمر أن يطرد أخاه ودياً ويسترد الإمارة[١].

وأغار ماجد على المدينة في جمادى الأولى من العام نفسه، وفاجأ الأمير منصور وكاد أن يأسره، فهرب الأمير منصور خارج المدينة، وجمع رجاله واستعان بعساكر السلطان قلاوون الذين جاؤوا معه، وكرّوا على المغيرين داخل المدينة، ودارت معركة عند جبل سلع أسفرت عن مقتل ماجد وعدد كبير من رجاله وهزيمة الباقين، كما سقط عدد من الضحايا من رجال الأمير منصور، وعاد منصور إلى الإمارة[٢].

استراحت المدينة من غارات ماجد ورجاله، ولكنّها لم تعد الحياة إلى أمنها وسكينتها السابقة، وأثّرت هذه الأحوال المضطربة على الحياة العامة، وقلّت التجارة، واضطر الأمير أن يفرض المزيد من المكوس والضرائب على القادمين إلى المدينة والبضائع التي يحملونها؛ ليغطي نفقات الإمارة وما تواجهه من صدامات وفتن. واشتد أصحاب الخراج على التجار القادمين بالبضائع فقلّت التجارة كثيراً، وأصبح غالب عيش أهل المدينة من زرعها وزرع السوارقية، وكان القمح لا يأتي من الشام إلاّ قليلاً حتى كان السعيد من يدخل بيته بحمل أو حملين، وكانت العقوبة على من يشتري ولا يبلغ ولا يدفع الخراج كبيرة[٣].

وضجّ الناس من هذه الحالة وشكوا الأمر إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون عندما حجّ سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م، فأمر الناصر بإبطال جميع المكوس والخراج، وعوض أمير المدينة عن دخله منها؛ فمنحه إقطاعات في مصر والشام وجعلها وقفاً يُخصّص ريعها لإمارة المدينة وفقرائها[٤]. وكان مع السلطان صاحب

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ١٧٥، والعقد الثمين: خ ٣ ص ٤٣٧.
(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٧.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٧٠٩.
(٤) درر الفوائد: ص ٦٧٧.

حماة. الملك المؤيد ونحو خمسين أميراً، وجماعة من أهله وأعيان دولته، فوزعوا أموالاً كثيرة[١].

ووردت -بعد ذلك- أموال أخرى لمساعدة أهل المدينة على مواجهة ظروف المعيشة في فترات الاضطراب. وأرسل جوبان بن قدوان نائب السطلة بالعراق أموالًا أخرى كثيرة لبناء مدرسة قرب المسجد النبوي، ولشراء بعض العقارات ووقفها عليها. فخففت هذه الأموال من أثر القحط[٢].

ويصف السيد ضامن بن شدقم الحال بتفصيل فيقول: «فبعد ثلاثة أيام[٣] رحل العسكر، ووكل منصور رجلاً من المهاجرين بأخذ الخمس من وظائف الناس، فاستمر على ذلك مدة ثلاث سنوات، ثم أمر الخدّام والمجاورين بالرحيل من المدينة، وقال: كل من تخلّف منكم بعد ثلاثة أيام انتقمت منه، لمكاتبتكم إلى الناصر عليّ بالقبض والاعتقال، فقال شيخ الخدّام الحريري: لا يهمّكم قوله، فمن كان ذا كفاية فهو على ذاته، ومن لم يكن فكلما تحتاجون إليه فهو على الله عز وجل، فأنا أحملكم على رأسي إلى مأمنكم، وأنا الذي أعرّف الملك الناصر.

ثم إنه أرسل إلى بني سالم وغيرهم من العرب ليأتوه بالعيس، وشره في الذهاب إلى الناصر، وكان لمنصور زوجة ذات رأي سديد، فحذرته من فتك الناصر به وبني خالد وخوّان المدينة وبني لام، فأرسل إليهم متعذراً منهم، وعاهدهم على الأمن والأمان والاستمرار، والتمس منهم أن لا يكاتبوا الناصر فيه إلا بالإحسان»[٤].

ونجح الأمير منصور في حفظ الأمن في المدينة المنورة في السنوات التالية، ولكنه لم ينجح في سلِّ الضغينة من صدور أبناء أخيه وأبناء عمه الذين وترهم من قبل. فما زال هؤلاء يتحينون الفرصة لقتله، وقد استطاع أحد أقاربه الموتورين أن

---

(١) إتحاف الورى: ج ٣ ص ١٦٤ - ١٦٥، والسلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٢١٤.
(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٤٦؛ والدرر الكامنة: ج ٣ ص ٧٠؛ والتحفة اللطيفة: ج ٥ ص ١٣٢.
(٣) أي من مقتل ماجد.
(٤) تحفة لب اللباب: ص ٣٦٢.

يظفر به في رمضان سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، وهو في عدد قليل من رجاله، فهاجمه وتمكن من قتله[١].

ويفصل في ذلك ابن فرحون فيقول: «ولما كان في سنة خمس وعشرين وسبعمائة في شهر رمضان، كان الأمير منصور نازلاً في عربه في أعز ما يكون، وآمن ما يكون، وكان حرّيثه بن قاسم بن جمّاز أخو فضل بن قاسم نازلاً معه، وكان آمناً من جهته، فخلا به يوماً فضربه بالرمح فقتله، وظن أنه ينجو على فرس كانت هناك، فأدركه بعض أصحاب الأمير فمسكوه وقتلوه في تلك الساعة»[٢].

وفي زمن إمارته انتقل أمر القضاة من السادة الأشراف بني حسين إلى أهل السنّة، فأولهم عمر الدمنهوري[٣].

كبيش بن منصور بن جمّاز الحسيني

كبيش بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنّا بن حسين بن مهنّا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في سنة ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩م باستخلاف والده، و٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥م استقلالاً.

قال السيد ضامن: «قال جدي حسن طاب ثراه، والبدر محمد بن فرحون: وكان الأمير كبيش سيداً مثيلاً نبيلاً ذا مرؤة وشهامة وكرم وسخاوة وهمة عالية وحماسة وشدة بأس وصلابة وجود وفراسة»[٤].

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٢٦٩، والدرر الكامنة: ج ٤ ص ٣٦٣.
(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٤٩؛ وتحفة لب اللباب: ص ٣٦٢.
(٣) تحفة لب اللباب: ص ٣٦٢.
(٤) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٤٠٤.

ومما حكي ونقل لي عن الأمير كبيش وكرمه: إنّ الأمير حمزة العقيلي كان سخياً كريماً مفرطاً، وكانت زوجته تمنعه عن ذلك، فلطمها ذات يوم لتعرضها له فهجرته لقلة ما في يده، فرحل قاصداً الأمير كبيش بهذه الأبيات، وكانت ركابه التي رحل عليها سبعة عشر بعيراً، وقد ذكر في هذه القصيدة قال:

زار الخيال خيال قاصي المنزل ... وهناً وقد خفق السماك الأعزل
متهوداً ضاق الهروج وقد هدي ... خالي الحشا في نومه واستثقل
وأحبه من طارش لو أنه ... لو انجلى طيب الكرى لم ينجل
حييته فأصدَّ عني معرضاً ... بالنوم واليقظ كذلك يفعل
متدللاً تيهاً على كماله ... حبه بقلبي قط ماهو ينجلي
يا نافلاً بالزين كل مقنّع ... لم يخط سهم مقلتيك المقتلي
اسقمتني عمدا بغير جنية ... فإلى متى عني صدودك ينجلي
ارفق عليّ فإنني بك راضي ... من عشق لا يأنف ولا يتزعل
من عشق مثلك درة مصيونة ... مثل الغزال الزيجان الأكحل
فلهي الموافق عزاء مفارقاً ... بالنوم واليقظ طيب ترحل
ما واجباً منك أن تهين مكرماً ... بعد الصبابة في هواك معذل
ما يشتكي إلا إليك ولا له ... أحد سواك فبئس ما بي تفعل
أنت الخلّي وأنا المصاب المبتلى ... ليس المصاب المبتلي مثل الخلي
وأنا اسأل الله حيث بليتني ... ببلية ان يبتليك المبيتل
ما لا يلين له وتطمع أنه ... عزق الصبابة وأن لطفك أحمل
ما واجباً منك أن تهين مكرماً ... في قومه سمح الوجوه المبجلي

إلى أن يقول:

قلت الشريف ابن الشريف أزوره ... ابن الرسول، ابن البتول ابن الولي
فانحيتُ من حول العيينة ضمّراً ... يرفلن إرفال النعام الجفّل

كبش بن منصور بن جمّاز الذي حـاز الثنا وعـذاره لـم يكمل
الفاطمي الهاشمي ومـن له شرفٌ أناف على السماك الأعزل
نـعـرت قـريـش كلّها وخيارها وسنانها الصعب الـذي ما ذلّل
يا كبش إنك والعروق ضوارب مـن آل جـمّـاز مـعـاً ونـحـوّل
أنت الحجا نعم الحجا لمن التجا وأنت الربيع لذي الزمان الممحل
وانت الذي تحمل سجايتك العدا نقم ولا لـسـؤال غريب مسمل
يـا ابـن مـن لقحت مطيّة ضيفه واسـتـرّ تابعها وهـو لـم يسأل
مـانـا بـأوّل سـيّـدٍ وسـعـت به لنضا إلـى مـلـكٍ نبيل ويجزل
يعفن من شـدّ الرحال جـزاً لما بلّغن فيك مع السعود المقبل
وأنا حليف ابصار وجهك راجياً إنّ النحوس بنور وجهك تنجلي
يـا كبش جئت بـدرّةٍ مصيونةٍ عمّن سـواك بها نشحّ ونبخل
ما قلتها يا بن الشريف تحيّلاً في مالكم لو كان صعبه يسهلي »[١]

كان الأمير منصور قد بلغ السبعين من عمره، وكان في أيامه الأخيرة يستعين بابنه كبيش الذي أثبت قدرته على إدارة الإمارة في غيبة والده والدفاع عنها، وقد تولّى كبيش الإمارة بعد أبيه وطلب من السلطان أن يثبته بمرسوم، فأرسل السلطان بتثبيته.

غير أنّ كبيشاً الذي هزّه مقتل أبيه لم يسع إلى تصفية الحقد المتراكم بينه وبين أبناء عمه، بل أخذ يطارد قتلة أبيه وخصومه الآخرين، وأخذ أقاربه القاطنون في ضواحي المدينة وقراها يشنون الغارات عليها أيضاً للنيل منه.

ففي شهر صفر سنة ٧٢٧هـ جمع ودي بن جمّاز، عمّ الأمير كبيش، أعوانه وسار بهم مع ابنه عسكر إلى المدينة، وكان الأمير كبيش غائباً عنها، وينوب عنه في الإمارة أخوه طفيل بن منصور، فحاصر المدينة سبعة أيام ثم اقتحم سورها وهاجم

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٤٠٤-٤٠٧.

الإمارة، فهرب طفيل، ودخل ودي المدينة فأخذ غلمان الأمير وأهله وصادرهم وعذّب جماعة من رجاله فمات بعضهم من التعذيب، وقتل قاضي المدينة هاشم بن علي وشريفاً آخر.

ومضى طفيل إلى القاهرة ليشكو عمّه ودياً إلى السلطان المنصور، وطمع ودي في أن يثبته السلطان المنصور في في الإمارة، فترك أعوانه يدبّرون شؤون المدينة وسافر إلى مصر ليقنع السلطان بإصدار مرسوم تعيينه، ولكنّ السلطان المنصور جمع بين ودي وطفيل وسمع منهما معاً في جلسة أشبه بجلسة القضاء والمحاكمة، وفي نهايتها أمر بالقبض على ودي وسجنه وإعادة كبيش إلى إمارته.

أرسل السلطان الأمير علاء الدين بن طغربل مع قوة مسلحة لطرد أعوان ودي وتسليم الإمارة لكبيش، وعلم كبيش بذلك فجمع أنصاره، ولقي الأمير علاء الدين، وتوجه الجميع إلى المدينة للقبض على أعوان ودي، وعلم هؤلاء ففروا قبل أن يصل إليهم الجمع، وعاد كبيش إلى إمارته[١].

ولم تطل إمارة كبيش لكثرة خصومه والمتربصين به، وخصوصاً أبناء أحد أبناء عمّه مقبل الذي قتله كبيش سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، فإنّ أبناء مقبل ما زالوا يحملون الرغبة في الثأر والانتقام - رغم مرور قرابة العقدين على مقتل أبيهم -؛ وقد ظفروا بهذه الفرصة للثأر من كبيش في نهاية رجب سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م، حينما كان كبيش خارج المدينة مع عدد قليل من رجاله، فكمن له أبناء مقبل وقتلوه[٢].

وذكر ابن فرحون مقتل كبيش بقوله: «ولما كان في سنة سبع وعشرين في صفر جاء ودي وولده عسكر وجماعة من أصحابه، فدخلوا المدينة على غفلة في وقت السحر من ناحية ذروان، وكان في المدينة طفيل نائباً عن كبيش، فالتقاهم في ذروان، فقتل هاشم بن علي وسنان، وانكسر طفيل وجماعته، فخرج من درب

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١.
(٢) النجوم الزاهرة: ج ٩ ص ٢٧٣.

البلاط ونجا بنفسه وأصحابه، واستقر ودي في المدينة وتوجه طفيل إلى السلطان فأخبره الخبر وأقام في مصر، فطمع ودي في مرسوم السلطان، فجهّز خيلاً وهدية وتوجّه إلى السلطان في شهر رمضان من السنة المذكورة، فلما دخل على السلطان قبل الخيل والهدية، واستمهله حتى انسلخ شهر رمضان. فلما كان ليلة العيد مسكه وقيده وحبسه، ورجع طفيل إلى كبيش عند العرب فجهز كبيش خيلاً هدية وبعثها مع طفيل إلى السلطان، فوصل بها في الثاني عشر من شهر شعبان سنة ثمان وعشرين، فقبلها السلطان. فلما كان في الحادي والعشرين من الشهر المذكور، وصل الخبر إلى مصر أنّ أولاد مقبل بن جمّاز قتلوا الأمير كبيش في يوم الجمعة سلخ شهر رجب من السنة المذكورة، فأعطى السلطان إمارة المدينة للأمير طفيل بن منصور وأخلع عليه وكتب تقليده... »[١].

إلا أنّ الرحالة ابن بطوطة فصلها بشكل أدق[٢]، قائلًا: إنّ كبيشاً خرج سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧م إلى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه، فأدركتهم القائلة في بعض الأيام فتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلا وأبناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون: يا لثارات مقبل، فقتلوا كُبيشاً بن منصور صبراً، ولعقوا دمه، وتولى بعده أخو طفيل بن منصور، الذي نفى أبا العباس الفاسي. وقد اغتيل أبو العباس الفاسي من قبله أيضاً، في خبر مفصل عند ابن بطوطة.

وينبغي لنا إن أردنا تفهم هذه الحادثة المؤسفة أن نعود إلى عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م ونتعرف على الظروف والملابسات التي تلقت بذرتها؛ وغذتها حتى أنبتت كل هذا الشر.

كانت المدينة المنورة بدءاً من العام المذكور قد شهدت فتناً وقلاقل أثرت على أمنها واستقرارها؛ تسبب فيها أمران اثنان: أولهما: تنافس أبناء جمّاز على تولّي السلطة فيها، وآخرهما: سوء تصرف الملك المظفر -السلطان المملوكي في مصر

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٥٣.
(٢) رحلة ابن بطوطة: ص ١٢٤.

آنذاك- الذي أصدر أمراً سلطانياً يقضي بإشراك طفيل بن جمّاز في إمارة المدينة مع أميرها -في ذلك الوقت- أخيه منصور بن جمّاز.

أدّى هذا الأمر السلطاني المرتجل إلى غارات وحروب بين الطرفين قُتل فيها طفيل بن جمّاز؛ فأثار مقتله بعض أفراد عائلته، خاصة ابنه ماجداً الذي لجأ إلى ضواحي المدينة وجمع عدداً من الرجال حوله، وبدأ في شن غارات مفاجئة نجح في إحداها -عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م-؛ في مباغتة منصور بن جمّاز، وكاد أن يأسره لولا أنّ الأخير نجح في الفرار، وجمع رجاله، ثم استعان بعسكر السلطان قلاوون؛ فكرُّوا على ماجد ومن معه فقتلوه وعدداً من رجاله وهزموا الباقين.

عاد منصور بعد ذلك إلى المدينة، ورغم أنه نجح في ضبط الأمن فيها، فقد فشل في مداواة ضغائن أبناء أخيه طفيل وأقاربه الآخرين؛ فظلوا يتحينون فرصة للثأر حتى قتله أحدهم في رمضان عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م.

تولى الإمارة بعده ابنه كبيش الذي وقع في الخطأ نفسه، إذ لم يسعَ إلى تهدئة قلوب أقاربه الموتورة، بل عمد إلى مطاردة قتلة أبيه وخصومه الآخرين مما زاد في حنقهم، فما لبث أن قُتل على يد أحدهم كما وصف لنا ابن بطوطة في رحلته.

ماجد بن مقبل بن جمّاز بن شيحة الحسيني

ماجد بن مقبل بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مُهنا بن حسين بن مُهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر ابن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن زيد العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1].

أمير المدينة المنورة في ربيع الأول سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م.

---

(١) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٩٥، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤٤٢ رقم ٣٥٥٥، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٠.

ففي سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م هاجم ماجد هذا المدينة، وكان أميرها منصور بن جمّاز بن شيحة، وقد أخذها ماجد منه، وكتب منصور بن جمّاز إلى السلطان الملك محمد بن قلاوون ملك مصر والشام والحجاز، فبعث إليه عسكراً، حاصر ماجداً حتى فرّ من المدينة، وملكها منصور بن جمّاز في ربيع الأول سنة ٧١٧هـ وقد ذكر صاحب التحفة اللطيفة: أنه قتل في تلك المعركة بالمدينة.

مقبل بن جمّاز بن شيحة الحسيني

مقبل بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1].

أمير المدينة المنورة مشاركة واستقلالاً ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م.

كان أخوه منصور بن جمّاز بن شيحة أمير المدينة المنورة منذ سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م حتى سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م عندما قبض عليه في موسم تلك السنة، وحُمل إلى القاهرة، ولحق أخواه مقبل وَوُدَيّ بالشام، ثم قدم مقبل إلى القاهرة، والقائم بأمر الدولة بيبرس الجاشنيكر، فأشرك بينهما في الإمرة والإقطاع، وسارا إلى المدينة، فأقبل مقبل بين أحياء العرب، ونزل منصور بالمدينة، ثم غاب عنها، وأقام ابنه كبيشاً فهجم عليه مقبل، وملكها، وفرَّ كبيش، فاستجاش بالعرب، وزحف على عمه مقبل، وقتله في سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م.

وأعتقد أنَّ قتله كان في سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م أو التي تليها، ولعل خطأً وقع في نقل الخبر.

---

(١) المنهل الصافي: ج ٤ ص ١٩٥، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٧٠٤، وصبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٠.

وقد وصف صاحب التحفة عملية القتل[١]: ودخل مقبل المدينة هو وجماعة بالليل من خلف قلعتها، فإنهم نصبوا سُلماً، استعملوه في الشام قطعاً موصلاً، وذلك ليلة السبت ١٨ شعبان سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، فرام كبيش الهروب، ثم ثبته الله تعالى وقابلهم هو، وأهل المدينة، فقُتل مقبل، وجوشن، وقاسم أبناء قاسم بن جمّاز.

طفيل بن منصور بن جمّاز الحسيني

طفيل بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنّا بن حسين بن مهنّا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة في سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م.

وصفه السيد ضامن بقوله: «وكان سيداً جليلاً خليقاً كامل السؤدد، جمّ المناقب، حسن المعاشرة، محباً للرعيّة، محسناً للمجاورين، معظّماً لطالبي العلم، يقبل شفاعة المستشفع، ويعفو عن المستغفر، ذا همة عالية وشهامة ومهابة. تولّى الإمارة أربعين سنة؛ أولها يوم الجمعة سلخ رجب سنة ٧٢٧هـ»[٢].

وفي زمن ولايته رفض أن ينصر القضاة الشيعة -مع كونه شيعياً- أو يستجيب لطلبهم بالضغط على القاضي السني ابن فرحون الذي مال الناس عنهم إليه فانقطعت أرزاقهم[٣].

ورث طفيل بن منصور الإمارة من أخيه كبيش، وورث معها مشاحناتها

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٧٠٤ رقم رقم ٤٠٥٩.
(٢) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٤٤٩؛ ونصيحة المشاور: ص ٢٥٨؛ والمغانم المطابة: ج ٣ ص ١٢٠٨-١٢٠٩؛ والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٢٦.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٥٠٩.

وخصوماتها، وأول تلك الخصومات خصومة عمه ودي بن جمّاز الذي أطلق السلطان المنصور سراحه، وعاد وجمع رجاله وأخذوا «يشنون على المدينة الغارات ويطلبون بها الثارات، ويفسدون الزروع، وينهبون الضروع، ويحرقون النخيل والأشجار ويجدون ما أينع من الثمار»[١].

ولم يستطع الأمير طفيل أن يقمعهم أو يمنع غاراتهم، ولم يجد أهل المدينة بداً من التصرف بأنفسهم لحماية أرواحهم وممتلكاتهم؛ فقد خرج وجهاء المدينة، وفي مقدمتهم قاضيها شرف الدين الأسيوطي، وشيخ الحرم والأعيان، وفاوضوا ودي بن جمّاز على الصلح، واتفقوا معه على أن يدفعوا له خمسة عشر ألف درهم مقابل الكفّ عن أملاكهم وزروعهم، فرضي ودي وتمّ الصلح[٢].

غير أنّ هذا الصلح ما لبث أن نقض، وكان بعض رجال ودي هم الذين نقضوه، لذلك قرّر طفيل أن ينهي أمر ودي وعصابته فاستنجد بعدد من القبائل المحيطة بالمدينة من الحربيين[٣]، فحشدوا له جموعاً كبيرة، وأخذوا في مطاردة ودي ورجاله -وكانوا قلة- واستطاعوا أن ينزلوا بهم هزيمة موجعة، وفرّ ودي وقتل عدد كبير من رجاله[٤].

وعلى أثر ذلك اعتقل ودي ثانية بأمر من السلطان، وسجن في قلعة الجبل بمصر، فاستراحت المدينة من غاراته إلى حين[٥].

حرص السلطان قلاوون على أن يهدئ المنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة في المدينة المنورة، ويستل السخائم من النفوس المضطربة، فأفرج عن ودي عام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م، وأنعم عليه بإقطاع في الشام؛ ليشغله به عن مشاحنة ابن أخيه

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٦٠.

(٢) م.ن.

(٣) وهم: صالح بن حريبة من آل فضل، وعمرو بن هيبة من آل مراد، وعياق بن متروك.

(٤) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٦٠

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٣٣٣.

وتعكير حياة المدينة المنورة بالغارات والفتن، وأطلق سراح أكبر أعوانه الذي كان معتقلًا معه، فذهب إلى الشام وأقام فيها مدة من الزمن[١].

يقول ابن فرحون المعاصر: «واستمر طفيل رحمه الله في المدينة حاكماً مدة ثمان سنين وثلاثة عشر يوماً، واستمر عسكر بن ودي وأولاد مقبل يشنون الغارات على المدينة، ويرعون زروعها ويحرقون نخيلها ويجدون ثمرها، وفي تلك الغارات قتل علي بن ودي، وعجاجة وغيرهما، وذلك في سنة تسع وعشرين. ثم خرج إليهم القاضي شرف الدين والخدام وصالحوهم على خمسة عشر ألف درهم، وعلى ثمرة أملاكهم، وأملاك من يلوذ بهم.

فلما تم الصلح بينهم وبين الأمير طفيل، استنجد طفيل بصالح بن حريث من آل فضل، وبعمرو بن وهيبة من آل مُرّا، وبعَسّاف بن متروك الرزاق، فجاؤوه في جموع عظيمة، وكانوا ألفي فارس وخمسمائة راحلة، وباقيهم رجال، وجمع طفيل من بني حسين ما أمكنه، وخرج بالترك الذين كانوا معه في المدينة وساروا جيشاً عظيماً، وأغاروا على عسكر بن ودي وأولاد مقبل، وكانوا ثمانية عشر فارساً وقيل خمسة عشر، وقيل ستة عشر، فكسروا هذا الجمع العظيم، وخلصوا منه سالمين بقدرة الله تعالى، وذلك بسبب الغدر بهم عقيب المصالحة.

وأما ودي فاستمر محبوساً من التاريخ المتقدم إلى خامس شهر رمضان من سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، فكانت مدة حبسه نحو أربع سنين، ثم فرج الله تعالى عنه»[٢].

وفي السنة التالية -سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م- حجّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون «فلما قضى النسك عاد يريد مصر، وعرّج إلى زيارة النبي ﷺ بالمدينة، فسار حتى وصلها، فلما دخلها هبّت ريح شديدة في الليل ألقت الخيم كلها، وتزايد

---

(١) م.ن.

(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٥٣.

اضطراب الناس، واشتدت ظلمة الجو فكان أمراً مهولاً؛ فلما كان النهار سكن الريح، فظفر أمير المدينة بمن فرّ من المماليك السلطانية فخلع السلطان عليه»[١].

وقد شهدت المدينة المنورة في فترة إمارة طفيل بن منصور حدثين أصابا أهلها بأضرار جسيمة، وهذان الحدثان:

الحدث الأول: في سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م نزلت أمطار غزيرة أواخر الشتاء، فاضت على أثرها الأودية، وحجز السد الذي صنعه البركان على وادي قناة السيل وكونت بحيرة ضخمة، وما لبث المياه أن أحدثت ثغرة ونفذت إلى الطرف الآخر من السد ومضت إلى طرف جبل أحد وجبل عينين ومشهد سيدنا حمزة، ودخل السيل إلى البيوت، وخرّب عدداً منها، وحمل شيئاً من ماشيتها، وقد بلغ من القوة أنّه أخذ جمالاً كثيرة وعشرين فرساً، وتضررت عدد من المزارع، ومكث الماء أربعة أشهر، ولا يصل الناس إلى المشهد إلاّ بمشقة كبيرة[٢].

الحدث الثاني: في سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م انتشر وباء الخناق بشكل لم يعهد من قبل، وبدأت الضحايا تتساقط بسبب هذا الوباء، فكان يموت في كل يوم خمسة عشر شخصاً، ومات بسببه خلق كثير[٣].

وباستثناء هذين الحدثين لا نجد ما ينغص الحياة الوادعة في المدينة منذ انتهاء مشكلة ودي إلى سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م حيث عادت الأحداث السياسية لتصنع موجة معاكسة وتحدث تغييراً كاد يعيد القلق والاضطراب والدماء إلى أحياء المدينة وضواحيها.

وكان سببها النفوذ السياسي الكبير الذي كان المماليك يفرضونه على المدينة المنورة، حيث ساد شعور واحد عند كل من أمراء المدينة والسلطان، وهو أنّ إمرة

---

(١) النجوم الزاهرة: ج ٩ ص ٨٣.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٣٧٤.
(٣) م.ن.

المدينة منوطة بالقاهرة، فلا إمارة لمن لم تعينه القاهرة، ولا أمير إلا من هذه الأسرة، والخيار لا يخرج عن أحد الأخوة أو الأعمام. لذلك على من يطمح في الإمارة منهم أن يسترضي السلطان، ويحمل إليه هدية سنية، ويقنعه بأنه جدير بالإمارة، فإن رضي السلطان صدر المرسوم بتثبيته دون الاهتمام بأية اعتبارات أخرى، والطريف في الأمر أنّ السلطان بلغ من تحكمه في هذا الأمر أنه سنَّ الشركة في الإمارة، وبدأت هذه السنّة قبل المنصور محمد بن قلاوون منذ أن أشرك الظاهر بيبرس كلًا من جمّاز وأخيه منيف في الإمارة، وكانت هذه الشركة تنتهي بمنازعات وصدامات، فقد اختلف جمّاز ومنيف، واختلف جمّاز ومالك، واقتتل مالك وطفيل وقتل طفيل. ورغم هذا التاريخ الحافل بالاضطرابات بسبب الشركة في الإمارة، أمر المنصور بها ثانية.

ففي مطلع سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م جاء ودي بن جمّاز إلى القاهرة بعد أن مات رفيقه في الاقطاع، واستطاع بهديته السنية وتلطفه للسلطان أن يستصدر منه مرسوماً بإشراكه في الإمارة مع ابن أخيه طفيل بن منصور بن جمّاز، وفوجئ الأمير طفيل بهذا المرسوم فرفضه، ورفض أن يسلّم خصمه القديم نصف إمارته. ويبدو أنّ ودي بن جمّاز قد استفاد من تجربتيه السابقتين لذلك لم يعمد إلى القوة، ولم يستنهض رجاله وأعوانه لإجبار طفيل على القبول بالمرسوم السلطاني أو إخراجه، بل عاد إلى القاهرة يشكو إلى السلطان تمرد ابن أخيه ورفضه تنفيذ أوامر السلطان، فكسب عطف السلطان ومساعدته.

وأدرك طفيل أنّه لن يستطيع الاستمرار في رفض أمر السلطان، وأنّ عليه أن يتدارك الأمر ويقنعه بعدم صلاحية ودي لمشاركته في الإمارة بسبب تاريخه السابق، لذلك شدّ الرحال إلى القاهرة، وقابل السلطان وحاول أن يقنعه بعدم إشراك عمه في إمارة المدينة ولكنه لم يفلح، وأيقن طفيل أنّ عمه ودياً قد استطاع أن يؤثر على السلطان تأثيراً بالغاً، وأنّه إذا رضي بالأمر فلا بدّ أن تقع فتن ومشكلات كثيرة؛ لأنّه لا يستطيع التعاون معه في الإمارة، فقرر الإصرار على رفض المشاركة مهما كلّف الأمر.

وعندما رأى السلطان إصراره عرض عليه أن يتخلّى عن الإمارة نهائياً مقابل إقطاعه أرضاً واسعاً في حوران ببلاد الشام، بعيداً عن المدينة، فلم يجد طفيل بداً من قبول هذا العرض، وتنازل عن الإمارة لعمه، وعاد إلى المدينة فحمل عياله ومماليكه، وانتقل بهم إلى إقطاعه الجديد وسلّم الإمارة لعمه ودي بن جمّاز[١].

وما لبث طفيل بن منصور أن استفاد من اضطراب الأحوال السياسية في مصر وعدم استقرار السلطان مدة طويلة، فرحل إلى أطراف المدينة، وأقام في بعض قراها عند أقاربه، وبدأ يعد العدة لاستعادة الإمارة من عمه ودي.

وكان ودي كثير السفر، وكانت المدينة المنورة تعاني في غيابه من بعض الفتن والغارات، وقد قتل في عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م أخوه ونائبه في الإمارة ثابت بن جمّاز[٢].

لم يلجأ طفيل إلى السلطان المملوكي كما فعل غريمه ودي من قبل؛ وذلك لتيقّنه بأنّ السلطان لن يخرج عن إقرار الأمر الواقع، لذلك اختار أن يستولي على المدينة، ويطرد ودي، ثم يرسل إلى السلطان طالباً إقراره اعترافاً بالأمر الواقع، وهذا ما حدث.

فقد حشد طفيل عدداً كبيراً من أنصاره من العُربان، وزحف بهم إلى المدينة في ذي القعدة سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م وكان ودي خارج المدينة، واستطاع أن يقتحم المدينة ويقبض على نوّاب ودي ويستولي على الإمارة، وعندما علم ودي بالأمر لم يستطع أن يفعل شيئاً فاتجه إلى بادية الحجاز حيث يقيم بعض أقاربه، ثم انطلق منها إلى أمير اليمن فأقام عنده[٣].

سارع طفيل إلى الحصول على شرعية لإمارته، وأرسل أخاه حميد بن منصور

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٤٦٣ - ٤٧٢.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٣٨٩.
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

إلى مصر بهدية سنية على رأس وفد من الأشراف، وكانت الظروف السياسية مناسبة لهذا الوفد، فقد خلع السلطان الناصر أحمد وتولّى السلطة الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، ولم تكن له خبرة سابقة بمشكلات أمراء المدينة، لذلك قابل وفد الشرفاء بالترحاب وقبل الهدايا وأصدر المرسوم الذي طلبوه منه بتعيين طفيل بن منصور بن جمّاز أميراً على المدينة[١].

امتدت إمارة طفيل الثانية سبع سنوات، رفض فيها أن ينصر القضاة الشيعة -مع إنه كان شيعياً- أو يستجيب لطلبهم بالضغط على القاضي السني ابن فرحون. وكان لطفيل وزير حسن السياسة والتدبير كثير الموالاة للمجاورين هو الحسن بن علي بن سنجر[٢].

غير أنّ طفيلاً ما لبث أن تغيَّر، وظهرت له مساوئ كثيرة، فاستولى على بعض الأموال، وفرض المكوس، وزاد في الجبايات، حتى إنّ وزيره ابن سنجر كان يحتال ليمنع وقوع الضرر من بعض تصرفاته، فقد همّ مرة أن يأخذ المخزون في أحد المستشفيات قهراً، فاتصل الوزير سراً بالقاضي الحنفي، ودبّر معه حيلة أنقذت المخزون من الأمير[٣].

وبدأ أهل المدينة يتضايقون من تصرفات الأمير طفيل، وكثرت الشكاوى عندما ظهرت آثار تصرفاته في ارتفاع الأسعار واشتداد الغلاء، وقلة ورود القوافل إلى المدينة، وكتب القضاءة والأشراف إلى السلطان الناصر حسن في مصر بذلك، فأمر الناصر بعزله وتولية ابن عمه سعد بن ثابت بن جمّاز، وأرسل الأمر مع الركب المصري القادم إلى الحج وأمر بإعلانه وتنفيذه عقب الموسم مباشرة.

علم طفيل بالمرسوم قبل أن يصل الركب المصري إلى المدينة، فأطلق رجاله لينهبوا ما يستطيعون نهبه من تجار المدينة وأثريائها، وسطا على الحجرة

(١) الدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢٢٣ رقم ٢٠٣٤.
(٢) م.س: ج ٢ ص ٢٤ رقم ١٥٣١.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

النبوية الشريفة، فأخذ قناديلها الذهبية والأموال الكثيرة التي كان الملوك والأثرياء يرسلونها إليها، كما سطا رجاله على بعض الحجاج ونهبوهم، فتجمعت لهم مبالغ وافرة، وخرجوا بها من المدينة إلى باديتها قبل أن يصل الأمير الجديد[١].

وفي عام ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م استطاع أمير الركب المصري الأمير طاز بن قطغاج أن يقبض على طفيل، فقيده وجعل الغل في عنقه وساقه أسيراً إلى مصر، حيث سجن فيها إلى أن مات في السجن سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م[٢].

وُدَيّ بن جمّاز الحسيني

وُدَيّ بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مُهنا بن حسين بن مهُنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الحسيني، أبو مزروع.

أمير المدينة المنورة في سنة ٧٣٦-٧٤٣هـ/ ١٣٣٦-١٣٤٣م[٣].

يُلقب بدر الدين، ولاَّه الناصر محمد بن قلاوون المدينة سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م، حيث هجم على المدينة طُفيل بن منصور...[٤]

ذكره الشهاب بن فضل الله، وأنشد له شعراً مقبولاً، كتب إليه وهو في الحبس سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م، ومطلعه[٥]:

أنا ابنُ الكرام الطيبين بني عمر ومن بهم في الجدب يُستنزل المطر

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٨١٦، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢٢٣ رقم ٢٠٣٤.

(٢) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٩، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢١٤ رقم ١١٩٨، والنجوم الزاهرة: ج ١٠ ص ٩٦ وفيها: «فيها توفي السيد الشريف أدي» بدل طفيل، وهو اشتباه.

(٣) المقفى الكبير: ج ٢ ص ١٣.

(٤) المقفى الكبير: ج ٢ ص ١٣، والدرر الكامنة: ج ٢ ص ٢٢٣.

(٥) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني: ج ٢ ص ١٨٠.

ومـن لهم في فضلهم ولجدهم ضجيع النبي المصطفى حسن السير

وقال في وصفه: «سيدُ الوادي، ومُسنِدُ البادي، مقيم السنة ومعليها، ورافض الرافضة، ومُقصيها. وكان السلطان في مصر قد قبض عليه ثم أطلقه بعد مدة، وقيض له وزير صدق، وهو محمد بن عبد الله بن مُطرِف العمري، فلم يزل يحسن له المساعي، ويحسم الأعداء الدواعي، حتى انحلَّت عقدة شدته، وتجلت غمامه».

قال ابن حجر العسقلاني: «أدي بن هبة الله جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنأ بن حسين بن مهنأ بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله الأعرج بن علي بن الحسين بن علي الحسيني الهاشمي.

من آل بيت أمراء المدينة، كان خارجاً عنها فأنف من طول الغربة، فجمع قوماً وهجم المدينة في ربيع الأول سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م، بعد أن حاصرها أسبوعاً، وأحرق الباب، ففر طفيل أميرها، وصادر الناس حتى اشتد الغلاء بالمدينة، وافتقر جماعة من المياسير، فأخذ طفيل عسكراً من مصر، وقدم، ففر ودي، وأعيد طفيل إلى المدينة ومعه بعض الأمراء، ثم أفرج عنه في رمضان سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م، ورتّب له راتب ثم أضيف إلى طفيل في إمرة المدينة، ثم أفرد بها سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م، ثم عزل بسعد بن ثابت في سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، فجمع جموعاً، وهجم المدينة، وأخذ أموال الخدّام، ونهبوا المدينة حتى لم يبقَ بها أحد إلا اجتاحه، وخرج هارباً ثم قبض عليه وسجن سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م فمات بالسجن»[1].

وقد فصّل المقريزي أمره بشيء من الإسهاب ونحن نذكر ذلك لتوضيح شخصية المذكور وحال المدينة في تلك الأثناء:

حصر المدينة النبوية في شهر ربيع الأول سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧م أسبوعاً، وأحرق الباب ودخلها، وقد غاب عنها الشريف كُبيش، فأخذ غلمانه وألزمهم

(١) الدرر الكامنة: ج ١ ص ٣٤٦.

بالمال، ففرّ طفيل أخو كبيش وابنه، وكثرت عقوبات الناس حتى اشتد الغلاء بالمدينة لانقطاع الجلب، وقتل وُديّ القاضي هشام بن علي العلوي، وعبد الله بن القائد علي بن يحيى، وأفقر جماعة من المياسير حتى احتاجوا إلى السؤال...

ثم حضر إلى مصر، وتحاجج أمام السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع ابن عمه طفيل فظهر الحق مع طفيل، فقبض على وُدَيّ في أول شوال تلك السنة، ولم يزل مسجوناً إلى أن أفرج عنه في يوم الأربعاء ٥ رمضان سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م، وعن خُرص ابن أخيه، ورتب لهما راتب، ثم أخرجا بعد مدة على إقطاع بالشام، فمات خُرص، وأعيد ودي إلى إمارة المدينة شريكاً لابن أخيه طفيل، ثم قدم إلى مصر سنة ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٦م، وأفرده بالإمارة، وأنعم على ابن أخيه طفيل بإقطاع في بلد حوران من الشام ليقيم هناك...

ثم عزل بسعد بن ثابت.. في سنة ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩م، فجمع الجموع، وأخذ أموال الطواشية، وقناديل الحجرة النبوية، ونهب الناس بالمدينة، حتى لم يدع بها إلا ما لا قيمة له، ولم يزل فاراً حتى قدم في محرم سنة ٧٥٢هـ إلى القاهرة بأمان كتب له، فقُيِّد وسجن على ما أخذه من أموال أهل المدينة، فأثار أولاده فتنة بالمدينة قتل فيها سعد بن ثابت... ومات هو عُقيب ذلك بسجنه في سنة ٧٥٢هـ[1].

لقد تسلّم الأمير منصور بن جمّاز – أخو ودي – إمارة المدينة عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م، وبقي على دست الحكم حتى عام ٧١٦هـ/ ١٣١٦م حيث شاعت فيها الاضطرابات، ووصلت إلى مواجهات عدائية بين الشيعة والسنة.

ووصلت أخبار هذه الاضطرابات إلى السلطان محمد بن قلاوون الذي كان مشغولًا بالتصدي للتتار فتضايق، وزاد من ضيقه شكاوى الحجّاج وأمراء الحج من اضطراب الأمن في الحرمين الشريفين والطريق بينهما، وأثّر ذلك في فقدان السلع وغلاء الأسعار، فأمر قائد موكب الحج عام ٧١٦هـ/ ١٣١٦هـ بالقبض على الأمير

(١) المقفى الكبير: ج ٢ ص ١٣.

منصور وإحضاره إلى مصر للتحقيق معه في هذا الأمر.

ونفذ قائد الركب الأمر، فقبض على الأمير منصور واصطحبه معه في العودة إلى مصر، وأناب أخاه الأمير ودي في إمارة المدينة، وهناك استطاع الأمير منصور أن يقنع السلطان بأنه ليس مسؤولاً عن الحالة المتردية في المنطقة، وأنّ المسؤول الحقيقي هم خصومه: ماجد وقتادة بن إدريس، وعدد من أشراف المنطقة وشرفاء مكة.

فأطلق السلطان سراحه وجهّزه وأعاده إلى إمارته في ربيع الأول سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م غير أنّ أخاه ودياً طمع في الإمارة وحاول أن يتصدى لأخيه منصور، ويمنعه من دخول المدينة، وجمع رجاله وأعوانه لذلك، ووقعت مناوشات بين الطرفين واستطاع الأمير منصور آخر الأمر أن يطرد أخاه ودياً ويسترد الإمارة[١].

وفي رمضان سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م قُتل الأمير منصور على يد أحد أقاربه الموتورين[٢]. وتولى ابنه كبيش السلطة بعده، إلا أنّ عمّه ودياً جمع أعوانه وسار بهم مع ابنه عسكر إلى المدينة في شهر صفر سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م، وكان الأمير كبيش غائباً عنها، وينوب عنه في الإمارة أخوه طفيل بن منصور، ودخل ودي المدينة فأخذ غلمان الأمير وأهله وصادرهم وعذّب جماعة من رجاله فمات بعضهم من التعذيب، وقتل قاضي المدينة هاشم بن علي وشريفاً آخر.

ومضى طفيل إلى القاهرة ليشكو عمّه ودياً إلى السلطان المنصور، وطمع ودي في أن يثبته السلطان المنصور في في الإمارة، فترك أعوانه يدبّرون شؤون المدينة وسافر إلى مصر ليقنع السلطان بإصدار مرسوم تعيينه، ولكنّ السلطان المنصور جمع بين ودي وطفيل وسمع منهما معاً في جلسة أشبه بجلسة المحاكمة، وفي نهايتها أمر بالقبض على ودي وسجنه وإعادة كبيش إلى إمارته[٣].

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ١٧٥، والعقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٧.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٢٦٩، والدرر الكامنة: ج ٤ ص ٣٦٢ - ٣٦٣.
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١.

وفي عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م قُتل كبيش حينما كان خارج المدينة مع عدد قليل من رجاله، وورث طفيل بن منصور الإمارة من أخيه، وورث معها مشاحناتها أيضاً، وأولها خصومة عمه ودي بن جمّاز الذي أطلق السلطان المنصور سراحه، وعاد وجمع رجاله «وأخذوا يشنون على المدينة الغارات ويطلبون بها الثارات، ويفسدون الزروع، وينهبون الضروع، ويحرقون النخيل والأشجار وما يجدون أينع من الثمار»[1].

ولم يستطع الأمير طفيل أن يقمعهم أو يمنع غاراتهم، ولم يجد أهل المدينة بداً من التصرف بأنفسهم لحماية أرواحهم وممتلكاتهم، «فقد خرج وجهاء المدينة، وفي مقدمتهم قاضيها شرف الدين الأسيوطي، وشيخ الحرم والأعيان، وفاوضوا ودي بن جمّاز على الصلح واتفقوا معه على أن يدفعوا له خمسة عشر ألف درهم مقابل الكفّ عن أملاكهم وزروعهم، فرضي ودي وتمّ الصلح»[2].

غير أنّ هذا الصلح ما لبث أن نقض، وكان بعض رجال ودي هم الذين نقضوه، لذلك قرّر طفيل أن ينهي أمر ودي وعصابته فاستنجد بعدد من القبائل المحيطة بالمدينة من الحربيين[3]، فحشدوا له جموعاً كبيرة وأخذوا في مطاردة ودي ورجاله - وكانوا قلة - واستطاعوا أن ينزلوا بهم هزيمة موجعة، وفرّ ودي وقتل عدد كبير من رجاله[4].

وعلى أثر ذلك اعتقل ودي بأمر من السلطان، وسجن في قلعة الجبل بمصر، فاستراحت المدينة من غاراته إلى حين[5].

وقد حرص السلطان قلاوون على أن يهدئ المنازعات بين أفراد الأسرة

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٦٠.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٦٠.
(٣) وهم: صالح بن حريبة من آل فضل، وعمرو بن هيبة من آل مراد، وعياق بن متروك.
(٤) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٦٠.
(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٣٣٣.

الحاكمة في المدينة المنورة، ويستل السخائم من النفوس، فأفرج عن ودي عام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م وأنعم عليه بإقطاع في الشام ليشغله به عن مشاحنة ابن أخيه وتعكير حياة المدينة المنورة بالغارات والفتن، وأطلق سراح أكبر أعوانه الذي كان معتقلًا معه، فذهب إلى الشام وأقام فيها مدة من الزمن[١].

وفي مطلع سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م جاء ودي بن جمّاز إلى القاهرة بعد أن مات رفيقه، واستطاع بهديته السنية وتلطفه للسلطان أن يستصدر منه مرسوماً بإشراكه في الإمارة مع ابن أخيه طفيل بن منصور بن جمّاز، وهو من إنشاء المقرّ الشهابي بن فضل الله، وهذا صورته:

«الحمد لله الذي صرّف أمرنا في أشرف البقاع، وشرّف قدرنا بملك ما انعقد على فضله الإجماع، وعرّف أهل طيبة الطيّبة كيف طلع البدر عليهم من ثنيات الوداع، وأمدّها بودي صُغّر للتحبب وإلا فهو واد متدفق الأجراع.

نحمده على نعمه التي أغنت مهابط الوحي عن ارتقاب البَرَد اللمّاع، وارتقاء النظر مع بدره المنير إلى كل شمس سافرة القناع، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة تُخمد من الضلال ما شاع، ومن البدع ما استطار له في كل أفق شعاع، ونشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف من أنِفَت به حميّة الامتناع، وألفت بنا سنته أن تراع، وعصفت ريحها بمن يمالي دينه فمال إلى الابتداع، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ليس في فضل أحد منهم نزاع، وسلّم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإنّ الإهتمام بكل جهة على قدر شرفها، وعلى حسب الدرة الثمينة كرامة صدفها، والكمامة بثمرها، والغمامة بمطرها، والهالة بما يجلو الدجى من قمرها، والمدينة الشريفة النبوية لولا ساكنها ما عاجت إليها الركائب، ولا ناجت حدائقها غرّ السحائب، ولا وقفت بتأريخ شذا الروضة الغنّاء بها الجنائب، ولا بكى متيّم دِمَنَ العقيق بمثله من دم ذائب، ولا هاج إليها البرق متألقاً، ولا هام صبّ

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٣٣٣.

فيها بظبيات سَلْع والنّقا، ولكنها مثوى النبوة ترابها، ومهوى الرسل جنابها، ومأوى كتاب الله الفسيح رحابها، دار الهجرة التي تعالت شمس الشريعة بأفقها، وتوالت سحب الهدى من بين أبيرقها، وهي ثانية مكة المعظمة في فضلها إلاّ ما ذهب إليه في تفضيلها على مكة مالك بن أنس، ومنها انبعثت للهدى نوّارة كل نور وشعاع كل قبس، وكانت لنبي هذه الأمة ﷺ أبقى داريه، وأعلى سماء حوت ثلاثة أقمار منه ومن جاريه.

ولما كان بها لبعض الولاة من الشيعة مُقام، ولهم فيها تحامل لا يجوز معه من الانتقاد إلا الانتقال أو الانتقام، حتى إنّه فيما مضى لما كثر منهم على بغض الصاحبَين رضي الله عنهما الإصرار، واشرأبوا في التظاهر بسبهما إلى هتك الأستار، دبّ من النار في هذا الحرم الشريف ما تعلق بكل جدار، وأبت لها حميّة الغضب إلا أن يطهّر ما سنّته أيدي الروافض بالنار.

فلما اتصل بنا الآن أنّ منهم بقايا وجدوا آباءهم على أمة، واقتدوا بهم في مذهب الإمامية بما لا أراده الله تعالى ولا رسوله ﷺ ولا أولئك الأئمة، وحضر المجلس العالي الأميري الأصيلي، الكبيري العادلي، المجاهدي، المؤيّدي، الزعيمي، المقدّمي، الذخري، الكافلي، الشريفي، الحسيبي، النسيبي، الأوحدي، البدري، عزّ الإسلام والمسلمين، شرف الأمراء في العالمين، نُصرة الغزاة المجاهدين، جمال العترة الطاهرة، جلال الأسرة الزاهرة، طراز العصابة العلوية، كوكب الذّرية الدّرية، خلاصة البقية النبوية، ظهير الملوك والسلاطين، نسيب أمير المؤمنين، وُدَيّ بن جمّاز الحسيني -أدام الله تعالى نعمته- بين أيدينا الشريفة بمحضر قضاة القضاة الأربعة الحكّام، وتذمّم بأنّ مع طلوع بدره المنير لا تبقى ظلامة ولا ظُلاّ م، وتكفّل لأهل السنّة بم أشهدنا الله به عليه ومن حضر، وتلقّى بإظهار فضل الترتيب كما هم عليه: النبي ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر؛ فما اختصّهما الله بجواره إلا ليثبت لهما على غيرهما إفضالاً، وليجعل قبورهما في معرفة أقربهم منه درجة مثالاً، لما تواترت به الأحاديث الشريفة في فضائلهما مما هو شفاء الصدور، ووفاء بعهده إذ يقول:

«عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور».

فلم يسعنا إلا أن نجعل له منا تقليداً يمحو بحده ما حدث من أحداث البدع، ويجدد من عهد جده نبينا ﷺ في معرفة حق أصحابه رضي الله عنهم ما شرع، وثوقاً بأنّه من بيت كان أول هذا الدين الحنيف من دَلّه، ومبدأ هذا الحق الظاهر ما أثّلته ومثّلته في سلفه الشريف بأقارب متصله. وأنّه هو المورّث من الفخار ما ورثه عن آبائه الكرام، المحدّث عن كرم الجدود بما لا يُحقر له جوار أو يخفر له ذمام، المشرق من الأسرة العلوية بدراً تماماً، المحدق به من الكواكب العُلويّة ما يظن به أباً تسمّى وابناً تسامى، المنتخب من آباء صدق أحسن في ديارهم الصنيع، وحفظ من حسبهم الكريم ما أوشك أن يضيع، واستضاء بلامعة من هدى سلفه السابق، وهامعة من ندى ما يرويه السحاب عن الجود والبرق عن المهارق، تهتز بمقدمه المدينة سروراً، وتفترّ رباها منه بنسب كأنّ على نسبه من شمس الضحى نوراً، ويتباشر ما بين لابتيها بمي يحمي حماها، ويحيّي محيّاها، وتتشوّف منه ربا كل ثنية إلى ابن جلاها، وطلاّع ثناياها، مع ما لا يجحد من أنّ له فيها من أبيه حقّ الوراثة، وأنّه لما كان هذا ثاني المسجدين احتاج إلى ثاني اثنين تعظيماً للواحد وفراراً من الثلاثة، ليكون هو ومن فيها الآن بمنزلة يدين كلتاهما تقبل الأخرى، وأذنين كلتاهما توعي دراً، وعينين ما منهما إلاّ ما يُدرك أمراً بعيداً، وفرقدين لا يصلح أن يكون أحدهما فريداً، وقمرين لا يغلب أحدهما على الآخر في التسمية بالقمرين، وعُمَرين وكفى شرفاً أن لا يوجد في الفضل ثالث للعُمَرين.

فرُسم بالأمر الشريف العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، الفلاني - زاد الله به المواطنين شرفاً، وزاد به البواطن الشريفة حبّاً وشغفاً - أن يفوّض إليه نصف الإمرة بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، شريكاً للأمير سيف الدين ابن أخيه، ورسيلاً معه فيما يليه، ولكل منهما حقّ لا يكاد الآخر يخفيه، هذا له برّ الولد وهذا له حرمة الوالد لأنّ ابن الأخ ولد وعم الرجل صنو أبيه، فتقسم الإمرة

بينهما نصفين، وتوسم جباه الكتب الصادرة عنهما لهما باسمين.

والوصايا تمدّ من عنانها، وتعدّ من أعيانها؛ فأوّلها تقوى الله فإنّها من شعائر القلوب، وبشائر الغيوب، وأمائر نجاح كلّ مطلوب، والاعتصام بالشريعة الشريفة: فإنّها الحبل الممدود، والجبل الذي كم دونه من عقبة كؤود، والانتهاء إلى ما نص عليه الكتاب والسنة والإجماع، وقصّ جناح من مال به الهوى إلى مجاذبة الأطماع، وتلقّي وفد الله الزائر بما ألفه نزيل هذا الحِمى من كرامة الملتقى، وتوقّي المذمّة فإنّها دنس لا يحمد مثله نقاء هذا النقاء. ونعني بالمذمّة ما نسب إلى الروافض من البدع التي لا تطهّرها غرّ السحاب، ولا يستبيح معها لدخول المسجد الطاهر من قنع بمقامه حوله التيمم بالتراب، ولا يدع أحداً من هذه الفرقة الضّالة بعلي ولا يعيّره بما يكون به مثله، ولا يشبّه قلبه في محبة أهل البيت سلام الله عليهم بإناء امتلأ ماء ولم تبق فيه فضله.

ولا يظن جاهل منهم أنّ علياً كرم الله وجهه كان على أحد من الصاحبين معتباً أو عاتب، أو أنّه تأوّل في خلافتهما معتقداً أنّ أحداً منهما غاصب، فما تأخر عن البيعة الأولى قليلًا إلّا لاشتغاله بما دهمه بموت رسول الله ﷺ من المصائب، وإلّا فقد اتخذ أم ولد من سبي أبي بكر رضي الله عنه لا كما يدعيه كل كاذب، وقد تزوج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنته أم كلثوم وأقام بأمره الحدود وناب عنه وهو غائب، فيكفّ من عادية هؤلاء الروافض والأشرار ما سيصلون في الموافقة بناره، وسيصلون إلى الموافقة على ما طار من شراره، ولا يدع للإمامية إماماً يقتدي به منهم قوم شرار، ولا قاضياً بينهم: فإنّه إنما يقطع لمن قضى له أو عليه قطعة من نار، ولا عالماً يرفع له علم، ولا يفتح لهم بفتوى على مذاهبهم فم، حتى ولا يتحرك به في فم الدواة قلم.

وليطهر هذا المسجد الشريف من دنسهم، وليُمط ما يحمله أديم مجلدات التصانيف من نجسهم، وسكّان هذا الحرم الشريف ومن أقام من المجاورين، أو خالطهم من زمر المقيمين والسائرين، يحسن لأمورهم الكفالة، ولا يتعرض لأحد

منهم بما يؤذي نفسه ولا يناله، فهم في جوار نبينا ﷺ وفي شفاعته، وكل منهم نزيل حرمه ومكثّر سواد جماعته، وحقهم واجب على كل مسلم فكيف على حامي ذلك الحمى، بل من له إلى نسبه الشريف منتمى.

وأصحب رفيقك بالمعروف فإنكما مفترقان والسعيد من لا يذمّ بعد فراقه، ومستبقان إلى كل مورد لا يُدرى أيكما المجدّ في سباقه، ومتفقان على فرد أمر وأفضلكما من دوام صاحبه على إرفاقه، وصحبه على وفاقه.

وأما ما للمدينة الشريفة من تهائم ونجود مضافة إليها، ومستظلة بجدرها أو متقدمة في الصحراء عليها، فهي ومن فيها: إما أن توجد بقلوبهم فهم أعوان، وإما أن تنفر فهم أشبه شيء بالإبل إذا نفرت تعلق بذنب كل بعير شيطان، فأقربهما إلى المصلحة تقريبهم، وتأليفهم بما يقرب به بعيدهم ويزداد قربى قريبهم، والركبان التي تتقد بهم جمرات الأصباح والعشايا، ويعتقد كل منهم في معاجه إلى المدينة الشريفة أنّ تمام الحج أن تقف عليها المطايا، فهم هجود سُرى، ووفود قِرى، وركود في أفق الرحال خلعت مقلهم على النجوم الكرى، ومعهم المحامل الشريفة التي هي ملتفّ شعابهم، ومحتفّ ركابهم، وهي من أسِرّتنا المرفوعة، ومبّرتنا المشروعة. فعظّم شعائر حرماتها وقبّل أمام منابرها الممثلة مراكز راياتها، وأكرم من جاء في خفارتها، ومن جال في دجى الليل لا يستضيء إلاّ بما يبدو من إشارتها، وقد أشهدنا عليك من هو لك يوم القيامة خصيم، وأنت وشأنك فيما أنت به عليم.

وباقي الوصايا أنت لها متفطن، وعليها متوطن، وما ينتفع الشريف بحسبه، إن لم يكن عمله بحسبه، ولا يرتفع بنسبه، إن لم يتجنب مكان نشبه، والله تعالى يمتع بدوام شرفه، ولا يضيّع له أجر حالّ عمله الصالح وسلفه، والاعتماد..[1]

وفوجئ الأمير طفيل بهذا المرسوم فرفضه، ورفض أن يسلّم ودياً نصف إمارته، ولم يعمد ودي إلى القوة، ولم يستنهض رجاله وأعوانه لإجبار طفيل على

---

(١) صبح الأعشى: ج ١٢ ص ٢٣٧ - ٢٤٣.

القبول بالمرسوم السلطاني أو إخراجه، بل عاد إلى القاهرة يشكو إلى السلطان تمرد ابن أخيه ورفضه تنفيذ أوامر السلطان، فكسب عطف السلطان ومساعدته إلى آخر ما تم تفصيله سابقاً.

وبدأت إمرة ودي على المدينة في شهر شوال سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م، وقد نجح في تغيير صورته في أذهان الناس، فأحسن معاملتهم وخفض المكوس، وتقرب إلى إخوته وأبناء أخوته الآخرين، وأحسن استقبال الوافدين في مواسم الحج من أعيان المماليك ورؤسائها ووزرائها، وبادلهم الهدايا، وحظي بعطاءاتهم، وفرّق في الناس الأموال التي خصصوها لأهل المدينة[١].

واستطاع ودي أن يتألف العربان والقبائل المحيطة بالمدينة، التي كان يتعاون معها من قبل في الغارات أو يأوي إليها إذا اشتد عليه الطلبز وأفادته علاقاته القديمة في ذلك.

لقد كان ودي شاعراً فصيحاً، وحرص على أن يكسب سمعة حسنة لدى السلطان المملوكي في مصر، وعندما توفي السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ، وتولى المنصور أبو بكر سارع إلى السفر إلى القاهرة ليعزي في السلطان الراحل ويهنئ خلفه بالسلطة ويثبت إمارته على المدينة، خشية أن يسبقه خصمه طفيل في ذلك وينتزع الإمارة منه، وقد لقي الحفاوة والتكريم في القاهرة وثبت في إمارته.

وتكرر سفره إلى القاهرة مع انتقال الخلافة ثلاث مرات في سنتين متواليتين. فقد خُلع المنصور أبو بكر سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م وولي الأشرف كجك، وبعد سنة خُلع الأشرف كجك وولي الناصر أحمد[٢].

وكانت المدينة المنورة تعاني في غيابه من بعض الفتن والغارات، وقد قتل

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٤٦٣ - ٤٧٢.
(٢) تاريخ الإسلام: ج ٧ ص ٣٦٣٥.

في عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م أخوه ونائبه في الإمارة ثابت بن جمّاز[١].

وانتهز طفيل هذه الاضطرابات فرحل إلى أطراف المدينة، وأقام عند بعض أقاربه وبدأ يعدّ العدّة لاستعادة الإمارة من عمه ودي.

لم يلجأ طفيل إلى السلطان المملوكي كما فعل عمه ودي من قبل، لتيقّنه بأنّ السلطان لن يخرج عن إقرار الأمر الواقع، لذلك اختار أن يستولي على المدينة ويطرد عمه ويرسل إلى السلطان طالباً إقراره اعترافاً بالأمر الواقع.

وحشد طفيل عدداً كبيراً من أنصاره من العربان، وزحف بهم إلى المدينة في ذي القعدة سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٣م وكان ودي خارج المدينة، وعندما علم ودي بالأمر لم يستطع أن يفعل شيئاً فاتجه إلى بادية الحجاز حيث يقيم بعض أقاربه، ثم انطلق منها إلى أمير اليمن فأقام عنده[٢].

القاسم بن منصور بن جمّاز الحسيني

القاسم بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم مُهنا بن حسين بن مُهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٣].

أمير المدينة المنورة في سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م.

أخو طفيل بن منصور، ولي إمرة المدينة وقُتل في شعبان سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م، واستقر بعده أخوه، ويُعتقد أنه ولي قبل إمارة شقيقه طُفيل، أو باستنابة من قبل شقيقه كبيش بن منصور الذي قُتل في سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م، ومن الممكن أن

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٣٨٩.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤٠٤ رقم ٣٤٦٣، وعمدة الطالب: ص ٣٣٨.

يكون قُتل قبل شقيقه كُبيش، بسبب ثارات بين أبناء العم.

ثابت بن جمّاز بن شيحة الحسيني

ثابت بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مُهنّا بن حسين بن مُهنّا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ناب في إمرة المدينة عن أخيه وُدي، ونال العفيف عبدالله بن الجمال المطري منه محنة في سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م. ولم يلبث أن مات مقتولاً في شهر رمضان سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٣م.

ومحنة العفيف يفصلها ابن فرحون فيقول[1]:

«كانت محنة الشيخ عفيف الدين التي أصيب بها في دنياه من جهة الأمير ثابت بن جمّاز في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة.

وذلك أنّ الطواشي مختار البغدادي كان وصياً على أولاد العفيف بن مزروع، وكان صديقاً للشيخ عفيف الدين ملازماً له معتقداً فيه، فلما توفي الطواشي كان الوالي في المدينة يومئذ ثابت بن جمّاز نيابة عن أخيه ودي، فطلب العفيف واتهمه أنّ للطواشي عنده مالاً، فحلف له أن ليس عنده شيء، فلم يصدقه وأنزله إلى الجُبِّ مع شمس الدين بن عبد العزيز لكونه كان من أخصاء العفيف وأحبابه، وطلبوا حاشية العفيف، فمسكوا ريحان عتيق جمال الدين المطري فذكروا أنهم قرروه فلم يقر، فضربه الأمير ثابت بيده ضرباً وجيعاً بالدبوس، فأظهر لهم شيئاً مما هو للعفيف كان قد أخفاه، فأخذوا جميع ما فيه من الكتب والمتاع والأثاث حتى الحصر التي على الأرض، فأما ابن عبد العزيز فأخرج من ليلته.

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ١٥٢-١٥٤.

وأما الشيخ عفيف الدين فبقي فيه نحو يومين وليلتين، ثم خرج على أن يدفع لهم سبعة أحمال رز، فَحُسِبَ ثمنها ألف درهم وخمسمائة وخمسة وسبعون درهماً، وضمنه ابن عبد العزيز وعبد الله بن محمد بن إبراهيم المؤذن، فدفع لهم ذلك بعد أن اقترضه، ولم نعلم أنه قبل من أحد من أصحابه شيئاً لا فيما غرم ولا فيما جدّد في بيته من أثاث وغيره وصبر واحتسب. وكانت عنده ودائع للناس غرمها لأصحابها وأخلف الله عليه وجمّل حاله وأعقبت هذه القصة صاحبها خيراً، وكان الأمير المذكور قد أمر بإخراج جميع المجاورين غنيهم وفقيرهم في يوم وفاة الخادم المذكور، وأنظرهم ثلاثة أيام ليتجهزوا فيها وصمم على ذلك، ثم تركهم في يوم خروج العفيف بعد شفاعات، ثم شوش عليهم وطلب عشرة آلاف درهم من أحد عشر نفراً، وألزمهم بالخروج من المدينة إن لم يدفعوها، فخرجوا الجماعة إلى قباء وجرى في ذلك كلام كثير، ثم طلع القاضي شرف الدين إلى الأمير وتكلم معه كلاماً غليظاً.

وقال: أنا أول من يسافر معهم، فرجع الأمير عن رأيه وبعث إليهم فدخلوا المدينة آمنين.

وأخبر محمد بن يعقوب وزير الأمير أنّ الحاصل الذي جمعه من بيت العفيف مع حاصل آخر كان له، وحاصل آخر كان لزوجة ولده سعد، خرج به الأمير المذكور في الليل من باب السر الذي في القلعة ودفنه خارج المدينة تحت حوش ودي، وكان معه عبد واحد لم يطلع على ذلك أحد غيره، ثم افتقده بعد أيام فلم يجده، فقرَّر العبد فلم يقرَّ بشيء، فقتله معاقباً مخنوقاً. وجملة ما ضاع له تسعة آلاف درهم ومائة درهم، وذلك بعد قضية العفيف بخمسين يوماً.

ثم خرج الأمير من المدينة إلى العرب، فلم يحل عليه الحول حتى قُتل في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين، وذكر مَن حضر الواقعة أنّ أصحابه انهزموا وتركوه في المعركة غير مدفون، وذكر لي السيد سلطان بن محارد، أنَّ امرأة كان قتل ثابت ولدها فنذرت أنها متى ظفرت بجيفته، لتأخذنّ عظماً من عظامه فتجعله خلالاً

لمنسجها تضرب به عند النسج مفتول الصوف، فلما توفي لم تزل تطلب جيفته حتى وقعت بها، فأخذت من عظامه عظاماً، فأوفت بنذرها وجعلته بيدها تتشفّى به، حتى دُخل عليها وسُئلت تركه فتركته بعد حين.

ثم إنّ الشيخ عفيف الدين اشترى كتبه من الوزير المذكور وعوضه خيراً مما ذهب له، ومات رحمه الله عن غير عقب في سنة خمس وستين وسبعمائة، وكان مولده سنة ثمان وتسعين وستمائة.

وأعتقد أنّ سبب قتل ثابت التصفيات التي كانت سائدة بين أمراء المدينة فيما بينهم للفوز بإمرة المدينة.

سعد بن ثابت بن جمّاز الحسيني

سعد بن ثابت بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنّا بن حسين بن مُهنّا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في سنة ٧٥٠-٧٥٢هـ/ ١٣٤٩-١٣٥١م.

ولي المدينة عوضاً عن ابن عمه طُفيل بن منصور بن جمّاز سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، حيث وصل إلى المدينة المنورة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م مع الركب المصري، وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي الحجة قرأ أمير الركب المصري على منبر المسجد النبوي مرسوم تعيين الأمير الجديد سعد بن ثابت بن جمّاز[١].

قال ابن فرحون: «في أثناء تلك السنة جاء الخبر أنّ السلطان قد ولّى سعد بن ثابت بن جمّاز إمارة المدينة. فلما كان في شهر ذي القعدة جمع الأمير طفيل جميع

---

(١) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٨؛ وتحفة الأزهار: ج ٢ ص ٤٥١.

آل منصور وخلقاً كثيراً من العرب، وعزم على منع سعد بن ثابت من دخول المدينة. فقدم سعد مع الركب الشامي، فبلغه ما عزم عليه الأمير طفيل، فطلب المساعدة من أمراء الركب الشامي، فامتنعوا. وقالوا: لا بد من إذن السلطان لنا في ذلك، فرحل سعد من البركة، وبعث إلى السلطان يستأذنه في ذلك، ودخلت الحواج جميعها دفعة واحدة، وهم خائفون مما يحدث عند تغير الدول والعياذ بالله. وأقاموا في المدينة يومين، ورحلوا جميعهم دفعة واحدة في صبيحة اليوم الثالث، وأودعوا في المدينة ما جرت عادتهم في ذلك.

فلما كان في اليوم السادس عشر من ذي الحجة جاء الأمير طفيل من مكة، وأخبر آل منصور بما أزعجهم وهو مرسوم السلطان لجميع أمراء الحواج أن يمكنوا سعداً في المدينة.

فلما كان في ليلة الجمعة ثامن عشر الشهر المذكور، اتفق رأي آل منصور على نهب المدينة، وكان الأمير طفيل لذلك كارهاً ثم غلب على رأيه، ونهب آل منصور وأتباعهم، ومن معهم من بني حسين، ومن حضر المدينة من الخيابرة وغيرهم، جميع الوضيع الذي للحاج الشامي، ولم يسلم لهم إلا النادر في بيوت معدودة كما تقدم، ونهبوا دور الخدام والمدارس، واستمر النهب من عشية الخميس إلى آخر نهار الجمعة، وخرج آل منصور جميعهم من المدينة في ليلة السبت.

وجلست هيمان بنت مبارك بن مقبل في القلعة في شباك الإمارة يوم السبت، وتسلمت مفاتيح الدرب وحكمت في المدينة يوم السبت ويوم الأحد إلى الظهر. ثم وصل محمد بن مقبل بن جمّاز وغيره، ودخل الأمير سعد بن ثابت يوم الثلاثاء مع الركب المصري، وقرىء منشورهُ يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة »[١].

وبدأ الأمير سعد إمارته بإصلاحات عامة وكان مشكور السيرة ينصر السنة

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٥٦.

ويقمع البدعة[١]، فسيّر منادياً في الشوارع والأسواق ينادي ألاّ يقضي في الناس غير القاضي الذي يعيِّنه السلطان، وألاّ يعقد الأنكحة سواه، ومنع آل سنان الذين توارثوا القضاء والعقود من ذلك، وكان معظم القضاة من الشيعة آنداك.

يقول الفيروزآبادي: «وهو أول مَنْ قمع الله تعالى به البِدعة وأركانَها، ورفع به قواعدَ السنَّة وبنيانها، ولمَّا استقرَّ في الولاية بدأ أولًا بمنع آل سنان وغيرهم من الإمامية من التعرض للأحكام الشرعية، وعقود أنكحة الرعية، وردَّ الأمرَ بأسره إلى أهل السنَّة، وأزال ببأسه عن مخالفتها المَنَّ والمُنَّة، وأخمد نار الشيعة وأطفأها، وقلب قدر قُدورهم على صلة الذِلّة وأكفأها، ونادى في المدينة وأسواقها جهاراً نهاراً أن لا يحكم في المدينة إلا القاضي الشافعي، ومَنْ فعل فقد وَطِئ جُرُفَاً منهاراً، فبطل بالكلية أمرهم ونهيهم، وظهر على الكلية وَهْنهم ورَهْبهم.

ثم إنَّه منع قضاة الشيعة أن يدخلوا معه الحجرة الشريفة، وعيَّن إبراهيم بن عبد الله المؤذِّن في هذه الوظيفة، فكان يدخل أَمامه، ويواصل أنغامه، ويُبلِّغ خير العالمين صلاتَه وسلامه، ثم يأتي بالشريف ومَنْ معه إلى الشيخين المقدَّمين، والسيِّدين المعظَّمين، مُزْدَلِفَيْن إليهما، مُسلِّمين عليهما، وإبراهيمُ رافعٌ عقيرته بالتسليم، والشريف وراءه في وقار وخضوع عظيم»[٢].

وتصدَّى الأمير سعد كذلك للمظالم فألغى الجبايات التي فرضها سلفه الأمير طفيل آخر أيامه، واشتد على المفسدين، وكتب إلى السلطان يستعينه على تجديد سور المدينة، فأرسل السلطان إليه الأموال، فشرع بترميم السور وتقويته، وأقام خندقاً حول السور زيادة في منعته[٣].

وفي مطلع ربيع الأول سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م أغار بعض العربان على المدينة المنورة، وكان العمل في تحصين السور لم ينته بعد، فخرج بنفسه على رأس القوة

(١) الدرر الكامنة: ج ٢ ص ١٣٤ رقم ١٨١.
(٢) المغانم المطابة في معالم طابة: ج ٣ ص ١٢٠٨.
(٣) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٥٧.

المسلحة، وقاتلهم حتى ردّهم عن المدينة وأوقع منهم ضحايا عدة، وأصيب بجرح بليغ، فحُمل إلى المدينة، فاشتد عليه جراحه شديداً وما لبث أن مات في الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م.

محمد بن طفيل بن جمّاز الحسيني

محمد بن طفيل بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مُهنا بن حسين بن مُهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر ابن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة في سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م.

ورد في نصيحة المشاور[١]، في ترجمة هيمان بنت مبارك، أنها حكمت المدينة في ١٦ ذي الحجة سنة ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩م ليوم ونصف، ثم جاء محمد بن طفيل بن جمّاز، ثم وصل الأمير سعد بن ثابت..

وهذا يعني أنه حكم المدينة لأكثر من يوم، لذا أدرجناه في قوائم أمراء المدينة.

وورد أيضاً أنه في سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م كان الأمير مانع بن علي بن مسعود غائباً عن المدينة ونائبه محمد بن مقبل.

والظاهر أنّه من الأشراف الذين هاجروا إلى العراق واستقروا فيها؛ قال السيد ضامن: «ورد الحلّة فاتخذها مسكناً وموطناً، له بها عقب وهم المشهورون بالشرفاء»[٢].

والشُّرَفة: عشيرة علوية عريقة النسب تعود بأصولها إلى السيّد الجليل الشريف محمد ابن الأمير مقبل الذي ورد العراق مع بعض إخوانه من المدينة

(١) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٨.
(٢) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٧٥.

المنورة تاركاً شقيقه أميراً عليها، وذلك في نهاية القرن الثامن للهجرة واستوطن الضفة اليسرى لشط الحلة في منطقة الهاشمية من محافظة بابل، وهم أمراء المدينة المنورة آنذاك، والشريف محمد بن مقبل بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن أبي عمارة بن داود بن القاسم بن عبيدالله بن طاهر بن يحيى النسابة بن الحسن بن جعفر الحجة بن عبيدالله الاعرج بن الحسين الأصغر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين الشهيد بن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام.

ويوجد أبناء العشيرة حالياً في محافظات بغداد وكربلاء والنجف والقادسية وديالى والبصرة وميسان إضافةً لثقلهم في محافظة بابل.

وأفخاذ السادة الشرفة هم آل وهيب والخليفة والعلّاك والنشاشلة والفوّاز والرواشدة والمعافات والعوسج والبو رزين والبو فارس والبو جمعة والبو كريدي والبو عبيد والبو مهدي والبو منعم والبو محمد والبو محبس والبو حسن والبو سبتي والبو حميدان والبو هاشم والبو محل والبو داود والبو قادر والاشراف الحسينيين آل شهاب وآل مصطفى وآل خلف وآل زغيّر، وعميدهم حالياً هو الشريف السيد عبدالحميد بن هاشم بن رزين.

فضل بن قاسم بن جمّاز الحسيني

فضل بن قاسم بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مُهنا ابن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبُيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في سنة ٧٥٢-٧٥٣هـ/ ١٣٥١-١٣٥٢م.

قال السيد ضامن: «كان سيداً جليل القدر، عظيم الشأن، رفيع المنزلة، سديد الرأي الصائب، مسايساً للأمور النافعة، بالمعرفة التامة، وكان فارساً بطلاً شجاعاً

مقداماً مهاباً، ولي الإمارة بعد موت سعد بن ثابت بن بن جمّاز لثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٧٥٢هـ، فأطاعه آل جمّاز، وحالفوه، وخطبوا له... ولم يزل بها أميراً إلى أن مات لسادس عشر ذي القعدة سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م ودفن في قبة الأئمة عليهم السلام»[1].

ولي إمرة المدينة بعد ابن عم أبيه سعد بن ثابت بن جمّاز في ربيع الأول سنة ٧٥٢هـ، ومات في ذي القعدة سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م، وذكر ابن فرحون عنه فقال: ولي بعده ابن عمه مانع بن علي بن مسعود بن جمّاز.. وكانت مدة إمرته سنة وأربعة أشهر.

بعد مقتل الأمير سعد بن ثابت اجتمع آل جمّاز لاختيار خليفة له من بينهم، ووقع اختيارهم على ابن عمه الفضل بن قاسم بن جمّاز، وحلفوا له على الطاعة والنصرة، وسافر مانع بن علي بن جمّاز إلى القاهرة يحمل نعي سعد بن ثابت، ويطلب باسم آل جمّاز تعيين الفضل بن قاسم، فاستجاب السلطان للطلب وأصدر مرسوماً بتعيين الفضل بن قاسم، وعاد مانع إلى المدينة، وقرأ المرسوم السلطاني على دكة المؤذنين في المسجد النبوي في جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م[2].

بدأ فضل إمارته بإكمال تحصين السور الذي بدأ به الأمير سعد، ووسّع الخندق حول السور[3]، وسار سيرة سلفه سعد في العدل بين الناس وتوفير الأمن وقمع الفتن، وخاصة الفتن الدائرة بين الشيعة الإمامية وبين السنة.

وفي زمن إمارته وقعت مصيبة عظمى؛ فقد «جاء نصرانيان أشقران من الأندلس، قد أرفدا بعثهما قسيس النصار بأموال كثيرة؛ لينفقا المال لتحصيل جثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنزلا بدار عمر بن الخطاب المعروفة الآن بديار العشرة، فتظاهرا بالسكينة والوقار والعبادة والصلاح، وواظبا الصلاة مع الجماعة وصيام الدهر، وبذلا الصدقات للمحاويج والأرامل المنقطعات، وهما أجزل القبح والخزوان في

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٤٤.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٥، ونصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٥٦.
(٣) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٤٤.

نبش سرداب من هذه الدار وإظهار ترابه إلى أقصى البقيع في الخلوات.

فلما قربا من الضريح الشريف منَّ الله تعالى على عبده الملك العادل نور الدين محمود الشهيد مناماً رأى في ليلة واحدة ثلاث مرات رسول الله ﷺ يقول له: يا نور الدين انقذني من هذين الرجلين، وقد أراهما وعرفهما في منامه. فاستيقظ فزعاً مرهوباً، فطلب وزيره جمال الدين الجواد محمد جمال الدين الموصلي وقص عليه الرؤية، فقال: هذا أمر عجيب، وخبر غريب، قد حدث بالمدينة الشريفة ليس له أحد سواك، فاكتم أمرك وبادر لعقباك، وسر هذه الساعة بذاتك.

فخرجا معاً في ليلتهما ليس معهما سوى عشرين رجلاً من خواصهما، فقدموا المدينة على حين غفلة من أهلها، لست عشر يوم التروية، فزار وصلّى بالروضة مفكراً، ولما رآه مدبراً، ففي ليلة صبح وصوله ارتعدت السماء، وأبرقت، وارتجت الأرض بأسرها، وكادت تزول الجبال الراسيات عن موضعها، فنادى مناديه أنّ الملك قد أتى إلى النبي ﷺ زائراً، وبخيراته على الكبير والصغير والغني والفقير جارياً، فالحذر ثم الحذر من التأخير.

فأتوه زمراً زمراً، وهو يحد النظر فيهم ثم يعطيهم حتى بلغ الكل، ولم يرَ فيهم الرجلين الأشقرين اللذين رآهما في المنام، فقال: هل بقي أحد ما أخذ شيئاً؟ فقال بعضهم: لم يبقَ أحد سوى رجلين صالحين صائمين الدهر، ملازمين الصلوات، مكثرين على المحاويج والخيرات، فأمر باتيانهما إليه، فلما مثلا بين يديه فإذا هما بتلك الصفة التي رآها في المنام، فدفع لهم شيئاً، فقالا: نحن على كفاية فسألهما فلم يصدقاه وأبعداه، فمضى إلى منزلهما فلم يرَ فيه غير مصحفين ومخلاتين للتراب، ودراهم لا تحصى وحصير، فرفعه فوجد تحته السرداب فارتاع ومن حوله فأساسهما أعظم سياسة، فاعترفا أنهما نصارى، وقد أرغبهما الملك والقسيس بكثرة الأموال، وبعثوهما في زي الحجاج لينقلا إليهم النبي ﷺ، فأساسهما ثانياً أشد من الأول، ثم ضرب عنقهما تحت الشباك الذي هو شرقي الحجرة الشريفة، ثم أمر بإحراقهما آخر النهار، وأمر بحفر خندق إلى ما حول الحجرة الشريفة، وأذاب

النحاس والحديد والرصاص وأجرا به حتى بلغ ارتفاعه على وجه الأرض»[١].

وسارت المدينة في عهد الأمير فضل في هدوء وسكينة بعد أن تمّ تجديد السور وحفر الخندق حولها، وقد أسهم هذا العمل في حفظ المدينة من الغارات المفاجئة من قبل الأعراب.

ولم تطل إمارة فضل، فقد كان ضعيف الجسم يشكو من مرض خفي، وما لبث أن ظهر عليه واشتد به وتوفي في السادس والعشرين من ذي القعدة سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م[٢].

مانع بن علي بن جمّاز الحسيني

مانع بن علي بن مسعود بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٣].

أمير المدينة المنورة سنة ٧٥٣-٧٥٩هـ/ ١٣٥٢-١٣٥٨م.

قال السيد ضامن فيه: «كان سيداً جليل القدر، ذا مرؤة عالية وشهامة، قد اجتمع آل جمّاز وسائر السادة الأشراف فقدّموه رئيساً عليهم، وأقاموه عليهم أميراً بعد الأمير فضل بن قاسم، وذلك لسادس عشر شهر ذي الحجة سنة ٧٥٣هـ، ثم وجّهوا أخاه مقبلاً بن جمّاز ومحمد بن مبارز إلى السلطان ملتمسين منه له التقليد والاستمرار، فأجابهم بالخلع والمراسيم إلى ذلك»[٤].

---

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٣٤٥-٣٤٦؛ ووفاء الوفاء: ج ٢ ص ٦٤٨-٦٥١؛ وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: ج ٣ ص ٣٧٦-٣٧٧.

(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٦.

(٣) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٩٤، وتاريخ ابن قاضي شهبة: م ٣ ج ٢ ص ١٤٠، والسلوك في معرفة الملوك: ج ٣ قسم ١ ص ٤٦..

(٤) تحفة لب اللباب: ص ٣٦٠.

وفي إمارته «كثرت الفتن، وترادفت عليه شدة المحن، وتتابعت عليه الغارات، وتزايدت به المصيبات»[١].

كان كثير التظاهر بالتشيع؛ يقول ابن قاضي شهبة: «ولي المدينة في ذي القعدة سنة ٧٥٣هـ، وكان أول مستضعفاً، ثم قويت شوكته، وساءت سيرته لا سيما من جهة عقيدته، فإنه تجاهر بالرفض، وآذى أهل السنة»[٢].

استقر في الحكم مدة خمس سنوات، وكان ابن عمه جمّاز بن منصور بن شيحة يحيك مؤامرة لانتزاع الإمارة منه ببراعة وسريّة شديدة، فسافر إلى مصر، واتصل بكبار المسؤولين حول السلطان، ونجح آخر الأمر في استصدار مرسوم بتعيينه أميراً على المدينة، وحمله وعاد به دون أن يشعر به أحد، وفاجأ الناس في ربيع الثاني سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م بالمرسوم الذي يحمله، وكان مانع مسالماً، فترك له الإمارة بهدوء.

جمّاز بن منصور بن جمّاز الحسيني

جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين ابن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

تولّى إمارة المدينة المنورة في ١١ ذي القعدة عام ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨.

قدم المدينة متولياً لها بمرسوم من السلطان في ربيع الثاني سنة ٧٥٩هـ، وكان ذلك على حين غفلة، فقد استقر في الإمرة بعد مانع بن علي في سنة ٧٥٩هـ.

ففرّ آل جمّاز من الأسوار والأبواب، ونادى جمّاز بعدم تتبعهم، ومنّ عليهم،

---

(١) تحفة لب اللباب: ص ٣٦٠.

(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ١٢١ رقم ١٤٤٠، وتاريخ ابن قاضي شهبة: م ٣ ص ج ٢ ص ١٤٠.

وعفا عنهم.

وخلافاً لما كان عليه مانع، كان جمّاز حاد المزاج، كثير المرض، يزداد عصبية في مرضه، فنفر منه معظم أقاربه، وقد أظهر تعصباً للإمامية منذ أول يوم من إمارته، فأعاد القضاء إليهم، وعيَّن عدداً منهم في المناصب العالية، وجرى في أحكامه على الشدة حتى خرج عن الحد[1].

يصف الفيروزآبادي دخوله المدينة فيقول: «وذكر لي الثقات أنّه لما وصل إليه التقليد والخلعة السلطاني توجّه إلى المدينة في جماعته وهم في صورة ركب حفيل إلى أن قربوا من باب المدينة، ونزلوا تحت القلعة ولم يتحقق الناس منون، وتفرقت الأوهام والظنون، فتوهّم بعض أنّه قافلة من الشام، وقيل: ركب من ينبع لحمل الزاد والطعام، ثم كُشف الحال وانجلى المستور، فإذا هم جماعة جمّاز بن منصور، متولِّياً للمدينة بمرسوم السلطان، ومعه القاضي تقي الدين الهُورِيني، وقد أُعيد إلى القضاء كما كان، ومعهم مرسوم بعزل عز الدين دينار، وتقليدٌ بولاية ياقوت المدعو بالافتخار، وتعجّب الناس من حلولهم فجأة قبل بلوغ خبر، ودخلوا المدينة في صبيحة الحادي عشر، وخرج آل جمّاز من المدينة تالين آية الفِرَار، سائحين على وجوههم هِزِّيمَى مَنْ دمه جُبَار، وتقوَّضوا فُلَّالاً متعلِّقين بالدروب مُتسلِّقين في الأسوار، فأراد الأمير جمّاز اتِّباعَهم بعسكره، فكبحته أريحيته عن ذلك، ومنعته حميّته في ذوي القربى عن سلوك تلك المسالك، فنادى في المدينة أن لا يتبعهم أحد في فِرارهم، ويُتركون سالمين ذاهبين إلى باديتهم ومحلِّ قَرارهم، ولا يتتبع رِجل إنسان لاقتفاء آثارهم، فخرجوا معفواً عنهم، مهوَّناً عليهم، ودرجوا إلى البراري عازمين على البداوة قانعين بما لديهم، واستقرَّ جمّاز في القلعة حاكماً»[2].

ويقول ابن فرحون: «ولما استقر الأمير جمّاز في المدينة جرى في أحكامه على الشدة، حتى خرج عن الحد، ودَانت له البادية والحاضرة، وكان خليقاً للملك،

---

(١) التحفة اللطيفة: ص ٤٢٧.

(٢) المغانم المطابة: ج ٣ ص ١١٨٦.

شهماً شجاعاً وافر الحرمة، عظيم الهيبة ظاهر الجبروت، هذا وغالب أيامه كان مريضاً، وكانت ولايته ثمانية أشهر وعشرة أيام، وقتل شهيداً في اليوم الحادي والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، قتله فداويان قدما مع الركب الشامي لذلك، وقتل وهو في أعز ما يكون وأنصاره بين يديه رافعون»[1].

وقال العماد الحنبلي، في حوادث ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م: «فيها توفي ضياء الدين محمد بن محمد بن سعيد بن عمر بن علي الهندي الصنعاني نزيل المدينة ثم مكة، الفاضل الحنفي صاحب الفنون.. وكان سبب تحوله من المدينة أنّه كان كثير المال، فطلب منه جمّاز أميرها شيئاً فامتنع فسجنه، ثم أفرج عنه فاتفق أنّهما اجتمعا بالمسجد فوقع من جمّاز كلام في حق أبي بكر وعمر ﵄، فكفّره الضياء، وقام من المجلس، فتغيب وتوصل إلى ينبع، واستجار بأميرها أبي الغيث، فأرسله إلى مصر فشنّع على جمّاز فأمر السلطان بقتله، فقتل في الموسم، فنهب آل جمّاز دار الضياء فتحوَّل إلى مكة، فتعصَّب له يلبغا فقرّر له درساً للحنفية في سنة ثلاث وستين، فاستمر مقيماً بمكة إلى أن مات، وكان عارفاً بالفقه والعربية شديد التعصب للحنفية كثير الوقيعة في الشافعية»[2].

وأما السخاوي فله تفصيل آخر في مقتل جمّاز، يقول فيه: «فبعد انتهاء مناسك الحج، ازدحمت المدينة بالزائرين، وكان بينهما رجلان أشقران جاءا مع الركب الشامي، هاجما الأمير وقتلاه غيلة وهو سائر بين حرسه، وحصل شغب كبير، وهاجم رجاله جموع الحجاج وغيرهم من الحاضرين ظناً منهم أنّهم متواطئون مع القاتلين، ودافع هؤلاء عن أنفسهم، وحصل اشتباك بالسلاح والأيدي، وقتل عدد من المتقاتلين، وأسرع حرس السور فأغلقوا الأبواب، وكان معظم الجيش القادم مع الركب معسكراً خارج السور، فأمر قائده بمهاجمة السور واقتحامه، وأضرموا النار في الأبواب التي وقفوا عليها واقتحموها ودخل الجيش المدينة وقبض على

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور: ص ٢٥٨.

(٢) شذرات الذهب: ج ٦ ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

القاتلين وتحفظ عليهما ليقتادهما إلى دمشق لمحاكمتهما[١].

ونسب السخاوي إلى سلطان مصر الناصر حسن بن قلاوون الذي حكم (٧٥٥-٧٦٢هـ/ ١٣٥٤-١٣٦١م) أنّه هو الذي بعث القاتلين إلى المدينة[٢].

بينما ذهب المقريزي إلى أنّ سبب قتله كان «كثرة تظاهره بمذهبه الشيعي وإساءته إلى أهل السنة، فلما قدم الحاج ولبس الخلعة على العادة، وثب فداويان فقتلاه في أواخر ذي الحجة»[٣].

وإلى هذا ذهب القلقشندي، حيث قال: «قتل بيد الفداوية أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون»[٤].

والذي يؤيد ذلك أنّ السلطان الناصر هو الذي أصدر مرسوم تعيينه لإمارة المدينة، وكان قادراً على إصدار مرسوم آخر بعزله، أو إرسال قوة بالقبض عليه واقتياده إلى القاهرة كما حدث للأمير طفيل بن منصور.

عطية بن منصور بن جمّاز الحسيني

عطية بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مُهنّا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في ١١ ذي القعدة سنة ٧٥٩-٧٧٣هـ/ ١٣٥٨-١٣٧٢م و سنة ٧٨٢-٧٨٣هـ/ ١٣٨٠-١٣٨١م.

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٧.
(٢) م.ن.
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٣ ص ٤٦.
(٤) صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٠٥.

الأمير الكبير، العادل، الورع، الزاهد، زين العابدين، وهو أخو زيّان، ونُعيْر اتفقوا عليه، بعد قتل أخيه جمّاز بن منصور، وذلك بإجماع الأعراب وهو غائب. وورد تقليده، وخلعته على يد أخيه نُعَيْر في يوم السبت ٨ ربيع الآخر سنة ٧٦٠هـ، وقُرئ على دكة المؤذنين.

ويقال لولده: آل عطيّة[١].

إمارته الأولى (٧٥٩-٧٧٣هـ/ ١٣٥٨-١٣٧٢م):

اجتمعت الأسرة بعد مقتل جمّاز، وبعد تداولٍ اختارت هبة بن جمّاز للإمارة، ولكنه رفضها. وعرضت على زيّان بن منصور أحد أخوة جمّاز، فاعتذر عن قبولها ما دام أخوه عطية على قيد الحياة، وذلك لفضل عطية وتدينه وزهده، وكان عطية مسافراً في البادية، فأجمع الحاضرون على توليته الإمارة دون أن يرجعوا إليه، وكتب المجتمعون رسالة إلى السلطان وأوفدوا أخاه نعير بن منصور إلى القاهرة ليقوم بالمهمة.

وسافر نعير إلى القاهرة وقابل السلطان، وأخّره السلطان شهراً كاملاً بانتظار ما ستنجلي عنه الأمور بعد مقتل جمّاز، وربما كان السلطان يريد أن يستوثق من عدم وجود منافس في الإمارة، وبعد شهر أصدر مرسوماً بتعيين عطية بن منصور أميراً على المدينة، وسلّمه لنعير مع الخلعة.

عاد نعير إلى المدينة في الثامن من ربيع الأول سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م، وكان عطية قد حضر المدينة وعلم بالأمر، فلبس الخلعة وقرأ مرسوم التولية في المسجد النبوي[٢].

عاشت المدينة المنورة فترة هدوء طويلة في ظل الأمير عطية، «فلم يزل في

---

(١) المستطابة في نسب سادات طابة: ص ٥٤؛ وزهرة المقول: ص ١٤٥.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٩٧ - ١٩٩.

ولايته ساعياً في مصالح المسلمين، راعياً للبلاد بالتطمين والتأمين، داعياً إلى الله بما يجب على كل مسلك بالتأمين، سائساً للمُلك سياسة مقطوعة العيوب، ماشياً بسيرة أحبابها شيئاً من سيرة بني أيوب، شيمته العبادة والصلاح، وطريقته التوجه إلى الله بالغدو والرواح، والأمسيات والصباح، مع الكراهية في النهي والأمر، والنزاهة عن القبض على الجمر، من تنكيد أو تشويش على زيد وعمرو، غير راغب في الدنيا ولا طالب، وهو مع الله بالقلب والقالب، يجلس في النادي، يجتمع عنده الحاضر والبادي، آخذ الصمت والسكوت، وشغل قلبه بما يصلح به منقلبه ومعاده، شيمته خشية الله، مع مراعاة النظر في مصالح الرعية وتدبير الملك بما جبل عليه من الغريزة الألمعية»[1].

وعمل الأمير عطية على القيام باصلاحات عديدة، منها:

١- إسقاط المكوس والعشور والجبايات الأخرى، التي كانت تؤخذ من الوافدين إلى المدينة ومن أهلها التجار والمزارعين، والتي تشكل الدخل الرئيسي للإمارة.

٢- طلب من السلطان الأشرف إعانة سنوية تغطي نفقات الإمارة، فأجابه الأشرف لذلك[2].

٣- لكي يدرأ الفتنة القائمة بين الشيعة والسنة، قرّر دروساً في المذاهب الأربعة في المسجد النبوي، وأعطى المدرسين نفقاتهم، وقرّر أرزاقاً للقرّاء ومدرسة للأيتام.

٤- أحكم القبة على الضريح النبوي الشريف وشرفات المسجد النبوي.

إضافة إلى كل ذلك كان الأمير عطية يعيش حياة زهد وتقشف، وينفق على

---

(١) م.س: ج ٣ ص ٢٠٠.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٩٨.

نفسه وعائلته من ماله الخاص[١]. وكان يُزكي أمواله، ويضبط المواريث والوصايا، وكان في منتهى الأمانة.

استمرت إمارة عطية بن منصور ثلاث عشرة سنة، وكان يكثر الغياب عن المدينة، وينيب عنه من أبنائه وأخوته من يراه صالحاً، وقد كان هذا سبباً رئيسياً لكي تكون إدارة الحكم بيد نوابه وكبار أعوانه. وقد سعى ابن أخيه هبة بن جمّاز بن منصور لتولي الإمارة مكانه، ونجح في استصدار مرسوم من السلطان الأشرف في شعبان سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م بعزله وتوليته مكانه، ولم يكن عطية حريصاً على الإمارة فسلّمها لابن أخيه راضياً[٢].

إمارته الثانية (٧٨٢-٧٨٣هـ/ ١٣٨٠-١٣٨١م):

عُزِلَ الأمير عطية عن الإمارة لابن أخيه هبة بن جمّاز بن منصور سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م، ولكن سرعان ما عادت الأسرة إلى ترشيحه مرة ثانية، وألحَّت عليه حتى قبل بها سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م. ولكن ما لبث أن مات في السنة التالية عام ٧٨٣هـ قبل أن يتم سنة في الإمارة.

وفي هذه السنة شحَّت الأمطار وأصيبت الحجاز عامة بقحط شديد وارتفعت الأسعار، وبلغت قيمة غرارة الدقيق أربعمائة درهم، وزادت عن ذلك في موسم الحج. وسيأتي تفصيل ذلك في إمارة جمّاز بن هبة بن جمّاز.

هبة بن جمّاز بن منصور الحسيني

هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن

---

(١) م.س: ج ٢ ص ٢١٩.

(٢) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: ج ٣ ص ٤٩٣.

جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في سنة ٧٧٣-٧٨٢هـ/ ١٣٧١-١٣٨٠م.

السؤال الذي يتبادر إلى ذهن أي باحث، ما هو سبب انتقال الإمارة من يد الأمير عطية بن منصور إلى هبة بن جمّاز؟

يجيب الفيروزآبادي على هذا التساؤل، ويقول: «كان سببُ ولايته انتقالَه إلى مذهب الإمام المطَّلِبي أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، فلمَّا علمت الدولة المصرية بذلك، سلكت في تقديمه وتعظيمه أحسن المسالك، واختاروه للولاية والتَّأمير، واصطفوه على كل شريفٍ وأمير، وأحمدوه في نقل مذهبه وروده الـمنهل العَذْب النمير.

فخلع السلطان عليه خِلعة مُنيفة، وقلَّده إمارة المدينة الشريفة، وجلّله من عواطفه وعوارفه بكل طريفة، فلما باشر الولاية نشر أعلام السنّة النبوية نَشْراً جميلاً، وبلّغ المجاورين أمانيّهم فيما كانوا يُرومونه تأميلاً، وحسن ما مهّده ابن عمه من المعدلة برفع قواعد السنّة تتميماً وتكميلاً، وطمس ترهات مسالك المبتدعة وبُنيَّات طُرقهم مِيلاً فَمِيلاً... ظَفِرت السنّة من البدعة بالانتصار، وحَسُن الزمان به إلى أن صار كما في عصر الأنصار، فالسلطان شافعي، والقاضي شافعي، وشيخ خدّام الحرم شافعي، وهذا مما لم يُعهد في عصرٍ من الأعصار»[1].

مكث هبة بن جمّاز بن منصور تسع سنوات في الإمارة، كان في أولها حسن السيرة ولكنه أساء في آخرها، وأعاد المكوس والجبايات، وكثرت الشكاوى منه، فقبض عليه أمير الحج في مكة، وأخذه إلى مصر، حيث سجن مدة من الزمن ثم أطلق سراحه وعاد إلى المدينة ومات فيها.

(١) المغانم المطابة: ج ٣ ص ١٣١١.

جمّاز بن هبة بن جمّاز الحسيني

جمّاز بن هبة بن جمّاز بن منصور ابن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنّا بن الحسين بن مهنّا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في ذي القعدة سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م.

ففي سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م شحَّت الأمطار، وأصيبت الحجاز عامة بقحط شديد، وارتفعت الأسعار، وبلغت قيمة غرارة الدقيق أربعمائة درهم، وزادت عن ذلك في موسم الحج[١].

يقول ابن فهد المكّي: «وحصل بالحرمين وغيرهما من بلاد الحجاز في آخر هذه السنة قحط عظيم، ومات كثير من الأشراف وغيرهم جوعاً، وأكلت الجلود»[٢].

ثم جاء الفرج في السنة التالية ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، فوصلت بعض القوافل من مصر واليمن، ووصلت عطية السلطان برقوق التي كان يبعثها كل سنة من القمح، وصار يخبز ثمانية آلاف رغيف يومياً وتوزع على المدينة، كما وزعت ألف وخمسمائة أردب من القمح، فانفرجت الغمة وانخفضت الأسعار[٣].

وكان الأمير عطية بن منصور أمير المدينة يُنيب أخاه نعيراً في الإمارة عندما يغيب عنها، وفي أواخر حياته كان نعير يدير شؤون الإمارة، وعندما مات عطية استولى نعير على الإمارة، وأرسل إلى السلطان في مصر يطلب تثبيته فيها، غير أنّ فرداً آخر في العائلة، هو جمّاز بن هبة بن جمّاز، سارع في السفر إلى مصر، وكانت السلطنة قد تحولت من يد المماليك الأتراك إلى المماليك الشراكسة،

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٣ ص ٤٦٠.

(٢) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٣٣٧.

(٣) النجوم الزاهرة: ج ١٢ ص ١٠٩.

واستولى السلطان برقوق الشركسي على السلطة ولم يكن على دراية بأمور الأسرة في المدينة المنورة، لذا عندما وفد عليه جمّاز استقبله، واستجاب لطلبه، وأصدر مرسوماً بتعيينه أميراً على المدينة، وعاد مع الركب القادم لموسم الحج في ذي القعدة سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨٢م.

علم نعير بخبر المرسوم، فقرّر مقاومة جمّاز والاحتفاظ بالإمارة، وجمع رجاله وخرج لملاقاته خارج المدينة. وكان مع جمّاز عدد من الرجال، ونشبت معركة بين الطرفين، واستطاع أصحاب جمّاز أن يصل إلى نعير ويطعنه، فانخذل أصحابه، وحملوه، وانسحبوا به إلى داخل المدينة، وأغلقوا أبواب السور، فحاصرهم جمّاز ومن معه، ولما غابت الشمس أمر جمّاز أصحابه بإحراق باب السور، فاشتعلت فيه النار حتى احترق تماماً واقتحمه جمّاز ورجاله ودخلوا المدينة حيث كان نعير يحتضر وما لبث أن مات في اليوم التالي، فأطلق جمّاز منادياً في الشوارع والأسواق يعلن الأمان للناس، وقرئ مرسوم تعيينه على منبر المسجد النبوي(١).

وفي فترة إمارته يشير ابن فهد المكّي إلى حادثة شنيعة حصلت في عهده؛ وهو الاعتداء على بعض كنوز المسجد النبوي الشريف؛ وذلك «أنّ جمّازاً أرسل إلى الخدام بالمسجد النبوي يستدعيهم؛ فامتنعوا، فأتى المسجد وأخذ ستارتي باب الحجرة النبوية، وطلب من الطواشية خدّام المسجد المصالحة عن حاصل القبة بتسعة آلاف درهم؛ فأبوا ذلك، فطلب مفاتيح الحاصل من قاضي المدينة زين الدين بن أبي بكر بن الحسين المراغي، فمانعه، فأهانه، وأخذها منه، وأتى إلى القبة، وضرب شيخ الخدّام بيده وألقاه على الأرض، وكسر الأقفال ودخلها ومعه جماعة، فأخذ ما هناك. فمن ذلك: إحدى عشرة حوائج خاناة، وصندوقان كبيران، وصندوق صغير فيها ذهب من ودائع ملوك العراق وغيرهم. وأخرج خمسة آلاف شقة بطاين معدّة لأكفان الموتى، فنقل ذلك كله. وهمّ أحد بني عمه بأخذ قناديل الحجرة الشريفة، فمنعه، وأخذ آخر بسط الروضة الشريفة؛ فأمره جمّاز بردِّها، وصادر بعض

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٧ - ٤٢٨، والعقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٨.

الخدّام، ثم خرج من الغد حادي عشره راحلاً. فقصد العرب المجتمعة الرجوع فرماهم الناس بالحجارة.. »[١].

لقد عادت المدينة إلى مرحلة الصراع على الإمارة، واتسمت هذه المرة بسمة جديدة؛ هي خروج الأمير الجديد من السلطة ثم عودته ثلاث مرات على الأقل، وهذا ما لم يحدث من قبل. ورغم أنّ الفترة التي أمسك فيها جمّاز زمام السلطة طويلة ومتقطعة ومشحونة بالأحداث، فإنّ كتب التاريخ بما يشبه الإشارة والغموض يصعب على الباحث فك طلاسمه أحياناً.

فقد عاصر جمّاز عدداً من الطامعين بالإمارة، وسعى بعضهم إلى استصدار مرسوم بانتزاعها منه أو إشراكه معه، وقاتله بعضهم. وكان للسلطة المركزية في مصر موقف ضعيف أسهم في الصراع بين أفراد الأسرة الواحدة.

فبعد أقل من سنتين من تسلم جمّاز الإمارة، استطاع ابن عمّ أبيه محمد بن عطية بن منصور أن يستصدر من السلطان برقوق مرسوماً باشراكه في إمارة جمّاز، فأذعن جمّاز أول الأمر، وأشركه معه في الإمارة، ولكنه أخذ يكيد له، حتى أحاط به وطرده من إمارة المدينة، فذهب محمد بن عطية إلى السلطان برقوق بمصر، وشكا له عصيان جمّاز وسوء معاملته، فغضب السلطان برقوق وأصدر مرسوماً بعزل جمّاز بن هبة وتعيين محمد بن عطية في سنة ٧٨٧هـ، وأرسله مع الركب المصري فاستطاع أن يخرج جمّازاً وسلّم الإمارة لمحمد بن عطية.

وفي هذه السنة أخصبت الأرض، وأنتجت غلالاً وفيرة، ورخصت الأسعار وأرسل بعض الأمراء قمحاً كثيراً إلى مكة والمدينة[٢]. و«أرسل الأمير جركس الخليلي قمحاً كثيراً إلى الحرمين؛ ليعمل منه في كل يوم بمكة خمسمائة رغيف، وبالمدينة في كل يوم خمسمائة رغيف تُفرق في السُّؤال ونحوهم من الفقراء،

---

(١) اتحاف الورى بأخبار أم القرى: ج ٣ ص ٤٦٣.
(٢) نزهة النفوس: ج ١ ص ١٢٤.

وألّاض يُقرر منها لأحد راتب، بل يأخذ من حضر، ولا مراعاة لأحد في التفرقة، فعمَّ النفع بها »[١].

غير أنّ الأمير الجديد لم يلبث في الحكم إلا بضعة أشهر؛ إذ توفي في جمادى الأولى سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م، فحاول أخوه علي بن عطية أن يستأثر بالحكم، ولكن جمّازاً كان يتحين الفرصة فهاجم المدينة، وقاتل علي بن عطية ورجاله وتغلب عليه وطرده، وأصيب جمّاز بجراحات وكسرت رجله، ثم أرسل إلى السلطان يسترضيه ويستصدر مرسوماً بتعيينه، وتمّ له ذلك في العام نفسه[٢].

وكان لهذه الأحداث المتوالية أثر سيء على الأمن والاستقرار، مما جعل البعض يجد الفرصة السانحة للإغارة على المدينة وضواحيها للنهب والسلب، وكان بعض الأشراف قد سكنوا في ريف المدينة، وبنوا حصوناً خاصة بهم، وفسدت أخلاق بعضهم، وصاروا يغيرون على القوافل والمسافرين وعلى المدينة إن سنحت لهم الفرصة، وكان منهم: هيازع بن هبة، شقيق الأمير جمّاز نفسه، وعلي بن عطية بن منصور شقيق محمد بن عطية الأمير السابق.

وقد بلغت الجرأة بهيازع أنّه تعرض للركب المصري، فقبض عليه الجنود المرافقون للركب، وأخذوه موثوقاً إلى القاهرة، حيث عُذّب ثم نقل إلى سجن الاسكندرية ومات فيه بعد سنتين سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م.

وأما علي بن عطية فقد استطاع أن يستولي على المدينة في ربيع الآخر سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، وكان جمّاز غائباً عن المدينة، فنهب علي ممتلكاته وقتل بعض رجاله وهرب[٣].

وجاء الخبر إلى السلطان برقوق، فأدرك أنّ جمّازاً لن يستطيع توفير الأمن

(١) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٣٤٨، والسلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٣ ص ٥٣٦.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٢٤١، والعقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٩.
(٣) السلوك: ج ٣ ص ٥٦٢.

في المدينة، وأنّه كثير الخصومات لذلك قرر أن يعزله ويعيّن أميراً آخر هو ثابت بن نعير بن جمّاز، وكان ثابت قد احتجز في مصر مع بعض الأشراف، فأطلق سراحه وأصدر مرسوماً بتعيينه أميراً على المدينة[١].

ولم يألوا جمّاز جهداً لاستعادة الإمارة بشتى الطرق، وقبيل انتهاء العقد الأخير من القرن الثامن تكررت هجمات جمّاز على المدينة، فشكا الأمير ثابت بن نعير ذلك إلى السلطان برقوق، فأمر برقوق أمير الركب المصري بالقبض عليه وإحضاره إلى مصر، واستطاع أمير الركب الإمساك به في موسم ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م، وأخذه موثوقاً إلى القاهرة حيث سجن فيها سبع سنوات متوالية[٢].

وما إن انتهت السنوات السبع حتى أمر السلطان بإطلاق سراحه، وأعاده إلى الإمارة سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م[٣].

عمل جمّاز على مخالفة ثابت واسترضاء السلطان وأهل المدينة، فتودَّد إلى أهل السنّة، وأحسن معاملتهم، ومنع الاعتداء عليهم، وعاقب كل من يهددهم أو يسيء إليهم، فسرَّ به أهل السنّة، وعاد قضاة المذاهب السنّية إلى ممارسة القضاء[٤].

ولكنّ الأمير السابق ثابت بن نعير لم يستسلم لهذه الهزيمة، فسافر إلى مصر لاستعادة الإمارة، وكان خلال مدة إمارته الطويلة قد ارتبط بصداقات وعلاقات حسنة مع عدد من رجال الدولة، فلجأ إلى أصدقائه، واجتهد هؤلاء في التوسط له عند السلطان فرج، ونجحوا بعد شهور قليلة في إقناعه بإعادته إلى الإمارة وعزل جمّاز، وأصدر مرسوماً بذلك، فرجع به ثابت وتسلم الإمارة من جمّاز في العام نفسه.

---

(١) السلوك: ج ٣ ص ٥٦٢.
(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٩٣.
(٣) نزهة النفوس: ج ٢ ص ١٧٣؛ والسلوك: ج ٣ ص ١٠٩٧.
(٤) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٩.

أصبحت المنازلة بين جمّاز وثابت دبلوماسية؛ تتوقف الغلبة فيها على حسن التوسط لدى السلطان، ولم يلجأ جمّاز هذه المرة إلى القوة والقتال، كما كان يفعل من قبل، وسار في الطريق الذي سار فيه ثابت، فعاد إلى مصر، واجتهد في التوسط ثانية لإقناع السلطان بأنّه الأجدر بالإمارة، غير أنّ أنصار الأمير ثابت كانوا من القوة بحيث مكث جمّاز يتردد على أبواب السلطان مدة طويلة دون أن يستجاب له.

غير أنّ جمّاز نجح في استعادة الإمارة ثانية عام ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م.

وبعد تسلم جمّاز الإمارة، جاء حسن بن عجلان أمير مكة إلى المدينة المنورة زائراً، وخشي جمّاز أن يكون قدومه انتصاراً لخصمه أو لمحاربته، فاستعدَّ لذلك، وخاف أهل المدينة واحتاطوا. غير أنّ حسن بن عجلان أرسل إلى ثابت يطمئنه إلى سلامة نيته وعدم تفكيره في أية مجابهة وأقام حسن عدة أيام في المدينة، وتزوج موزة بنت عجلان بن نعير، وهي بنت أخي ثابت، وعاد بها إلى مكة فاطمأن جمّاز[1].

تأثر جمّاز بالصراع المتوالي على الإمارة، وخطط لتقوية نفسه ورجاله، ولم تكن الظروف الاقتصادية في المدينة تساعده على ذلك، فدَخْلُ الإمارة محدود والمساعدات الواردة من مصر تُنفق على المصروفات الإدارية والفقراء، لذلك أعاد بعض المكوس والجبايات، ومصادرة بعض الأثرياء[2]، وتغيرت نظرة الناس إليه، وبدؤوا بالشكوى منه، ووجد خصوم جمّاز في هذه الحالة فرصة سانحة؛ فعملوا على استصدار مرسوم سلطاني من مصر بعزله.

لقد كانت هذه المشاكل الدائرة في إمارتي المدينة ومكة والصراع الدائر بين أفراد الأسرة الواحدة كفيلة بأنّ يراجع السلطان الناصر فرج سلطان مصر أموره بدقة، وأخيراً رأى أنّ المصلحة تقتضي بأن يولِّي الشريف حسن بن عجلان أمير مكة «نيابة السلطنة للأقطار الحجازية في العشر الأوسط من ربيع الأول»[3] سنة

(١) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤٥١.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤٣٩.
(٣) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٦٢.

٨١١هـ/ ١٤٠٨م، وقد نجح الشريف حسن بن عجلان في مهمته نجاحاً كبيراً، دفع السلطان إلى أن يكلفه بالإشراف على إمارتي المدينة وينبع ومتابعة أعمال أميريهما(١).

وعندما كثرت الشكاوى من جمّاز بن هبة قرَّر حسن بن عجلان عزله وإعادة عم زوجته الجديدة ثابت بن نعير، فأرسل إلى السلطان الناصر فرج يسأله اصدار مرسوم بذلك. فاستجاب له السلطان لثقته الكبيرة به، وأرسل مع البريد مرسوماً يفوّضه فيه بتعيين أمير المدينة وفقاً للصلاحيات التي منحه إياها في المرسوم السابق. وقبل أن يخرج البريد من مكة بأمر تعيين ثابت توفي ثابت، فقرَّر حسن تعيين شقيق ثابت عجلان بن نعير أميراً على المدينة، فاستدعاه إلى مكة، وفوَّض إليه إمرة المدينة في آخر ربيع الآخر سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م(٢).

علم جمّاز بما حدث، وأدرك أنه لن يستطيع أن يستعيد الإمارة بالطرق الدبلوماسية؛ فنفوذ حسن بن عجلان عند السلطان الناصر فرج في مصر كبيرة، ولن يستطيع مزاحمة آل نعير عند حسن بن عجلان؛ لأنهم أرحامه ولكثرة الشكاوى منه، لذلك قرر إعلان التمرد والعصيان، ومقاومة عزله، وفرض نفسه على الإمارة بالقوة.

علم الأمير حسن بن عجلان بتمرد جمّاز ورفضه ترك الإمارة، وبلغه بتجهيز الرجال للمقاومة، فكتب إليه السيد حسن يقول: اخرج بسلام وإلاّ فأنا قاصدك. فأظهر جمّاز الطاعة.

ثم إنّ جمّازاً أرسل إلى الخدّام بالمسجد النبوي يستدعيهم، فامتنعوا، فأتى المسجد وأخذ ستارتي باب الحجرة النبوية، وطلب من الطوَّاشية خُدَّام المسجد المصالحة عن حاصل القبة بتسعة آلاف درهم، فأبوا ذلك، فطلب مفاتيح الحاصل

---

(١) تاريخ مكة: ص ٢٩٠.
(٢) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٦٣.

من قاضي المدينة زين الدين بن أبي بكر بن الحسين المراغي، فمانعه، فأهانه وأخذها منه، وأتى إلى القبة، وضرب شيخ الخدام بيده وألقاه على الأرض، وكسر الأقفال ودخلها ومعه جماعة، فأخذ ما هناك.. وهي كالتالي: إحدى عشرة حوائج خاناه، وصندوق كبيران، وصندوق صغير فيها ذهب من ودائع ملوك العراق وغيرهم. وأخرج خمسة آلاف شقة بطاين معدة لأكفان الموتى، فنقل ذلك كله. وهمّ أحد بني عمه بأخذ قناديل الحجرة الشريفة، فمنعه، وأخذ آخر بسط الروضة الشريفة، فأمره جمّاز بردها، وصادر بعض الخدّام، ثم خرج من الغد حادي عشرة راحلاً. فقصد العربُ المجتمعةُ الرجوعَ فرماهم الناس بالحجارة.

وجهَّز السيد حسن إلى المدينة الشريفة عسكراً مع ابنه السيد أحمد بن حسن على طريق الجادة، والسيد عجلان بن نعير من مكة إلى المدينة على طريق الشرق؛ ليضم إليه جماعة ويسير بهم إلى المدينة، فدخلها عجلان في تاسع عشر جمادى الأولى ومعه آل منصور - بعد خروج جمّاز بن هبة منها بأيام - فنودي بالأمان.

ومن الغد قدم العسكر من مكة مع السيد أحمد بن حسن، وهم مائتان وستون ما بين فارس وراجل، واثنان وعشرون مملوكاً، وبصحبتهم رضي الدين أبو حامد محمد بن عبد الرحمن المطري متولياً لقضاء المدينة الشريفة من قبل السلطان، قدم من القاهرة بولايته؛ فقرأ توقيعه بعد توقيع السيد حسن بن عجلان، وتضمن استقراره في سلطنة المدينة وينبع وخُلَيْص والصفراء وأعمالها، وقرأ بعده مرسوماً آخر باستقرار الشريف نابت وتسليمه المدينة، وايقاع الحوطة على الشريف جمّاز، وما تحت يده من ناطق وصامت.

وقُرأ توقيع من جهة الشريف باستنباته الشريف عجلان بن نعير على المدينة. ثم تبع طائفة من العسكر جمّاز بن هبة فلم يدركوه، فتوجه العسكر بعد أيام من المدينة عائداً إلى مكة.

ووصل السيد عجلان بأثر قدومه إلى المدينة توقيع من صاحب مصر بإمرة

المدينة عوض أخيه نابت، بحكم وفاته وأنّه شَرَطَ رضا السيد حسن بن عجلان بذلك. ولما دخل السيد عجلان إلى المدينة صار الخطيب بها يدعو له على المنبر في الخطبة وبعد المغرب على سدّة المؤذِّنين إلى أن زالت ولاية عجلان في النصف الثاني من ذي القعدة في السنة بعد اللاحقة[١].

واستمر- على صِغر سنّهِ- اثنتي عشرة، وما خرج منها حتى نهب ما في القبة من حاصل الحرم، وولي في سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م شرط أن يعيد ما نهبه، وولي قضاء المدينة جمال الدين بن محمد بن عبد الله الكازروني[٢].

قتل جمّاز في سنة ٨١٢هـ في جمادى الآخرة من قبل مُطيريّ بالفلاة، وهو في عشر الستين، وقد ولي المدينة ثلاث مرات[٣]، وقد اشترك أمير مكة الشريف حسن بن عجلان في إقالة المذكور عن إمارة المدينة، وتولية الشريف ثابت بن نعير، حيث كان ابن عجلان أميراً على الحجاز كله[٤].

ثابت بن نعير بن جمّاز الحسيني

ثابت بن نعير بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن هاشم بن قاسم بن مهنّا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله ابن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.. عز الدين، أبو قيس.

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م وما بعدها[٥].

(١) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٦٣ - ٤٦٥، والسلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٤ ص ٧٥.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٧، والسلوك: ج ٣ ق ١ ص ٧٥، والنجوم الزاهرة: ج ١٣ ص ٨٨.
(٣) السلوك: ج ٤ ق ١ ص ١٢٩، وذيل الدرر الكامنة: ص ٢٠٦ رقم ٤٣٢.
(٤) السلوك: ج ١ ق ١ ص ٧٥.
(٥) السلوك: ج ١ ق ١ ص ١٩، والمنهل الصافي: ج ٤ ص ١٨٥، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٩٦ رقم ٧٠٣.

ولي المدينة في سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، وعزل عنها بجمّاز سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م، ثم أعيد بعد صرف جمّاز بن هبة ورسم باقتتالهما، فمن غلب فهو الأمير، فاقتتلا في ذي القعدة سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م، فغلب جمّاز، واستولى على المدينة، ومات ثابت سنة ٨١١هـ في صفر/ ١٤٠٨م[١].

وكان يظهر الرفض، ويتعصب على أهل السنُّة كما يقال[٢].

استطاع ثابت أن يدير شؤون الإمارة ويقبض عليها بحزم، وتتبع عدداً من رجال جمّاز وسجنهم، واستعان بالأشرف برساي، فأرسل الأشرف قوة مسلحة بقيادة بكتمر السعدي لتقوية أميرها.

امتدت أيام ثابت بن نعير فقد وجاوزت خمس عشرة سنة، شهدت فيها المدينة استقراراً سياسياً عاماً، ولكن هذا الاستقرار لم يخل من الاضطرابات المتقطعة.

وكان المصدر الأكبر لهذه الاضطرابات الأمير السابق جمّاز الذي خرج إلى عُربانه في ريف المدينة، وأخذ يتحيّن الفرص للانقضاض عليها، وكان لجمّاز حصن بعيد عن المدينة يقيم فيه، وقد حاول غير مرة القضاء على الأمير ثابت بن نعير أو طرده من الإمارة، أو انتهاز فرصة غيابه للاستيلاء على المدينة، ولكنه كان يفشل في كل مرة.

وكانت أعنف محاولة وأقربها للنجاح سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م، حيث حشد جمعاً غفيراً من الأعوان والمناصرين، وزحف بهم إلى المدينة وحاصرها، وكاد أن يقتحمها، ولكن ثابت بن نعير خرج له برجاله، وحدث قتال عنيف سقط فيه عدد من الضحايا من الطرفين، وهزم جمّاز وارتد إلى حصنه.

كان لجمّاز أنصار من أهل المدينة يساعدونه بطرق شتى لاستعادة الإمارة، وكان لبعضهم وجاهة وصداقات مع كبار المسؤولين في مصر.

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٩٦ رقم ٧٠٣.
(٢) ذيل الدرر الكامنة: ص ١٩٥ رقم ٣١٥.

يذكر المؤرخ السخاوي أنّ من جملة أنصاره محمد بن أحمد، الذي كان يسعى في القاهرة لخلع الأمير ثابت بن نعير ويتولّى جمّاز، وقد علم الأمير ثابت بجهود محمد بن أحمد ووساطته، وخطط للتخلص منه، فانتهز فرصة سفره إلى القاهرة، وبعث وراءه مجموعة من رجاله اعترضوه في الطريق وعذَّبوه عذاباً فظيعاً، ثم قتلوه[١].

وقبيل انتهاء العقد الأخير من القرن الثامن تكررت هجمات جمّاز على المدينة، فشكا الأمير ثابت بن نعير ذلك إلى السلطان برقوق، فأمر برقوق أميرَ الركب المصري بالقبض عليه وإحضاره إلى مصر، واستطاع أمير الركب الإمساك به في موسم سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م، وأخذه موثوقاً إلى القاهرة حيث سجن فيها سبع سنوات متوالية[٢].

دخول القرن التاسع:

بعد القبض على جمّاز وسجنه في مصر، لم يجرؤ أحد من منافسي الأمير ثابت بن نعير على إثارة شيء من القلاقل والفتن، وقد أقام الأمير ثابت علاقة حسنة مع آل عجلان أمراء مكة المكرمة، ففي سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م «في تاسع صفر توجه السيد حسن بن عجلان إلى المدينة المنورة زائراً لجدِّه المصطفى ﷺ على طريق الشرق، في مائة راحلة ومائتي جمل وستين فرساً وثلاثمائة رجل»[٣]، وكان لهذا الاستقبال أثره في نفس حسن بن عجلان، كما أسلفنا.

وكذلك أحسن ثابت التعامل مع سلاطين مصر من المماليك، وقد عاصر خلال إمارته هذه ثلاثة سلاطين هم: الصالح حاجي، والظاهر برقوق، والناصر فرج، ولم تحدث مشكلات مع وفود السلاطين وقوافل الحجاج.

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٦٧١.
(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٩٣.
(٣) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٢٢.

وكان الأمير ثابت قد أوعز القضاء إلى القاضي السني الذي يعينه السلطان من مصر، إلاّ أنّه أعاد القضاء إلى القاضي الشيعي في أواخر أيام حكمه، وبدت منه تصرفات أدَّت إلى الشكوى عليه عند السلطان المملوكي سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م، وأمر السلطان بإطلاق سراح أمير المدينة السابق جمّاز بن هبة، وأعاده إلى الإمارة[١].

توجه جمّاز بن هبة إلى المدينة بعد أن أمضى سبع سنوات في السجن، وتسلم الإمارة من ثابت بن نعير، وعمل على مخالفة ثابت، واسترضاه السلطان وأهل المدينة، فتودَّد إلى أهل السنّة، وأحسن معاملتهم، ومنع الاعتداء عليهم وعاقب كل من يهددهم أو يسيء إليهم، فسرّ به أهل السنة، وعاد قضاة المذاهب السنية إلى ممارسة القضاء[٢].

ولم يستسلم الأمير السابق ثابت بن نعير لهذه الهزيمة، فسافر إلى مصر لاستعادة الإمارة، وكان خلال مدة إمارته الطويلة قد ارتبط بصداقات وعلاقات حسنة مع عدد من رجال الدولة، فلجأ إلى أصدقائه، واجتهد هؤلاء في التوسط له عند السلطان فرج، ونجحوا بعد شهور قليلة في إقناعه بإعادته إلى الإمارة وعزل جمّاز، وأصدر مرسوماً بذلك، فرجع به ثابت وتسلم الإمارة من جمّاز في العام نفسه.

ولم يلجأ جمّاز هذه المرة إلى القوة والقتال - كما كان يفعل من قبل - فعاد إلى مصر، واجتهد في التوسط ثانية لإقناع السلطان بأنّه الأجدر بالإمارة، غير أنّ أنصار الأمير ثابت كانوا من القوة بحيث مكث جمّاز يتردد على أبواب السلطان مدة طويلة دون أن يستجاب له.

ونتوقع أن يكون الأمير ثابت قد أحسن السيرة مدة ولايته الثانية كي لا تتكرر الشكاوى منه، فلم يذكر أحد أنّ أهل السنّة قد تضايقوا منه بعد عودته إلى الإمارة.

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٣ ص ١٩٧.
(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٩.



القرن التاسع....

عجلان بن نعير بن جمّاز الحسيني

عجلان بن نعير بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة ابن هاشم بن قاسم ابن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن قاسم ابن عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر ابن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة، كنائب عن حسن بن عجلان أمير الحجاز في سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م؛ فوّض إليه أمر المدينة المنورة في آخر ربيع الآخر سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م، وجهّزه على رأس جيش كبير لمحاربة جمّاز ورجاله الذين يتحينون الفرصة للهجوم على المدينة. فأمر حسن بن عجلان الجيش أن يسيروا في الطريق الذي يدخل المدينة من شرقها، وأن يستنهضوا في الطريق بعض أنصارهم من القاطنين في الريف، وسيّر ابنه أحمد على رأس مجموعة أخرى سلكت الطريق الرئيسي المعتاد، فوصل ابن عجلان أولاً في التاسع عشر من جمادى الأولى ومعه آل منصور، ونشر الرجال في أنحاء المدينة ونادى بالأومان، وفي اليوم التالي وصل أحمد بن حسن بن عجلان على رأس المجموعة الثانية، ولم يلتق أحد من الفريقين

بجمّاز. فقد توارى جمّاز في بعض القرى، وأرسل عجلان بن نعير مجموعة من الجند للبحث عنه، فساروا أياماً ولم يهتدوا إليه وعادوا إلى المدينة[١].

شرع عجلان بن نعير في ترتيب الإمارة وإعادة الأمن إلى المدينة، وجمع أعيان المدينة، وكتبوا محضراً بما فعله جمّاز، وذكروا فيه تفصيل المسروقات، وقد اطلع السمهودي على المحضر ونقل خلاصته، قال:

«والذي رأيته في محضر عليه خطوط غالب أعيان المدينة الشريفة ما حاصله: أنّ جمّاز بن هبة المذكور كان أمير المدينة، فبرزت المراسيم الشريفة بتولية ثابت بن نعير إمرة المدينة، وأن يكون النظر في جميع الحجاز لحسن بن عجلان، ولم يصل الخبر بذلك إلا بعد وفاة ثابت بن نعير، فأظهر جمّاز بن هبة الخلاف والعصيان، وجمع جموعاً من المفسدين، وأباح نهب بعض بيوت المدينة، ثم حضر مع جماعة إلى المسجد الشريف، وأهان مَن حضر معه من القضاة والمشايخ وشيخ الخدّام باليد واللسان، وشهر سيفه عليهم، وكسر باب القبة حاصل الحرم الشريف، وأخذ جميع ما فيها من قناديل الذهب والفضة التي تُحمل على تعاقب السنين من سائر الآفاق تقرباً إلى الله ورسوله، وأشياء نفيسة، وختمات شريفة، وزيت المصابيح، وشموع التراويح، وأكفان، ودراهم يواري بها الطرحاء، وقطع مكاتيب الأوقاف وغَسَلها، وقصد الحجرة الشريفة، وأحضر السلم لإنزال كسوة الضريح الشريف والقناديل المعلّقة حوله، فلم يُقدّر له ذلك، ومنعه الله منه، وأخذ ستر أبواب الحجرة الشريفة من خزانة الخدام، وتعطل في ذلك اليوم وليلته والذي يليها المسجد الشريف من الأذان والإقامة والجماعة، وأخذ جماعته وأقاربه في نهب بيوت الناس ومصادرتهم، وأخذ الجمال السواني، وارتحل هارباً عقب ذلك، ولما اتصل بحسن بن عجلان ما فوض إليه من أمر الحجاز استدعى بعجلان بن نعير وأقامه في إمرة المدينة، وعرفه ما برزت به المراسيم أولاً في ولاية أخيه، انتهى»[٢].

---

(١) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٦٣؛ والعقد الثمين: ج ٤ ص ١٠٥-١٠٦.
(٢) وفاء الوفاء: ج ٢ ص ٥٨٥ - ٥٨٦.

وقُرئ المحضر على الناس في المسجد النبوي مرسوم السلطان بإسناد الإشراف على المدينة لأمير مكة حسن بن عجلان، ومن ثم تبعية المدينة وأميرها لإمارة مكة، وقُرئ أيضاً قرار حسن بن عجلان بتعيين عجلان بن نعير أميراً على المدينة(١)، كما قُرئ قرار بالقبض على جمّاز والتحفظ على أمواله وممتلكاته.

استتبت الأمور بعد فترة بسيطة، وأصبحت حادثة جمّاز ذكرى مؤلمة في ذاكرة الناس، واستطاع رجال عجلان بن نعير أن يتعقبوا بعض أقارب جمّاز الذي خبأ عندهم السارقون بعض المسروقات، واستعادوها، ويذكر السمهودي أنّ كثيراً من المسروقات لم يُعلم مكانه بعد مقتل جمّاز وموت من شاركه(٢).

وعاد الجيش الذي قدم من مكة بعد أن رتّب عجلان بن نعير رجاله وإمارته، وصارت إمارة المدينة تابعة اسماً لإمارة مكة، حيث يُذكر على المنابر اسم السلطان في مصر أولاً، ثم الأمير حسن بن عجلان، ثم أمير المدينة عجلان بن نعير، كما يُدعى لهم كلَّ يوم بعد صلاة المغرب على سدّة المؤذّنين، وقد وصل قاضٍ جديد أرسله السلطان، وقرأ مرسوم تعيينه وبدأ عمله في المدينة(٣).

أما جمّاز فلم يجرؤ على العودة إلى المدينة، ولم ينعم بما سرقه، وقُتل في جمادى الآخرة سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م في الفلاة؛ صادفه بعض خصومه السابقين، وكان في قلّة من الرجال، فاشتبك معهم فقتلوه، وقيل إنّ بعض عرب مطير قتلوه بعد أن بيّتوه عندهم وهو نائم(٤).

واشتد عجلان بن نعير على آل جمّاز أملاً في أن يجد عندهم بقية المسروقات، وغضب آل جمّاز لذلك، فلم يكونوا جميعهم مشاركين في تلك الجريمة، وخرج

(١) كان التعيين من قبل السلطان الناصر فرج، وربط تعيينه بموافقة حسن بن عجلان. (إتحاف الورى: ج ٣ ص ٥٨٦).
(٢) وفاء الوفاء: ج ٢ ص ٥٨٦.
(٣) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٤٦٤.
(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٤ ص ١٢٩ - ١٣٠، ووفاء الوفاء: ج ٢ ص ٥٨٦ - ٥٨٧.

بعضهم من المدينة ولحق بجمّاز قبل قتله، وقصد آخرون أقاربهم في مناطق أخرى، وبدؤوا يعدّون العدّة للانتقام من عجلان بن نعير، ولم يحسن عجلان تقوية سلطته ورجاله، وبدرت منه بعض الأخطاء، فاجتهدوا على أن يتخلصوا منه.

وبعد مقتل جمّاز عمد أقرباؤه إلى التخلص من عجلان بدهاء ومكر؛ فانتظروا قدوم مواكب الحج، واستطاعوا أن يقنعوا بيسق أمير الحج المصري، بأنّ عجلان بن نعير غير جدير بالإمارة، وأنّه ظلمهم ظلماً شديداً، وحصلوا على موافقته لطرده من الإمارة، وعلى إشارة منه إلى أمير الحج الشامي بمساعدتهم، فلمّا وصل أمير الحج الشامي في ذي القعدة؛ هاجموا -بمساعدة رجاله- إمارة المدينة وقبضوا على عدد من رجال عجلان، وحاصروا عجلان في القلعة، فتنكر في ثياب امرأة وخرج هارباً، ولكنّ بعضهم تنبه إليه فتبعه وقبض عليه، وسلّمه إلى أمير الركب الشامي، الذي حمله إلى مكة موثوقاً، وسلمه لأمير الركب المصري، فسجنه، وتشفّع فيه صهره أمير مكة حسن بن عجلان فأطلق سراحه واكتفى بعزله عن الإمارة[1].

وتحت ضغط هذه الأحداث، ومراعاة لسلطلة أمير الركب المصري الذي كان وراء عزل عجلان بن نعير، ومراعاة لآل جمّاز الثائرين، قرّر حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة تعيين سليمان بن هبة بن جمّاز، شقيق جمّاز المقتول، أميراً على المدينة، فعادت الإمارة إلى آل جمّاز، وكان في نفوسهم آثار قاسية لما لقوه خلال إمارة عجلان بن نعير، لذلك أخذ سليمان بن جمّاز يسيء ويجور في حكمه.

وبسبب ذلك جعل غُرَيِّر بن هيازع أميراً على المدينة، بدلاً من سليمان بن هبة، في عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، وذلك بتفويض من السلطان. وكان هذا التعيين نهاية لنفوذ حسن بن عجلان في المدينة، واستعادت المدينة استقلالها عن مكة المكرمة، وارتبطت بالقاهرة مباشرة.

وفي العشر الأخير من ذي الحجة عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م عاد عجلان بن نعير

---

(١) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٣٩، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧.

إلى إمارة المدينة المنورة للمرة الثالثة مكان غُرَيِّر؛ وذلك بضغط من زوج ابنته حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة، فقد استطاع أن يقنع الملك المؤيد بإعادة حميه والد زوجته عجلان بن نعير إلى إمارة المدينة وعزل غُرَيِّر بن هيازع[١].

تسلّم عجلان إمارة المدينة في ذي الحجة عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، وعاد بعودته الصراع الدبلوماسي على الإمارة؛ حيث يتنافس الطامحون فيها في استرضاء السلطان المملوكي في مصر كي يستصدروا مرسوماً بتعيين أحدهم أميراً وعزل الأمير المعين.

ولقد شهدت المدينة في ولاية عجلان بن نعير فتناً ومحناً؛ فضعفت هيبة الإمارة، وتطاول بعض المفسدين حتى قتلوا القاضي عبد الرحمن بن محمد بن صالح الذي كان شديداً في أحكامه عليهم[٢].

ونكبت المدينة سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م، والمنطقة بعامة، بأسراب ضخمة من الجراد الذي أتلف زروعها، وأحدث قحطاً ومجاعة شديدتين، ومات عدد من الفقراء جوعاً[٣]، وتسلطت الأرضة[٤] على ما بقي في المزارع فأتلفتها، وقلّت السلع، وغلت الأسعار غلاء فاحشاً[٥].

استمرت ولاية عجلان إلى موسم حج سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م. حيث استطاع قريبه خشرم بن درغام، الذي أقام في القاهرة طويلاً، أن يعمل لتولية الإمارة، فاستصدر مرسوماً بتوليه الإمارة في الثامن عشر من شوال سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م، وتقلَّدها في القاهرة على أن يقلّدها ثانية في المدينة كما جرت عليه العادة.

ويذكر المقريزي وابن تغري بردي أن خشرماً تعهد بتقديم خمسة آلاف دينار

(١) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٤٠؛ والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٤ ص ٦٥٠.
(٣) السلوك: ج ٤ ص ٦٣٣.
(٤) دودة تصيب جذور النبات.
(٥) السلوك: ج ٤ ص ٦٥٠.

للسلطان لقاء توليته الإمارة[1].

وهذه أول مرة تتحول فيها إمارة المدينة إلى وظيفة تُعطى لقاء تعهد بدفع مبلغ من المال، ولا شك أنّ خشرم بن درغام، والذي مكث في القاهرة طويلاً، قد اطلع على أحوال المناصب والوظائف العليا في السلطنة، ورأى أنّها توزع في موعد معين من كل سنة بطريقة تشبه المزاد العلني في عصرنا هذا، وعرف تقبل المماليك لهذا الأسلوب، فسلكه، وزجّ إمارة المدينة المنورة في مستنقع الالتزامات المالية، وغالباً ما كان هذا المستنقع يؤذي من يخوضه، وهو ما وقع لخشرم بعد حين.

وعند قدوم الركب المصري إلى المدينة علم عجلان بأمر المرسوم فخرج من المدينة قبل وصول خشرم في ذي القعدة حانقاً ومضمراً الشر[2].

ولم يكد خشرم يتسلم الإمارة ويخطب على منبر المسجد النبوي حتى فوجئت المدينة المنورة بعجلان بن نعير وقد جمع جموعاً حاشدة من العربان، ومن بعض الأشراف الذين اتخذوا حصوناً خارج المدينة، وجعلوها مراكز قوتهم ونقطة انطلاقهم للاغارة على المدينة والقوافل وبعض القرى، وكان فيهم ذربان الحسيني الطفيلي[3]، وكانت له شهرة في الفتك، وكان الركب الشامي قد غادر المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وخرج معه عدد من أهلها للحج، ولم يبق فيها من يدافع عنها إلا رجال الإمارة، وأغلقت المدينة أبوابها وتحصن الناس داخل السور، ولكنّ رجال عجلان بدؤوا يفتحون ثغرات في السور ويشعلون النار في أبوابه، واستطاعوا بعد ثلاثة أيام من الحصار والمناوشات أن يقتحموا السور ويدخلوا المدينة ويستولوا على الإمارة ويقبضوا على أميرها الجديد خشرم بن درغام.

وقد ارتكب رجال عجلان جرائم كثيرة؛ فنهبوا بيوت الناس، واستولوا على

---

(١) السلوك: ج ٤ ص ٧٢٧، والنجوم الزاهرة: ج ٣ ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٩٧.

(٣) من أشرار أشراف المدينة كولده، كان ممن عاون عجلان بن نعير أمير المدينة في نهبها. (التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٣٥ رقم ١١٩٨).

الودائع التي تركها الركب الشامي إلى حين عودته من مكة، وأحرقوا بعض البيوت والدكاكين، ويذكر السخاوي أنّ بيوت الشيعة قد سلمت من هجماتهم، ومع أنّ الغزاة لم يكونوا كلهم من الشيعة، ففيهم العُربان والبدو والطامعون في المال، إلا أنّ تشيع عجلان ربما كان السبب في جعلهم يتجنبون ممتلكات الشيعة[1].

وهكذا تحول عجلان بن نعير من أمير المدينة إلى غاز يستعين بقطّاع الطرق لينتقم من أهل المدينة، الذين لم تكن لهم يد في عزله. والمدهش أنّ عجلان بن نعير أطلق سراح خصمه خشرم بن درغام بعد أن قبض عليه، وردّ شيئاً من المنهوبات التي استولى عليها.

وبسبب هذه الأحداث، يذكر المقريزي أنّ عدداً من أهل المدينة قد نزحوا عنها، وتشتتوا بسبب ما حدث لهم ولخوفهم من أن يتكرر هجوم عجلان وأمثاله، وأن الأحوال قد اضطربت في المدينة اضطراباً كبيراً، وقلّ الاهتمام بإقامة الشعائر الدينية وساءت أحوال المسجد النبوي[2].

وساءت أحوال الأمير خشرم بعد تلك الأحداث، ويعزى ذلك إلى سببين:

الأول: ربما يكون قد هادن عجلان بن نعير وأعوانه، أو صالحهم لقاء إطلاق سراحه.

والثاني: التزامه بدفع خمسة آلاف دينار لخزينة السلطان في مصر.

فالمبلغ الذي دفعه لقاء إمارته لا بد أن يجبيه من أهل المدينة وزوارها ومن التجار والزراع، مما حدا به إلى رفع الجبايات والمكوس، حيث لم يعد قادراً على توفير الأمن للناس، فاضطربت الأحوال الاقتصادية بسبب النهب والخوف من تكرره، وأن تعرض القوافل التجارية عن المدينة أو تقل فيها. وقد نتج عن ذلك عجز خشرم عن جمع المبلغ الذي تعهد به للسلطان المصري.

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٩٧، والسلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٤ ص ٧٢٨.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٤ ص ٧٣٩.

لذا جهّز السلطان الأشرف برسباي حملة مع أحد قادته -الأمير بكتمر- وأرسلها في موسم الحج لعام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م فجاء إلى المدينة وعزل خشرم عن الإمارة وقبض عليه، وعيّن أميراً جديداً من الأسرة نفسها هو مانع بن علي بن عطية، واصطحب خشرم إلى القاهرة سجيناً[1].

سليمان بن هبة بن جمّاز الحسيني

سليمان بن هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم ابن مهنا بن الحسين مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة كنائب عن حسن بن عجلان أمير الحجاز في سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م.

سبق أن قلنا أنه تحت ضغط الأحداث الدائرة في إمارة عجلان بن نعير، ومراعاة لسلطلة أمير الركب المصري الذي كان وراء عزل عجلان بن نعير، ومراعاة لآل جمّاز الثائرين، قرَّر حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة تعيين سليمان بن هبة بن جمّاز، شقيق جمّاز المقتول، أميراً على المدينة، فعادت الإمارة إلى آل جمّاز، وكان في نفوسهم آثار قاسية لما لقوه خلال إمارة عجلان بن نعير، لذلك أخذ سليمان بن جمّاز يسيء معاملة عدد من أهل المدينة ويطارد خصوم آل جمّاز، ويستولي على أموالهم.

فساءت سيرته بين الناس وتوالت الشكاوى منه، وبلغت حسن بن عجلان في مكة وتجاوزته إلى السلطان في مصر، وعندما كثرت الشكاوى وجاءت الأخبار من رجال السلطان في الحجاز بأنّ سليمان بن هبة قد أساء السيرة فعلاً، أمر السلطان

(١) م.س: ج ٤ ص ٧٥٦، والنجوم الزاهرة: ج ١٣ ص ١٢٣.

المؤيد[١] أميرَ الركب المصري يلبغا بالقبض على سليمان بن هبة واحضاره موثوقاً إلى القاهرة.

فجاء يلبغا إلى المدينة، وقبض على سليمان بن هبة وعلى أخيه ومعاونه محمد بن هبة، وعيّن مكانه ابن أخيه غُرَيِّر بن هيازع بن هبة بن جمّاز أميراً على المدينة وذلك بتفويض من السلطان، فكان هذا التعيين نهاية لنفوذ حسن بن عجلان في المدينة، واستعادت المدينة استقلالها عن مكة، وارتبطت بالقاهرة مباشرة[٢].

أما سليمان بن هبة وأخوه محمد فقد أُخذا مقيدين إلى مصر حيث سجنا، ومات سليمان بعد عامين عام ٨١٧هـ/ ١٤١٤م، وأطلق سراح محمد[٣].

غُرَيِّر بن هيازع بن هبة الحسيني

غرير بن هيازع بن هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن داود الحسين بن قاسم ابن عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر ابن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م.

بعد القبض على عمّه سليمان بن هبة بن جمّاز بن منصور في العشر الأخير من ذي الحجة سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، قرر يلبغا المظفريّ -أمير الحاج المصري- عوضه ابن أخيه غرير بن هيازع بن هبة[٤].

وورد أيضاً: أنّ غريراً هذا ولي بعد عزل عجلان بن نعير في سنة ٨٢١هـ/

(١) تسلم السلطة سنة ٨١٥هـ.
(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٤٠، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٨٤.
(٣) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٤٠، والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٨٤.
(٤) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧ رقم ١٩٥٢.

١٤١٨م، ثم أعيد عجلان بعد القبض على غرير هذا[١].

تسلم غُرَيِّر بن هيازع الإمارة، واستطاع أن ينهي اضطرابات آل جمّاز، فقد تحقق لهم ما يريدون، وبدأ يزيل أسباب الشكوى التي ظهرت في المدينة من جراء سلطة سليمان، فيحسن معاملة الناس، ويتشدد في حفظ الأمن وتعقب المفسدين، ويتودد إلى أهل السنة ويمنع أي تطاول عليهم، فحسنت سيرته بين الناس، وحسنت علاقاته مع جيرانه أشراف مكة وينبع. وقد تزامنت بداية ولايته مع عودة النفوذ الاسمي للخليفة العباسي إلى الحرمين الشريفين، ويتمثل هذا النفوذ بذكر اسمه في الخطب والدعاء له باعتباره إمام المسلمين الأول، وكانت الخطبة للخلفاء العباسيين قد قطعت منذ سقوط بغداد بيد التتار عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[٢].

استمرت ولاية غُرَيِّر بن هيازع أربع سنوات متوالية، لم تشهد فيها المدينة أحداثاً كبيرة أو اضطرابات تذكر، خلافاً لما هو عليه الحال في مكة المكرمة، حيث قام صراع بين رميث بن محمد بن عجلان وأميرها حسن بن عجلان، وطرد حسن من مكة سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م بالقوة، ثم عاد إليها سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م بالقوة أيضاً، وبمباركة السلطان المؤيد[٣].

وكان لعودة حسن بن عجلان إلى إمارة مكة أثر على إمارة المدينة فقد استطاع أن يقنع الملك المؤيد بإعادة حميه والد زوجته عجلان بن نعير إلى إمارة المدينة وعزل غُرَيِّر بن هيازع.

وورد الخبر من مصر بعزل غُرَيِّر قبل وصول الركب المصري، ولما قدم الركب توارى غُرَيِّر خشية أن يقبض عليه أمير الركب، مع أنّه كان محمود السيرة في المدينة، وكان لأمير الركب سلطة محاسبة أمراء الحرمين والقبض عليهم وأخذهم إلى مصر سجناء، ولم يكن أمير الركب ليعدم حجة أو سبباً يقبض به على أمير

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧ رقم ١٩٥٢.
(٢) السلوك: ج ٤ ص ٢٤٠.
(٣) إتحاف الورى: ج ٣ ص ٥٢٥.

المدينة؛ لذلك آثر غُرَيِّر أن يتوارى عن المدينة، ويترك الإمارة لأميرها الأسبق عجلان بن نعير[١].

وبعودة عجلان بن نعير أميراً على المدينة عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، عاد الصراع الدبلوماسي على الإمارة؛ حيث يتنافس الطامحون فيها في استرضاء السلطان المملوكي في مصر كي يستصدروا مرسوماً بتعيين أحدهم أميراً وعزل الأمير المعين. فشهدت المدينة في ولايته فتن ومحن؛ فضعفت هيبة الإمارة.

استطاع غُرَيِّر بعد سنتين أن يستصدر مرسوماً من السلطان بتنصيبه أميراً على المدينة المنورة، وبعزل عجلان بن نعير والقبض عليه؛ فقد وصل الركب المصري إلى المدينة المنورة في العشر الأخير من ذي الحجة سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م وقبض على عجلان وقلد غُرَيِّراً الإمارة[٢].

ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن سيرة عجلان بن نعير في هاتين السنتين، مع أنّ له سابقة في الإمارة جعلت آل جمّاز يثورون عليه، وربما كثرة الأخطاء التي ارتكبها، أفادت خصومه بحيث استطاعوا إقناع السلطان بعزله وسجنه، ولم يستطع معهما أمير مكة حسن بن عجلان أن ينقذ حماه من السجن لضعف نفوذه، أو لحجم الحدث الذي ارتكبه عجلان.

وقد اقتيد عجلان إلى مصر، وسجن في القلعة، وأطلق سراحه بعد أشهر قليلة بسبب منام رآه أحد جلساء السلطان[٣].

ولا شك أنّ هذا التحول الكبير من النقيض إلى النقيض في أحوال الأمير سيجعل أي أمير يتولى المنصب يحسب حساباً لعوامل التحول والمؤثرات فيها.

---

(١) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٤٠، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧.
(٢) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٤٠، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧.
(٣) الضوء اللامع: ج ٥ ص ١٤٥، والسلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٤ ص ٤٧٠، والعقد الثمين: ج ٣ ص ٤٠، والتحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧.

فالسلطان الذي يصدر مرسوماً بتعيين الأمير بعد وساطات كثيرة سرعان ما يصدر أمراً بالقبض على الأمير نفسه إذا نجح خصومه في تشويه سمعته، وفي أحسن الحالات يصدر مرسوماً بعزله وتولية شخص آخر ينال رضا السلطان ويقنعه بأنه أجدر من غيره وأقدر على إدارة شؤون الإمارة. وكان لبعض هؤلاء الطامحين والمتصارعين على الإمارة شفعاء ووسطاء من جلساء السلطان ومن عليّة القوم. كما أنّ شخصية أمير مكة حسن بن عجلان قد لعبت دوراً في هذه التعيينات لمدة من الوقت.

وما لبث غُرَيِّر أن مضى على ما مضى عليه بعض أسلافه، فقد دفعه قلة موارد الإمارة إلى التفتيش عن مصادر أخرى تسد حاجته للمال، فاشتد في الجبايات، وارتفعت الشكاوى ضده، وأخذ شيئاً من حاصل الحرم النبوي لنفسه بالمكر والحيلة[١]، فسقط السقطة التي كانت فيها نهايته.. ومع أنّ طريقة أخذه من الحاصل النبوي لم تكن مشابهة لطريقة جمّاز بن هبة، بل كانت هادئة، فإنّ شيوع هذا الخبر قد أسقطه نهائياً عند السلطان المؤيد، وجعله يصدر مرسوماً بعزله والقبض عليه.

جاء في الضوء اللامع: «ووقع بينه وبين ابن عمه عجلان بن نعير اختلاف، كما كان بين أسلافهما، فهجم غرير على حاصل المسجد، فأخذ منه مالاً جزيلاً، فأمر السلطان، أمير الركب بالقبض عليه، ففعل، وذلك في أواخر ذي الحجة سنة ٨٢٤ هـ، وأحضر مع الركب إلى مصر، فاعتقل بقلعتها. فمات بعد ١٨ يوماً»[٢].

ومع قدوم الركب المصري سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م إلى المدينة المنورة كانت نهاية إمارة غُرَيِّر بن هيازع، فقد قبض عليه واقتيد إلى مصر حيث سجن ببرج القلعة ومات فيه في أوائل صفر سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٣م.

---

(١) العقد الثمين: ج ٣ ص ٤٤٠.
(٢) الضوء اللامع: ج ٦ ص ١٦١، ورسائل في تاريخ المدينة: ص ١٧.

ثابت بن نعير بن هبة بن جمّاز الحسيني

ثابت بن نعير بن هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة المنورة استيلاءً في سنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦م.

أخو أمير المدينة الأسبق عجلان بن نعير، قبض على خدّام المدينة، وقضاتها، ونهبها في سنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦م؛ لما بلغه أنه عُزل بابن عمه خشرم بن دوغان بن هبة.

فلما وصل الحاج-وكان خشرم مع أمير الحاج الشامي- فوجه ثابت من أخلى المدينة، فأقام بها، فلما توجه الركب الشامي لمكة، عاد هذا فأمسك خشرم، وضرب، وحرق بيوتاً كثيرة، وسلمت منه بيوت الشيعة.

وأقام من الشيعة قاضياً اسمه الطفيل، وكلما جاءه حكم من الأحكام يرسل به غالباً إليه.

وخلت المدينة إلا من الشيعة، وأما القاضي الشافعي، فإنه كان استنزل شخصاً من أقارب خشرم، اسمه مانع فأجاره.

وكانت مدة استباحته للمدينة مع شقيقه عجلان بن نعير، وذلك كمشاركة، فهو ليس بأمير حقيقي بل هو مشارك، وقد ترجمنا له لتوضيح الصورة السائدة في المدينة آنذاك.

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٩٦ رقم ٧٠٤، والمنهل الصافي: ج ٤ ص ١٩٨، ورسائل في تاريخ المدينة: ص ١٧، وبدائع الزهور: ج ٢ ص ١١٠-١١٢.

خشرم بن دوغان بن جعفر بن هبة الحسيني

خشرم بن دوغان بن جعفر بن هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة ابن هاشم بن قاسم مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن زين العابدين علي ابن الحسين ابن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة المنورة في أواخر سنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦م.

أقام خشرم بن دوغان في القاهرة مدة طويلة عرف خلالها دهاليز السلطنة، واستطاع بنفوذه أن يستصدر مرسوماً سلطانياً بتوليه الإمارة في الثامن عشر من شوال سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م، وتقلدها في القاهرة على أن يقلدها ثانية في المدينة كما جرت عليه العادة.

ويذكر المقريزي وابن تغري بردي أن خشرماً تعهد بتقديم خمسة آلاف دينار للسلطان لقاء توليته الإمارة[٢].

وهذه أول مرة تتحول فيها إمارة المدينة إلى وظيفة تعطى لقاء تعهد بدفع مبلغ من المال، ولا شك أنّ خشرم بن درغام، والذي مكث في القاهرة طويلاً، قد اطلع على أحوال المناصب والوظائف العليا في السلطنة، ورأى أنّها توزع في موعد معين من كل سنة بطريقة تشبه المزاد العلني في عصرنا هذا، وعرف تقبل المماليك لهذا الأسلوب، فسلكه، وزجّ إمارة المدينة المنورة في مستنقع الالتزامات المالية، وغالباً ما كان هذا المستنقع يؤذي من يخوضه، وهو ما وقع لخشرم بعد حين.

وعند قدوم الركب المصري إلى المدينة علم عجلان بأمر المرسوم فخرج

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٨ رقم ١١٣٤، والنجوم الزاهرة: ج ١٤ ص ٣٠٤، وبدائع الزهور: ج ٢ ص ١٦٨، والضوء اللامع: ج ٢ ص ١٧.
(٢) السلوك: ج ٤ ص ٧٢٧، والنجوم الزاهرة: ج ٣ ص ١٢٢ - ١٢٣.

من المدينة قبل وصول خشرم في ذي القعدة حانقاً ومضمراً الشر وقبل وصول الأمير الجديد في ذي القعدة من العام نفسه[١].

ولم يكد خشرم يتسلم الإمارة، ويخطب على منبر المسجد النبوي حتى فوجئت المدينة المنورة بعجلان بن نعير وقد جمع جموعاً حاشدة من العُربان، ومن بعض الأشراف الذين اتخذوا حصوناً خارج المدينة، وجعلوها مراكز قوتهم ونقطة انطلاقهم للاغارة على المدينة والقوافل وبعض القرى، وكان فيهم ذربان الحسيني الطفيلي[٢]، وكانت له شهرة في الفتك، وكان الركب الشامي قد غادر المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وخرج معه عدد من أهلها للحج، ولم يبق فيها من يدافع عنها إلا رجال الإمارة، وأغلقت المدينة أبوابها وتحصن الناس داخل السور، ولكنّ رجال عجلان بدؤوا يفتحون ثغرات في السور ويشعلون النار في أبوابه، واستطاعوا بعد ثلاثة أيام من الحصار والمناوشات أن يقتحموا السور ويدخلوا المدينة ويستولوا على الإمارة ويقبضوا على أميرها الجديد خشرم بن درغام.

وبسبب هذه الأحداث، يذكر المقريزي أنّ عدداً من أهل المدينة قد نزحوا عنها، وتشتتوا بسبب ما حدث لهم ولخوفهم من أن يتكرر هجوم عجلان وأمثاله، وأنّ الأحوال قد اضطربت في المدينة اضطراباً كبيراً، وقلّ الاهتمام بإقامة الشعائر الدينية وساءت أحوال المسجد النبوي[٣].

ثم إنّ عجلان بن نعير أطلق سراح خصمه خشرم بن درغام بعد أن قبض عليه، وربما يكون قد هادن عجلان بن نعير وأعوانه، أو صالحهم لقاء إطلاق سراحه، وإذا ما أضفنا إلى ذلك التزامه بدفع خمسة آلاف دينار لخزينة السلطان في مصر استطعنا أن نتصور الضيق الشديد الذي حلّ بالمدينة. فالمبلغ الذي دفعه لقاء

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٩٧.

(٢) من أشرار أشراف المدينة كولده، كان ممن عاون عجلان بن نعير أمير المدينة في نهبها. (التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٣٥ رقم ١١٩٨).

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٤ ص ٧٣٩.

إمارته لا بد أن يجبيه من أهل المدينة وزوارها ومن التجار والزراع، مما حدا به إلى رفع الجبايات والمكوس، حيث لم يعد قادراً على توفير الأمن للناس، فاضطربت الأحوال الاقتصادية بسبب النهب والخوف من تكرره، وأن تعرض القوافل التجارية عن المدينة أو تقل فيها. وقد نتج عن ذلك عجز خشرم عن جمع المبلغ الذي تعهد به للسلطان المصري.

لذا جهّز السلطان الأشرف برسباي حملة مع أحد قادته -الأمير بكتمر السعدي- وأرسلها في موسم الحج لعام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م فجاء إلى المدينة وعزل خشرم عن الإمارة وقبض عليه، وعيّن أميراً جديداً من الأسرة نفسها هو مانع بن علي بن عطية، واصطحب خشرم إلى القاهرة سجيناً[1].

وقتل الشريف خشرم بن دوغان في ذي الحجة سنة ٨٣٢ هـ/ ١٤٢٩م مقتولاً في حرب بينه وبين الشريف مانع بن عطية فولاية المذكور كانت قصيرة في كلتا الحالين.

مانع بن علي بن عطية بن منصور الحسيني

مانع بن علي بن عطية بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا ابن الحسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن زين العابدين علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في ٢٤ ذي الحجة سنة ٨٣٠ هـ/ ١٤٢٨م.

قصد الأمير مانع بن علي القاهرة مسلّماً على السلطان برسباي، وطالباً منه إصدار مرسوم تعيينه، فظفر بالمرسوم وعاد إلى المدينة ليتولى إمارتها[2].

---

(١) م.س: ج ٤ ص ٧٥٦، والنجوم الزاهرة: ج ١٣ ص ١٢٣.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨١.

امتدت إمارة مانع تسع سنوات متوالية لم تخل من صدامات ومعارك مع الطامعين في السلطة، والطامعين في نهب المدينة والمفسدين وقطّاع الطرق.. وكان مانع حازماً يحسن تدبير أموره، وقد صرف اهتمامه منذ بداية إمارته إلى ترسيخ الأمن في المدينة؛ فأصلح سورها، وسدّ الثغرات التي أحدثها هجوم عجلان من قبل، وزاد عدد رجاله ونشرهم في الأسواق ومداخل المدينة؛ لمراقبة الأعراب ومن يشك في أمرهم، ولم يكن عليه التزام مالي للسلطنة في مصر، لذلك ألغى الجبايات الاضافية التي فرضها سلفه خشرم، وبدأ يتعقب المفسدين الذين اتخذوا حصوناً خارج المدينة، يغيرون منها على المدينة والقرى والقوافل، واصطدم مع عدد من الأشراف، وقتل بعضهم.

وفي سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م تحرك سلفه خشرم بن درغام الذي أطلق سراحه في القاهرة، وجاء إلى المدينة وجمع منها ومن العُربان حولها حشداً كبيراً وهاجمها، فتصدَّى له مانع برجاله، وجرت معركة في مداخل المدينة سقط فيها عدد من الضحايا، واستطاع مانع ورجاله أن يقتلوا خشرم بن درغام، وقتلوا معه بعض الأشراف الذين ناصروه من داخل المدينة ومن أهل الحصون المنتشرة في ريفها، وتشتت جموع خشرم[١]. وأرسل مانع أعوانه لتتبع عجلان بن نعير الذي نهب المدينة وأصبح واحداً من الذين يهددون أمنها، فظفروا به وقتلوه[٢]، وتخلصت المدينة من أخطر مهدديها.

استقر الأمر لمانع مدة من الزمن، وحسنت سيرته بين الناس، وهدأت الحساسية المذهبية بين الشيعة وأهل السنة، ونشطت الحركة التجارية[٣].

ومما يذكر به الأمير مانع أنه تصدَّى لعصابة خطيرة يقودها الشريف زهير بن سلمان بن زبان بن منصور، وكان زهير هذا فاتكاً يقطع هو وجماعته الطريق[٤].

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٨، والسلوك لمعرفة دول الملوك: ج ٤ ص ٤١١.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٧٧.
(٣) الضوء اللامع: ج ٦ ص ٢٣٦.
(٤) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨٥.

وكان معه شريف آخر هو هلمان ابن أمير المدينة الأسبق غُرَيِّر بن هيازع، وقد بلغ عدد رجالهما أكثر من ثلاثمائة فارس فضلاً عن رماة السهام، وامتد نشاطه إلى أطراف نجد والعراق[١].

وقد تجرأت هذه المجموعة مرة على قافلة رسمية، تابعة للإمارة، يقودها سعد بن المرة؛ كانت متوجهة إلى رابغ. وكان مع القافلة قوة مسلحة للحراسة، فخرج عليهم زهير بمائة فارس وقاتلهم، وقُتل رجال من الفريقين، ثم صالحهم على أن يدفعوا له مبلغاً من المال فدفعوه[٢]، وقد تصدَّى مانع بن علي لزهير وجماعته في شهر رجب سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٥م، ووقعت معركة حامية بينهما في ضواحي المدينة، وتمكن مانع من قتل زهير بن سلمان وزميله هلمان بن غُرَيِّر، وانتهى أمر هذه العصابة.

وبسبب هذه الانجازات الكبيرة حظي مانع بن علي بمكانة مرموقة عند السلطان المملوكي الأشرف برسباي[٣]، فلم يستطع أحد أن يزاحمه على الإمارة، واستمرت الإمارة في بيته من بعده فانتقلت إلى ابنه أميان.

كانت نهاية مانع بن علي سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٦م غيلة؛ فقد كان مغرماً بالصيد، وكان يصطاد في نواحي المدينة، وفي العاشر من شهر جمادى الآخرة من ذلك العام خرج مع مجموعة قليلة من رجاله للصيد، فكمن له الشريف حيدر بن درغام، أخو خشرم بن درغام أمير المدينة السابق وتمكن من مفاجأته وقتله؛ ثأراً لأخيه خشرم الذي قتله مانع بن علي قبل ست سنوات[٤].

(١) نزهة النفوس: ج ٣ ص ٣٢٥.
(٢) نزهة النفوس: ج ٣ ص ٣٢٥.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨٥.
(٤) نزهة النفوس: ج ٣ ص ٣٥٩-٣٦٠؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٥٠؛ والسلوك: ج ٤ ص ٩٨٥.

أميان بن مانع بن علي الحسيني

أميان بن مانع بن علي بن عطية بن منصور بن جمّاز ابن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة المنورة في سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م[٢].

تنازع على الإمارة بعد مانع بن علي عدد من المتطلعين إليها، منهم علي بن مانع، وأخوه أميان بن مانع، وكان أميان مقرباً من أبيه ينوب عنه في حالات سفره. ومنهم عجل بن عجلان بن نعير وكبش بن جمّاز، وقد اتهم كبش هذا بالتعاون مع حيدر بن درغام في قتل مانع بن علي. وذهب كبش إلى مصر محاولاً استصدار مرسوم بتعيينه أميراً على المدينة، فظفر بع بعض أقارب مانع بن علي، وقتلوه ثأراً لقريبهم قبل أن يدخل القاهرة[٣]. وذهبت الرسائل إلى القاهرة طالبة تعيين أمير جديد، وجاء مرسوم السلطان الأشرف في أول رمضان عام ٨٣٩هـ/ ١٤٣٦م يقلد الإمارة لأميان بن مانع، وكفّ علي وعجل عن المطالبة بها[٤].

استقر أميان في الإمارة مستفيداً من المكانة التي حققها أبوه، وواصل سياسة والده الحازمة في ضبط الأمن وحماية المدينة ومنع المشكلات المذهبية، وظهرت حالة من الرخاء في المدينة، وبخاصة في أواخر عهده، نتيجة لهذا الاستقرار، وتولى السلطنة في مصر الظاهر جقمق فقرَّر رواتب لعدد كبير من أهل المدينة وأهل مكة

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٩٦، والسلوك: ج ٢ ص ٩٧٥، والضوء اللامع: ج ٢ ص ٣٢١، والنجوم الزاهرة: ج ٥ ص ٣٦٢ و ج ١٦ ص ٦٠٥.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٩٦.
(٣) الضوء اللامع: ج ٦ ص ٢٢٦؛ والسلوك: ج ٤ ص ٩٨٥.
(٤) الضوء اللامع: ج ٦ ص ١٤٥-١٤٦؛ ونزهة النفوس: ج ٣ ص ٣٤٨؛ والسلوك: ج ٣ ص ١١٥٧؛ والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٣٨.

بدءاً بالأشراف، وقرَّر طعاماً يُصرف للفقراء كل يوم[١].

ومع تغيير السلطان وجد الطامحون في الإمارة فرصة لمزاحمة أميان، فسعى الشريف سليمان بن غرير بن هيازع لدى السلطان الجديد لتولي الإمارة، ونجح في مسعاه، وجاء الركب المصري في ذي الحجة عام ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م يحمل معه مرسوماً سلطانياً بعزل أميان وتولية سليمان بن غرير بن هيازع إمارة المدينة[٢].

خرج أميان من المدينة، وأقام في بعض ضواحيها حنقاً على سليمان، وجمع حشداً من العُربان، وهاجم سليمان عام ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م، محاولاً انتزاع الإمارة منه، ولكن سليمان جمع رجاله وخرج إلى ظاهر المدينة وقاتل أميان، ورغم أنّ عدد رجاله كان أقل من عدد رجال أميان، فقد انتصر على خصمه، واضطره إلى الانسحاب والعودة إلى معقله[٣].

وفي سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م تسلَّم أميان إمارة المدينة للمرة الثانية بعد ضيغم بن خشرم، وقد ذكره صاحب بدائع الزهور قائلاً: قدم الشريف أميان أمير المدينة الشريفة، فلما دخل على السلطان، نزل إليه من على الدكة، ومشى له خطوات حتى لاقاه، وأكرمه وأخلع عليه، وقدَّم للسلطان هدية عشرة آلاف دينار ذهب، عدا القماش. وهذا المبلغ الضخم لقاء إرضاء السلطان له بأن يظل أميراً على المدينة كرشوة[٤].

وإن صح ذلك فهذا أسلوب جديد في انتقال الإمارة؛ يحقن الدماء ويوفر على المدينة فتنة، ولكنه قد يترتب عليه التزامات باهظة تثقل أهالي المدينة بها؛ كزيادة المكوس والجبايات استيفاء لتسديد الديون المدفوعة سلفاً.

---

(١) الضوء اللامع: ج ٣ ص ٧١.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٣٨ و ج ٢ ص ١٨٤.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٨٨.
(٤) بدائع الزهور: ج ٢ ص ٢٦٢.

كانت إمارة أميان الثانية هادئة، ليس فيها صدامات تذكر، ولا حوادث لافتة للنظر؛ فقد حنكته الأيام وجعلته يحافظ على رضا السلطان ورضا الأشراف ويؤجل صراع المنافسين. وقد استمرت هذه الإمارة ثلاث سنين، وانتهت بوفاته سنة ٨٥٣هـ.

سليمان بن غرير بن هيازع الحسيني

سليمان بن غرير بن هيازع بن هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(١).

ولي إمارة المدينة المنورة في أواخر سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م؛ بعد عزل إميان بن مانع بن عطية(٢).

اتخذ سليمان بن غرير موقفاً عدائياً من أميان، وعين حيدر بن درغام، قاتل مانع بن علي والد أميان، نائباً له في الإمارة، فخرج أميان من المدينة، وأقام في بعض ضواحيها حنقاً على سليمان، وجمع حشداً من العربان، وهاجم سليمان عام ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م، محاولًا انتزاع الإمارة منه، ولكن سليمان جمع رجاله وخرج إلى ظاهر المدينة وقاتل أميان، ورغم أنّ عدد رجاله كان أقل من عدد رجال أميان، فقد انتصر على خصمه، واضطره إلى الانسحاب والعودة إلى معقله(٣).

استمر سليمان في الإمارة حتى وفاته في ربيع الآخر سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م، ولم تجر أية محاولة لانتزاع الإمارة منه بعد محاولة أميان السابقة، ولم يتجرأ أحد

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ١٨٤ رقم ١٦٤٧، والسلوك: ج ٣ ق ٤ رقم ١١٥٧، والنجوم الزاهرة: ج ١٥ ص ٤٦٢.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٣٨ و ج ٢ ص ١٨٤.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٨٨.

على مهاجمة المدينة. غير أنّ الأمن خارج المدينة كان ضعيفاً، ولم يسلم الحَجّاج والمسافرون من هجمات العُربان، حتى المماليك وبعض جنود المحمل المصري لم يسلموا من تعرض العُربان لهم خارج أسوار المدينة؛ فقد هاجم العُربان بعضهم عندما خرجوا من السور إلى البقيع وقتلوا ثلاثة من المماليك[١].

وتعزز الأمن داخل المدينة وازدادت قوتها المسلحة عندما أرسل السلطان جقمق قوة عسكرية أقامت فيها أكثر من سنتين، وكان السبب المباشر لإرسال القوة جريمة ارتكبها أحد الأشراف، وكادت أن تحدث فتنة بين الشيعة والسنة، فقد اغتال ذلك الشريف واحداً من أعيان أهل المدينة من أهل السنة هو محمد الكمال أبو الفضل، وينتهي نسبه إلى ابن طولون، كان الفضل يطالب الشريف بدَين في ذمته لبعض الورثة، فلما ألحّ عليه خرج الشريف في جماعة وقتل أبا الفضل سراً، وأرهب عدداً من أهل السنة، وكان أمير المدينة سليمان غائباً، فركب نائبه حيدر بن درغام إلى موقع الحادث، وحاول القبض على الجاني دون جدوى، فقد فرّ مع جماعته واختبأ في بعض المزارع، وسافر شقيق المقتول إلى القاهرة فنقل إلى الظاهر ما حدث وأخبره بما يلاقيه أهل السنة من بعض الأشراف، فأمر جقمق بإرسال مجموعة من الجند بقيادة أحد الأمراء المماليك لتعزيز الأمن في المدينة، وجهَّز الجند بما يحتاجونه، وقد مكث الجنود أكثر من سنتين في المدينة، وتعقبوا عدداً من المفسدين ولكنهم لم يستطيعوا القبض على الشريف القاتل[٢]. وقد أمر السلطان الظاهر جقمق بعدم إدخال جنائز الشيعة إلى المسجد النبوي باستثناء الأشراف العلويين، وظل هذا مطبقاً من بعده[٣].

ويبدو أنّ أمراء الحج بحكم نيابتهم عن السلطان وشعورهم بأنهم أعلى مرتبة من أمراء الحرمين، بدؤوا يأخذون من أمراء الحرمين بعض المال سواء للخزانة أو

---

(١) السلوك: ج ٤ ص ١١٥٧.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٥٢٥.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٢٩٢.

لأنفسهم، وكان بعضهم يطلب كميات من تمر المدينة، فقد فرض الأمير جرباش الكريمي على قاضي المدينة أن يحضر خمسين صاعاً من تمر، وبعد لأي رضي بثلاثين[١].

واشتكى أهل المدينة إلى السلطان جقمق من هذه التصرفات، فشدَّد السلطان على أمراء الحج وأمرهم أن لا يطلبوا شيئاً ولا يأخذوا شيئاً من أهل المدينة ولو قدم لهم[٢]، فاستراحت المدينة من ضرائب غير مباشرة كانت تثقلها.

وفي ربيع الآخر عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م توفي الأمير سليمان بن غرير بن هيازع. وأمسك الأمور نائبه حيدر بن درغام بإجماع أهل المدينة[٣].

حيدر بن دوغان بن جعفر الحسيني

حيدر بن دوغان بن جعفر بن هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٤].

أمير المدينة المنورة في سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م.

كان نائباً في إمرة المدينة عن أميرها سليمان بن غرير.

وفي ربيع الآخر عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م توفي الأمير سليمان بن غرير بن

(١) السلوك: ج ٤ ص ١٢٠١.
(٢) السلوك: ج ٤ ص ١٢٢٥.
(٣) الضوء اللامع: ج ٣ ص ١٦٨.
(٤) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٥٤٠ رقم ١٠٩١، والنجوم الزاهرة: ج ١٥ ص ٢٠٢، والضوء اللامع: ج ٤ ص ١٦٨ رقم ٦٤٨.

هيازع. وأمسك الأمور نائبه حيدر بن دوغان بإجماع أهل المدينة[١]؛ وذلك لما أبداه من جهود في حفظ الأمن أثناء نيابته عن سليمان، وكتب أعيان المدينة إلى السلطان يطلبون تثبيته وإصدار مرسوم بتوليته الإمارة[٢]، واستغل بعض الأعراب فرصة موت الأمير سليمان وهاجموا المدينة في جمادى الآخرة من العام نفسه، فخرج إليهم حيدر برجاله وقاتلهم وهزمهم، ولكنه أصيب بجرح بليغ، وحمل إلى المدينة. وظل يعالج فيها مدة شهرين. ثم مات في أوائل رمضان من العام نفسه ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م.

ومن المفارقات أنّ السلطان جقمق وافق على طلب أهل المدينة وأصدر مرسوماً بتثبيت حيدر في إمارة المدينة، ووصل المرسوم بعد دفن حيدر[٣].

ومن أخباره: أنه في سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م وثب على الشريف مانع بن عطية، وقد خرج للصيد، خارج المدينة في عاشر جمادى الآخرة، وقتله بدم أخيه خشرم بن دوغان[٤].

مؤنس بن كبيش بن منصور الحسيني

مؤنس بن كبيش بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله ابن الحسين بن زين العابدين علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب[٥].

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م.

---

(١) الضوء اللامع: ج ٣ ص ١٦٨.
(٢) الضوء اللامع: ج ٣ ص ١٦٨.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٢.
(٤) السلوك: ج ٣ ص ٩٨٥ و ٩٨٨.
(٥) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٥٤٠ رقم ١٠٩١.

بعد الأمير حيدر مرَّت بالمدينة أربع سنوات أهملتها المصادر التاريخية، فلم تذكر أسماء أمرائها ولا الأحداث التي جرت فيها، غير أنّ السخاوي أشار في ترجمته لحيدر بن دوغان أنّ الذي استقر بعده هو مؤنس بن كبيش بن جمّاز يليه ضيغم بن خشرم.

ويذكر أنّ تسلم مؤنس الإمارة جرى بالاتفاق بين أمير الترك وأهل المدينة، ولعل المراد بأمير الترك أمير الركب المصري أو الشامي.. وهو من المماليك عادة ويعد نائباً عن السلطان، وله صلاحية كبيرة في قضايا إمارة المدينة ومكة.

ثم إنّ المصادر التي بين أيدينا لا تذكر شيئاً عن مؤنس، وكم مدة إمارته. ولكن السيد ضامن يصرح بأنّ ضيغم بن خشرم تولى إمارة المدينة في شهر محرم الحرام سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م بعد الأمير سليمان بن غرير[١].

ضيغم بن خشرم الحسيني

ضيغم بن خشرم بن نجاد بن ثابت بن نعير بن جمّاز بن منصور جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٢].

أمير المدينة المنورة في المحرم سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م.

والظاهر أنه غير ضيغم بن خشرم بن نجاد الذي سيتولى الإمارة سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م. والذي كان قبل توليه الإمارة من المطالبين بها والمقاتلين دونها للاستيلاء عليها بالقوة، وقد هجم في عام ٨٦٧ هـ/ ١٤٦٣م على المدينة خلال إمارة زهير بن

(١) تحفة الأزهار: ج ٢ ص ٤٤٣.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٤ رقم ١٨٤٨، والسلوك: ج ٢ ق ٣ ص ٩٧٥ و ج ٣ ق ٤ ص ١١٥٧، والضوء اللامع: ج ٤ ص ٢.

سليمان فتمكن مع رجاله من دخولها لكن هجومه فشل بتصدي نائب الأمير إبراهيم بن سليمان له حيث أن الأمير زهير كان غائباً عن المدينة.

وصورة هذا الهجوم: أنه في سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م رام اقتحام المدينة بعسكر كثيف من الأشراف والعُربان، وتسوَّروا من سورها ليلاً، وأمر بإخراج بعض صبيانه بالجلوس على أبواب القضاة، وأعيان الفقهاء، وكل من خرج منهم لصلاة الصبح يمسكونه، فحبسهم الله بمطر غزير جداً، بحيث سالت السيول، فلم يتمكنوا مما راموه، فراحوا إلى الدرب الصغير، كسروا القفل... وفشلت محاولته هذه[1].

فلجأ ضيغم إلى الوسائل الدبلوماسية واستطاع في شهر شوال ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م أن يحصل على مرسوم سلطاني من مصر بتوليه إمارة المدينة المنورة.

ولكنه لم يبق في الإمارة سوى عدة شهور إذ تمكن الأمير السابق زهير من العودة إلى إمارته بمرسوم سلطاني وبقي في الإمارة حتى وفاته عام ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م، وبموته عاد ضيغم للإمارة رغم وجود منافس له هو قسيطل بن زهير، ولكنه استطاع أن يوطد علاقاته مع سلطان مصر وأمير مكة، وأحسن التعامل مع الناس وخاصة أقاربه الأشراف القاطنين في ريف المدينة، وحمد له أهل السنة وغيرهم معاملته، فطالت فترة إمارته تسع سنوات.

وقد حصلت في عهده عن طريق السلطان قايتباي عدة إصلاحات مهمة، منها إصلاح سقف المسجد النبوي الشريف بعامة، وتقوية إحدى منائره، وإصلاح سور المدينة وترميمه.

وفي آخر عهده أساء علاقته مع أمير مكة، وازدادت العلاقة سوءاً عندما وقعت حادثة قتل القاضي الزكوري بن صالح بسبب خلاف حول دور الأشراف العباسيين، فوصل الخبر إلى السلطان قايتباي، فأمر أمير الركب المصري بالتحقيق

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٨٤ رقم ١٣٣٢ وج ٢ص ٢٥٢ رقم ١٨٤٤، والنجوم الزاهرة: ج ١٥ ص ٤٦٢..

في الحادث، وكتب السلطان إلى شريف مكة للتدخل في الأمر، فأرسل الشريف ابنه على رأس قوة إلى المدينة، ولكن ضيغم لم يستقبلهم وخرج إلى البادية فجرت أمور، منها: صدور مرسوم بتعيين قسيطل بن زهير أميراً على المدينة، وعزل ضيغم عنها وذلك سنة ٨٨٣ هـ/ ١٤٧٨م، فاستمر ضيغم مقيماً في البادية حتى تسلم الإمارة حسن بن زبيري سنة ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢م فعاد إلى المدينة مستشاراً له، ولكنه لم يعد إلى الإمارة مطلقاً، وانقطعت بعد ذلك أخباره.

زبيري بن قيس بن ثابت الحسيني

زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أمير المدينة المنورة في سنة ٨٥٤ هـ/ ١٤٧٩م[١].

تسلَّم الإمارة بعد ابن عمه إميان بن مانع سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٧٩م، ولم يكن له منافسون خطيرون، وقد امتدت إمارته إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر، ويبدو من أخباره القليلة أنه اهتم بالأمن اهتماماً شديداً، وطارد الأعراب الذين يهددون المدينة المنورة بغاراتهم الخاطفة، واستعان بالسلطان الظاهر جقمق فأرسل له السلطان أحد قادته الشجعان مع مجموعة من الجند لتعزيز قوة الإمارة ومواجهة الأعراب، وهو توروز الحافظي، وأقام توروز عدة سنوات في المدينة المنورة، وقاد حملات مطاردة الأعراب والمفسدين وقطاع الطرق، وحمدت سيرته وشجاعته[٢].

ونجد في أخبار المدينة آنئذ العقوبة الصارمة التي فرضها الأمير على من يعتدي على المسجد النبوي ويسرق شيئاً من موجوداته.

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٨٠، والضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٣٢.

(٢) الضوء اللامع: ج ٣ ص ٦١.

وقد حدثت في عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م سرقة روَّعت المدينة، إذ اعتدى برغوث بن نعير بن جريس الحسيني، وزميله بركات على الحجرة النبوية وسرقا بعض قناديلها الثمينة، وقبض عليهما، ولم يكتف الأمير بتطبيق حد السرقة عليهما، بل أمر بشنقهما أمام المسجد النبوي، لأنّ عملهما من الإفساد في الأرض، وليكونا عبرة لغيرهما، فشنقا في شعبان ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م[١].

واستعان الأمير زبيري ببعض أشراف المدينة لتتبع الأشراف المنحرفين، وكان من جملة من سرق الحجرة النبوية دبوس بن سعيد الحسيني الطفيلي، وكان لدبوس رجال كثيرون ولم يستطع زبيري القبض عليه أو أنه خشي من فتنة فتركه يهرب إلى خارج المدينة، فأرسل الشريف محمد بن أبي ذر بن عجلان بن نعير رجاله لتتبعه، فأدركوه عند جبل عير خارج المدينة وقتلوه[٢].

وجاء أحد الشيعة الباطنيين من الشام إلى المدينة، واسمه عبد الوهاب بن جعفر الشامي، فأقام بها وأفسد عقائد كثيرين، وتجمَّع حوله عدد كبير من بسطاء الشيعة، وتجرأ المتأثرون به فأظهروا سبَّ الصحابة وشنيع الكفريات، فأمر بالقبض عليه ومحاكمته، فحكم عليه فقيه المالكية بالقتل إذا رفض التوبة، ونُفّذ فيه الحكم في نهاية عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م[٣].

ورغم أنّ زبيري ينتمي إلى الشيعة الإمامية، إلا أنه لم يتهاون في أمر هذا الباطني، ومن جهة أخرى كان حريصاً على منع وقوع الفتنة بين الشيعة والسنة، وكان يشتد في عقوبته على من يتصرف أي تصرف يؤدي إلى الفتنة.

ومما يأخذ المؤرخون على زبيري أنه بالغ في معاقبة أحد وجهاء أهل السنة شمس الدين الأزهري لشتمه أحد الشيعة، فقد كان شمس الدين جالساً في الروضة فداس أحد الشيعة على سجادته، فقال له شمس الدين: يا رافضي. فشكاه الرجل

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٦٧٣ و ج ٢ ص ٦٩؛ والضوء اللامع: ج ٣ ص ١٠.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٣٨.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ١٨.

إلى الأمير زبيري، فأمر زبيري بالقبض عليه ومعاقبته، فأخذ إلى القلعة وضرب إلى أن مات، وذلك في سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م[١]. ويبدو أنّ الأمير زبيري استطاع أن يغطي هذه الحادثة، وأن لا تقع فتنة بين الأهالي.

واستمر زبيري في الإمارة بعد هذه الحادثة ثلاث سنوات، إلى أن عُزل عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م، وعُيِّن مكانه زهير بن سليمان بن هبة بن جمّاز.

وعاد زبيري بن قيس مرة ثانية لإمارة المدينة في نهاية عام ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م؛ بناء على توصية أمير مكة محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، الذي قام بالقضاء على معارضيه، بدعم وتأييد من السلطان الأشرف قايتباي، وتوليته سلطان جميع بلاد الحجاز[٢].

وكتب إليه مع زبيري صحبة، فجاء به الشريف إلى المدينة، واستشار أهلها، فاتفقوا على ولايته، فولّاه في ربيع الآخر سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م، بعد صرف قسيطل بن زهير بن سليمان ابن هبة، موافقة لاختيار أهل السنة، فدام شهراً[٣] ثم مات في رمضان سنة ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣م.

ومن أخباره الأخرى: أنه في سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م: جاء أمر من سلطان مصر، بإبطال المكوس بالمدينة المنورة، وتعويض أمير المدينة بربع قرية[٤].

زهير بن سليمان بن هبة الحسيني

زهير بن سليمان بن هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم ابن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨١.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٨٠، والضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٣٢.
(٣) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٨٠، والضوء اللامع: ج ٣ ص ٢٣٢.
(٤) غاية المرام: ج ٢ ص ٥٤٢.

يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

أمير المدينة المنورة في آخر سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م.

تولّى إمارة المدينة المنورة عام ٨٦٥ هـ/ ١٤٦١م خلفاً للأمير زبيري بن قيس، وطالت إمارته ولكنها لم تخل من أحداث وصدامات، بل ومن انقطاع عن الإمارة وعزل دام أربعة أشهر فقط.

بدأ زهير بالتودد إلى أهل السنّة فأزال ما علق في نفوسهم من أثر زبيري، ونال رضا السلطان في مصر، فلم يستطع أحد أن يستصدر مرسوماً باستبداله، وكان أكثر الطامعين في الإمارة جرأة ضيغم بن خشرم بن نجاد بن ثابت، فلما يئس من استمالة سلطان مصر وإقناعه بتولية الإمارة عزم على أخذها بالقوة، وجمع في عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م جموعاً كبيرة من أتباعه والعُربان المحيطين بالمدينة، وزحف بهم على حين غرة إلى المدينة، فوصلها ليلاً، وتسلق بعض رجاله السور وغلبوا حرّاس أحد الأبواب، وفتحوه، وتوزع رجاله في شوارع المدينة، وأمرهم ضيغم بالجلوس على أبواب القضاة وأعيان الفقهاء، وكل من خرج منهم لصلاة الصبح يمسكونه[٢].

فإذا قبض على وجوه المدينة تمكن من فرض نفسه على الإمارة، وكان الأمير زهير غائباً عن المدينة وينوب عنه أخوه إبراهيم بن سليمان، وعندما شعر إبراهيم بالهجوم سارع واستعان بابن عمه، وجمع رجاله وأعوانه، وأخذ يطارد رجال ضيغم في أحياء المدينة، وشاء الله أن يهطل في هذه الليلة مطر غزير جداً، بحيث امتلأت شوارع المدينة بالمياه، وجرت الأودية فيها وحولها، وهي كثيرة، وكان بعض رجال ضيغم قد اقتحموا عدداً من البيوت والدكاكين ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم، فلما هطل المطر الغزيز احتبسوا وثقلت حركتهم ولم يستطيعوا الفرار بما يحملونه

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨٥، وإنباء الغمر بأبناء العمر: ج ٨ ص ٣٦٢، والضوء اللامع: ص ٢٣٩، وبدائع الزهور: ج ٣ ص ٤٦.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٢.

بسرعة.

واستغل إبراهيم بن سليمان هذه الحالة فنشط مع رجاله في مطاردة الغزاة، فأخذ هؤلاء يلقون ما يحملونه ويفرّون، وانجلى الليل، وتوقف المطر، وأُسقط في أيدي ضيغم ورجاله، وفشلت خطته في السيطرة على الإمارة وقبض على عدد من رجاله، وكان أحدهم من الأشراف، وجُرّ في سوق المدينة فقتل.

وانسحب ضيغم وبقية رجاله وهربوا من الباب الذي دخلوا منه[1].

استفاد كل من زهير بن سليمان أمير المدينة، وضيغم بن خشرم خصمه ومنافسه على الإمارة من هذه الحادثة؛ أما زهير فقد قويت شوكته بعد فشل محاولة ضيغم في الاستيلاء على الإمارة، وأما ضيغم فقد أدرك أنّ أسلوب الاستيلاء بالقوة لن يؤتي ثماره، لذا عليه أن يسلك الأسلوب الآخر، أسلوب الدبلوماسية والوساطة، وإقناع السلطان بتحويل الإمارة إليه، فأخذ يعمل على ذلك، ورحل إلى مصر ولقي عدداً من أقاربه المقيمين فيها، ووسّط الوسطاء، وأخيراً بعد سنتين استطاع أن يستصدر مرسوماً بعزل زهير بن سليمان وتوليته مكانه، وقد وصل المرسوم إلى المدينة في شهر شوال ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م، وتسلّم ضيغم الإمارة.

أبدى زهير حكمة وتعقلاً في تصرفه إزاء منافسه ضيغم، فقد سلّمه الإمارة، ولم يثر عليه أو يقاومه، وتوجه إلى مصر بوساطات كثيرة، وكان له مؤيدون يشفعون له عند السلطان الظاهر خشقدم، ويجرّحون منافسه ضيغم لتاريخه السابق، ووجد في مصر من يُصغي إليه ويساعده عند السلطان الظاهر، كما أعانه بعض الفقهاء والقضاة الموجودون في المدينة والقاهرة وشهدوا له، وما لبث السلطان الظاهر أن أصدر مرسومه أواخر محرم عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م بعزل ضيغم وإعادة زهير بن سليمان وتثبيته في الإمارة.

ومن الطبيعي أنّ هذا المرسوم يشكل نكسة كبيرة لضيغم الذي لم ينعم

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٢٥٢-٢٥٣.

بالإمارة سوى أربعة أشهر فقط، وهو الذي قاتل من أجلها من قبل، وسعى سعياً حثيثاً للحصول عليها بعد ذلك، وقد سلّم الإمارة لزهير بضغط من القوة المسلحة المصرية التي أرسلها السلطان، ونال زهير ثقة السلطان الظاهر وثلاثة سلاطين تولوا السلطنة من بعده هم: الظاهر بلباي، والظاهر تمر بغا، والأشرف قايتباي، ومات زهير بعد سنتين من تولي قايتباي، فدامت إمارته الثانية من محرم ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م إلى أن توفي عام ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م، ولم يعزله أحد منهم[١].

قسيطل بن زهير بن سليمان الحسيني

قسيطل بن زهير بن سليمان بن هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة ابن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين ابن مهنا داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٢].

أمير المدينة المنورة في سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م.

في آخر عهد إمارة ضيغم بن خشرم أساء علاقته مع أمير مكة محمد بن بركات، وازدادت العلاقة سوءاً عندما وقعت حادثة قتل القاضي الزكوري بن صالح بسبب خلاف حول دور الأشراف العباسيين، فوصل الخبر إلى السلطان قايتباي، فأمر أمير الركب المصري بالتحقيق في الحادث، وكتب السلطان إلى شريف مكة للتدخل في الأمر، فأرسل الشريف ابنه على رأس قوة إلى المدينة، ولكن ضيغم لم يستقبلهم وخرج إلى البادية، ففي سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م صدر مرسوم من السلطان الأشرف قايتباي بتعيين قسيطل بن زهير أميراً على المدينة، وعزل ضيغم عنها،

(١) الضوء اللامع: ج ٤ ص ٢؛ والتحفة اللطيفة: ج ٢ ص ٨٥، وتاريخ الإسلام: ج ٧ ص ٦٩.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٨٦ وج ٣ ص ٤١٦ رقم ١٤٨٤، واتحاف الورى: ج ٤ ص ٣٣٥ - ٣٣٦، وغاية المرام: ج ٢ ص ٥٣١.

وذلك بتوصية من أمير مكة الشريف محمد بن بركات.

وكان والد قسيطل الأمير زهير بن سليمان قد تولّى إمارة المدينة من ٨٦٥-٨٧٤هـ/ ١٤٦١-١٤٦٩م، ثم عزل وولي ضيغم من ٨٧٤-٨٨٣هـ/ ١٤٦٩-١٤٧٨م، وعندما عزل ضيغم أسندت الإمارة إلى قسيطل، وكان قسيطل من الأمراء المعتدلين الذين حسنت سيرتهم في المدينة في بداية أمره، وكان يميل لأهل السنة(١).

وقد شهدت المدينة في إمارته حدثين كبيرين:

الحدث الأول: زيارة السلطان الأشرف قايتباي للمدينة:

في السنة التالية لتولي قسيطل الإمارة زار المدينة المنورة السلطان قاتيباي، جاء مع ركب الحج، وخرج قسيطل وعدد كبير من الأشراف ووجوه أهل المدينة لاستقباله، ووصلها فجر يوم الجمعة الثاني والعشري من ذي القعدة عام ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م.

وعندما وصل سور المدينة ترجل عن فرسه ومشى على قدميه تقديراً وإجلالاً، وأظهر التواضع والخشوع، ودخل المسجد النبوي، وصلّى الصبح في الروضة الشريفة خلف الإمام، ثم سلّم على سول الله ﷺ، ومكث مدة، ثم خرج وأمر بضرب خيامه خارج سور المدينة كي لا يزاحم أهلها بعسكره وقافلته الكبيرة، وقد أقام ثلاثة أيام كان يتردد فيها على المسجد للصلاة، فإذا رجع إلى خيامه واستراح استقبل أمير المدينة وأهلها، واطلع على أحوالهم، وفرق فيهم الأموال، وبلغ ما وزعه عليهم أكثر من ستة آلاف دينار، ثم غادر المدينة إلى مكة في الرابع والعشرين من ذي القعدة(٢).

وكان لزيارة الأشرف قايتباي أثره الطيب على المدينة المنورة، فقد أمر

(١) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤١٧.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤١١.

ببناء مدرسة من ماله الخاص، وأمر بشراء عدد من العقارات لتكون وقفاً عليها، وبلغ ما أنفق على المدرسة وتوابعها مائة وعشرين ألف دينار، وكميات من التمر والذبائح[١].

وقد أمر أن يُصرف لأهل المدينة والمقيمين فيها والواردين عليها، من كبير وصغير وغني وفقير ورضيع وفطيم وخادم ومخدوم، ما يكفيه من البر والدشيشة والخبز، وصار يحمل لذلك سبعة آلاف وخمسمائة إردب كل سنة[٢].

وأمر بإلغاء كثير من المكوس والجبايات المفروضة على أهل المدينة والقادمين إليها، ودفع لأمير المدينة ما يعوضه عنها، واستمر ذلك طوال حكمه في مصر، أي إلى نهاية القرن التاسع، ويصف السمهودي ما قدمه الأشرف قاتيباي للمدينة بأنه بلغ درجة لم يسبقه إليها أحد[٣].

الحدث الثاني: الحريق الثاني الذي أصاب المسجد النبوي:

في عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م شهدت المدينة حادثة مفجعة هي احتراق المسجد النبوي، وذلك للمرة الثانية في تاريخه، وقد سبق أن احترق عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، وكان مؤرخ المدينة السمهودي معاصراً لهذا الحريق، وكان له في المسجد خلوة فيها مكتبته القيمة، فاحترقت، واحترق فيها مسودة كتابه وفاء الوفاء، وكان السمهودي مسافراً في مكة فلم يشهد الحريق، ولكنه عندما رجع تقصّى أخباره وسجّلها في كتابه عندما كتبه للمرة الثانية.

وحدث هذا الحريق -هذه المرة- بفعل صاعقة أصابت المسجد، وذلك في الليلة الثالثة عشر من شهر رمضان عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، ويبدو أنّ منطقة الشرق الأوسط كانت تشهد تقلبات في المناخ، فيها رياح وأمطار وصواعق، فيذكر ابن

(١) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤١١.
(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٤١١.
(٣) وفاء الوفاء:: ج ٣ ص ٤١١.

أياس أنّ مصر شهدت في هذه الفترة نفسها تقلبات جوية غير مألوفة، ثارت الرياح من جهة الغرب وكانت عاصفة جداً وأظلم بسببها الجو وأرعد وأبرق ثم أمطرت السماء مطراً غزيراً، وجاء الخبر من دمياط أنّ الريح قلعت عدة أشجار وهدّمت بعض الأماكن وأغرقت بعض المراكب وكانت مهولة جداً(١).

ونفهم من وصف السمهودي أنّ تلك الليلة كانت كثيرة الغيوم، يدوي فيها الرعد القاصف، فالوقت شتاء، وقبيل الفجر صعد المؤذنون إلى المنارات يهللون، وكانت العادة أن يهلل المؤذنون قبل طلوع الفجر في رمضان ذكراً لله وتنبهاً إلى قرب وقت الإمساك.

وقد قام رئيس المؤذنين شمس الدين محمد بن الخطيب يهلل بالمنارة الشرقية اليمانية، المعروفة بالرئيسية مع بقية المؤذنين، وقد تراكم الغيم، وحصل رعد قاصف، فسقطت صاعقة أصاب بعضها هلال المنارة الرئيسية، فسقط شرقيّ المسجد له لهب كالنار، وانشق رأس المنارة، وتوفي الرئيس لحينه صعقاً، وأصاب ما نزل من الصاعقة سقف المسجد الأعلى عند المنارة المذكورة، فعلقت النار فيه وفي السقف الأسفل، ففتحت أبواب المسجد، ونودي بأنّ الحريق في المسجد.

اجتمع أمير المدينة قسيطل بن زهير الجمازي وأهل المدينة بالمسجد كلهم، وصعد أهل النجدة بالمياه لطفئ النار، وقد التهبت آخذة في الشمال والمغرب، فعجزوا عن طفئها، وكادت تدركهم، فهربوا ونزلوا بما كان معهم من الحبال لاستقاء الماء إلى شمالي المسجد، وسقط بعضهم فهلك، ولجأ بعضهم مع من حالت النار بينه وبين الأبواب إلى صحن المسجد.

ومات في هذا الحريق المذكور زيادة على عشرة أنفس، وعظمت النار جداً، واستولت على سائر سقف المسجد وما فيه من خزائن الكتب والربعات والمصاحف، غير ما بادروا بإخراجه، وغير القبة التي بالصحن، وذلك كله في نحو

(١) البدائع: ج ٣ ص ١٨٧، وتحفة لب اللباب: ص ٢٣٥.

عشر درج، وصار المسجد كبحر لجيّ من نار ترمي بشرر كالقصر، ويسقط شررها على بيوت الجيران فلا يؤذيها.

هرب كثير من الناس لما رأوا تساقط الشرر، وخرج بعضهم من باب المدينة؛ لعظم ما شاهدوه من الهول، وظنوا إنهم أحيط بهم.

ثم لما أصبحوا، ابدءوا بطفيء ما سقط على القبة التي جعلت بدلاً عن سقف الحجرة الشريفة، وكان الذي سقط عليها حريق القبة الزرقاء الظاهرة بالسقف الأعلى ورصاصها وسقف المسجد الأسفل الذي كان بين القبتين والشباك الذي بأعلى الحائز، ولم يصل إلى جوف الحجرة الشريفة شيء من هدم هذا الحريق.

وقد أثرت هذه النار في أحجار الأساطين، وهي من الأسود حتى تهشم بعضها، وتفتت وعدّة ما سقط منها مائة وبضع وعشرون أسطوانة، ومنّ الله تعالى أيضاً بسلامة الأساطين الملاصقة للحجرة الشريفة، وأحترق المنبر، وصندوق المصلّى الشريف وما يعلوه من الأخشاب، والمقصورة التي كانت حول الحجرة الشريفة، وسقطت أكثر عقود المسجد التي تلي صحنه وعلو المنارة الرئيسية.

ثم كتبوا للسلطان الأشرف قايتباي بذلك، ونظفوا مقدّم المسجد، ونقلوا هدمه إلى مؤخره، وعمل في ذلك أمير المدينة وقضاتها وعامة أهلها حتى النساء والصبيان تقرباً إلى الله تعالى، وفي ذلك كله عبرة تامة، وموعظة عامة[1].

وأمر السلطان بإعادة بناء المسجد، وجهزه بالأموال والصنّاع والمعدّات اللازمة[2]، كما أمر ببناء عدد من المنشآت والأربطة التي ساعدت على تنشيط الحركة الاقتصادية في المدينة.

وفي نهاية عام ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م وصل إلى أسماع السلطان أنباء غير سارة عن الأمير قسيطل فعزله وولّى مكانه الأمير زبيري النعيري، ولا تذكر المصادر التي بين

(١) وفاء الوفاء: ج ٢ ص ٦٣٦، تحفة لب اللباب: ص ٢٣٥-٢٣٧.
(٢) تحفة لب اللباب: ص ٢٣٧-٢٤١.

يدينا شيئاً عن حياة قسيطل بعد هذا التاريخ.

الحسن بن زبيري بن قيس الحسيني

الحسن بن زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير بن منصور ابن جمّاز ابن شيحة ابن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داوود بن قاسم ابن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب(١).

أمير المدينة المنورة في يوم الثلاثاء ٦ ربيع الأول ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م. وليها بعد موت أبيه نيابة عن صاحب الحجاز محمد بركات(٢).

كان الحسن في بداية إمارته محمود السيرة يحسن معاملة أهل المدينة فأحبه الناس، وفضّلوه على سلفيه قسيطل بن زهير وضيغم بن خشرم، ومنذ بداية عهده أسند السلطان المملوكي -وكانت الحجاز تتبعه سياسياً- أمر الإشراف على المدينة المنورة، والتصرف في الأمور الكبيرة إلى أمير مكة الشريف محمد بن بركات.

فمنذ أن أسند أمر الأشراف على المدينة المنورة إلى الشريف محمد بن بركات تقلصت سلطة أمير المدينة، وتقلص دخله، ومع أنه المتصرف الحقيقي في الشؤون العامة، ولكنه يخضع لإشراف أمير مكة؛ فلا يستطيع أن يعيّن أحداً في المناصب المهمة إلا يعد استئذان أمير مكة أو إجازته، أما كبار موظفي المسجد النبوي والقضاة فيعينون من قبل السلطان في مصر مباشرة، ويصدر لهم مرسوم بذلك.

وقد أدّى تقلص النفوذ هذا إلى وجود مسؤول مالي يحاسبه أمير مكة وليس

---

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٧٩ رقم ٩٣٤، وبدائع الزهور: ج ٣ ص ٣١٨، ورسائل في تاريخ المدينة: ص ٥٧.

(٢) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٢٩، ورسائل في تاريخ المدينة: ص ١٨٤.

أمير المدينة، وصار أمير المدينة نائباً لأمير مكة، يذكر اسمه في الخطب بعد السلطان وبعد أمير مكة، وتقلص دخله، وصار حصة محددة من الجبايات وصندوق الصدقة، بينما كان من قبل المتصرف الوحيد بدخل الإمارة[1].. فشحَّت موارد الأمير وقلّ راتبه.

وتنقل المصادر عنه بأنّ أمير مكة الشريف محمد بن بركات أخذ نصيبه من دخل الجمارك (المكوس والضرائب المفروضة على المستوردات) في مدينة جده، ومقداره «ألف دينار»[2] فكثرت ديونه.

وكان لهذا الأمر تداعياته الخطيرة على أمير المدينة، الذي أصبح يستدين من بعض التجار والأشراف، فكثرت ديونه، وليس له موارد تعينه على سدادها، وكان حوله ثلة من الرجال من عائلته وأقربائه وأصحابه، ولا بد أن ينفق عليهم جميعاً..

وشاع خبر بأنّ الأمير بدأ يفكر بمصادرة أموال بعض الأثرياء، وأنه اختار أربعة عشر نفساً من مياسير البلد للقبض عليهم، وأنَّ زوجته نصحته بالعدول عن ذلك[3]، فتحولت أنظاره إلى ذخائر الحرم النبوي والأموال الموجودة في الحجرة النبوية، وكانت تأتيها الأموال من الآفاق للإنفاق على احتياجات المسجد النبوي، وكان فيها قناديل ذهبية وجواهر ثمينة لا تقدر بثمن.

وفي يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م توجه الأمير حسن بن زبيري إلى المسجد النبوي في جمع كبير من رجاله، فيهم بعض إخوته وبعض الأشراف وحرسه، فلما وصلوا إلى المسجد النبوي وجدوا فيه بعض الزوار والمصلين، فأمر حسن بإخراجهم وإغلاق أبواب المسجد كلها.

وأغلقت أبواب المسجد، ونتشر رجاله المسلحون في أرجائه ووقف بعضهم

---

(١) وفاء الوفاء: ج ٢ ص ٥٩١.
(٢) رسائل في تاريخ المدينة: ص ١٨٣.
(٣) رسائل في تاريخ المدينة: ص ١٨٤.

خارجه عند الخيل والركاب، وأمر بإحضار المسؤول الأول عن المسجد الخازندار إيدي الرومي، فحضر الخازندار، وجلس حسن يحدثه عن الأزمة التي يمر فيها وحاجته الشديدة للمال، وطلب منه مفتاح غرفة الذخائر ليأخذ منه ما يسد هذه الحاجة، وتعلل بنسبه إلى رسول الله ﷺ وبمنصبه، ولكن الخازندار اعتذر عن إعطائه المفتاح؛ لأنه مؤتمن عليه، ولا يحق له أخذ شيء من أموال المسجد النبوي. فاشتد عليه الأمير حسن فأصر على رفضه.

وغضب الأمير وأمسك بالخازندار وسحبه إلى صحن المسجد، وقاومه الخازندار وعضه من يده فاشتد غضبه، وأمر رجاله بضربه فضربوه ضرباً شديداً وكادوا أن يقتلوه لولا أن تدخل أحد الأشراف فأنقذه منهم، وفتشوه فلم يجدوا المفتاح معه، ورفض أن يدلهم عليه أو يحضره لهم، فأمر الأمير حسن بكسر أقفال غرفة الذخائر. فاتجه بعض الرجال إلى الغرفة وبدءوا بتكسير الأقفال.

ارتاب الناس خارج المسجد من إغلاق الأبواب ووقوف ركائب الأمير وبعض حرسه عند باب الرحمة، فاتجهوا إلى باب النساء في الجهة المقابلة وتجمعوا عنده؛ ليستطلعوا الأخبار عما يحدث داخل المسجد. وسمع الجنود داخل المسجد الضجة فأبلغوا حسن بن زبيري بتجمع الناس، وظن حسن أنّ هناك من يقاومه، فأمر بعض جنوده بالصعود إلى المئذنة الشرقية التي تشرف على باب النساء، ورمي المقاومين بالنشاب، فصعد أولئك ولم يجدوا شيئاً من المقاومة أو المسلحين.

وفتح باب الحجرة النبوية، فدخل حسن ووجد في صندوق المال مبلغاً كبيراً ومجوهرات كثيرة، ووجد في الغرفة قناديل ذهبية، فأمر الجنود بتعبئة المال في أكياس صغيرة والقناديل في غرارات، فملأت القناديل عشر غرائر والدنانير والجواهر بضعة أكياس، ثم اتجه الجنود إلى خزائن المسؤولين عن الحرم فكسروا أقفالها وأخذوا ما وجدوه فيها من أموال ومقتنيات ثمينة. ثم فتحوا باب الرحمة وحملوا المنهوبات على الخيل، وتوترت أعصاب حسن بن زبيري وبعض رجاله

وخافوا أن يكون أحد من خارج المسجد قد درى بما يفعلون فيهاجمونهم فور خروجهم من المسجد النبوي، فشهروا سيوفهم، وطلب حسن بن زبيري أن يدخلوا حصانه، فأدخلوه إلى قرب الحجرة الشريفة المنهوبة. فركب وخرج به من المسجد، وحملت الخيول الأخرى أكياس المنهوبات.

لم يكن أحد خارج المسجد يدري ماذا يحدث داخله، وخرج بعض الخدم من المسجد يخبر بما كان، وأسرع بعضهم يسعف الخازندار. وبعد انتشار الخبر ساد الناس اعتقاد بأنّ الأمير لن يكتفي بما حصل عليه وأنه سيطلق رجاله في الدكاكين والبيوت يسرقون وينهبون. وتحولت الدهشة إلى فزع حقيقي. وتفرق الناس إلى بيوتهم يتحدثون عما جرى وعما يخشونه.

وحان وقت الظهر فلم يأت أحد إلى المسجد النبوي وعطلت صلاة الجماعة. وأحس رجال الأمير بالهلع الذي ركب الناس، ورأوا الدكاكين تغلق والشوارع تفرغ من المارة، فنقلوا ذلك إلى الأمير حسن. فأمر الأمير حسن بأن ينادى في السوق والشوارع بالأمان وأن يرجع الناس إلى بيعهم وشرائهم في حماية رجاله، ولكن الناس لم يطمئنوا، ولم تفتح الدكاكين وظلت الشوارع شبه خالية، وتحرك رجال حسن بن زبيري ثانية فجمعوا الصائغين من بيوتهم وأخذوهم مع معداتهم إلى حصن الأمير عند جبل سلع، حيث أمروهم أن يصهروا المقتنيات الذهبية من قناديل وغيرها ويسكبوها عملة ذهبية، وأبلغوهم أنهم سيظلون محتجزين بالحصن حتى يفرغوا من عملهم، وأغلقت أبواب سور المدينة.

استطاع أحد الأشراف، واسمه شهوان الحسيني، أن يتسلل خارج المدينة، ويقصد ينبع لإخبار أميرها وطلب النجدة منه، واستمر الأمر على هذه الحال بقية اليوم، وكان بعض فقهاء المدينة وأعيانها خارج السور عندما وقعت الحادثة، فلما رجعوا ورأوا الأبواب مغلقة تسلقوا السور ليلاً ودخلوا المدينة، وأخفى الناس أموالهم وحليهم وممتلكاتهم الثمينة، واستغل الأمير حسن بن زبيري خوف الناس واختباءهم في بيوتهم، فوزع على رجاله ومن حضر معه بعض المال، وأرسل بعضه

الآخر ليخبأ في بيوت بعض أصحابه ومعارفه أملاً في أن يستفيد منه بعد حين، واستمر الحال على ما هو عليه في اليوم التالي، وتعطلت الأعمال طيلة يوم الأربعاء، فلم تفتح الدكاكين ولم يخرج العمال والمزارعون إلى أعمالهم ومزارعهم، واستاء الأمير لذلك، فأرسل رجاله إلى أعيان المدينة يحلفون على لسانه أنه لا يريد بأهل المدينة شراً، وأنه قد قد أمَّن الناس حقاً، وأنه اضطر إلى ما فعله ليسد حاجته، ولكن رسله لم تغير من الأمر شيئاً.

وفي المساء سمع الناس ضجة من جهة حارة الحزام قرب باب البقيع، وفسر بعضهم الضجة بأنّ بعض الغزاة قد أغاروا على المدينة وسيدخلونها من باب البقيع، وتحول هذا التفسير إلى شائعة بين أهل المدينة، وارتجت البلد وخرج بعض الفقهاء والأعيان بعيالهم إلى المسجد، وتبعهم الناس حتى غص المسجد بالرجال والنساء والأولاد يحتمون به من الغارة المتوقعة وباتوا فيه تلك الليلة، ولم يحدث ما كانوا يخشون منه.

ومضى يوم الأربعاء، وانتهى الصاغة المحتجزون في الحصن من صياغة المنهوبات وسكها دنانير ذهبية، وعادت رسل الأمير إلى وجوه المدينة تؤكد لهم أنهم في أمان، وأرسل الأمير بعض رجاله إلى تجار كانوا قد وصلوا المدينة قبل الحادثة بقليل، واشتروا منهم ستة عشر حملاً من القمح، ودفعوا ثمنها، وانتشر الخبر بين الناس وكان الأمير يقصد انتشاره بينهم ليتأكدوا أنه لن يتعرض لهم بشيء، وعند الظهر فتح باب حصن الأمير، وخرجت منه قافلة تحمل الأمير وعائلته وشركاءه في السطو وعدداً آخر من رجاله، واخترقت شوارع المدينة إلى بابها، وفي الطريق توقف الأمير عند بيوت بعض الفقهاء والأعيان وأخبرهم بعزمه على ترك المدينة، وقال لهم: أي شيء ينقم عليّ أهل المدينة؟! هل تعرضت لأحد منهم بسوء، أو هاجمت بيته أو غصبت ماله؟ وإنما أخذت -حين الغلبة- نذر جدي[١]. وأمر بعض الفقهاء أن يقول: إنّ الأمير اضطر لأن يأخذ الأموال من المسجد النبوي،

(١) رسائل في تاريخ المدينة: ص ١٨٥.

وإنّ الشريف محمد بركات أمير مكة والحجاز هو الذي ألجأه لذلك، إذ لم يترك له شيئاً من دخل الإمارة يغطي نفقاته، وشاطره في الميراث[١].

وخرجت القافلة من باب المدينة والناس يشيعونها بنظرات الخوف والغضب والازدراء.

فارس بن شامان الحسيني

فارس بن شامان بن زهير بن زيان بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحي بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الحسيني[٢].

أمير المدينة المنورة في رجب سنة ٩٠١-٩١٦هـ/ ١٤٩٦-١٥١٠م.

ظلت المدينة المنورة بعد حادثة خروج حسن بن زبيري منها من دون أمير، فاجتمع قضاة المدينة وكبار أعيانها في المسجد النبوي يتشاورون فيما يفعلونه، فاستقر رأيهم أن يقوم أهل المدينة أنفسهم بحراستها، وأن ينتدب بعض الشجعان لحراسة السور في مناطق ضعفه، وأن تُسمَّر الأبواب، فندبوا الشريف سرداح الحميضي لحراسة السور مع مجموعة من الرجال الأشداء، وأن يقوم سكان كلّ حيٍّ بحراسة حيِّهم والتناوب على السهر فيه ليلاً، ومع هبوط الليل كان في كلِّ حيٍّ عدد من الرجال يتناوبون الحراسة، وكان الشريف سرداح وجماعته يطوفون بالسور.

وفي يوم الجمعة أقيمت صلاة الجمعة في المسجد النبوي وقطع الخطيب اسم الأمير حسن بن زبيري من الخطبة ودعا عليه أن ينتقم الله منه.

---

(١) رسائل في تاريخ المدينة: ص ١٨٥.

(٢) التحفة اللطيفة: ج ٣ ص ٣٩٢ رقم ٣٤٢٩، وأعيان الشيعة: ج ٧ ص ٣٢٧، والأعلام: ج ٥ ص ١٢٧، ورسائل في تاريخ المدينة: ص ١٨٦.

وعند المساء وصل إلى باب المدينة أحد الأشراف المقيمين في ضواحيها، وهو الشريف ضيغم بن خشرم، أمير المدينة السابق، ورجاله، ولم يدخل المدينة، فخرج إليه بعض أعيانها وحدثوه بما فعله حسن بن زبيري ابن عمه فاستفظع ذلك وأخذ يبرأ من الله من فعله، ورأى ما به من خوف، فعرض عليهم أن يتولّى حماية المدينة فشكروه على ذلك وجمعوا له مبلغاً من المال[١].

اطمأن الناس شيئاً ما إلى حماية الشريف ضيغم، وكان الشريف ضيغم يأمل أن يكافئه أمير مكة الشريف محمد بركات أو السلطان في مصر على هذه الحماية فيعينه أميراً على المدينة، واجتهد في حمايتها وتوفير الأمن فيها ليلاً ونهاراً ووزع رجاله في شوارعها وأسواقها، وبدأ الناس يعودون إلى أعمالهم بحذر شديد، وبعد مرور أسبوع كامل على الحادثة اطمأن الناس إلى أنّ حسن بن زبيري لن يعود إلى المدينة، فدعا القاضي فقهاء المذاهب الأربعة وكبار الأعيان وكتب الجميع محضراً بما حدث وأرسلوه إلى السلطان في القاهرة.

وفي صباح اليوم التالي الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م، وصل أمير ينبع درّاج استجابة لاستغاثة الشريف شهوان الحسيني، ومعه خمسة وأربعون فارساً وأكثر من ثلاثمائة راجل. فاستقبلهم أهل المدينة بفرح شديد، وأنزلوهم في أكبر دار في المدينة دار المنصور وضيفوهم، وانتشر رجال دراج في أنحاء المدينة وحول سورها، وشعر أهل المدينة بالأمان.

مكث الأمير درّاج في المدينة يومين والتقى خلالهما بوجهائها، وناقش معهم من يتولى الإمارة، واتفق الجميع على أن تبقى المدينة تابعة لإمارة مكة وأن يقوم الشريف محمد بن بركات بتعيين أحد أولاده أو من يراه نائباً له فيها، وكتبوا محضراً بذلك وأرسلوا نسخة منه للسلطان، وحمل الأمير دراج نسخة أخرى إلى الشريف محمد بن بركات في مكة.

(١) رسائل في تاريخ المدينة: ص ٤٠.

استمر الأمر على هذه الحال إلى منتصف جمادى الأولى حيث وصل مرسوم من السلطان في مصر يلبي طلب أهل المدينة في المحضر الذي أرسلوه، ويثبت الشريف محمد بن بركات مسؤولاً عن إمارة المدينة ويعهد إليه باختيار من ينوب عنه في إدراة شؤونها، ويكلفه بتعقب حسن بن زبيري ولو كان في رؤوس الجبال لمعاقبته على ما ارتكبه. فسارع الشريف محمد بن بركات لتعيين ابن خاله وزوج ابنته -خزيمة- فارس بن شامان الحسيني نائباً عنه[1]. وكلّفه باستعادة الأموال المنهوبة، والبحث عن الحسن بن الزبيري ومعاقبته.

كان الأمير فارس عاقلًا حازماً، فتوجه إلى المدينة ووصلها في السادس عشر من شهر رجب في مجموعة كبيرة من الجنود، وتلقاه أعيان المدينة وقضاتها على مداخل البلدة، وسألوه أن ينتقم من حسن بن زبيري وأعوانه، وأن يتتبع المنهوبات التي أودعت في بعض البيوت، فاهتم الشريف فارس بذلك اهتماماً كبيراً وطلب منهم أسماء من يظنون وجود المنهوبات عندهم.

وفي اليوم التالي طاف رجال الأمير على بيوت من حام الشك حولهم، فقبضوا عليهم، وضربوهم ضرباً شديداً فأقرّوا بما لديهم، ودلّوا على منهوبات أخرى مودعة عند أشخاص آخرين، وبدأت المنهوبات المودعة تظهر تباعاً، وكان بعضها مما ضرب دنانير وبعضها بقي على حاله، وقد بلغ الخازندار الشريف فارس أنّ بعض الصاغة استطاعوا أن يهرّبوا شيئاً من المنهوبات، وكانوا قد ضربوا بعضها قطعاً صغيرة، فأخذت منهم وفرضت عليهم غرامات أخرى تُؤخذ من ممتلكاتهم، وقرَّر الشريف فارس أن يخرج كلّ من يثبت تواطؤه في هذه الجريمة البشعة من المدينة، فأخرج الصاغة والمتسترون مع ذراريهم ومنعوا من أخذ شيء معهم إلا الزاد، وساروا في موكب ذليل، وصودرت جميع ممتلكاتهم ومنعوا من الذهاب إلى مكة أو ينبع، وفرض عليهم السير شرقاً باتجاه نجد، وقاسوا من الإهانة والمرارة شيئاً كثيراً، فرقّت لهم قلوب بعض أهل المدينة، وتشفعوا فيهم لدى الشريف فارس

---

(١) سمط النجوم: ج ٤ ص ٢٨٢.

ورجوه السماح لهم بالعودة إلى المدينة ورد ممتلكاتهم والاكتفاء بما لقوه من إهانة، فقبل الشريف شفاعتهم وسمح لهم بالعودة إلى المدينة.

وقد بلغ مجموع ما استرد من المنهوبات أكثر من عشرة آلاف دينار فضلاً عن القناديل التي لم تُصهر، ولكن لم تسترد جميع المنهوبات فقد فرّ حسن بن زبيري بما حمله، وربما دفن بعضه في الرمال، وظل حسن طريداً لا يجرؤ على الاقتراب من المدينة مدة طويلة، وتخلّى عنه جميع أصحابه، ولم يؤوه إلا عُربان آل نعير(١).

استتب الأمن في ظل الشريف فارس، وعادت الحياة في المدينة المنورة إلى مجراها الطبيعي، وسُدّت الثغرات التي حدثت في السور وأُصلحت التصدعات التي ظهرت في بعض نواحيه، ولكن الشريف فارس لم يطل المكث في المدينة المنورة إذ استدعي إلى مكة بعد موت الشريف محمد بن بركات عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٨م، ونشب الصراع العنيف بين أبنائه، وبخاصة ابنه بركات الذي تولى الإمارة بعد أبيه وأخيه هزاع(٢).

وشغل أمراء مكة عن أمر المدينة فعاد إليها أمراؤها من أشراف المدينة وعاد لها استقلالها طوال مدة النزاع، ويروى أنه عاد إلى إمارة المدينة حيث استقل بالإمارة عن مكة وبقي فيها حتى وفاته عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م(٣).

مانع بن زبيري الحسيني

مانع بن زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن

---

(١) رسائل في تاريخ المدينة المنورة: ص ١٨٣-١٨٧، ووفاء الوفاء: ج ٢ ص ٥٩٠، والتحفة اللطيفة: ج ١ ص ٤٧٩ و ص ٢٩٣.
(٢) تاريخ مكة للسباعي: ص ٣٠٩.
(٣) الأعلام: ج ٥ ص ١٢٧.

طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الحسيني[1].

أمير المدينة المنورة في حوالي سنة ٩١٦-٩١٩هـ/ ١٥١٠-١٥١٣م، ثم في سنة ٩٦٣هـ ورد في ترجمة أخيه الحسن بن زبيري: استمر الحسن بن زبيري مفصولًا من إمرة المدينة، وهو يخبط في البر، حتى فوض إمرة المدينة لأخيه مانع، فسكن أمره، وتردد إلى المدينة ومات بها.

وليس لدينا من مصدر آخر أي دليل على تاريخ تعيينه أو عزله فيما بعد، سوى التسلسل الزمني لأمراء المدينة حيث نعتقد أنه ولي بعد وفاة فارس بن شامان سنة٩١٦هـ/ ١٥١٠م.

وقد ترجم له صاحب سمط العوالي: «كان من أجل الأمراء قدراً، وأرفعهم ذكراً، حيث كان من عوايد أمراء المدينة السابقين له، يقدمون لبني عمهم السادات بني الحسين ولعُربان عنزة، ومطير ونحوهم، مواجب ومرتبات من الأموال الجزيلة، والحبوب والأقمشة الجليلة، فمنعهم من ذلك الأمير مانع استخفافاً بهم وعدم مبالاة فجمع الناس هؤلاء ضده.. فلما خرج الحاج المدني على عادتهم أواخر ذي القعدة، وأصبحوا بوادي الفريش، صحبتهم الطوائف المذكورون في جمع من الأعراب عظيم، ومن العربان، نجيل عبد الرحمن قاضي المدينة، والجناب العالي الأمير محمد بن حسن، وشيخ الحرم المدني، وأعيان المدينة من وجوه العرب، وسادات بني الحسين، فكان موقفاً شنيعاً، ومنظراً قبيحاً، وقع فيه قتل وسلب، وطعن وضرب... ولما وصل الأمر إلى الشريف حسن والي الحجاز ومكة، سكت حتى انقضت أيام رسم المناسك، حيث هاجمهم واعتقلهم ودخل بهم المدينة بالجنازير وتعجب الناس من دخول الأشراف بالجنازير وهم أولاد الأمراء، وتحققوا من عظم مولانا الشريف حسن، وحسب رواية الخبر فإن من الأشراف أيضاً كان في

(١) التحفة اللطيفة: ج ١ ص ٣٥١ رقم ٥٨١ وج ١ ص ٤٧٩ رقم ٩٢٤، والأعلام: ج ٥ ص ١٢٧، وسمط العوالي: ج ٤ ص ٣٥٦.

تلك المعركة: آل نعير يقدمهم منصور بن محمد أمير المدينة المنورة وابن أميرها سابقاً وأولاد جمّاز... »[١].

وبعد تلك الحادثة أطيح نهائياً بالأشراف الحسينيين من حكم المدينة المنورة وعلى رأسهم مانع الحسيني هذا الذي لم نعد نسمع له ذكراً.

وبدخول الحجاز تحت سلطة العثمانيين بدأت مرحلة جديدة في حياة المدينة المنورة، وهي مرحلة أثرت في حياتها الاجتماعية والسكانية والثقافية أكثر مما أثرت في حياتها السياسية، فقد كانت تابعة لإمارة مكة، وهذا ما أثر عليها وحدّ من نشاطها معظم العهد العثماني.

وعندما أعلن أبو نُمَي بن بركات الولاء للعثمانيين أعلنه عن منطقة الحجاز كلها، وسلم السلطان العثماني مفتاحاً اعتبر مفتاح الحرمين الشريفين، ولقب السلطان آنئذ.

وقد أصدر السلطان سليم مرسوماً بتثبيت الشريف بركات أميراً على مكة وما تبعها، أي ما كان تحت سلطانه الفعلي، فأصبحت ولايته على المدينة المنورة جزءاً من إمارته بحكم مرسوم السلطان، وظل أمراؤها على ما كانوا عليه من الضعف والعجز عن التصرف، بل وشحت الموارد الاقتصادية، ومما يزيد الضعف هذا أنّ أمير مكة كان يرسل أحياناً بعض أقاربه ليكونوا نوابه في المدينة، وتكون لهم السلطة الفعلية في تصريف الأمور رغم وجود الأمير الحسيني العاجز عن فعل شيء، بل إن هذا الأمير معرض للعزل وتعيين شخص آخر من الأسرة الحسينية محله وبسهولة.

إنّ سلطة تصريف الأمور في المدينة المنورة تحولت من الأمير الحسيني وأصبحت موزعة بين شيخ الحرم ورئيس الحامية العسكرية والقضاة، ومن هنا غاب ذكر الأمراء الحسينيين، وغابت أسماؤهم عن كتب التاريخ، وابتعدوا عن الأحداث، وتحولت إمارتهم إلى منصب شرفي أخذ يفقد قيمته الاسمية شيئاً

(١) سمط العوالي: ج ٤٤ ص ٣٥٦.

فشيئاً، مقابل ازدياد نفوذين مختلفين، نفوذ أمير مكة، وهو أمير الحجاز كله، والنفوذ التركي الجديد[١].

لكن هذه العزلة السياسية أتاحت فرصة كبيرة للازدهار العلمي، فكان المسجد النبوي مليئاً بحلقات العلم والمتعلمين، وبلغت المدارس درجة عالية من النشاط، وظهر عدد كبير من العلماء والشعراء.

ولعبت التوظيفات الرسمية دوراً مهماً في إعادة تشكيل المجتمع المدني، وكان القادمون من أولي المناصب الكبيرة يحتلون مكانة رفيعة في المدينة المنورة، وخاصة شيخ الحرم الذي يُعيَّن من الآستانة مباشرة، وكانت الدولة العثمانية تنظر إلى هذه الوظيفة على أنها من الوظائف المهمة؛ لمكانتها الدينية، وكان ينتقى لهذا المنصب شخصية ذات مكانة مرموقة تتصف بالعلم والتقوى، وقبل منتصف القرن الحادي عشر الهجري ارتفعت مكانة شيخ الحرم ليصبح مركزاً من مراكز القوة والنفوذ، وفوضت إليه الدولة العلية جميع أحكام السياسة بالمدينة المنورة، ولا يعني هذا استقلالية المدينة المنورة سياسياً، بل ظلت تابعة لإمارة مكة، وكان الأمير آنئذ الشريف زيد بن محسن الذي حكم من (١٠٤١-١٠٧٧هـ/ ١٦٣١-١٦٦٦م) إنما يعني إيجاد نفوذ رسمي لشيخ الحرم، فيؤخذ برأيه -غالباً- في تعيين قاضي المدينة وفقيهها، وتقبل شكواه فيهم، ويعزلون إذا طلب عزلهم، وقد تطور الأمر بعد ذلك بحيث أسند إليه تعيين بعض القادة العسكريين في الفرق المقيمة في المدينة المنورة.

وبالرغم من تبعية المدينة المنورة لإمارة مكة تبعية سياسية كاملة؛ فإنّ الأحداث أحياناً تخرج عن يد السلطة، ففي سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م نشب صراع على الإمارة بين أبناء الأسرة الحاكمة في مكة (آل الحسنيين) وكان الأمير وقتئذ محمد بن عبد الله بن حسن بن أبي نُمي يشاركه الشريف زيد بن محسن، وقد

---

(١) الكواكب السائرة: ج ١ ص ١٢٢، وتاريخ مكة: ص ٣١٦.

نافسهما على الإمارة الشريف نامي بن عبد المطلب بن حسن بن أبي نُمي -وهو ابن عمهما- واستعان بعدد من الجنود الأتراك الذين أرسلوا إلى اليمن في ذلك الوقت، ففروا من الخدمة، ونزلوا في القنفذة، فاتصل بهم الشريف نامي، وأقنعهم بمساعدته في الهجوم على مكة، فأعانوه، وزحف بهم إلى مكة، وحدثت معركة بينهم وبين الشريف محمد بن عبد الله، وزيد بن محسن أميري مكة، وقتل محمد بن عبد الله، وهرب الشريف زيد بن محسن إلى المدينة، فدخل الشريف نامي والجنود الأتراك مكة وتولى إمارتها، ووجد الشريف زيد بن محسن في المدينة المنورة الأمن والمساعدة من أبناء عمومته، فأمن مطاردة رجال الشريف نامي، وما أن استقر به المقام حتى أخذ يخطط لاستعادة الإمارة من الشريف نامي والقضاء على قوته، ولكن أبناء عمومته لم يكونوا راغبين في خوض حرب ضد الشريف نامي والجنود الأتراك، ولم يكونوا متهيئين، لهذه الأسباب حاول الشريف زيد مراسلة والي مصر الذي يمثل الدولة العثمانية عن طريق رجل من أبناء عمومته المدنيين وهو علي بن هيزع[1] ليشرح له الأوضاع ويستدر عطف الوالي، فحصل ما أراد، وكتب الوالي إلى مقر الخلافة يستأذنها في مساعدته ضد الشريف نامي، وكانت رسالة الشريف زيد قد سبقت إلى الآستانة، فصدرت موافقة الآستانة على إرسال قوة عسكرية لمساعدة الشريف زيد وتثبيته في الإمارة، وجاءت مع الموافقة خلعة سلطانية تؤكد مباركة دار الخلافة لإمارته، فجهز والي مصر حملة قوامها ثلاثة آلاف جندي، وأرسلها إلى ينبع وأرسل مع علي بن هزاع وفداً برئاسة محمد أرض رومي وعدد من خواصه يحملون الخلعة السلطانية والخطابات المؤيدة، فجاءته إلى المدينة، واحتفى بها الشريف زيد مع أقاربه، وذهب إلى المسجد النبوي ولبس الخلعة السلطانية في الروضة الشريفة تيمناً وتفاؤلاً بالنصر، ومن ثَمَّ ذهب إلى منطقة الجموم سائراً إلى مكة، فلما علم الشريف نامي بالخبر انسحب برجاله شرقاً، فأصبحت مكة دون أمير ولا حامية فيها، فأسرع الشريف زيد لتسلم مقاليد الإمارة بمكة المكرمة، وذلك في صباح السادس من ذي الحجة عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م، ولم ينس الشريف زيد لأهل

(١) سمط النجوم العوالي: ج ٤ ص ٤٤٥، تاريخ أمراء البلد الحرام: ص ٢٣٧.

المدينة فضلهم ووقوفهم إلى جانبه، فأرسل بعض الأموال والقمح والثياب إليهم، وزاد من حصتها مما يرد من مصر إلى الحرمين الشريفين[١].

وظلت العلاقات بين الشريف زيد وأهل المدينة حسنة مدة طويلة، ثم اضطربت وكادت تتحول إلى مصادمة وحرب، لولا رحمة الله وحسن تدبير الشريف زيد، حيث خرج من تلك الحادثة، وقد ازداد الأمن والطمأنينة في المدينة المنورة، وظل اسم الشريف زيد يفزعهم طول مدة إمارته إلى أن توفي ١٠٧٧هـ، وعندما تولى إمرة مكة المكرمة ابنه الشريف سعد، شهدت المدينة أحداثاً غير طبيعية فقد ضيق على أهلها، وأخذ نائبه فيها الناس بشيء من الشدة لم يعهدوها من أبيه من قبل، وتدخل في الوظائف والتعيينات التي كانت متروكة لشيخ الحرم وقادة العسكر، ولم يرسل ما كان أبوه يرسله من الصدقات والمعونات لأهل المدينة، فتضايق أهل المدينة، وأرسلوا العرائض إلى مصر والآستانة يشكون من سوء المعاملة، وتم إرسال رسول من قبلهم حتى أنَّ الشريف سعد تراجع عن شدته معهم، لكن تلك الأزمة لم تنته بعد، وحدثت صراعات بين الشريف سعد وحسن باشا، إلى أن تم عزل الأخير وانتصر الشريف سعد وعاد إلى إمارته[٢]، لكن هذه الأحداث قد أثرت تأثيراً كبيراً على مكانة الأمير، وما لبثت أن عصفت بإمارته، فقد بذل خصومه جهوداً كبيرة لإقناع المسؤولين في دار الخلافة بضرورة عزله، وقبل أن ينتهي عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م صدر الأمر بعزل الشريف سعد وتولية الشريف بركات بن محمد، حيث حاول الشريف بركات استرضاء أهل المدينة والإحسان إليهم لتعزيز مكانته بينهم وفي دار الخلافة، وقد عين نائباً له لإدارة شؤونها وأطلق عليه لقب وزير، وهذه أول

(١) سمط النجوم العوالي: ج ٤ ص ٤٤٣، ومنائح الكرم: ج ٤ ص ١٢٣ و ١٤٠، وتاريخ مكة المكرمة في عهد الأشراف آل زيد، لمسعود محمد آل زيد: ص ٧٥ و ٨٥، وحكام مكة، جيرالد دي غوري: ص ١٥٤-١٥٦، وتاريخ مكة: ص ٣٦٧-٣٧١، والجامع اللطيف في أخبار مكة المشرفة والبيت الشريف، ابن ظهيرة: ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٢) سمط النجوم العوالي: ج ٤ ص ٤٧٩، وتحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، عبد الله محمد البسام: ص ١١٤-١٢٧، وعقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، محمد باعلوي: ص ٣٤٠، ومنائح الكرم: ج ٤ ص ١٦٧-١٨٧.

مرة يذكر فيها المؤرخون وجود وزير لأمير مكة في المدينة يدير شؤونها.

وشهد القرن الحادي عشر الهجري صراعاً كبيراً بين شرفاء مكة على إمارتها انعكس على العلاقة السياسية بين مكة والمدينة، فقرر الخليفة العثماني محمد الرابع إنهاء هذا الصراع بإبعاد المتصارعين جميعهم عن الإمارة وتولية الشريف أحمد بن زيد[١] الذي اهتم بتوطيد الأمن وكسر شوكة القبائل العاصية التي تهدد القوافل والمدينة المنورة، وفي مطلع القرن الثاني عشر رجعت الصراعات على الإمارة عندما توفي أميرها في أواخر عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م، ثم انتهوا إلى تولية الشريف أحمد بن غالب[٢]، غير أنه ما لبث أن حدثت نزاعات حتى إن المدينة المنورة تأثرت بتلك الاضطرابات اقتصادياً، أما سياسياً فلم يشارك أحد من أهلها في تلك الصراعات حتى لا يحدث ردة فعل لعزل شريف وتولي آخر، وعندما تولى الشريف سعد[٣] إمارة مكة للمرة الثالثة عين أخاه محسن بن زيد نائباً له في المدينة المنورة، فوصلها في مطلع عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٦م وتولى إدارة الأمور عن أخيه، وأطلق عليه لقب الأمير، وكان هذا اللقب قد غاب عن المدينة المنورة، وحل محله لقب الوزير منذ أن عين الشريف بركات أحد وزرائه في إدارتها[٤].

ولما تولى إمارة الحجاز الشريف عبد الكريم بن محمد بن يعلى عام ١١١٦هـ/

---

(١) سمط النجوم العوالي: ج ٤ ص ٥٦١-٥٧٣، وإفادة الأنام: ج ٣ ص ٤٤٩-٤٥٥، و خلاصة الكلام، أحمد بن زيني دحلان: ص ٩٤ و ١٠٧، وإتحاف فضلاء الزمن: ج ٢ ص ١٢٩-١٣٥.

(٢) إفادة الأنام: ج ٣ ص٤٤١-٤٤٢ و ٤٥٩، وخلاصة الكلام: ص ٩٤، وإتحاف فضلاء الزمن: ج ٢ ص ١٤٤-١٥٧)، وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: ج ١ ص ٤٤٦-٤٤٧، وجداول تاريخ أمراء البلد الحرام: ص ١٦٦.

(٣) تاريخ أمراء البلد الحرام: ص ٢٤٣-٢٤٤، وتاريخ مكة: ص ٣٧٤ و ٣٩٨-٣٩٩، والإشراف على تاريخ الأشراف: ص ٣٩٥ و ٤١٢، والجامع اللطيف في أخبار مكة المشرفة والبيت الشريف: ج ٢ ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٤) سمط النجوم العوالي: ج ٤ ص ٥٤٦-٥٤٧، وخلاصة الكلام: ص ٨٠-٨١، والإشراف على تاريخ الأشراف: ص ٣٨١-٣٨٥، ومنائح الكرم: ج ٥ ص٥٧-٧٦.

١٧٠٤م[١] بعد سلسلة من الصراعات، وثبت بمرسوم من الخليفة العثماني في السادس من شعبان ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م، أخذ يرتب شؤون إمارته وألغى منصب الأمير في المدينة، وأعاد مسمى الوزير، وعين وزيراً للمدينة المنورة السيد أحمد بن محمد بن دده[٢]، لكنه ظلم وتعدى الحدود فعزل، وإزاء هذه الأحداث المضطربة تجمعت قوى من أعيان أهالي المدينة المنورة وكونوا جماعة يطلق عليها «جماعة العهد» يمثل هذا الجمع ردة الفعل الطبيعية لتردي الأوضاع والفساد الإداري، كما أنه يمثل درجة عالية من الوعي في أهل المدينة، ومن الإحساس بضرورة تدخلهم في الأحوال التي يصنعها الآخرون، لكن تلك الجماعة أجهضت مع أول مواجهة لها مع الأحداث، وخاصة عند فتنة الأغوات[٣]، وكان نهايتها قتل المنتسبين لها، وكان منهم عبد الكريم البرزنجي[٤] حيث سيق إلى جدة وشنق هناك، قرب سوق

---

(١) إفادة الأنام: ج ٣ ص ٥١٧-٥٢٢ و ص ٥٦١-٥٦٦، وخلاصة الكلام: ص ١٣٧-١٦٦، ومنائح الكرم: ج ٥ ص ٣٢٣، وتاريخ مكة: ص ٤٠٣-٤٠٦.

(٢) تولى وزارة المدينة المنورة، وحكم وظلم وتعدى الحدود، فمن جملة ذلك أنه قتل رجلين صالحين: أحدهما سندي، والآخر صالح العمودي اليماني لأجل الدنيا ظلماً وعدواناً، فأصدر الحاكم الشرعي حكماً بقتله قصاصاً بالسر، وذلك سنة ١١٢٠ هـ. (تحفة المحبين والأحباب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، عبد الرحمن الأنصاري: ص ٢٢٥-٢٢٦).

(٣) حدثت فتنة الأغوات في عهد الشريف مبارك بن أحمد بن زيد، وذلك أن رجلًا من توابع الأغوات أراد الانخراط في سلك الجندية فرفض رجال الحامية، فثارت الفتنة وتحصن الأغوات بالمسجد الحرام، فأراد قاضي المدينة الصلح لكنهم أبوا الحضور للمجلس، فاعتبرهم القاضي عصاة وقاتلهم، ثم أرسلهم إلى شريف مكة مبارك بن أحمد بن زيد، فثبتت إدانتهم، فبعث للخليفة، فجاءت الموافقة بعقوبتهم ونفي الآخرين. تاريخ أشراف الحجاز: ص ٤٧-٥٠.

(٤) نسبة إلى بيت البرزنجي، وبرزنجة بلدة مشهورة في بلاد الأكراد، وكان السيد عبد الكريم خطيباً في المدينة المنورة سنة ١١١١هـ/ ١٦٩٩م، توفي شهيداً مقتولًا صَبْراً ببندر جدة، قتله باكير باشا بموجب فرمان ورد من الدولة العلية بسبب فتنة العهد سنة ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م. تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب: ص ٨٧-٨٨، وتاريخ مكة: ص ٤١٧، سمط النجوم العوالي: ج ٤ ص٥٧٧.

جدة، وطرحت جثته آخر النهار، وسميت الحارة التي شنق فيها بحارة المظلوم[١] نسبة إليه، وما زال هذا الاسم قائماً حتى اليوم.

وفي سنة ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م كثرت الفتن وازدادت بين العساكر، وتركت ضغائن في النفوس، واصطدموا في عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م ثانية مع عساكر القلعة، فأحدثوا فتنة كبيرة تسببت في قتل بعض العساكر والاعتداء على دار المفتي في المدينة المنورة عبد الله بن أسعد أفندي[٢]، ولكن لم يتدخل نائب الأمير ولا الأمير الشريف مسعود بن سعيد في هذا الحدث الكبير، وهذا إنما يدل على غياب السلطة الفعلية القادرة على ضبط الأمن ومعاقبة المسيء[٣].

وتوالت تلك الأحداث إلى أن عينت الدولة العثمانية أحمد شاهين باشا[٤] والياً على المدينة سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م، الذي استطاع أن يوقف الصراع بين العساكر ويوقف تعدياتهم المتكررة، وضبط الأمن، إلا أنه لم تطل مدته، فقد نقل إلى مكان آخر وخلفه عثمان باشا، فتوفي بعد مدة وجيزة، فعهدت الدولة إلى

(١) سميت حارة المظلوم، نسبة إلى عبد الكريم البرزنجي، وتقع في سوق جدة -جدة القديمة- وهي موجودة إلى الآن.

(٢) والده السيد أسعد أفندي مفتي المدينة المنورة، قدم المدينة المنورة للعبادة وطاعة الله تعالى، وبرع في العلوم حتى فاق أقرانه، وكان من أولاده: السيد عبد الله، ومولده في حدود سنة ١٠٩٠هـ/ ٦٧٩م، وقد نشأ نشأة صالحة، وجد واجتهد في طلب العلوم، وكان يدرس بالمسجد النبوي، وامتحن كثيراً من الأشرار، وتولى منصب الإفتاء أيضاً في المدينة المنورة، وتوفي سنة ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م، في المدينة المنورة عُقيب الحج. تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، ص ٣٥، ٣٧، مؤلف مجهول، تراجم أعيان المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري، تحقيق: محمد التونجي، جدة، دار الشروق، ط ١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٤٢، إتحاف فضلاء الزمن (٢/ ٢٠٤).

(٣) تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، ص ٣٧، تاريخ أمراء البلد الحرام، ص ٢٨٨، تاريخ أشراف الحجاز، ص ٤٢، ٥٢.

(٤) أحمد شاهين باشا، ذكره عبد الرحمن الأنصاري، تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، ص ٣٧.

(كتخدا)[1] القلعة أن يقوم مقام الوالي، فعاد الاضطراب من جديد، ولم تقتصر الفتن هذه المرة على الصدام بين الفرق العسكرية، بل حدثت فتن داخل الفرقة الواحدة، الأمر الذي يظهر ضعف الانضباط وعدم وجود ولي أمر حازم، ومرت السنوات على هذه الأوضاع المتردية إلى عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م بعد القتال الدامي بين الشريف سرور وعساكر القلعة في المدينة المنورة[2].

---

(١) كتخدا: هو الوكيل عن الباشا، ويعينه السلطان برتبة صنجق ويتغير بتغير الباشوات، وقد حرفه الاستعمال إلى «كخيا»، موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، أو السلطان عبد الحميد، ص ٤٥٩.

(٢) تاريخ مكة: ص ٤٤٤-٤٤٧.

الفهرس